مناقشات وردود

الناشر . **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون . ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب . ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ٩٤/١٠٨٥٥
الترقيم الدولى: 2 - 178 - 270 - 977
جمع . **محمد الحانجى**
العنوان: ١١ شارع عبد العزيز
ت: ٣٩١٥١٤٨
تجهيزات فنية : **آر ـ تك**
طبع . **آمون**
العنوان: ٤ عطفة فيرور ـ متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ ـ ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى: ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م

مناقشات وردود

بقلم

الكاتب الإسلامي الكبير

محمد فريد وجدي

جمعها وراجعها وقدم لها

الدكتور محمد رجب البيومي

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

إيضاح

أشار عليّ أخي المحقق الكبير الأستاذ محمد محمود حمدان أن أختار من ثمار الأستاذ محمد فريد وجدى ما يشبع رغبة القارئ المتعطش ، بعدما قدمت من آثاره ما صادف ارتياح الكثيرين ، فخطر لى أن أختار بعض مقالاته النقدية التي فنّد بها كثيرا من الأراجيف الدائرة حول السيرة النبوية ، وشريعة الإسلام ، وتاريخ الأمّة ، وهي من الكثرة بحيث تغرق الباحث فى بحر خضم ، فعمدت إلى اختيار ما يسدّ حاجة ماسة لدى قراء اليوم ، إذ لا تزال بعض هذه الأراجيف تجد صداها لدى من لا يتعمق البحث مكتفيا بالشائع المتردّد دون فحص ، ورأيت أن أقسم المختارات إلى أغراض متقاربة . فأبدأ بما فنّد به الأستاذ آراء ذوى الاستشراق حول السيرة مثنّياً بما فتح الله به عليه فى الرد على شُبَهٍ ظالمة حاقت بتعاليم الإسلام ومبادئه ، ومُثَلِّثًا بالمساجلات العلمية التى دارت على صفحات مجلة الأزهر بين الأعلام من أساتذته ورئيس التحرير ، وكل من الفريقين ينشد الحقيقة ويجلّيها وفق ما يهتدى إليه ، وكان من اللائق أن أنقل مقالات هؤلاء وتعقيب الأستاذ عليها ؛ ليجد القارئ نفسه أمام تيّارين متقابلَيْن ، ولم أنقل جميع ما دار ، مكتفيا ببعض عن بعض ؛ إذ تعرضّ الفريقان إلى تكرار دعت إليه حاجة الأمس ، وبمناسبة هذا التكرار أقول : إن الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى قد اضطر إليه كداعية ملتزم يجد الشبهة التي فنّدها لا تزال دائرة على أقلام مَن لم يروا نقده السالف فيعيد الكرّة ثانية ، ولا ضير فى ذلك بالنسبة للقارئ الجديد ، ولكنّى أجد من الضرورة أن أتجنب هذا التكرار فيما أختار .

وقد ختمت المختارات ، بنقدات شافية وجّهها المتسرعون من كتّاب العرب دون تعمق ، وسارع الأستاذ بتصويب الخطأ ، وتصحيح الشذوذ ، كعهده الدائم ، أما طريقته فى المجادلة ، فسأتحدث عنها بإفاضة فيما يلى هذا الإيضاح تحت عنوان (مناقشات وردود) .

د . محمد رجب البيومى

بين يدى الكتاب

محمد فريد وجدى
العلامة الموسوعى الناقد

بقلم الدكتور محمد رجب البيومى

تمثلت العصامية العلمية فى شخص الكاتب الكبير المغفور له الأستاذ محمد فريد وجدى تمثّلاً رائعا ، يدعو إلى الالتفات ، فقد اتجه بنفسه إلى تحصيل معارف كثيرة تيسرت له دون تلقين وتوجيه ، حتى أصبح بها علما من الأعلام البارزة فى دنيا الأدب والثقافة .

وقد نال فى حياته شهرة فائقة جعلت مؤلفاته الكثيرة تطير فى آفاق العالم الإسلامى ، وتترجم إلى عدة لغات شرقية وغربية ، ثم ذهب إلى ربه فلم ينهض منْ تلاميذه الكثيرين من يكتب تاريخه الحافل بالمجد والرفعة ، وكأنه لم يكن ملء البصر والسمع فى دنيا تتحيف المجاهدين وتتناسى العاملين .

كان الأستاذ وجدى صاحب رسالة هامة يكرّس فى سبيلها جهده ، ويبذل فى تبليغها قوته وماله ، فلم يكن يتخذ من الكتابة الأدبية مجالا لِلتزيُّد والمباهاة ، ولكنه وضع أمامه هدفا مرموقا يجهد فى الوصول إليه .

فقد رأى الإسلام لعصره غرضا تتجه إليه السهام ويتناوله أعداؤه بالافتراء والتشكيك .

أما أنصاره فقد أضافوا إليه من الخرافات والغرائب ما ضاعف محنته وأعان الموتورين عليه من ذوى الأهواء ، وتلك محنة أليمة ! تتطلب النجدة المسعفة والكفاح المرير ، والعدة الناجحة فيها مثابرةٌ على البحث وجلد فى الدفاع ، ويقين ثابت لا تعتوره الشكوك ، وإخلاص ملهم يمده العقل الثاقب والاطلاع الغزير ، وقد تهيأ ذلك كله للأستاذ العلاّمة ، فتجرد لكفاحه النبيل وأصدر الكتب المتتابعة ، وأنشأ الصحف والمجلات المتعاقبة ، وسارت الأيام بأبحاثه وآرائه حتى أصبحت آثاره العلمية ملاذاً يعتصم به الإسلام فى مهب الزعازع .

على أن الشك الدينى لدى الأستاذ فى نشأته الأولى قد هيأ له هذا القدر الهائل من الثقافة ؛ إذ تعرّض فى صباه اليافع إلى هواجس عاصفة ، زعزعت يقينه وكدرت أفقه – كما سجل ذلك على نفسه – وتطلب الإفادة ممن حوله من العلماء الرسميين فما وجد شيئا ذا غناء ، فاندفع فى قراءاته الشاملة يستوعب ويتعمق ، وينتقل بين المعارف الكونية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والدينية ، حتى انكشفت له حقيقة ناصعة ، تسجل عظمة الإسلام ورفعته ، وتؤكد مطابقته لأرق الدساتير المنطقية التي يتقيد بها العقل السليم ، فما من فضيلة تدفع إلى رق البشرية وإصلاح الكون إلّا تجد دعامتها الوطيدة فى قواعد الإسلام ومبادئه ، فكيف يرمى بالجمود القاتل بغياً دون علم ! لابد من دفاع مقنع يكشف اللثام عن الحق الصريح .

وفى هذا الميدان الشاسع انطلق الكاتب الغيور يلقى حججه ، ويؤكد قضاياه ، وقد وجد أكثر هذه الشبهات الظالمة تفد من الغرب ، فتسرى بين المسلمين سريانا مدمرا عاصفا ، فألّف بالفرنسية كتابه عن : « المدنيّة والإسلام » ليطلع القوم فى أوربا على ما تضمنته الشريعة الإسلامية من مُثُل فائقة تدفع إلى الحضارة والعمران ، وتهيىء للإنسانية وسائل الأمن .

وقد نص فى مبدأ كتابه هذا على : أنّ الأوربيين معذورون فى تصديق التهم ضد الإسلام والمسلمين ، « ولهم الحق فى العمل ضدهما ما داموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين غير البدع التى اخترعها صغار العقول ، وزادوا أشكالاً من الأوهام والأباطيل تنفر منهم الطباع البشرية وتنافى أصول المدنية » .

وقد نُقل هذا الكتاب – أعنى المدنيّة والإسلام – إلى اللغة العربية ، فقرأ المسلمون صحيفة صادقة عن دينهم المفترى عليه .

ومع أنه ألف الكتاب فى سن العشرين فقد أعجب به كثير من منصفى الغرب والشرق ، حتى جعله الدكتور تشارلز آدمز قرينا لكتاب الأستاذ محمد عبده : « رسالة التوحيد » إن لم يزد عليه فى الشمول والاستقصاء !!

وقد كانت مصر فى مطلع هذا القرن ذات حاجة ماسة إلى ذخيرة وفيرة من المعارف الإنسانية فى شتى العلوم الحديثة ، فليس بها من المؤلفات العصرية

ما يسد فراغا هائلا يوحى بالجهالة الأمية ، وينذر بالتقهقر السريع إلى عصور الظلمات ، فعكف الأستاذ وجدى على إصدار دائرة معارف القرن العشرين فى عشرة مجلدات ضخام ، وأعد لها مطبعة خاصة تخرج على الناس بإنتاج الكاتب وحده لا شريك له !!

وإذا علمنا أن هذا العبء الثقيل لا ينهض به فى أمم الغرب غير الجماعات المتنوعة واللجان المختصة ، ممن يقضون أعواما طوالا متساندين فى البحث الدائم والاطلاع الجاهد ، حتى يصدروا إحدى دوائر المعارف فى ثقافة واحدة عن أمة واحدة ، ثم تقام لهم حفلات التكريم ، وتتقاطر عليهم أوسمة التقدير ، ويمنحون على الفور أرفع الدرجات الفخرية فى الجامعات العريقة !!

إذا علمنا ذلك ورأينا الأستاذ وجدى ينهض بالعبء المرهق فيقوم به فى مدى عشرة أعوام على أحسن ما يستطيع ، ويقدم للغة العربية وحده مكتبة حافلة ، تضم شتى المعارف الإنسانية من قديمة وحديثة ، فإننا نتساءل كيف وجد من الأعصاب القوية والعزيمة الماضية والاطلاع المتشعب ما هيأ له النجاح دون أن يطمع فى مأرب مادى ، أو يتعلق بجاهٍ أدبى ، مكتفيا بما يستشعره من سعادة نفسية ، إذ يشارك فى بناء الثقافة الحديثة ويمهد لأمته طريق المعرفة والدراية .

ومهما قيل من أن دوائر المعارف تستنفد أغراضها لأجل محدود ، فإن بها من التراث الفكرى ما يكفل لها البقاء التاريخى وإن غيرت المكتشفات الحديثة شيئا من مقرراتها المؤكدة ، أو أضافت إليها من الشرح ما يسير بها إلى الكمال المنشود ، فذلك من شأن الحياة ، ولن يعفّى على جهد كادح وإنتاج خصيب !!

والحق أن نجاح الأستاذ وجدى فى أبحاثه يرجع إلى اعتزازه برسالته ، وعمله فى الحقل الطبيعى الذى كونته ميوله واتجاهاته عن عقيدة وإيمان ، فهو قد نصب نفسه مجاهدا عن الحقائق الإسلامية ، لا يترك مجالا للحديث دون أن يسهم فيه بأوفى نصيب .

وقد ظهرت لعهده طائفة كثيرة من الكتب البراقة لأقلام لامعة نشيطة تحارب الفكرة الإسلامية ، وتصادف ارتياح الأغمار ممن لا يفيئون إلى دراسة واسعة أو تفكير مستقيم .

وما أكثر من يصفق للجديد دون روية أو تبصرّ مهما تكشفت مثالبه واتضحت سوءاته .

ولكن فريدا يقف بقلمه الجبار أمام ما يخرجه هؤلاء جميعا ، فيتلقى الكتاب الذائع بالنقد الصائب والتفنيد السديد ، وطريقته النقدية تدعو إلى الإعجاب والعجب معا ، إذ لم يسمح مرة ليراعه أن ينال شخوص ضحاياه على كثرتهم الغالبة ، بل اتجه إلى الآراء وحدها ، يعرضها كما ذكرها أصحابها فى أمانة وإحاطة ، ثم يدفع بالتى هى أحسن ، دفع المحيط الواثق دون أن تأخذه نشوة الفلج ، فيكيل لصاحبه ما يند عن آداب البحث ومقتضيات اللياقة ، بل إنك تراه يؤيد ما يتفق مع وجهة نظره تأييدًا يغمره بالثناء والإطراء ، فلا تدرى أأنت أمام مهاجم أم مدافع ! .

ولو سلك الناقدون مسلك فريد فى ردوده لضاق نطاق الجدل فى أقصر زمان ومكان ، وهيهات ! فإن التربية الحصيفة التى أرضعت الكاتب فى مهده الأدبى لا تتاح لغير القلة من النبلاء !!

وقد تواضع كبار الكتاب على أن يهملوا آراء من لم يبلغوا مكانتهم الأدبية من الشبان ، فلا تجد أديبا كبيرا يناقش كاتبا مغمورا يتسنم الدرجات الأولى فى سلم إنتاجه ، ولكن الأستاذ وجدى يشذ عن هذا الترفع الأدبى المتداول ، فيتناول جميع ما يصدر فى ميدانه الإسلامى أيا كان كاتبه ، ثم يسلك فى نقده مسلكه مع ذوى الذيوع والصيت ، وتلك إحدى فضائل الرجل النفسية ، ولها دلالاتها الأكيدة على مقومات سلوكه دون نزاع .

وقد لمس حاجة عصره إلى تفسير مناسب يقرب كتاب الله من الأذهان ، إذ أن التفاسير المتداولة تتيه بالقارئ فى أودية من العلوم : عربية وفقهية ومذهبية ، فتنأى به عن الروح الحى المتألق فى كتاب الله ، لذلك نهض بواجبه فى التفسير نهوض من يدرك أهمية عمله ، فذاع تفسيره الموجز ، وترجم إلى لغات كثيرة ، وتناقله جمهور المسلمين فى شتى بلادهم النازحة شاكرين .

ولعل من السار المبهج أن تجد ثلاثة من علماء مصر تترجم أكثر مؤلفاتهم إلى جميع لغات بنى الإسلام ، وهم فريد وجدى ، وطنطاوى جوهرى ،

ومحمد رشيد رضا ، فاكتسبوا شهرة إسلامية تجعلهم فى طليعة علماء كل دولة تعتنق الدين الحنيف !!

ولم يغفل محمد فريد وجدى حق مصر عليه ، فقد كافح فى مضمار السياسة ، إذ أصدر صحيفة « الدستور اليومية » لتكون منبر الوطنية الصادقة فى عهد الاحتلال ، وقد تعرض إلى هزات عنيفة دفع إليها تمسكه بمبدئه الصريح ، فقد وقف الخديوى عباس منه موقفا قاسيا حين رفض الأستاذ أن يجعل صحيفته مطية لحزب تركيا الفتاة ، إذ رغب إليه صاحب القصر أن يمحو شعارها الرسمى « لسان حال الجامعة الإسلامية » لتتجه إلى تأييده فكرة إدماج العرب فى القومية التركية !! .

ومع ما بذل من عروض سخية فى الجاه والمال فقد أصر صاحب الجريدة على شعارها الدائم ، وحاربته الدولة بمضايقاتها الكثيرة ، فاضطر إلى تعطيل صحيفته وهو مستريح الضمير لموقفه الصحيح .

ولا ننسى أنه قبل ذلك أيد السيد توفيق البكرى فى موقفه من عباس ، إذ أصر شيخ مشايخ الطرق الصوفية على منع أتباعه من الاحتفال بالمحمل ، والسير وراءه كما جرت به العادة ، متحديا رغبة الخديو فى ذلك ، ونهض الأستاذ فريد وجدى ليعلن رأى الدين فى هذه البدعة ، معارضا كل ما قيل فى تبريرها من أوهام وملفقات ، حتى انتصر الكاتب الجرىء فى إيضاح الحق ، وأبان عن موقف الدين الصحيح دون خشية أو اكتراث .

أما خلافه السياسى مع مصطفى كامل ، فقد نشأ حين أصر الزعيم الشاب على توجيه خطاب سياسى إلى وزير خارجية بريطانيا فى شأنٍ ما من الشئون الهامة ، ورأى الأستاذ وجدى أن يوجه هذا الخطاب إلى جميع وزراء الخارجية فى أوروبا ، كيلا يكون ذلك اعترافا من الحزب الوطنى لانجلترا بمركزها السياسى فى مصر ، وبسط الكاتب وجهة نظره فى مقالين كبيرين ، فانصرف أتباع الحزب الوطنى عن جريدته ، ولكنه أعلن رأيه السياسى غير ملتفت إلى ما سيكون من الكساد والبوار مما سنشير إليه بعد حين ، ولا نكاد نجد نظيرا لفريد وجدى فى حرية الرأى من رجال الصحافة غير الأستاذ أمين الرافعى ، فكلاهما كان يتمسك دائما برأيه هازئا بما يعترضه من الصعاب ، رحمهما الله .

هذا وقد اتجه الأستاذ وجدى إلى الأبحاث الروحية ، فأصدر مجلة خاصة بها ، وأفرد لها أجزاء متتابعة من مؤلفه القيم « على أطلال المذهب المادى » ، وقد اتخذ منها حجة قوية يحارب بها من ينكرون الحقائق الغيبية فى عالم السموات والأرض ، وساعدته الاستكشافات الأوربية فى هذا المجال مساعدة ناجعة ، فتابعها بلذة وشغف ، وأخذ يفسر ظواهرها ويعلل نتائجها ، حتى أصبح – فى اللغة العربية – فارسها المعلم وكاتبها الحصيف ، وقد أتاحت له ثقافته العميقة فى علوم النفس والاجتماع والفلسفة فيضا زاخرا من الحجج العقلية والأسانيد الكونية أكسب مقالاته قوة ومتانة ، كما أورثه تضلعه العريق فى اللغة العربية أسلوبا مشرقا واضحا يصل به إلى أهدافه الفكرية وصولا أخاذا لا ينقصه البريق والنصوع ، حتى قال عنه الأستاذ باول كراوس : أنه ملك كتّاب العرب على الإطلاق .

وقد صاحبت الأستاذ وجدى وجالسته ، فرأيته فى أخلاقه الرفيعة نبيا ملهما ، وما ظنك بإنسان يقوم لخادمه إذا دخل عليه مهما تعددت مرات دخوله ؟ !! ، فإذا سألته فى ذلك أجاب متسائلا : عن الفرق بينه وبين الزائرين من الأضياف !! .

ولن يحتاج قارئه إلى معرفة شخصيته ، فأسلوبه الجدلى ، وطريقة نقاشه ، ومذهبه الإصلاحى .. كل أولئك ينادى بمثاليته الرفيعة ، ويشق عن منازعه ، و« الأسلوب الرجل » كما يقال .

وقد كان فى سنيه الأخيرة رئيساً لتحرير « مجلة الأزهر » فرفعها إلى مستوى ثقافى مشرف ، وكتب بها فصولاً دسمة تذكرنا بفصوله الحية التى كان يتابعها فى الجرائد اليومية ذات الشهرة الواسعة ، « كالدستور ، والمؤيد ، واللواء ، والأهرام ، والجهاد ، والبلاغ » ، بل إن صاحب « كوكب الشرق » كان ينشر مقالاته فى صفحة « الأخبار المحلية » ليجتذب إليها أنظار القراء !!

ونحن نأمل أن يجىء اليوم الذى تجمع فيه هذه المقالات فى أجزاء متتالية لتؤدى رسالتها العلميّة على أوسع نطاق .

د . محمد رجب البيومى

مناقشات وردود

بقلم الدكتور محمد رجب البيومى

نرى كثيرا من المقالات المعاصرة تشذ عن آداب البحث والمناظرة ، بحيث تكون المجادلة حربا طاحنة يشعر القارئ بإزائها أنه أمام عدويْن لدوديْن ، ويكاد يلمس حرارة الجمر المشتعل فى الصدور ، فيشتهى أن يرى ضربا من النقاش يخالف ما يجده من استعار هذه الحومات المتَّقدَة ، ومن رحمة الله أن فَطَر قوْما من طراز آخر على ما يريده القارئ المنصف ، من إيثار الهدوء ، ومراعاة الآداب المثالية فى الاعتصام بالحق ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، وفى طليعة هؤلاء المفكّر الصوّال اليقظ الأستاذ محمد فريد وجدى ، إذِ امتشق القلم على مدى نصف قرن ليدفع الباطل عن الحق ، فكان لا يرى رأيا شاذا فى صحيفة يومية ، أو مجلة علمية ، أو كتاب ذائع إلاّ أوجب على نفسه أن ينقده فى ضوء الحقيقة المؤكدة بالدليل ، الناصعة بالبرهان مع احترام زائد لصاحب الرأى المخالف ، ولو أردتُ أن أتتبع هذه الصولات الظافرة فى الجرائد والمجلات الذائعة قرابةَ نصف قرن كامل يبتدئ من مطلع القرن العشرين إلى ما بعد منتصفه بسنوات ، لو حاولتُ أن أقرأ صحائف الأهرام والدستور واللواء والمؤيد والنظام وكوكب الشرق والسياسة والبلاغ والجهاد والأخبار (الرافعية) لألتقطَ ما هطلت به يراعة هذا الباحث الجاد لاحتاج الأمر إلى لجنة علميّة ذات أعضاء كثيرين ، وهذا بالنسبة إلى الجرائد اليومية ، فكيف بالمجلات المعاصرة كالمقتطف والحديث والهلال والمنار والسياسة الأسبوعية والرسالة والمعرفة والأزهر ونور الإسلام ، وما أصدره من مجلات خاصّة كالحياة ! إن الإلمام بذلك كلّه مما تنوء به العصبة أولو القوة ؛ لذلك أكتفى بتقديم نماذج دالّة مما نشر بمجلة الأزهر التى رأس تحريرها قرابة عشرين عاما متّصلة ! وهى فى مجموعها تنبئ عن الروح العلمية ، والاتجاه الخلقى فى إبداع هذا الكاتب الملهم ، ثم هى تدفع القارئ المتعطش إلى مراجعة أمثالها مما يستطيع العثور عليه فى شتى الصحف والمجلات العربيّة ، وقد نجد من الجادين من يحاول أن يقدّم كتبا أخرى فى هذا المجال ، وهذا ما أرجّحه ؛ لأن الله عز وجل لا يضيع عمل مخلص دائب جادّ ، فهو يجزى المحسنين ....

لقد قلتُ فى كلمتى التمهيدية عَنْ طريقة الأستاذ محمد فريد وجدى فى أسلوبه النقدى :

« إن المؤلف يتلقى الكتاب الذائع بالنقد الصائب ، والتفنيد السديد ، وطريقته النقدية تدعو إلى الإعجاب والعجب معا ، إذ لم يسمح ليراعه أن ينال شخوص ضحاياه على كثرتهم الغالبة ، بل اتجه إلى الآراء وحدها ، يعرضها كما ذكرها أصحابها فى أمانة وإحاطة ، ثم يدفع بالتى هى أحسن ، دفع المحيط الواثق دون أن تأخذه نشوة الفلج ، فيكيل لصاحبه ما يند عن آداب البحث ، ومقتضيات اللياقة ، بل إنك تراه يؤيد ما يتفق مع وجهة نظره تأييدًا يغمره الثناء والإطراء ، فلا تدرى أأنت أمام مهاجم أم مدافع ، ولو سلك الناقدون مسلك فريد فى ردوده لضاق نطاق الجدل فى أقصر زمان ومكان وهيهات ! فإن التربية الحصيفة التى أرضعت الكاتب فى مهده الأدبى ، لا تتاح لغير القلة من النبلاء » إنّ هدوء الأستاذ فريد وجدى فى حومة النقاش ، كان مثار دهشة معارضيه ، فقد يبدءونه بالقول القارص ، وينضحون عليه ما هو براء منه ، ثم يجدون الإغضاء التام عن كل ما يتصل بشخصه ، وهو أستاذ وهم تلاميذ ! فتأخذهم حيرة تردهم إلى محاسنته ، وفى غمار الجدل الذى نشب حول ترجمة معانى القرآن تعرّض نفر من المهاجمين إلى ما يشبه اللّغو البغيض ، إذ ذكر بعضهم أن الرجل لم يدرس فى الأزهر ، وأن البحوث الدينيّة لا تتاح لمطربش مثله ، وكان المنتظر من الأستاذ أن يكشف عوار هؤلاء ، جرياً مع قول الله ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) أجل كان المنتظر من الأستاذ مع من يرميه بالبعد عن المعرفة والثقافة أن يقول له ، ها هو ذا كتابى بيمينى فمن أنت ؟ ولكنه شاء لنفسه أن يرقى إلى أوج أفضل ، مستجيبا لقول الله عز وجل عقب النص السالف ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الشورى : ٤١ ، ٤٢

(٢) سورة الشورى : ٤٣

يعرف القراء حماسة الدكتور زكى مبارك ، واشتعال حرارته فى مصاولاته العلميّة ، وقد ناقشه الأستاذ محمد فريد وجدى ملتزما بسماحته المعهودة ، وقابل جمر الدكتور بماء سلسال ، فحار الدكتور فى أمره معه ، وأذكر أنه قال بصدد ذلك فى بحث نشره تحت عنوان (النباتيّون فى باريس) [١] .

« لقد جرّبت بنفسى أثر المعيشة النباتية فرأيتها خطرة العواقب ، لأنها تخمد جذوة الافتراس فى الإنسان ، واللحم هو أصل الافتراس ، أما النبات فيفطر آكليه على الوداعة واللين ، ولو شاء القط على نحافته لروّع الجمل على ضخامته ، لأن القط آكل لحم ، والجمل آكل عشب ، ولعل هذا هو السرّ فى أن الأستاذ محمد فريد وجدى [وهو نباتى كما نعلم] صار من ألْين الكتّاب قلماً ، فهو لا يجادل إلاّ بالتى هى أحسن ، ولا نرى فى كتابته جملة واحدة تحمل معنى من معانى العنف ، وقد جادلته مرات على صفحات البلاغ ، فكان لطيفاً رقيقا ، أما أنا فكنت أتلطّف وأترفّق ، والفرق بعيد بين من يرقّ ويلطف بالطبع ، ومن يتكلّف الرفق واللطف » .

ولعلّ أهم قضية ناقش فيها الأستاذ محمد فريد وجدى معارضه الدكتور زكى مبارك هى قضية النثر الجاهلى ، إذ ذهب الدكتور مبارك إلى أن النثر الجاهلى كان موجودا فى عصره ، والقرآن يمثّله لأنه نزل بلسان الجاهليين ، ولو لم يكن النثر – فى رأى الدكتور – محتفظا بالسمات البيانية التى جاء بها القرآن ما كان لهذا الكتاب الخالد تأثيره فى نفوس سامعيه وهم أعلام الفصاحة وأئمة البيان » .

هذا القول الخطير ، يدعو معارضه العادىّ إلى الانفعال إن لم يكن إلى التأزم ، ولكنّ الأستاذ وجدى جريا على هدوئه المتزن ، نظرَ إلى الناحية الموضوعية دون سواها ، فقال فى تؤدة ما فحواه [٢] .

« إن استدلال الدكتور زكى مبارك على وجود ذلك النثر الفنى عند العرب بالقرآن لا نزال نراه معلولا ، ولا يصح الإصرار عليه ، فإنه إن كان القرآن وحيا

---

(١) البدائع للدكتور زكى مبارك جـ ٢ ص ٢٤

(٢) جريدة البلاغ ١٨/١٠/١٩٣١ م

سماويا ، أو فيضا وجدانيا من أية طريق روحانية ، فلا يجوز الاستدلال به على أنّ لدى الجاهليين نثرا ، لانقطاع الصلة بين ما هو آلهى ، وما هو بشرى ، ولأن هذا الكتاب قد اعتبرته أمّة بأسرها كتابا معجزا للإنس والجن مجتمعين ، والشيء لا يعتبر آلهيا ومعجزا إلى هذا الحد إلا إذا كان فوق قدرة الذين يدينون بهذه العقيدة على الأقل .

كيف يُفترض أن يكون لفئام الناس من الأميّين نثر فنى ، وهو نقيض الكتابة والتعبير ، لو كان لهم شيء من ذلك لجعلوه كتابا يسجل عقائدهم ، ويحتفظون به ككل أمة متدينة ، وإذا عُدم هذا الكتاب فقد عدم النثر الفنى ، ولا يجوز السؤال عنه ولا البحث فيه » .

بهذا الهدوء المتزن وبأمثاله ، كان الأستاذ وجدى يفند آراء مخالفيه ، ومن أعجب ما نحار فيه ، أنّ الذين يسلكون هذا المسلك الجاد فى النقاش لا يحوزون انتباه الكثرة من القراء مهما كان المجال دقيقا ذا خطر ، أما الذين يتقاذفون بالسباب ، فيجدون من الصدى المجلجل لدى العامة ما يجعلهم موضع الحديث المتّصل ، مهما كان مجال النقاش سطحيا لا يتحمل اللجاج ! وهى معضلة تستوقف النظر . ولن نجد دواءها إلا حين ترتقى الأذواق ، وترتفع العقول .

أعترف أنى تكلّمت عن بعض مزالق النقد هنا ؛ لأقدم المثل التطبيقى المنشود فيما كتبه الأستاذ محمد فريد وجدى من نقود ، وليس ذلك بالشيء الهيّن ؛ لأنّ الحديث عن آداب النقد وأصوله نظرياً قد امتد فى رحاب الزمن منذ عهد بعيد . ولقد كان ظهور جورجياس فى عصر سقراط وأفلاطون أكبر داعٍ لتحديد اتجاه النقد الصحيح ؛ لأن جورجياس قد ادّعى أن الجدل سفسطة ولجاجة ، إذ ليس المهم فى منطقه أن تبحث عن الحقيقة ، بل المهم أن تخدع السّامعين بوجهة نظر باطلة أو صائبة ، فليست العبرة بالصّحة ، بل بالاستطالة الخطابيّة وإن ارتكنت على الباطل الصريح ، ولئن وَجَد هذا الاتجاه مَن يزدريه ويحطّمه ، فقد وجد أيضا من يحتذيه ويتبعه ، وفى محاورات أفلاطون ما يحطمه حطما ، ولكنّ ذلك كلّه تعليم نظرى يقف دون التطبيق الصريح ، ومن نماذج

هذا التّطبيق ما نقدمه من فصول الأستاذ وجدى ، فإذا سألت عن عنصرها الخالص فهو الصدق مع الحقيقة التى يعتقدها الناقد ، وقد يكون الناقد فى بعض أحواله غير مصيب ، ولكنه لا يتعمد الخطأ ، وإنّما وقع فيه كبشرٍ لم يصلْ إلى أوج الكمال ، والفرق بعيد بينه وبين من يعلم فساد اتجاهه ثم يدافع بحرارة المصلح المؤمن ، وأمثال هذا النمط كثير ...

لقد أُسنِدَتْ رئاسةُ تحرير مجلة الأزهر إلى الأستاذ محمد فريد وجدى بعد أن قام على تحريرها الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ردحا من الزمن ، وكان من ديدن الخضر رحمه الله أن يتعقب الآراء الشاذة فى المؤلفات العربيّة ليرد عليها بلسانه المبين ، لأن من أهداف المجلّة أن تقوّم المعوجّ ، وأن ترشد الضال ، فلما تولى الأستاذ وجدى امتد ببصره إلى ما يفد من أوربا من أفكار مناوئة ، عالماً أن هذه الأفكار تقع فى متناول الكثيرين ممّن لا يميزون بين الخطأ والصواب ، ولابدّ أن تقوم المجلّة بمحاصرة هذه الآراء المغرضة فى أكثر اتجاهاتها ، لذلك وجدنا مقالات الأستاذ وجدى النقديّة تهدف أول ما تهدف إلى نقض هذه الأراجيف ، ومتابعتها فى دقه واستيعاب ، والرجل بنور بصيرته يعرف مَن انحرفَ عن قصدٍ ومَن انحرفَ عن غرض ، ولكنه لا يعنف بأحد . بل يمهّد للنقد بإيجاز ما سيعترض عليه إيجازًا لا تنقصه الدقة ، ولا يتطرّق إليه الخلل ، ثم يعقب على كل فقرة بما يبيّن انحرافها المخطئ فى هدوء نفس ! مع أن بيْن ما تعرّض لَه الأستاذ وجدى من التهجم السفيه ما يضيق به صدر الحليم ، ولكنه يعتصم بالحلم ، ملتمساً العذر لمن لم يقرأ ، أو من قرأ سريعا ولم يلم بالبواعث والملابسات ، وسنلم بأمثلة سريعة تكشف ما نعنيه حين نضرب المثل بهذه البحوث فى نزاهة القصد ، وعفة القلم ، وأمانة الاستدلال .

وإذا تعددت مناحى النقد باختلاف المنقود ، فإننا – فى مجال التمثيل – سنقدم مثلا أول من مناقشة الأستاذ لمفكرّى الغرب ، ومثلا ثانيا لتعقيباته على بحوث المجلّة التى يرى فيها ما يوجب التعقيب ، ومثلا ثالثا لما نقده من انحراف فى كتب مستقلة لاقت الرّواج دون تمحيص ، وفى ذلك ما يوضح اتجاهه النقدى تمام التوضيح .

سأختار مناقشته للفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون لنقدم النموذج النقدى فى مصاولة الفكر الغربى ، والأستاذ جوستاف لوبون موضع تقدير الناقد لأنه اعترف بمزايا الحضارة الإسلامية ، ووضعها موضعها الصحيح ، فحاز قبول المنصفين ، ولكنه أخطأ فى تعليل ما تعرّض له من الأحداث التاريخيّة ، وقد تُرجم كتابه إلى عدة لغات ذائعة ، وفازت اللّغة العربية بأكثر من ترجمة ، لأكثر من مترجم فى عدة طبعات ، وبذلك أصبح الكتاب فى متناول الجمهرة من القراء ، وقد تحدث لوبون عن الفتح الإسلامى بما يُرضى ويقنع ، فقال فيما قال [١] :

« ورحمة العرب الفاتحين وتسامحهم ، كانا من أسباب اتساع فتوحهم ، واعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التى رسخت وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتى توارى سلطان العرب عن مسرح العالم وإن أنكر ذلك المؤرخون ، وتعدّ مصر أوضح دليل على ذلك ، فقد انتحلت مصر ما جاءها به العرب ، وحافظت عليه ، ولم يستطع الفاتحون الذين سبقوهم إليها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها ، وأن يحملوها ما أتوا به » .

وقال الدكتور لوبون فى موطن آخر [٢] « إن الأمم التى فاقت العرب تمدّنًا ، قليلة إلى الغاية ، وإن ما حققه العرب فى وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة ، وإن العرب أقاموا دينًا من أقوى الأديان ، التى سادت العالم ، ولا يزال الناس يخضعون لها ، وإنهم أنشئوا دولة تعد من أعظم الدول التى عرفها التاريخ ، وإنهم مدّنوا أوربا ثقافةً وأخلاقا ، وإن الأمم التى سمت سموّ العرب ، وهبطت هبوطهم نادرة ، وإنه لم يظهر كالعرب شعب يصلح ليكون مثالا بارزا لتأثير العوامل التى تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها » .

هذان مثالان من أمثلة تنحو هذا المنحى فيما كتبه لوبون عن حضارة العرب ، وقد وقف الأستاذ وجدى حائرا أمام صاحب هذه الاعترافات

---

(١) مجلة الأزهر – المجلد السابع عشر ، سنة ١٣٦٥ هـ ، ص ١٠٤

(٢) مجلة الأزهر – المجلد المذكور ، ص ١٠٦

كيف يخطئ التعليل لما تحدث عنه من النتائج الباهرة للفتح الاسلامى ، وقد عبّر الناقد عن شعوره هذا حين قال [١] :

« يشق علينا أن نقف موقف المعارضة من كاتبٍ مثلِ هذا الكلام ، ولكنّ مصلحة الدين الذى ندين به بلْ مصلحة العلم نفسه تقتضيه ، فإنه إن كان أنْصَف المسلمين باعتبارهم أمّةً فإنه ظلم الإسلام باعتباره دينا ، فإنه فى اليوم الذى يثبت فيه أن لقيام الدولة الإسلامية وتبسّطها فى الأرض عللاً طبيعية ، وأسبابا مادّية ، تسقط حجة المسلمين فى إلّهية الدين الإسلامى ، فإن معجزته الخالدة وآيته الكبرى أنه أوجد أمّة من العدم ، وأنه ربّى نفوسها فى ربع قرن تربية لم تبلغ شأوها العلل الطبيعية فى قرون كثيرة ، ثم دفع بها فى مجال الحياة الاجتماعية فبلغت فيه درجة الزعامة فى كل شأن من شئون الحياة الإنسانية ، ولا يزال فيها من قوة الروح وسمّو المبادئ . وعوامل التطوّر ، ما يدفعها لاسترداد مكانتها الأولى بين أرقى الأمم المعاصرة لو عاودت العمل بمارستْه لها شريعتها من الأصول الأولية » .

ويلتمس الأستاذ وجدى لصاحبه العذر قائلا [٢] « الدكتور جوستاف لوبون معذور فى سلوكه هذا المسلك لأنه كأكبر مفكرى القرن التاسع عشر متشبّع من الفلسفة المادية التى لا تذهب إلى ما وراء العالم المحسوس فى سبيل تعليل أى ظاهرة من ظواهر الوجود المادىّ ، فلا يستطيع وهذه حالته النفسيّة أن يبحث فى شيء إلاّ تحت هذا البصيص من ضوء الفلسفة الماديّة » .

والناقد هنا أمام فيلسوفٍ مَادىّ ، يدرك النتائج الحاسمة فيقرّرها فى نزاهة وحيدة ، ولكنه يخطئ فى تعليلها ، والرد الطبيعىّ أنْ يتّجه إلى هذه التعليلات فيوضح مكان الخطأ منها ، ويدلى بالتعليل الصحيح فى رأيه ، وهذا ما فعله الأستاذ وجدى فى هدوء متريث لا يعرف الضجيج .

---

(١) مجلة الأزهر – المجلد السابع عشر ، سنة ١٣٦٥ هـ ، ص ١٠٦

(٢) الصفحة نفسها من المجلد المذكور

لقد وقف الفيلسوف الفرنسى أمام أحداث خطيرة يحاول تعليلها ، أوّلها قيام دولة قوية فى مدة وجيزة مجموعة من قبائل متنافرة متحاربة ، ثانيها اندفاع هذه الدولة الحديثة فى فتوح شاسعة تكللت بالنصر الساحق فى أقل من ثمانين سنة ، ثالثها إقامة حكومة مركزية حكمت البلاد المفتوحة بعدلٍ لم تره من حكوماتها الوطنية ، رابعها إقبال المسلمين على العلم والأخذ بأساليب المدنية حتى أصبحت لهم الزعامة العالمية ! هذه الأحداث الباهرة ، وقف أمامها لوبون ليقرر أن ظهور حضارة مفاجئة على مسرح الحياة ، ليس كما يبدو للوهلة الأولى ، ولكنه نتيجة نضج بطىء تمّ بالتدريج فى رحم الزمن ، حتى بلغ نضجه فى عهد نبى الإسلام ، إذ لا تبلغ أمة درجة التطور العالمية التى تبدو للعيان إلا بعد الصعود فى درجات أخرى ، ثم عارض لوبون قول الفيلسوف رينان فى كتابه (تاريخ اللغات السامية) [١] : لا مكان لبلاد العرب فى تاريخ العالم السياسى والثقافى والدينى قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذى صار به العرب أمةً فاتحة مبدعة ، ولم يكن لبلاد العرب شأن فى القرون القديمة حين كانت غارقة فى دياجير ما قبل التاريخ ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد » .

نقل الدكتور لوبون قول رينان ليعارضه بدعوى التطور الخفى غير الملموس ، وقد رد الأستاذ وجدى على لوبون موجها نظره إلى الدعوة العالمية للإسلام ؛ لأن صاحب الرسالة لم يبعث للعرب وحدهم بل بُعثِ للناس كافة ، فكان الفتح الإسلامى استجابة لعالمية الرسالة ، يقول الأستاذ وجدى [٢] .

« الأمة الإسلامية أمّة عالمية بطبيعة تكوينها ، لا أمة عربية فقط ، وموطنها هو العالم كله لا بقعة واحدة منه ، فليس من العجيب أن تبز جميع الأمم فى سمو محصولها وسرعة إنتاجها ، وإنّما العجيب الذى كان يجب أن يستوقف نظر الدكتور جوستاف لبون ، مجىء هذا الدين على هذا النحو العالمى ، وحدوثه فى بيئة لم تكن تعرف الوحدة الاجتماعية حتى للجنس الواحد ، فكان تولده هنالك

---

(١) مجلة الأزهر – المجلد السابع عشر ، سنة ١٣٦٥ هـ ، ص ١٤٦

(٢) مجلة الأزهر – المجلد المذكور ، ص ١٤٧

ضربا من الطفرة التى أجمع العالم على استحالتها ، وهذا محل الإعجاز فى عمل النبى صلى الله عليه وسلم » .

وأزيد على ما قال الأستاذ وجدى فأقول : لو كان التدرج الخفى هو العامل غير المنظور فى ظهور الأمة العربية على مسرح الأحداث ، لكان هذا التطور متجها إلى الأمة العربية وحدها ، حيث لا يستطيع أكبر الناس إغراقا فى الحلم أن يتصوّر أن هذه القبائل المتنافرة تسعى لهداية البشر كافة ، بل قصارى أمرها أن تنجح داخل الجزيرة العربية فى التئام شملها ، وإذا بلغت ذلك فقد أدركت أسمى غايات النجاح ! ولكنّ الواقع فى المد الإسلامى شرقا وغربا ينطق بأن الأمر فوق التدرج البطىء ، وأن هناك قوة قاهرة خرقت حجاب المنطق المنتظر ، لتأتى بمعجزة ، هى معجزة الدين نفسه ، وإذا كان الفيلسوف (ارنست رينان) قد دُهش لوقوع هذه الخوارق التى لا تخضع لمنطق التاريخ ، فلأنه لا يؤمن برسالة السماء التى هتف بها نبى الإسلام ، وعلى النقيض منه نجد الأستاذ فريد وجدى يجعل صدق هذه الرسالة علّة العلل فى هذا النصر الباهر ! وليست المسألة مسألة نظريات علمية تختلف فى اتجاهها الآراء ، ولكنها مسألة واقع ملموس لا مجال إلى إنكاره ! إن رينان يعلن حيرته فى تعليله ، ولوبون يقول إنه نتيجة التدرج الخفى ! ورينان أوسع منه إدراكا فى هذه المسألة بالذات ؛ لأن التدرج البطىء لم يلخ له شاهد واحد يدل عليه ، إذ أن الدول التى صعدت إلى الأوج فى القديم والحديث كان تدرجها نحو الصعود ذا شواهد ملموسة ، بحيث أصبح ارتقاؤها ثمرة فى غصن من شجرة ذات جذور ! وهنا لا نجد غير ثمرة لا شجرة لها ! فهى إذن الرسالة ، وليست غير ذاك ، ولوبون عالم مادىّ لا يؤمن بالرسالات أما رينان فيؤمن بالمسيح !

علّة ثانية ذكرها لوبون ، هى أن العرب إبان البعثة المحمدية كانوا يتطلعون إلى التوحيد ، وقد ضاقوا بالأصنام ، وعرف الرسول ذلك فدعا إلى الإسلام ، يقول الكاتب الفرنسى [1] :

---

(١) مجلة الأزهر – المجلد السابع عشر ، سنة ١٣٦٥ هـ ، ص ١٩٧

« والحق أنّ وقتَ جمْعِ العرب على دين واحد كان قد حان ، وهذا ما عرفه محمد ، وفى الوجه الذى عرفه سرّ قوته ، وهو الذى لم يفكر قط فى إقامة دين جديد خلافا لما يتوهم البعض ، وهو الذى أنبأ الناس بأن الإله الواحد هو إله بانى الكعبة ، أى إله إبراهيم الذى كان العرب يجلونه ويعظمونه » .

أما ردّ الأستاذ وجدى فقد تركز فى أن العرب كانوا متمسكين بأصنامهم ، وقد ذكر الكتاب الكريم أنهم كانوا شديدى الحرص عليها ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُم وَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَىءٌ عُجَابٌ * وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا ٱخْتِلاَقٌ ﴾ (١) .

وهو ردّ واف مؤيد بالنص المعجز ، وقد استطرد الأستاذ وجدى إلى مقارنة بين وثنية الرومان ووثنية العرب لأن لوبون قد عقد مشابهة بين الوثنيتين ، فوفى وجدى المقام حقّه ، وأنا لا أدرى كيف فات هذا الفيلسوف الكبير أن يذكر ما كابده الرسول من الشدائد قرابة ثلاثة عشر عاما فى مكة ، وبعدها عشرة أعوام بالمدينة ، وهو فى حرب طاحنة بين من يتمسّكون بعبادة الأصنام فى مكة ، وبين من يدعو إلى التوحيد ، أفلوْ كانوا – كما تخيّل – قد ضاقوا بأصنامهم أما كانوا يتّجهون إلى الإسلام دون معارضة ، بل على الأقل أما كانوا يقفون من الدعوة موقف الحياد . فيم كانَ تعذيب المستضعفين ؟ وفيم كانت مقاطعة قريش لبنى هاشم حتى أكلوا أوراق الشجر ؟ وفيم كانت الهجرتان إلى الحبشة ثم إلى المدينة فراراً بدين الله ، وفيم كان ائتمار قريش على قتل محمد ﷺ ليلة الهجرة ؟ وفيم نشبت حروب بدر وأحد والخندق ومناورة قريش فى الحديبية ؟ كلّ ذلك قد غاب عن الفيلسوف وهو الذى قرأ تاريخ الدعوة ! أتراه لم يكن مصدّقاً إياه ؟ وإذا لم يصدّقْ فكيفَ يقتعد منصّة التفسير والتحليل والاستنتاج ؟ أما القول بأن الرسول لم يفكر فى أن يأتى بدين جديد ، بل كان متبعاً دين إبراهيم ، فلا جديدَ به لأن هذا ما كرره الرسول ، وما نطق به القرآن ، ولكن هلْ فكّرَ عبدة

(١) سورة ص : ٤ – ٧

الأصنام فى اتباع دين إبراهيم كما أراد نبى الإسلام ؟ إنهم لو فكروا فى ذلك لنبذوا الأصنام تلبية لدين محطم الأصنام ؟ .

إن القول بأن العرب كانوا يتوقون للوحدة ، وينفرون من التفرق المتنابذ ، حتى جاء رسول الله فضرب على أوتار قلوبهم بالدعوة إلى ما يشتهون ، قد سبق به لوبون ، كما قال به بعض من احتذوه على غير بينة ، وقد فنّده كثير من الباحثين بشاهد من الواقع الملموس ، ولكنّ الأستاذ وجدى جاء بالطريف المقنع حين قال [1] :

« ألا يكون من البديهى الذى لا يتمارى فيه اثنان أن شعور القبائل بالوحدة الدينيّة والسياسية ، لو كان له وجود كان يجب أن يصل إلى أبعد مداه ، بعد ذلك الحادث الجلل الذى سجل عليها التخاذل فى أشنع مظاهره بغارة أبرهة على مكة سنة ميلاد النبى ﷺ لهدم الكعبة . فقد قطع جيش أبرهة مئات من الأميال فى صميم البلاد العربية قاصدا تحطيم البيت الحرام وهو محج جميع القبائل العربيّة ، وكانوا قد جعلوه موئلا لجميع أصنامهم ، فلم تُثِر فيهم هذه الإهانة أى ميل للاجتماع ، فتركوه يجتاز النجاد والوهاد حتى وصل إلى مكة ، فما كان من أهلها إلاّ أن التجئوا إلى الجبال هربا من بطشه ، ولولا أن الله قد شغله بكارثة لم تكن فى حسبانه لم يتمكنْ معها من إتمام مقصده ، لتمّ له ما أراد ، أما كانت هذه الحادثة كافية فى إشعار العرب بضرورة الاجتماع لتكوين وحدة دينيّة وسياسية تصلح لحماية ذمارهم ، وصيانة ديارهم ، فماذا كان من أثرها فيهم ؟ بقاؤهم على ما هم عليه من التعادى والتناحر ، والتفرق والتدابر ، ولمّا أرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم يدعوهم إلى التآلف والتحابّ ، والأخذ فى الدين والدنيا بأوثق الأسباب ، كذبوه وسخروا منه ، وبالغوا فى التعجب من دعوته ورموه بشتى التهم حتى وصموه بالجنون .

أمّا الفرية – وأقول الفرية عن عمد – التى لاكَها لوبون وكانت تستحق التعنيف المفرط من أى ناقد غيور على الحق فهى ما رمى به الفيلسوف جلّ

---

(١) مجلة الأزهر – السنة السابعة عشرة ، ص ٢٤٧

أنبياء الله بالعته والصّرع حين قال « ونرى محمدًا الثاقب كما هو شأن أكثر مؤسسى الديانات من ذوى الصرع [١] ، وليس فى ذلك ما يحط من قدره ، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين أنشئوا الديانات وقادوا الناس ، وإنما أولو الجنون هم الذين أقاموا الأديان ، وهدموا الدولَ ، وأثاروا الجموع وذلّلوا الصعاب ! وهذا الكلام لا يستحق أدنى ردّ ؛ لأنّ ذوى الهوس والجنون والصرع لا يستطيعونَ القيام بشئونهم الخاصة ، إنما يرعاهم ذووهم باعتبارهم مرضى عاجزين ، فكيف ينشئ هؤلاء الأبطال دولا ، ويهدمون باطلا ويبنون حقا وهم مجانين ، يعانون الصرع !! لقد كان الأستاذ وجدى ذا مقدرة فائقة فى تبديد هذه الخبالات ، وتعليل مصدرها عند قائليها من الجاحدين ، وأذكر أنه فى كتابه (السيرة المحمدية) فى ضوء العلم والفلسفة قد بددّ هذا الهراء فيما كتبه تحت عنوان (الوحى) ردّا على أمثال لوبون ودرمنجم ومن لفّ لفهما ، ولست فى حاجة إلى إيجاز ما قال ، ولكنى أشير هنا إلى أسلوبه الجدلى المترفق أمام جحود مظلم لا يستنير بضياء ! وقد أطلت الوقوف بعض الإطالة ، أمام مناقشات الناقد للفيلسوف لأؤكد سلامة المنطق فى الرد ، ونزاهة القلم فى التعبير .

فإذا انتقلنا إلى مناقشة الأستاذ وجدى لكتّاب مجلة الأزهر فإننا نجد أستاذيّة قديرة ذات نظر مستقل فى كلّ ما تعرّض له من أمور البحث تاريخيا وعلميا وفلسفياً ؛ لأن مؤلفَ دائرة المعارف فى القرن العشرين كان من سعة الاطلاع ورحابة الأفق بحيث استطاع أن يلمح مواضع النقد فيما يقرؤه فيسارع بالتعقيب عليه ، وليس هؤلاء الذين يخصهم بالتعقيب رجالاً محدودى النظر ، بل هم من كبار الأساتذة فى كليات الأزهر ، ومنهم من تخصّص فى مادته الفلسفية فى أكبر جامعات أوربا . وعاد مسلّحا بالدرجة العلمية العليا ليتبوأ مكانة بين أساتذة الجامعة المرموقين ، وليتحدث فى مجلة الأزهر عن شئون فلسفية تتصل بمادة تخصّصه ، وهنا يجد التعقيبَ المثمر الهادى . ولسنا نُضائل من مكانةِ أساتذةٍ كبار من أمثال الدكتور محمد البهى

---

(١) كان الأستاذ عادل زعيتر كتب كلمة (الهوس) دون غيرها تخفيفاً على نفس القارئ العربى ، ولكن الأستاذ وجدى نقل عن الأصل .

والدكتور محمد يوسف موسى والدكتور أحمد موسى والأستاذ محمد صادق عرجون والشيخ الزرقانى ممن أوسعهم الناقد الراصد تعقيبا . فكلهم ذو فضل واضح ، ولكنّ الأنظار تختلف . ولو شاء الله لجعل الناس أمّة واحدة ، لقد كتبَ الدكتور البهى مقالات تحت عنوان « الفلسفة بين الوجود والفكر » ذهب فيها إلى أن الفلسفة الدينية – يهودية أو مسيحية أو إسلامية – كانت مهمتها التوفيق بين ما نُسب إلى فلاسفة الإغريق من جهة ، وبيْن ما يقوله الدين من جهة أخرى دون استمرار فى البحث على أساسٍ الاستقلال ، وهو الأساس الذى تميّزتْ به الفلسفة عن الدين . ولكنّ عهد النهضة الأوربية حَوَّلَ البحث فى الفلسفة عما وراء الطبيعة إلى الطبيعة نفسها ، وعن علّة الكون إلى الكونِ نفسه ، لأن نتائج البحث فى الإلّهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمى الحديث فتعرُّض الباحث لها وحدها حكم « بالعزلة عن التيار الفكرى الجديد » .

هذا لباب ما اتجه إليه الدكتور البهى ، وقد عارضَه الأستاذ وجدى قائلاً إن حديثه هذا لاشية فيه من ناحية تصوير النزعة الإلحادية للفلسفة المادية ، ولكنّى أقرر أنه لا توجد فى الإسلام فلسفة مستمدة من الخارج يمكن أن توصف بأنها إسلامية ! وكل ما وجِد فى عهد نهضة المسلمين أن أفراداً منهم أغرموا بالثقافة اليونانية القديمة فأخذوا إتخذَها فى الفلسفة ، واشتغلوا بدراسة مذهبىْ أفلاطون وأرسطو وأوسعوهما تفليةً وشرحا ، حتى صاروا زعماء الفكر على عهدهم ، ولست أنكر أن هؤلاء حاولوا تطبيقهما على الإسلام ، ولكنّ أئمة الدين فى كل زمان ومكان أنكروا عليهم ذلك ، وجاء حجة الإسلام فى القرن الخامس الهجرى فَبَيَّنَ قِصَرَ نظرهم وضَعَّفَ أدلتهم فى كتاب مشهور ذائع ، فإذا كانَ قد حدث فى الفلسفة تطور منذ عهد النهضة العلمية الحديثة ، فلن يصيبَ الإسلام منه شىء لأنه مستقل بتفكيره عن فلسفة الإغريق – ولقد قاوَم أئمة الإسلام الفلسفة اليونانية فى أول ظهورها لأن الإسلام نفسه أتاهم بالحكمة التى تغنى عن هذه الفلسفة !

والدكتور البهى فيما تحدَّث به عن صلة الفلسفة الإسلامية بفلسفة الإغريق ، ومحاولة بعض الفلاسفة من الإسلاميين السير فى ضوئها للتوفيق بينها وبين معتقدات الإسلام مما يسميه الغربيون بالفلسفة الإسلامية كان ممن يميلون إلى الاقتناع بهذه الصلة بيْن الفلسفتيْن ، ولكنّ المجادلات التى بدأها الأستاذ وجدى لدحض هذه

الفكرة جعلت الدكتور البهى يعدل عن وجهته ، فيقررّ أن الفلسفةَ الإسلامّية شىء ، وما صنعه بعض المفكرين فى الإسلام من إدخال مقرراتها على الفكرة الإسلامية شىء آخر ، لا يمت إلى الإسلام ، وأذكرُ فى هذا المجال أنّ الأستاذ سيد قطب كان قد عاب على الأزهر اشتغاله بالفلسفة الإغريقية على أنّها هى الفلسفة الإسلامية ، فرد عليه الدكتور محمد البهى بخطاب قال فيه [1] :

« أود أن أطمئن الكاتب الفاضل على أنّ الأزهر فى تاريخه لم يدرس الفلسفة الإسلامية على اعتبار أنها تُمَثِّل فلسفة الإسلام أو تحكى مبدأ من مبادئه أو هدفاً من أهدافه ، ففى ماضيه كانَ يحرّم دراسة هذا النوع الإلٓهى من الفلسفة الإسلامية لأنّه كان يرى فيه انحرافا واضحا عن الإسلام ، ومن أجلِ ذلك كان يلوم فلاسفة المشرق أمثال الكندى والفارابى وابن سينا ، وجَارَى الغزالى فى كتاب (تهافت الفلاسفة) وكفّر هؤلاء الفلاسفة لمسايرتهم الفكر الإغريقى فى القول بقدم العالم . وقصر علم الله على الكليات ، وإنكار بعث الأجسام ، وفى العصر الحديث يدرسُ الأزهر فى كلياته الفلسفة الإسلامية ، كما يدرس أنواعَ الفلسفات الأخرى من الإغريقيّة إلى الدينية فى القرون الوسطى إلى المذاهب الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة ، على أنّها إتجاهات للفكر الإنسانى فى أزمنة متعاقبة ، وفى بيئات مختلفة ، وقد يكون بعضها ترديدًا لبعضٍ ، أو إضافةً جديدة لما سبق ، وهو فى هذه الدراسة يُوازن بين إنتاج الفكر الإنسانى فى عصوره المختلفة وبيْن الإسلام كدين أُوحِىَ به مِنْ عند مَن له الكمال المطلق ، وأنّ الأزهر الحاضر تُسيطر عليه فى البحث والتوجيه روحٌ إسلامية شرقية ، وَعَتْ ما فى الإسلام من مبادئ ودرستْ ما كان لشعوبه من خصائص فى الأدب والحكمة » .

وهذا كلام قاله الدكتور فى ١٩٤٩/٥/٢٣ ، وكانت مجادلتهُ مع الأُستاذ وجدى فى سنة ١٩٤١ ، ولو أنّه اتّجه هذا الاتجاه فى مقالاته التى عَقّب عليها الأُستاذ ما اتّسع مجال الخلاف .

وقريب من مجادلة الأستاذ وجدى للدكتور البهى مجادلته للدكتور محمد يوسف موسى فى العام نفسه ، حين كتب الدكتور بحوثاً تحت عنوان (بين رجال

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٨٢٩ - ١٩٤٩/٥/٢٣ م

الدين والفلسفة) ذهَب فيها إلى أنّ رجال الدين فى الإسلام قد جافوا الفلسفة اليونانية وحاربوا أنصارها بلاَ هوادة ولا إنصاف ، وعدَّ الدكتور ذلك خطأً كبيرا كان الواجب ملافاته ، فردّ عليه الأستاذ وجدى قائلاً إن المسلمين لم يجافوا الفلسفة اليونانية سذاجةً وبلاهةً منهم ، ولكنْ لأنه كان لديهم فلسفة أتاهم بها القرآن ، تسمو على كل فلسفة فى الأرض ، وهى الحكمة ، ولا عِبرةَ بالتسمية ، ونحن إذا نظرنا إلى أصول الحكمة كما بيّنها القرآن الكريم نجدها تبزّ ما نعرفه من مقررات الفلاسفة ، لأن الحكمة القرآنيه تتناول جميع ما يتصل بحياة الإنسان المادية والأدبية ، وهى تبتدئ من قواعد الآداب العادية ، وموجباتها الحيويّة ، إلى الحالات العالية للنفس الإنسانية ، وبواعِثها من العوامل الروحية ، ومن أوّليات الأصول الاجتماعية ، إلى نهايات الوحدة الإنسانية بل العالمية ، ومن بسائط الأسس الإدارية والاشتراعيّة إلى أعلى مبادئ الحكومة الدستورية ، ومن أوضح القواعد الثقافية إلى أسْمَى وأدقّ القوانين الفلسفية والعلمية ، وهذه الأصول كلها مبثوثة فى القرآن الكريم .

وبعد أن ذكر الأستاذ بالتفصيل عشرةَ أصول من أصول الحكمة فى القرآن قررَّ أن الحكمة القرآنية بطبيعة تركيبها ، وبُمقتضى أصولها هى من الضرب الذى اتفّق على تسميته حديثا بالفلسفة العلمية ، وهى التى تُقررّ أنها الفلسفة الحقة التى لا يجوز تجاوز حدودها ، وقد تتابع الردّ والتّعقيب فى هذا النطاق على نحوِ ما يعرفه المتتبِّعون لهذه الحلبات الفكرية ، ومن أَصدَقِ ما قاله الأستاذ وجدى فى هذا المجال « إن هذه الحكمة القرآنية هى التى أخذتْ بها أمّة بدوية لا عهد لها بكتاب ولا حكمة ، فنالتْ زعامة العالم فى العلم والسلطان والسياسة والصناعة فى نحو قرنين من الزمان ، فإن كان يُضَنّ عليها بكلمة فلسفة ، فربّما كان للضانّين بذلك الحقّ اعتبارٌ بأنها أرقى من الفلسفة بما لا يقدّر ، إنّ الفلسفة اليونانية وغيرها لم تخلُق أمما ، ولكنّ الأمم هى التى خَلقَتْها ، وهذه الحكمة القرآنية أوجدتْ من العدم أمّة كَان لها أثرٌ فى الأرض لا يشتبه بغيره ، ولا تزال الحكمة التى أوجدتها حيّة ، وسينتهى الأمرُ بسيادتها على كل فلسفة فى الأرض » .

هذا فحوىَ ما يُقال عن الفلسفة الإسلامية واستقلالها عن فلسفة الإغريق ، والمتتبع لمناقشات الأستاذ وجدى فى جميع أدوار حياته يجدها تتعلّق بالكليات العامة فى أكثرها ، فهو لا يناقش كاتباً ما لملْحظٍ جزئى يندرج فى بحث شامل ، فيجعله موضعَ لَجاج لا يتحمّل الحوار ، كما لا يستطرد لأدنى مناسبة إلى معنى يفهم تلميحاً لا تصريحا فيجعله مثار الضجة والشجار مما نعهده لدى كثير من المعقّبين ، ولكنّ الناقد الفيلسوف يجْنح إلى القضايا الكلية التى يقف أمامها الباحث موقفَ الملاحظة ، فيتّخذها موضوعا للمجاذبة الهادفة ، إذ يحرص على أن يصلَ بها إلى حدٍّ يجعلها صوابا بعدَ أن يفنّد كل شبهة تخالف اتجاهه النظرى ، فقد كَتب الدكتور أحمد موسى مقالاً بمجلة الأزهر تحت عنوان (الشعوبية وأثرها فى الأدب العربى) جرَى فيه مجرى ذوى الاستشراق ممن يحبّون أن يبذروا الفرقةَ بين الأمة المؤمنة بإحياءِ نوع من العصبية القاتلة . فيجسّمون ما يقعون عليه من حادثةٍ فردية ، أو بيتٍ شعرى لقائلٍ متسرّع ، ليجعلوا منه أدلّة على البغض الكامن بين الفُرس والعرب ، مع أنَّ الأمة العربيّة قد وُجدَ مِن ذويها مَن ناصبها العداء فلم يدلُّ بذلك على شعور عام ، بل دَلَّ على شذوذٍ فردى لا ينبغى أن يتخذ قاعدة مطردّة ، وفى الحديث عن أثر الفرس فى الكيان الإسلامى ذَكَر الأستاذ ما لهم من قدمةٍ فى العلوم والآداب والسياسة إذ سبَقوا غيرهم من الشعوب الإسلامية فى النظر والتفكير ، ونبغَ منهم أئمةٌ فسّروا الكتاب ، وأقطابٌ حفظوا سنة الرسول ، وأعلامٌ جمعوا لغة العرب ووضعوا علومها وآدابها ، فلم يشعر المسلمون ومنهم العرب بأدنى مضض من ذلك ، إذ محَا الإسلام من بينهم عوامل الاختلافات الجنسية واللغوية واللونية .

يقول الأستاذ وجدى « إنك لو سألتَ أيّة جماعةٍ إسلامية فى أية بقعةٍ من بقاع الأرض ومن بينهم العرب : مَنْ سلفكم الصالح الذين حفظوا القرآن والسنة وآراء الصحابة ودوّنوها وبوّبوها وشرحوها ، ولقّنوها للشيوخ والأئمة لَعدُّوا له عشرات من الأسماء فى مقدمتهم الحسن البصرى وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير وسليمان الأعمش ، ومكحول وميمون بن مهران وربيعة الرأى ونافع وابن أبى ليلى ! وهذه الأسماء قد لمعتْ فى العصر الأموى الذى ادُّعِىَ عليه أنّه تَعصَّبَ على الفرس ! وهذا الانحراف فى التفكير قد نشأ فى رأى الأستاذ وجدى من خطأ

جلل وقع فيه الدكتور طه حسين ، فتلقفه طلاب الأدب فى البلاد الشرقية لا عن فحص ، ومضى الأستاذ إلى غايته التى تقر أنّ الإسلامَ قد غرس فى أبنائه المساواةَ والإخاء ، وأنّ الحكمَ العامّ لا يكون باصطيادِ النوادر والشواذ من كتب الأدب والمسامرات ودواوين المتظرفين من مجّان الشعراء .

وإذا كان الدكتور طه أتى بهذا البدع فى محاضراته بكلية الآداب ، فقد عرفتْ هذه الكلية باحثا أمينًا جادًّا هو الدكتور عبد الوهاب عزام رَدَّدَ ما عناه الأستاذ وجدى ، وجاء بالأدلّة الداحضة لما سيق من خطأ صريح ، وإذا كانَ الأستاذ وجدى قد اقتصرَ على أعلام العصر الأموى من أئمة الإسلام ذوِى الأصل الفارسى فقد بسطتُ هذه القضية فى الجزء الثانى من كتابى (النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين) [1] وذكرتُ خلفاءَ الأئمة الأمويّين فيما تلاهم من العصور من أمثال البيهقى والنيسابورى والخوارزمى والجرجانى والتفتازانى والرازى والزمخشرى والشيرازى والبيضاوى والبخارى والقزوينى والطوسى والسمرقندى ، والترمذى والسجستانى والنسفى والهمذانى وَمنْ لا أستطيع أن أقفَ بسردهم إلى حدّ ، ليعلَم الذين يتلقّفون شطحات الاستشراق دوَن فحص أنّهم متسرعون .

وشبيةٌ بدعوى الشعوبية دعوى التقدم الفكرى لدى الجاهليّين ، وقد ألممنا إلى جانب منها فيما ذكره الأستاذ وجدى ردًّا على الفيلسوف الفرنسى جوستاف لوبون ، ونكمل القول بالإشارة إلى الردّ الحاسم الذى كتبه الأستاذ وجدى تعليقاً على مقال للأستاذ محمد صادق عرجون نشره تحت عنوان (الحياة الأدبية عند العرب) وقد نَحَا فيه منحى الفيلسوف الفرنسى فعقّب عليه الأستاذ وجدى بمقالٍ ضاف قال فى خاتمتهِ ملخّصا ما تقدّم [2] « فالإسلامُ وحده هو الذى وحَّدَ قبائلَ العرب ، وأسقطَ ما بينهم من فروقٍ قبليّة ، ومن إحَن وضغائن جعلتْ جماعَتهم أشبَه بالأمم المتعادية ، لا تفتر عن التناحر والتناهب طرفة عين ، والإسلام هو الذى رفَع عنهم طابع الأميّة ، ودفعهم بطلب العلم دفعاً لا هوادة فيه ...

(١) النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين جـ ٢ ص ٢٤١ وما بعدها للدكتور محمد رجب البيومى

(٢) مجلة الأزهر – المجلّد السادس سنة ١٣٥٤ هـ ، ص ٦٩٤

وبفضلِ الإسلام استقامتِ الأمة العربية على نهجِ الأمم التى كُتبَ لها بلوغ أقصى الغايات من النظام والتوسع واحتمال التبعات ، وفوق هذا كله فنحن أبناء الإسلام لا أبناء العرب ولا الفرس ولا غيرهم ، وقد وحّد بَيننا الإسلام تذرعًا لتكوين أمة عالمية ، كانت وستكونَ مثالا أعلى للاجتماع الإنسانى الصحيح ، وقد مضت تلك الجاهليات مرذولة مذمومةً إلى حيث لا تعود .

هذا عن بعض ما ينشر بمجلة الأزهر مما يحتاج إلى تعقيب ، أما ما ينشر فى الصحف المصرية ، والكتب الخاصة مما له اتصالٌ بالناحية الإسلامية فإن الاستاذ وجدى كان حريصاً على مناقشة كلّ ما يستوجب النقاش مع صبرٍ طويل على اللّدد لا يرتفع إليه غير مَن رزقه الله حلما وحكما ، إذ دأَبَ بعض من يتأدّبُ معهم فى الجدل على الانحدار بالمستوى إلى ما يشبه الشتائم ، والأستاذ يقرأ ذلك غافراً ليبحثَ فى رُكامه المتراكم عن قضيةٍ مخطئة تحتاج إلى تصويب ، فينتزعها انتزاعاً مماّ أحيط بها من الأوضاع ، ليجعلَها موضع النّظر المجرّد فى عطف يُشعر قارئه أنه يلمس العذر لكل مخطئ جدٌّ أم هزل ، لقد أصدرَ الدكتور المتحمس (إسماعيل أحمد أدهم) بحثا إلحاديًّا مستفيضا فى مجلة الإمام جعلَ عنوانه (لماذا أنا ملحد) وقارئ بحوث الدكتور أدهم لا يستغربُ منه الاندفاعَ المتعجل إلى مهاجمة أقدسِ ما يحرص عليه المتدينون ، إذ كان يعلنُ فى زهو خروجَه عن دائرة الأديان ، وهيامَه بالمذهب المادّى ، وقد أقْدَمَ على الانتحار فى عنفوان شبابه ، وكَتَب وصيّةً تدعو إلى عدم دَفنه فى مقابر المسلمين ، وما ذكرتُ ذلك إلّا لأصوّر أحاسيسه الملحدة التّى دعته إلى المنابذة الجهيرة ، بلْ دعته إلى أن يَختَم حياته على غير ما يُرضى العقلاء ، هذه الأحاسيس دَفعتْه إلى الاستطالة على العقائد الدينية فى غير مبالاة ، وقد قابَلهَا المتحمّسون من ذوى الإيمان بقذائف نقدية أحدقتْ به من كل جانب ، ولكنَّ الأستاذ وجدى لم يتركْ طريقته فى الجدل الهادى إذ أخذَ مأخذَ الأناة المسالمة فى ردّه الحليم ، وأذكرُ أن الشاعر الأستاذ حسن كامل الصيرفى وكان صديقاً للدكتور أدهم حدّثنى أنه قال له متعجبا ، لقد أخجَلنى الأستاذ وجدى لا باطلاعهِ المدهش فحسب ، بل بسماحته الإنسانية التى تحبّب المنقود للناقد ، فأىّ ملاك هو ؟ لقد تعرّضَ الأستاذ إلى كلّ ما قاله أدهم عن نشأته الأولى

حينَ كان يُبغض قراءةَ القرآن التى يدفعه إليها والده ، مع أنه كان يُصغى معجبا لأختيْه اللتينْ تعلمتا فى مدارس الأمريكان فجعلتَا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب ! وَالذى أعرفه أن مدارس الأمريكان لا تنكر هذه المقررات التى تشمل جميع الأديان ولا تخصّ الإسلام !! ثمّ قال : إنّه اقتنع بمذهب النشوء والتطور متأثراً بكتاب (دارون) فامتنعَ عن الصلاة ، وأعلن كفره الصريح لأنه (فى رأيه) يؤمن بالعلم وَحدَه ، ويؤثره على ما سواه .

وقد قرر الدكتور أنّ من أسباب إلحاده ما يرجع إلى الفلسفة وما يرجع إلى العلم ، وهذا ما فنّده الأستاذ وجدى حين نصَّ على أن العلم الذى يستند إليه لم يستطعْ نفىَ الصانع ، وقد أُكّد باحثوه أنّ وظيفة العلم تخرج عن البحث فيما وراء المحسوسات ، فكيف يكون العلم شاهداً فى قضيةٍ يعترف بأنه لم يبحثها ، وأنها تخرج عن إمكانه ؟ أما الفلسفة فقد كانت مصدرَ الإيمان عند فريق ، ومصدر الإلحاد عند فريق آخر ، فهى إذا ليستْ بذات حكم حاسم ، كما أنّها تتناول المسألة من شتى وجوهها ، ومهما ارتفعت بحوثها فى القرن العشرين فهى لا تزال فى دور الاستكمال ! وقد آمن فلاسفةٌ بالله ، همْ أقوى من الباحث تفكيراً وأعظم آثارا ، فأين هو منهم ؟

أما رأى الدكتور فى أن سببَ الكون يتضمَّنه الكون ، فى ذاته ، فافتراض لا يستند إلى دَليل ، فلا يبلغ أن يكونَ رأيا ، وأقطاب العلم العصرى ينكرونه كل الإنكار ، وهنا يستشهد صاحب كتاب (على أطلال المذهب المادى) بما لا يندّ عن مقدرته من الأقوال الشاهدة ، لأئمة العلم الحديث ، وقد دَوَّن هذه الآراء فى كثير من كتبه ، ولكنّ المقام يتطلب الاستشهادَ ببعْضها ، فقدّمَ للقارئ ما يقنعه ويرضيه .

وقد ذكر الدكتور أدهم أنّ الفيلسوف الألمانى (كانت) كان ملحدا ، فردّ عليه الأستاذ بما ينفى هذا الإلحاد عن الفيلسوف وقالَ فى رحابة نفس « لا أستطيع أن أقولَ إنّه - أى أدهم - تَقَوَّلَ على الفيلسوف ، ولكّنى أقول إنه اقتضَب اقتضاباً من كلامه ، فأوهمَ غير ما يرمى إليه » .

وهكذا يمضى الناقد فى تتبّع الباحث خطوةً خطوة ، حتى يصلَ إلى تفنيد كلّ ما جاء بالرسالة ، ومحاولة تلخيص مواضع النقد لا تغنى عن تتبّعها فى مكانها ، فيكفى أن نشير .

وبعد

فقدِ جعلَ الأستاذ فريد وجدى من نفسه حارساً أميناً على الحقائق الإسلامية ، فبَلّغ بها المبلغ الذى يطمئن إليه يقينه ، وحديثنا هنا عن بعض نقدات الأستاذ الّتى لم تُجمع فى كتبٍ مستقلة ، أمّا نقداته المجموعة فى كتب خاصة مثل كتابه عن المرأة المسلمة ، وكتابه عن الشعر الجاهلى ، وكتابه عن (ترجمة معانى القرآن) وكتابه (ليس من هنا نبدأ) فتحتاجُ إلى بحث مستوعب ، أرْجو أن يعين الله عليه فى الأمد القريب .

د . محمد رجب البيومى

- ١ -

شبهات استشراقية

لُوبُونْ وَالسيرةَ المحَمَّدِية (١)

– ١ –

نعرف أن أصحاب النبى ﷺ قد وفّوا ، وهم يؤسسون الامبراطوارية الإسلامية ، بجميع ما وعدوا به العالم من المساواة والعدل والرحمة ، وبأنهم رفعوا شأن كل أمة افتتحوا بلادها درجات عما كان عليه ، وأنهم تأثموا عن ارتكاب مثل ما ارتكبته الأمم الفاتحة التى سبقتهم من إذلال المقهورين وسلب أموالهم ، واضطهادهم ليدخلوهم فى ملتهم .

وأحسن ما نقدمه للقراء دليلا على كل ما قلناه شهادة عالم من أشهر علماء أوروبا هو الدكتور جوستاف لوبون . قال فى كتابه (حضارة العرب) (٢) :

« كان يمكن أن تُعمى فتوح العرب الأولى أبصارهم ، فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ، ويسيئوا معاملة المغلوبين ، ويقهروهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى أنحاء العالم . ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم التى كانت بعد ، غير خاضعة لهم ، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخرا ، ولكن الخلفاء السابقين الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة ، أدركوا أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرا ، فعاملوا أهل سورية ومصر وإسبانية ، وكل قطر استولوا عليه ، بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم ، وحفظ الأمن بينهم . والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب .

« ورحمة العرب الفاتحين وتسامحهم ، كانا من أسباب اتساع فتوحهم واعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التى رسخت وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم ، وإن أنكر ذلك المؤرخون .

---

(١) نقلاً عن المجلد السابع عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٥ هـ ، ص ١٠٤ وما بعدها .

(٢) مقتبس من ترجمة كتاب حضارة العرب إلى العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ، من أفاضل نابلس

ونعد مصر أوضح دليل على ذلك ، فقد انتحلت مصر ما جاءها به العرب ، وحافظت عليه ، ولم يستطع الفاتحون الذين سبقوهم إليها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وأن يحملوها ما أتوها به » اهـ .

هذه شهادة قيمة من عالم أجنبى ، وليس هو بفذ فى أداء هذه الشهادة ، فقد سبقه وتأخر عنه جم غفير من أعلام التاريخ ؛ وليس لنا من ملاحظة على ما قاله الدكتور (جوستاف لوبون) إلا ما قاله من أن هذا التسامح الدينى كان بفضل عبقرية الخلفاء الراشدين ، وهو فى الواقع من حكمة الشريعة الإسلامية نفسها ، فإنها لم تفرض نشر الإسلام بالقوة إلا على مشركى العرب ، وحرمته فى حق أهل الكتب السماوية والمشركين من غير العرب . فإذا خضع هؤلاء لدفع الجزية فلا سلطان بعد ذلك لأحد عليهم . والجزية كما يقول الأستاذ (جوستاف لوبون) قدر قليل من المال يعفى منه النساء والأطفال ورجال الدين والعجزة .

ونحن نورد هنا مذاهب أئمتنا فى هذا الموضوع الخطير فنقول :

تقرر فى مذهب أبى حنيفة أن الجزية تقبل من سائر الكفرة إلا مشركى العرب .

وذهب الشافعى إلى أنها لا تقبل إلا من المجوس وأهل الكتاب دون سائر الكفرة .

أما مالك فقال إنها تقبل من سائر الكفرة إلا المرتدين . ويؤيد هذا المذهب أن الجزية لم تفرض إلا بعد أن أسلمت دارة العرب ، ولم يبق فيها مشرك ، فلم يأخذها النبى ﷺ منهم لعدم وجود من تؤخذ منه ، لا لأنها لا تجوز فى حقهم . وفيما دونه أئمة الحديث من أقواله يدل على ذلك ، ففى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لبعض قواده : « إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث ، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم : الإسلام أو الجزية أو القتال » .

وما وصل إلينا من قول النبى ﷺ : « قاتلوا الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » فقد كان ذلك فى حق العرب قبل نزول فرض الجزية .

هذا ما فهمه أئمة الدين من هذا الموضوع ، ولسنا نلح فى بيانه لنسلب من المسلمين الأولين صفة العبقرية التى اعترف لهم بها الدكتور جوستاف لوبون ، ولكن لأن الصحيح هو ما ذكرناه .

ونحن إنما نتشدَّد فى هذا الأمر الذى قد يرى كثير من القراء أنه مما يحسن التسامح فيه ، وخاصة لكاتب أجنبى أنصف الإسلام والمسلمين إلى حد لم يبلغ إليه غيره من كتاب الفرنجة ، إنما نتشدد معه لأنه يرى أن القبائل العربية قبل الإسلام كانت متمتعة بكل الصفات الأدبية والاجتماعية التى تؤهلها لإحداث ما أحدثته من الانقلابات الخطيرة فى العالم ، وأن ما أتاها به الإسلام ينحصر فى توحيد قبائلها ، وتوجيه جهودها ، وأن كل ما ظهروا به مما بهر العالم من ترقية العلوم والصناعات ، وما بلغوا إليه من الشأْو البعيد فى الكمالات ، إنما كانت البواعث إليه كامنة فيهم ، وإنما منع من ظهورها فيهم ما كانوا عليه من الفوضى والانقسام .

نعم إنه ليشق علينا أن نقف موقف المعارضة من عالم ختم كتابه العظيم (حضارة العرب) بهذه العبارة التى لم يقلها عالم من المتأخرين فى دين من الأديان . قال :

« لقد تم الكتاب ، فلنلخصه فى بضع كلمات فنقول :

« إن الأمم التى فاقت العرب تمدنا قليلة إلى الغاية ؛ وإن ما حققه العرب فى وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه أمة ؛ وإن العرب أقاموا دينا من أقوى الأديان التى سادت العالم ولا يزال الناس يخضعون لها ، وإنهم أنشأوا دولة تعد من أعظم الدول التى عرفها التاريخ ؛ وإنهم مدَّنوا أوروبة ثقافة وأخلاقا ، وإن الأمم التى سمت سمو العرب وهبطت هبوطهم نادرة ، وإنه لم يظهر كالعرب شعب يصلح ليكون مثالا بارزا لتأثير العوامل التى تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها » .

قلنا : يشق علينا أن نقف موقف المعارضة من كاتب مثل هذا الكلام ، ولكن مصلحة الدين الذى ندين به ، بل مصلحة العلم نفسه تقتضيه ، فإنه إن كان

أنصف المسلمين باعتبارهم أمة ، فإنه ظلم الإسلام باعتباره دينا . فإنه فى اليوم الذى يثبت فيه أن لقيام الدولة الإسلامية وتبسطها فى الأرض ، وتوسعها فى العلم ، وتداركها للعالم من التدهور ، ولمدنيته من الانحلال والدثور ، عللا طبيعية ، وأسبابا مادية ، تسقط أعظم حجة للمسلمين فى إلـٰهية الدين الإسلامى ، فإن معجزته الخالدة ، وآيته الكبرى ، هى أنه أوجد أمة من العدم ، وأنه ربى نفوسها فى نحو ربع قرن ، تربية لم تبلغ شأوها العلل الطبيعية فى قرون كثيرة ؛ ثم دفع بها فى مجال الحياة الاجتماعية فبلغت فيه درجة الزعامة فى كل شأن من شؤون الحياة الإنسانية ؛ ولا يزال فيها من قوة الروح ، وسمو المبادئ ، وعوامل التطور ، ما يدفعها لاسترداد مكانتها الأولى بين أرقى الأمم المعاصرة لو عاودت العمل بما رسمته لها شريعتها من الأصول الأولية..

الدكتور (جوستاف لوبون) معذور فى سلوكه هذا المسلك لأنه كأكبر مفكرى القرن التاسع عشر متشبع من الفلسفة المادية التى لا تذهب إلى ما وراء العالم المحسوس فى سبيل تعليل أية ظاهرة من ظواهر الوجود المادى ؛ فلا يستطيع ، وهذه حالته النفسية ، أن يبحث فى شىء إلا تحت هذا البصيص من ضوء الفلسفة المادية .

وقد تكلف أشياع هذه الفلسفة فى تعليل وجود السموات والأرض وجميع الكائنات التى تقع تحت سلطان المشاعر ، حتى العقل نفسه ، بعلل طبيعية ، كثير منها يوجب الأسف من ضعف العقلية الإنسانية . فإذا سألت أحدهم ، كيف وجدت الإلهامات التى عليها حياة الحشرات الضعيفة ، حتى هُديت إلى أعمالها اليومية ، ووسائلها الحيوية ؟ أجابك بأنها تعودتها رويدا رويدا فرسخت فيها وصارت طبيعة لها . فإن قلت له : وكيف أمكنها أن تعيش وتضع بويضاتها ، وتحيطها بما يحفظ صغارها متى خرجت منها ، قبل أن تتعود وسائل حفظها ؟ سكت ولم يحر جوابا ، وإذا سألته لم طالت أيدى الظرافة وقصرت رجلاها ، وامتدت عنقها ؟ قال : لأنها لما احتاجت إلى أكل أوراق الأشجار أخذت تشرئب ، وعلى طول الزمن حدث لها ما رأيت . فإن قلت له ولم احتاجت إلى أكل الأوراق العليا دون سائر الحيوانات ، وكيف عاشت قبل أن تطول يداها وعنقها صمت ولم يتكلم .

وهذا الدكتور (جوستاف لوبون) يجرى على هذه السنة فى تعليل التطور الفجائى للقبائل العربية ، فإذا وجب عليه تفسير نهضة قامت بها غير منتظرة بزت فى سرعة حدوثها وفى جلائل آثارها ، وفى اتساع رقعتها كل ما سبقها من أمثالها ، عمد إلى انتحال كل علة كونية إن كانت لا توفى المقام حقه ، إلا العلل الربانية ، ذلك لأنه كالعدد الكثير من إخوانه لا يؤمن بما فوق الطبيعة من الفواعل العلوية .

ولما كنا بسبيل وضع سيرة للنبى ﷺ ، وقد ترجم كتاب الدكتور جوستاف لوبون إلى العربية ، فنرى من مكملاتها أن نناقشه الحساب فيما ذهب إليه من تعليلاته الاجتماعية ، تفاديا من أن نعرض أكثر ما قررناه فيها للنقد . فإن كتاب الدكتور لوبون سوف ينتشر بين المسلمين ويقرأونه ، وسوف يفتتن كثير منهم ببهرجه العلمى ، فيرون فى البعثة المحمدية وفى آثارها العالمية رأيا ماديا بحتا ، فتفقد قضية الإسلام أقوى مستنداتها ، ويخرج قراؤه من كل ذلك بشبهة مستعصية لا مناص منها تتعلق بشخصية النبى ﷺ .

لذلك رأينا أن نتعقب نظريات الدكتور جوستاف لوبون فى كل ما ذكره عن العرب الجاهليين وقبائلهم وعاداتهم ، وما زعمه من تالد مدنيتهم ، متتبعين كل ما أتى به فى هذا الصدد من ظنون وخيالات ليصل من هذا الطريق إلى تعليل كل ما ظهر على أيديهم بعد إسلامهم من فتح الأقطار القاصية ، وحكم المقهورين بالعدالة ، والتقصى عن ينابيع المعارف ، وأخذهم بأوفر نصيب منها ، والعمل على نشرها وترقيتها الخ ، مما خلّد ذكرهم فى تاريخ الإنسانية ، وكان له أثر كبير فى نزول أعداء الإسلام عن آرائهم السابقة فيه .

فهذا الفيض الأدبى كله الذى نعزوه نحن إلى بركات الإسلام ، ونعتبره من الدلائل الساطعة على أن قيّم الوجود جعل لخاتم رسله آية عامة خالدة ، يحوله الدكتور جوستاف لوبون إلى ما كانت عليه النفس العربية من التطور الموروث ، فينقلب ذلك ، بحسن نية منه ، إلى أكبر شبهة ! لذلك نعد قراءنا ببحث هذا الموضوع بحثا يتفق وخطره ، والله يهدينا سواء السبيل .



لُوبُونْ وَالسيرة المحَمَّدِية (١)

– ٢ –

مناقشة الدكتور جوستاف لوبون فى تعليلاته الحضارة العربية وقيام الأمبراطورية الإسلامية

الدكتور جوستاف لوبون كأكثر العلماء الذين نبغوا فى القرن التاسع عشر ، لا يعترف بوجود حكمة علوية تدبر الكون وتوجه نواميسه ، فهو مضطر لتعليل كل ظاهرة وجودية أو حادثة اجتماعية بعلة طبيعية . ولما اتفق له أن يضع كتابا فى الحضارة العربية ، واقتضى موضوعه هذا أن ينظر فى تاريخ العرب ، وفيما آلوا إليه إلى عهد ظهور الديانة المحمدية ، ثم إلى ما أفضت إليه الأحوال من توحد القبائل العربية ، وتأسيس الامبراطورية الإسلامية ، وما قامت به من احترام حقوق المقهورين ، ومعاملتهم بالعطف والإنصاف ، وتلمس العلم من جميع مظانه ، والتوسع فيه إلى حد ترجمة كتبه المهملة ، مما أحدث حركة فكرية لم يعرفها العالم قبل الإسلام ، حتى صارت الأمم كافة عيالا على المسلمين فى الناحيتين المدنية والثقافية ؛ لما اتفق هذا كله للدكتور جوستاف لوبون ، وأفاض فيه إفاضة لم يسبقه إليها غيره ، لم يسعه إلا أن يشهد بأن ما هو بسبيله تطور لم يسجله التاريخ لأية أمة سبقت المسلمين فى الوجود ، ناهيك أن أوربا اضطرت أن تأتم بهم فى علمها وفلسفتها وصناعتها ثمانية قرون متوالية .

كل هذا وقف الدكتور جوستاف لوبون أمام أمور جلل لا يصح أن تروى رواية دون أن يعلل حدوثها بعلل يقبلها العلم ، وترتضيها الفلسفة . (أولها) تألف أمة قوية الترابط فى مدة وجيزة من قبائل عديدة توارثت الأحقاد منذ قرون كثيرة . (ثانيها) اندفاع هذه الأمة الحديثة فى الفتوح حتى أسست أمبراطورية أكبر من أمبراطورية الرومان فى ثمانين سنة . (ثالثها) إقامة حكومة مركزية

---

(١) نقلاً عن المجلد السابع عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٥ هـ ، ص ١٤٥ وما بعدها .

حكمت مقهوريها بعدل وإنصاف لم تره تلك الشعوب من حكوماتها الوطنية .
(رابعها) تهافت المسلمين على طلب العلم والأخذ بالمدنية الفاضلة حتى أصبحت لهم الزعامة العالمية .

عرض الدكتور جوستاف لوبون لتعليل كل هذه الأحداث الخطيرة على أسلوبه العلمى ، فلم يعترف لمحمد ﷺ ، وهو روح كل هذه النهضات الأدبية ، والمادية ، بنبوة ، ولا للقرآن بقدسية ، على حين أن هذه الانتقالات الفجائية تعتبر عند المسلمين فى درجة الأدلة المحسوسة على صحة هذه النبوة ، ولو كان وفَّى الدكتور لوبون المقام حقه ، من الناحية العلمية لكُنا التمسنا على صحة هذه النبوة أدلة أخرى ، ولكنه لم يوفه حقه ، بل تسامح كثيرا فى قبول آراء لم يقم عليها دليل ليجعل لتعليلاته صبغة علمية .

ولما كان هذا الأمر فى نظرنا جِدّ خطير ، فقد رأينا أن نناقش الدكتور جوستاف لوبون فيما استند عليه فى تعليلاته نجاح الدعوة الإسلامية والأمبراطورية العربية بمحض العلل المادية .

نجاح الدعوة الإسلامية :

قال الفيلسوف الفرنسى الكبير (إرنست رينان) فى كتابه « تاريخ اللغات السامية » :

« لا مكان لبلاد العرب فى تاريخ العالم السياسى والثقافى والدينى قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذى صار به العرب أمة فاتحة مبدعة ، ولم يكن لبلاد العرب شأن فى القرون القديمة حين كانت غارقة فى دياجير ما قبل التاريخ ، ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد » .

نقل هذا القول الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) وعقب عليه بقوله :

« عندنا أن هذا الرأى فاسد ، فإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بغتة على مسرح التاريخ ، فلا يكون ذلك إلا نتيجة نضج بطىء ، ولا يتم تطور

الأشخاص والأمم والنظم والمعتقدات إلا بالتدريج ، ولا تبلغ درجة التطور العالمية التى تبدو للعيان إلا بعد الصعود فى درجات أخرى .

« وإذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ ، قلنا إن هذه الحضارة هى ثمرة ماض طويل ، وإنّ جهلنا لهذا الماضى الطويل لا يعنى عدم وجوده .

ثم قال بعد ذلك : « وقد أثبت العرب أنهم أهل للاقتباس . والعرب الذين استطاعوا فى أقل من قرن ، أن يقيموا دولة عظيمة ، ويبدعوا حضارة عالية جديدة ، هم لا ريب من ذوى القرائح التى لا تتم إلى بتوالى الوراثة ، وبثقافة سابقة مستمرة . فبالعرب لا بأصحاب الجلود الحمر أو الاستراليين ، قد أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التى ظلت ثمانية قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون فى آسيا وأوربا » .

ونحن فى مناقشتنا للدكتور جوستاف لوبون ننبه القراء قبل كل شىء إلى خطأ جسيم وقع فيه ، لو كان تنبه إليه لاتخذ لتحقيقاته طريقا غير الذى تورط فيه . ذلك أن الدعوة الإسلامية لم توجه للعرب خاصة ، ولكنها وجهت للإنسانية عامة ، كما جاء فى الكتاب الكريم : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد عمم رسول الله الدعوة إليها ، وأمر أتباعه بأن يعلنوا ذلك للناس كافة ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . فدخل فيه فى سنين معدودة ، طواعية بدون إكراه ، ما أربى على عدد العرب مرات كثيرة ، وعددهم اليوم يزيد عن عدد العرب أربعين ضعفا .

فالأمة الإسلامية أمة عالمية بطبيعة تكوينها لا أمة عربية فقط ، وموطنها العالم كله لا بقعة واحدة منه . فليس من العجيب أن تبز جميع الأمم فى سمو محصولها وسرعة إنتاجها ، وإنما العجيب الذى كان يجب أن يستوقف نظر الدكتور جوستاف لوبون ، مجىء هذا الدين على هذا النحو العالمى ، وحدوثه فى بيئة لم تكن تعرف معنى الوحدة الاجتماعية حتى للجنس الواحد ، فكان تولده هنالك ضربا من الطفرة التى أجمع العالم على استحالتها ، وهذا محل الإعجاز فى عمل النبى ﷺ .

نعم غفل الدكتور جوستاف لوبون عن هذا الأمر الجلل ، ولما حار فى تعليل سرعة قيام الحضارة الإسلامية وأمبراطوريتها ، أخذ يكد ذهنه فى إعطاء الظنيات من الروايات التاريخية ما لا تحتمله ، من القوى التى تكمن فى نفسية الجماعات ، ثم تتنبه بتأثير دعوة تسوقها للترقى ، وغاب عنه أن الحضارة الإسلامية عمل عالمى ساهمت فيه جميع العبقريات البشرية بعد أن دخلت فى الإسلام وعملت كأعضاء فى جسم المجتمع الإسلامى .

إن الطابع العالمى فى هذا الدين ظاهر إلى حد لا يمكن إنكاره ، بَلْهَ إخفاءه ؛ فهو جلى حتى فى علوم الدين نفسها . ذكر السخاوى فى شرح ألفية الحديث للإمام القرافى أن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) قال يوما للإمام الزهرى : من يسود أهل مكة ؟ قال : عطاء . قال بم سادهم ؟ قال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام : نعم من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن ؟ فقال الزهرى : إمامهم طاووس . ثم سأله عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سمى رجلا كان هشام : يسأله هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يجيبه بقوله : مولى ، إلى أن أتى على ذكر النخعى فقال : إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ويخطب لهم على المنابر !

وكان أقدم الفقهاء الذين أخذ عنهم المسلمون دينهم ، والأئمة مذاهبهم ، غير من ذكرنا وهم الحسن بن أبى الحسن ، ومحمد بن سيرين ، ومجاهد ، وسليمان ابن يسار ، وزيد بن سلم ، ومحمد بن المنكدر ، ونافع بن أبى نجيح ، وربيعة الرأى ، وابن أبى الزناد ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، والأعمش ، ووكيع ، ووهب بن منبه الخ الخ كانوا من أجناس مختلفة ومنهم سود .

كان هذا فى الناحية الدينية ، وهى أشد النواحى إثارة للعصبية الجنسية ، وأما فى العلوم بجميع فروعها فقد اشتركت فى إقامتها فى الأمة الإسلامية أشهر الأجناس العالمية ، فكانت فى ذلك مثال الأخوة الإنسانية الصادقة ، والزمالة العالمية المثالية . ومثل الدكتور جوستاف لوبون لا يجوز أن يجهل ذلك ، فلا غرو أن جاءت الحضارة الإسلامية (طفرة) حاصلة على غاية الإبداع .

ولكن مجال الإعجاز ، هو فى إقامة نظام دينى يصلح لجميع الأجناس البشرية ، ويسمح لضروب العبقريات الإنسانية بالإشراق والازدهار فى ظل سلطانه الوطيد الأركان ، على نحو لم يسبق له مثيل فى أى دور من الأدوار التاريخية ، وبقاء هذا النظام مصدر ثقافة ومدنية للعالم أجمع ثمانية قرون متوالية .

هنا لا يعدم الخصم أن يجد ما يفسر به هذا الحادث الجلل تفسيراً عاديا ، ولكن فى هذا الأمر شيئاً يستعصى على كل تفسير ، وهو أن هذا التطور الخطير ، وعد الإسلام به أتباعه قبل حدوثه بعشرات من السنين ، وذلك فى قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

والمراد بخلافة الأرض أن يكونوا أصحاب الأمر والنهى فيها .

وهى منزلة عالية ، لا تنالها الأمم عفوا ، فلابد من أن يتوافر فيها إلى جانب وفرة عددها بلوغها درجة رفيعة فى العلم والأخلاق ووسائل الحياة الراقية ، مضافا إلى كل ذلك كفاية عقلية وحكمة واسعة ، تصبح بها ذات وجود ممتاز بين الأمم تصلح معه أن تفرض إرادتها عليها ولو بطريقة غير مباشرة ، وهذه الميزة الاجتماعية لا تنال إلا بعد أن يصبح للأمة نظام ثابت يطول عليها الأمد فى الجرى عليه فيصير لها شعارا ؛ وكل هذه الشروط لا يتفق توافرها إلا من طريق الوراثة فى أجيال عديدة متعاقبة . فهلا يدهش الدكتور جوستاف لوبون وهو يخط بقلمه أن الأمة الإسلامية بلغت فى ثمانين سنة ما لم يبلغه الرومان فى ثمانية قرون ؟ وهل يمكن تعليل هذه السرعة بالعلل المعروفة وحدها دون أن تتولاها إرادة قيّم الوجود نفسه ؟

نقول هذا ونحن عارفون بأننا إزاء قوم لا يقولون بنبى ولا نبوة ، بل لا يقولون بوجود تدبير ما فى الوجود كله ، وقد نشأ كل ما فيه اتفاقا بغير مدبر ؛ فهؤلاء أمة وحدهم ، وهم يقلون كل يوم عدداً بتأثير ما يتوالى فى العلم من أدلة على وجود عالم علوى يرب هذا العالم المادى ويدبره .

أما قصارى ما نستطيعه حيال هؤلاء فهو أن نكشف لهم المعضلات التى لا يستطاع حلها ببضعة الأصول الفلسفية التى حذقوا سردها إزاء كل غامضة من الغوامض الاجتماعية ، راجين بهذا أن ندرأ عن أعلام النبوة المحمدية الشبهات التى يثيرها أمثال كتاب الدكتور لوبون .

فلنقف اليوم عند هذا الحد . وإن لنا لعودة بل عودات إلى هذا الموضوع الخطير ، فإن فى ذلك – بقدر ما نرجوه من درءٍ للشبهات – زيادة بيان لمعجزات الإسلام الخالدة .



لُوبُونْ وَالسيرة المحَمَّدِيَة (١)

- ٣ -

تابع لنقد آراء الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب »

ناقشنا الدكتور جوستاف لوبون فى آرائه التى مؤداها : أن الإسلام لم ينجح فى إقامة مدنيته العظيمة فى مدة وجيزة ، إلا لأن العرب كانوا وارثين فى صميم كيانهم لميول قوية نحو المدنية ، بسبب أن أسلافهم كانوا ، فيما يرجحه ، على درجة عالية من مدنية تبارى مدنية البابليين والآشوريين والمصريين القدماء . وكل ما أفادهم الإسلام فى هذا الباب هو أنه جمع بينهم بعد فرقة ، وآخى بينهم بعد تعاد .

واليوم نناقشه فى دعواه : أن العرب إبان البعثة المحمدية كانوا يتوثبون للحصول على توحيد آلهتهم ، وأن سر قوة محمد كان فى عرفانه ذلك . فقد قال ما نصه الحرفى :

« وقد نشأ عن وحدة لغة العرب وحشر آلهتهم فى الكعبة ، إمكان صهر عبادات هذه الآلهة وتحويلها إلى عبادة إله واحد .

« والحق أن وقت جمع العرب على دين واحد ، كان قد حان ، وهذا ما عرفه محمد ، وفى الوجه الذى عرفه فيه سر قوته ، وهو الذى لم يفكر قط فى إقامة دين جديد خلافا لما يتوهم البعض ؛ وهو الذى أنبأ الناس بأن الإله الواحد هو إله بانى الكعبة ، أى إله إبراهيم الذى كان العرب يجلونه ويعظمونه .

« وعلائم اتجاه العرب أيام ظهور محمد إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة ، وما حدث من الثور بالأوثان فى عهد قياصرة الرومان ، حدث مثله فى بلاد العرب ، حيث ضعفت المعتقدات القديمة ، وفقدت الأصنام نفوذها » ا هـ .

ونحن نشرع فى مناقشة الدكتور جوستاف لوبون فى كل هذا فنقول :

---

(١) نقلاً عن المجلّد السابع عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٦ هـ ، ص ١٩٧ وما بعدها .

يتخذ الدكتور من حشر العرب آلهتهم كلها فى الكعبة ، علامة على ميلهم إلى توحيد عباداتهم ، وتحويلها إلى عبادة إله واحد . وهذا خطأ منه كبير ، فإن العرب لم يكونوا شاكين فى آلهتهم ، فلم يؤثر عنهم أنهم تنازعوا فى هذا الموضوع ، أو فضل بعضهم آلهتهم على آلهة بعضهم الآخر . ومثل هذا الصنف كان لا يمكن أن يخفى على المؤرخين ، ولاسيما فى إبان الدعوة الإسلامية ، بل كان القرآن الكريم ينوه به كما نوه بخلافات غيرهم من الأمم إظهاراً لانحلال أديانهم .

فأصنام العرب كافة كانت محترمة لدى العرب كافة ، وجمعها فى الكعبة يشعر بذلك بدليل محسوس ، ولا يشعر قط ، ما دام كل منها له اسم خاص وصورة خاصة ، بأن المقصود من جمعها إلغاء عبادتها والانصراف إلى عبادة الله وحده . وقد بين الكتاب الكريم مقصودهم من عبادة هذه الآلهة فقال تعالى حكاية عنهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » أى لأجل الشفاعة لهم عند الله ، ويؤيده قوله تعالى عن لسانهم : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون » .

وقد ذكر الكتاب الكريم أنهم كانوا شديدى الحرص على عبادة آلهتهم هذه فقال تعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلها واحد إن هذا لشىء عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد * ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » .

فى هذه الآية نص صريح على أن العرب على عهد النبى ﷺ كانوا يعتبرون جعل الآلهة إلها واحدا من الأمور الموجبة للتعجب ، لغرابته وبعده عن عقولهم ، وزادت الآية هذه على ذلك دليلا محسوسا ، وهو أن أحدا فى ذلك الزمان لم يكن يقول بتوحيد الآلهة . وهو قوله تعالى عن لسانهم : « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » أى ما سمعنا أن أحدا قال مثل هذا القول فى الملة الآخرة ، أى فى ديانتنا التى نحن عليها الآن فى عهدنا الأخير ، وعقبوا ذلك بقولهم ما هذا إلا اختلاق .

قال الدكتور جوستاف لوبون : إن محمداً « لم يفكر قط فى إقامة دين جديد ، خلافا لما يتوهم البعض . وهو الذى أنبأ الناس بأن الإله الواحد هو إله بانى الكعبة ، أى إله إبراهيم الذى كان العرب يجلونه ويعظمونه » .

وهنا أيضا نكرر للدكتور لوبون القول بأن العرب كانوا يعتقدون بإله إبراهيم والعالم كله ، وما كانوا يعبدون تلك الآلهة إلا لتشفع لهم عند الله ، فكانت مهمة النبى ﷺ موجهة إلى إفراد الله بالألوهية ، ومحو الوساطة بين الناس وبينه . ويتضح إيمانهم بالله الحق وبشمول قدرته ، وجلال سلطانه ، من الآيات التالية وهى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ؟ بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » .

فمهمة الإسلام فى بلاد العرب كانت لإزالة الإشراك مع الله ، والمعنى المقصود من كلمة التوحيد هو نفى الشريك عنه ، كما صرح تعالى بذلك فى آيات آيات كثيرة ، قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ، وقال : « وإن جاهداك (أى أبواك) على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » .

هذا أساس الدعوة الإسلامية فى دورها الأول ، وقد أرسل محمد ﷺ للدعوة إلى التوحيد فى مكة ، فلبث ثلاث عشرة سنة بين ظهرانى أنجب قبائل العرب وهى قريش ، لم يدع وجها من وجوه التأثير عليهم إلا تذرع به ، فبشر وأنذر ، ورغَّب وروَّع ، وضرب الأمثال ، ودعا إلى النظر والتفكير ، ولم يذر لونا من ألوان الإقناع إلا أتى به على ضروب شتى ، وفى بيان يأخذ بالألباب ، ويستولى على العقول ، حتى وسموه بالشاعر والساحر ، فلم يلب دعوته منهم إلا بضع عشرات فى مدى نحو ثمن قرن ، فهل يعقل بعد ذلك أن الوقت كان قد آن ، كما يقول الدكتور ، إلى قبول عقيدة التوحيد ، وأن محمداً قد أدرك ذلك وهو سر قوته ؟

وقال الدكتور جوستاف لوبون : « وما حدث من الثور بالأوثان فى عهد قياصرة الرومان ، حدث مثله فى بلاد العرب ، حيث ضعفت المعتقدات القديمة ، وفقدت الأصنام نفوذها » .

نقول : يشير الدكتور بهذا الكلام إلى ما حدث فى الدولة الرومانية فى عهد الأمبراطور قونستنتين فى القرن الثالث بعد الميلاد ، وكان الدين الشائع فى ذلك العهد الوثنية الباحنة . واتفق أن الأمبراطور المذكور كان قد رُبى على المسيحية ، فلما آنس أن الدعوة المسيحية قد أثرت فى نفوس الناس ، فاكتسبت فى نحو ثلاثمائة سنة عددا منهم يمكن الاعتماد عليه فى إزالة الوثنية ، وإحلال النصرانية محلها ، أمر جيشه بهدم الهياكل الوثنية فى مملكته ، وتحطيم أصنامها ، وإقامة الديانة النصرانية على أنقاضها ، وتم له ما أراد . فهل يرى الدكتور جوستاف لوبون أنه حدث فى البلاد العربية مثل ذلك ؟

نعم إذا أراد بذلك ما حدث من النبى ﷺ ، بعد أن أثرت دعوته فى أهل يثرب وغيرها من القبائل ، وبعد أن تم له فتح مكة ، وأصبح لا آمِرَ ولا ناهىَ فى بلاد العرب غيره ؛ أى بعد أن جاهد وراء هذه الغاية ثلاثا وعشرين سنة حدثت فى أثنائها وقائع دموية ، ومنازعات تعرض فيها المسلمون لأخطار شديدة .

ولكن القارئ لكلام الدكتور جوستاف لوبون يفهم منه أن العرب قبل عهد النبى ﷺ كان ثاب إليهم رشدهم ، فبرموا بالأصنام فثاروا عليها كما ثار الرومانيون وحطموها تحطيما ، فماذا يكون قد بقى من الجهاد فى هذه السبيل ليقوم به محمد ؟

إن كان هذا ما يريده الدكتور لوبون فالتاريخ لا يؤيده ، ومثل هذا الكيل الجزاف من الأقوال يضعف من الثقة بتأكيداته ، ويجعل القارئ يحتاط للأخذ بشيء منها ، ولاسيما إذا كان رجما بالغيب أو تظنيا . وليس من عدة الباحث القوية أن يلقى بالأقوال إلقاء على هذا النحو ، ليرجح تعليلا يرمى إلى الاعتماد عليه فى أمور جلل كالتى نحن بصددها .

أقول هذا وأنا مقدر عذر الدكتور جوستاف لوبون فى هذا التعسف ، فإن رجلا لا يعتقد بوجود قدرة إلهية بيدها تصريف العقول والقلوب ، وإحداث أمور خارقة للماجريات الطبيعية ، لا يستطيع أن يسيغ عقله أن رجلا واحدا يقوم فى أمة عريقة فى الجاهلية والوثنية فينجح فى أن يحولها فى ثلاث وعشرين سنة ، عن عقيدتها التى توارثتها عشرات من الأجيال ، إلى عقيدة هى المثل الأعلى للتوحيد الخالص والتنزيه المطلق . فمثل هذا الباحث المادى يضطر أن يتلمس كل ما يمكن تلمسه من الأسباب ، ليسوغ لنفسه إمكان حدوث هذا الأمر الجلل فى مدة لا تسمح بحدوث مثله إلا فى أجيال كثيرة .

إن مثل الدكتور جوستاف لوبون يدرك أن رجلا واحدا لا يستطيع أن يحول أمة برمتها عن عادة سخيفة أجمع آحادها على سخافتها ، وذاقوا الويلات فى الإبقاء عليها ، فما ظنك بعقيدة دينية جمدوا عليها قرونا متعاقبة ، ورسخت فى عقولهم ، واطمأنت إليها قلوبهم ، وقامت عليها عاداتهم وتقاليدهم ، وسمحت نفوسهم بأن يبذلوا فى سبيل تأييدها أرواحهم وأموالهم ؟

فماذا تريد أن يفعل الدكتور جوستاف لوبون حيال هذا التطور الدينى المفاجئ غير تصيُّد العلل من هنا وهناك ، وتطلُّب الأسباب من كل قبيل ، ليجعل هذا التحول طبيعيا معقولا ، وهو يؤلف كتابا يريد به أن ينال إعجاب القارئين وإكبارهم ؟

ولكن مثل هذا الوهن فى التعليل إن ساغ لدى الذين لا يهمهم أمر الإسلام ولا أمر النبى الذى دعا إليه ، فإنه لا يمكن أن يسوغ لدى الأمة التى يعنيها أمرهما .

فإن كانت روح الجماعات القائمة اليوم قد اعتادت أن تجد إزاء كل انتقال اجتماعى علة أو عللا مادية تفسر حصوله ، فلا يجوز ، مسايرةً لهذه الروح ، أن نعمى عن التأمل فى حوادث تعلو عن متناول العلل الطبيعية ، مثل هذا الأمر الجلل الذى نحن بسبيله ، ويجب علينا أن نقف بالمرصاد لكل تطرف يحدث من أى متعسف مهما كانت درجته العلمية .

***

لُوبُونْ وَالسيرة المحَمَّدِية (١)

– ٤ –

تابع لنقد آراء الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب »

يقول الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) فى الصفحة ١١٠ منه : إن « علائم اتجاه العرب أمام ظهور محمد إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة » ، وقد عَدَّ من هذه العلامات حشر جميع آلهتهم فى الكعبة ، وقد بينا رأينا فى هذا الأمر مما كتبنا عنه فى العدد الماضى من هذه المجلة .

اكتفى الدكتور لوبون بهذا القول المجمل ، ولم يجئ بشىء من تلك العلائم ، وهى من أهم ما كان يجب الإتيان به تعليلا لحدث جلل ، ليس له شبيه فى تاريخ الإنسانية ، فلم يسمع أن قبائل كانت على أشد ما يكون من التنابذ والتطاحن ، اجتمعت على هيئة أمة فى ثلاث وعشرين سنة ، وأية أمة ؟ أمة لم يعهد لقوة ترابط آحادها ، وشدة تماسك طبقاتها ، ولا لوحدة وجهتها وغايتها ، نظير فى أمم العالم أجمع .

يعرف الدكتور جوستاف لوبون ، باعتبار أنه عالم اجتماعى ، العلائم التى تسبق توحد القبائل ، وأن من أعظمها تأثيراً زوال الأسباب التى أوجبت ذلك التعدد ، وأن من أهم تلك الأسباب نشوء حاجات ماسة إلى التكافل والتعاضد ، كحلول قوم أقوياء بين تلك القبائل يعملون على استعبادها وتسخيرها لإرادتهم ، واستغلال قواها لمصالحهم ؛ فعند ذاك يدفعها ناموس الدفاع عن الذات إلى توحيد صفوفها ، واستجماع قواها ، للتخلص من هذا الشر المستطير ، أو على القليل لصد مطامعهم فيها .

أو حدوث حوادث طبيعية من سيول عَرِمة ، أو انقلابات جيولوجية ، تجعل حياتها فى خطر ، إذا لم تقابلها متضامة متضامنة .

---

(١) نقلاً عن المجلّد السابع عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٥ هـ – ص ٢٤٦ وما بعدها .

أو طروء تطور اقتصادى يفقد الحياة القبيلية مزيتها ، فتتلاشى مميزاتها رويداً رويداً فتنقلب القبائل إلى شعب واحد ، فى مدى أجيال متعاقبة ، لا طفرة ، كما حدث للقبائل العربية ، على عهد النبى ﷺ .

فهل حدث فى البلاد العربية شىء من هذه الأسباب يمكن أن يعلل هذا الانتقال السريع المدهش ، من الحالة القبيلية ، إلى الحالة الشعبية ؟ .

يقول الدكتور جوستاف لوبون فى صفحة (١١٧) من كتابه « حضارة العرب » .

« وقد ترك النبى مكة حين أضحى غير قادر على الدفاع ، فذهب إلى الطائف القريبة من أم القرى ، فلم يصغ أهلوها إلى دعوته ، فاضطر إلى العودة . ثم قال :

« ولم يلبث الأمر أن تبدل ، فتبسم الزمن لمحمد ، فقد اغتنم محمد موسم الحج فدعا إلى دينه أناساً من اليمن التى كانت تنظر إلى مكة بعين الغيرة ، والتى كانت تنتظر ظهور نبى ، فاستهواهم حديث النبى ، فاعتقدوا أنه هو النبى المنتظر ، فحدثوا بذلك أهل يثرب التى كانت تأكلها الغيرة من مكة أيضاً ، فجاءه من هؤلاء رجال كثيرون ، ليستمعوا إليه ، فلم يأمرهم بغير الإيمان بالله ورسوله ، وباليوم الآخر والحساب ، وبالثواب والعقاب ، وبالقضاء والقدر ، مع الصلاة والطهارة والصدق ، واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ؛ فآمنوا به وصدقوه وبايعوه ، ثم انصرفوا للدعوة إلى دينه » ا هـ

نقول كل ما ذكره الدكتور جوستاف لوبون هنا صحيح ، وكان يجب عليه أن يسير فى أمر توحد القبائل العربية سيرًا منطقيًا ، فيجعل أساسه إيمان قبيلتى الأوس والخزرج ، وهما سكان يثرب ، برسالة النبى ﷺ ، ويُرى قراءه فى حدوث هذا الأمر سبباً صحيحاً لتوحد القبائل العربية ، وهو قيام دين أخذت به قبيلتان ، فألفتا معاً نواة للاجتماع جذبت إليها سائر القبائل ، واحدة بعد أخرى ، حتى تم توحدها فى مدى نحو عشر سنين بعد تاريخ الهجرة . فلو كان سلك هذا المسلك العلمى ، للاحت له جميع وجوه العظمة فى قيام الإسلام ، (٢)

واستحالته ، فى وقت لا يكفى لمثله ، إلى قوة عظيمة لا تغالب ، لم تلبث أن اندفعت إلى خارج بلادها ، وأحدثت فى العالم أحداثا لا يمكن تفسيرها تفسيراً طبيعيا معقولا إلا إذا أضيف إليها عامل فوق عوامل الطبيعة المجردة ، لأن اطراد هذا الأمر وبلوغه أقصى مداه ، يشعر بأكثر مما يعطيه العلم فى هذا الانقلاب الذى لا شبيه له فى تاريخ البشر .

لو كان فعل هذا لما اضطر للحوم حول الأباطيل التى ذكرها مثل قوله إن « علائم اتجاه العرب أيام ظهور محمد إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة » ، ولم يذكر من هذه العلائم واحدة غير ما قاله من ثورة العرب بأصنامهم ، وهو ما لم يحدث لا فى عهد النبى ﷺ ولا قبله كما بينا ذلك فى المقال السابق ، ولكنه حدث بأمره حين تم إسلام العرب .

ألا يكون من البديهى الذى لا يتمارى فيها اثنان أن شعور القبائل العربية بضرورة الوحدة الدينية والسياسية لها ، لو كان له وجود ، كان يجب أن يصل إلى أبعد مداه بعد ذلك الحادث الجلل الذى سجل عليها التخاذل فى أشنع مظاهره بغارة أبرهة على مكة سنة ميلاد النبى ﷺ قاصدا تحطيم البيت الحرام ، وهو محج جميع القبائل العربية ، وكانوا قد جعلوه موئلا لجميع أصنامهم ، فلم تثر فيهم هذه الإهانة أقل ميل للاجتماع ، فتركوه يجتاز النجاد والوهاد حتى وصل إلى مكة ، فما كان من أهلها إلا أن التجأوا إلى الجبال هربا من بطشه ؛ ولولا أن الله شغله بكارثة لم تكن فى حسبانه ، لم يتمكن معها من إتمام مقصده ، لتم له ما أراد . أما كانت هذه الحادثة كافية فى إشعار العرب بضرورة الاجتماع لتكوين وحدة دينية وسياسية تصلح لحماية ذمارهم ، وصيانة ديارهم ؟ فماذا كان من أثرها فيهم ؟ بقاؤهم على ما هم عليه من التعادى والتناحر ، والتفرق والتدابر ! ولما أرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم يدعوهم إلى التآلف والتحاب ، والأخذ فى الدين والدنيا بأوثق الأسباب ، كذبوه وسخروا منه ، وبالغوا فى التعجب من دعوته ، ورموه بشتى التهم ، حتى وصموه بالجنون ! « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » .

كل هذا وقريش تعتبر أنجب القبائل العربية ، وأفقهها فى الأمور الدنيوية ، فما ظنك بغيرها ممن لم يروا غير أرضهم وسمائهم ، ولم يعاشروا غير إبلهم وشائهم ؟

يقول الدكتور جوستاف لوبون : إن « علائم اتجاه العرب إلى الوحدة السياسية والدينية كثيرة » . فهذه العلائم التى أجملها الدكتور لا يمكن أن تعدو ما جرت به العادة بين الجماعات من تطوع أفراد بالدعوة إلى توحيد الصفوف ، وبيان فوائد هذا التوحيد من بطلان الحروب ، وانتشار الأمن بين الربوع ، وما فى الاجتماع من بركات فى الإيراد والاستيراد ، وفى تحرير الشعب من ربقة الاستعباد الخ الخ ، وكانت تبقى أخبار تلك المحاولات ، وتخلد أسماء الذين قاموا بها ، وتروى ما كانوا يلقونه من الخطب ، وما ألفوه من المؤتمرات ، فى أسواق العرب المشهورة .

نعم إن الرواة الذين ارتادوا البلاد العربية ، وجاسوا خلال ديارها بعد ظهور الإسلام ، لرواية اللغة وتصحيح ألفاظها ، وجمع ما يمكن جمعه من أشعار الجاهليين وأخبارهم ، لم يأتونا بشىء عن آحاد كانوا يقومون بالدعوة لهذا التوحيد الدينى والاجتماعى ، ولم يقفوا على أثر يدل على شىء ما يتعلق بهذا التطور ، فهل لو كان هنالك شىء من هذا القبيل ، أكان يخفى على هؤلاء الرواة ، أو على العرب أنفسهم الذين قبلوا الدخول فى الإسلام ؟

لقد حدثونا عن الجاهلية وعن حوادث حدثت بين الأفراد والجماعات ، وبالغوا فى ذلك وتباروا فيه حتى جاء أكثره خارجا عن المعقول ، فهل كانوا يصمتون لو كانوا وجدوا فيما سمعوه أثارة مما يدعيه الدكتور جوستاف لوبون ، من محاولات قام بها الجاهليون فى سبيل توحيد القبائل وتوحيد آلهتها ؟

أما ما هو أصدق شاهد على حالة الجاهليين قبل الإسلام ، فهو القرآن ، وقد جاء فيه قوله تعالى حاكيا قول الجاهليين : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشىء عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشىء يراد * ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق » .

قلنا فى المقال السابق إن الدكتور جوستاف باعتبار أنه لا يقول بعامل فى الوجود غير النواميس الطبيعية ، يعذر فى تلمسه الأسباب من هنا وهناك لتعليل نهوض الأمة العربية هذا النهوض الفجائى بسبب خارق للعادة ، ولكنا من ناحيتنا ، نحن الذين نعتقد بأسباب علوية فوق الأسباب العادية ، لا نستطيع أن نغفل نقد تأكيدات الدكتور جوستاف لوبون ، وعدم رد الأمور إلى أسبابها الحقيقية .

وإذا كان مثل الدكتور جوستاف فى سعة أفقه العلمى بأسرار الاجتماع ، يرتكب مثل هذه الوسيلة الضعيفة ، ويلجأ إلى التحسس من أوهى الظنيات ، ليعلل بها أعظم حادث اجتماعى دينى باعترافه هو نفسه ، كان هذا من أدل الأدلة على أنه لم يهتد إلى ما يعلل به هذا الحدث الخطير من المقررات التى تثلج عليها الصدور ، وتطمئن إليها النفوس ، وليس هذا العجز منه بالشيء القليل .

وإذا كان الدكتور جوستاف لوبون قد سلك فى تحرى أسباب نهوض المسلمين هذا المسلك المادى ، وقد عرفنا عذره فيه ، فإنه لم يضن بالإشادة بأعمال النبى ﷺ ، وذهب فى تقديرها مذهب العلماء المنصفين . فقد قال فى صفحة (١٢٧) من كتابه (حضارة العرب) :

« والأمر مهما يكن ، فإن مما لا ريب فيه أن محمداً أصاب فى بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التى ظهرت قبل الإسلام ، ومنها اليهودية والنصرانية ، ولذلك لا نرى حداً لفضل محمد على العرب » .

نقول : ولا لفضله على أوروبا وآسيا ، فقد قال هو نفسه ما نصه فى صفحة ٩٨ :

« قد أنشأ خلفاء محمد تلك المدن الزاهرة التى ظلت ثمانية قرون مراكز للعلوم والآداب والفنون فى آسيا وأوربا » .

ونقل عن الأستاذ ليبرى قوله : « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا عدة قرون » .

وقال هو نفسه فى صفحة (٥٩٠) :

« وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية ، المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوروبا نحو ستة قرون . ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب فى بعض العلوم ، كعلم الطب مثلا ، دام إلى الزمن الحاضر ، فقد شرحت كتب ابن سينا فى مونبيلييه فى أواخر القرن الماضى » .

نقول : يكتب الدكتور جوستاف لوبون كل هذا ويكثر منه ، ويضن أن يعترف لمحمد ﷺ بالنبوة ، وسنعالج ذلك فيما يأتى ، إن شاء الله .



لُوبُونْ وَالسيرة المحَمَّدِية (١)

– ٥ –

تابع لنقد آراء الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب »

نقدنا فى العدد الماضى من هذه المجلة ما قاله الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) ، من أن ظهور محمد ﷺ قد وافق العهد الذى كان فيه العرب يهمون بتوحيد قبائلهم وآلهتهم ، وإلى هذه الموافقة يرجع نجاحه فيما ندب نفسه إليه . واليوم ننقد ما ذكره منْ أنه ﷺ كان مصابا بالمرائى الخيالية فكان يخيل إليه أنه يخاطب الملك ، ويتلقى عنه الوحى من الله ، وهو ما يسميه الأطباء Hallucination ، وقد ترجم الأستاذ محمد عادل زعيتر مترجم كتابه هذه الكلمة (بالهوس) فقال :

« ونرى محمدا الثاقب النظر من الناحية العلمية ، من ذوى الهوس كما هو شأن أكثر مؤسسى الديانات ، وليس فى ذلك ما يحط من قدره ؛ فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين أنشأوا الديانات وقادوا الناس ، وإنما أولو الهوس هم الذين أقاموا الأديان ، وهدموا الدول ، وأثاروا الجموع وذللوا الصعاب ، ولو كان القصد ، لا الهوس ، هو الذى يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر » .

نقول : هذا التعليل للنبوات ضعيف لا يحتمل النقد ، ولجوء مثل الدكتور جوستاف لوبون إليه لا يتفق ومقامه العلمى العظيم ، ولكنه إنما يلجأ إليه ليتفق ومذهبه المادى الذى مؤداه : أن ليس وراء الأشياء المحسوسة عالم يتنزل منه العلم من غير طريق الحواس .

على أننا لما أردنا أن نتحقق من كلمة (هوس) فى الأصل الفرنسى ، رجعنا إليه ، فوجدنا أن الأستاذ محمد عادل زعيتر قد خفف من لهجة المؤلف ،

---

(١) نقلاً عن المجلّد السابع عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٥ هـ ، ص ٢٨٩ وما بعدها .

وهذب منها إلى حد يلاحظ فيه عليه . والظاهر أن الذى حمله على ذلك سوء وقع رأى المؤلف لدى المسلمين ؛ ولكن سنتنا المتبعة منذ أن عالج أوائلنا الرد على الخصوم ، هى أن تورد مذاهبهم كاملة غير منقوصة ، وأن تعطى كل قوتها معنى ومبنى ، ثم يشرع فى الرد عليها . ولما كنا بسبيل دفع الشبهات عن نبوة محمد ﷺ ، رأينا أنه لابد لنا من ترجمة كل ما حذفه الأستاذ زعيتر من كلام المؤلف فى هذا الموطن ، لنرد عليه بما يدحض شبهاته ، قياما بالواجب علينا إزاء السيرة المحمدية التى انتدبنا لوضعها مناسبة للمعارف الحديثة . قال المؤلف نفسه فى صفحة ٩٠ من كتابه (حضارة العرب) :

« قد أكدوا أن محمدا كان مصابا بالصرع ، ولكنى لم أتبين فيه شيئا من ذلك ، وكل ما نعلمه عنه بشهادة معاصريه ، ومنهم زوجته عائشة ، أنه فى أثناء نزول الوحى السماوى عليه ، كان يقع فى حالة خاصة يعتريه فيها احتقان فى الوجه وأنين ، وينتهى ذلك بوقوعه فى إعماء .

« وهو فيما عدا تخيلاته الوهمية كان مثل الكثيرين من المصابين فى عقولهم ، يملك حكما على الأمور جدًّ سليم .

« وعلى حسب وجهة النظر العلمية يجب وضع محمد ، كأكثر مؤسسى الأديان ، فى الأسرة الكبيرة من المعتوهين . ولكن هذا شئ لا يهم إلا قليلا ، إذ ليس الذين يؤسسون الديانات ، ويقودون الرجال هم المتوقرين المفكرين ، ولكن المصابين بالخيالات هم وحدهم الذين يقومون بهذا الدور .

« ومن يتأمل فى أعمال المجانين فى العالم ، يَرَ أنها كانت عظيمة جداً . فهم الذين يؤسسون الديانات ، ويهدمون الأمبراطوريات ، ويثيرون بأصواتهم الجماعات ، وأن أيديهم القوية هى التى تقود الإنسان إلى الآن . فإذا كان العقل لا الجنون هو الذى كان يسود العالم ، لكان مجرى التاريخ على غير ما هو عليه اليوم .

« أما الزعم بأن محمدا كان كاذبا فى دعواه النبوة ، فيظهر لى بوضوح أن مثل هذا الزعم لا يحتمل النقد هنيهة . ولقد استمد محمد من خيالاته التى كان يعتقد صحتها التشجيعات الضرورية للتغلب على كل ما صادفه من العقبات

التى أحاطت بخطواته الأولية ؛ لأن الإنسان يجب عليه أولا أن يكون معتقدا فى نفسه لأجل أن ينجح فى فرض عقيدته على سواه . فهو كان يعتقد أنه مؤيد من الله ، وشعوره بالقوة بسبب هذا التأييد منعه من التقهقر أمام أية عقبة » .

نلتمس من قرائنا عذراً فى نقل كل ما قاله الدكتور جوستاف لوبون فى هذا الموضوع ؛ لأنه رأىُ أصحاب الفلسفة المادية فى أمر النبوات ، وفى تعليل نجاح أصحابها فى تذليل العقبات وفى انتشار الديانات ، وهو رأى يتأثر به أكثر من يطلبون العلم من المسلمين على الطريقة الغربية . فلذلك رأينا أن نعنى به عناية خاصة ، لندفع عن النبوة شبهة ظن أهلها أنهم أتوا من تعليلها ما يثلج عليه الصدر ، ويحل جميع ما يتولد حولها من المعضلات الفلسفية .

لقد كانت كلمة الفلسفة المادية فى النبوة ، أنها مجرد دعوى ينتحلها طلاب السلطان لفرض إرادتهم على أقوامهم على صورة تحملهم على تقديسها ، باعتبار أنها وحى إلهى يجب الإذعان لها وتضحية النفس والمال فى سبيل تنفيذها .

ولكن هذا التعليل تبين ضعفه من دراسة أحوال من شُهروا بالنبوة ، فقد كانوا من قوة الإرادة ، والصبر على الشدائد ، وتحمل الاضطهادات ، بحيث لم يؤثَر عن واحد منهم أنه رجع عن دعوته ، أو ضعف حيال الموت الذى كان يلوِّح قومه له بشبحه المخيف ، فآثروا أن يُقتلوا ، وأن يمثَّل بهم ، على أن يرجعوا عما كانوا يدعون إليه ، وهى شجاعة لم يشاهد لها مثيل فى غيرهم من دعاة المذاهب الفلسفية أو العلمية . فاضطر قادة الفلسفة المادية حيال هذه الظاهرة المدهشة أن يغيروا نظريتهم فى النبوة بأخرى لا ترد عليها هذه الشبهة ، فتخيلوا ما ذكره الدكتور جوستاف لوبون ، وهى أن النبوة حالة جنونية تعترى بعض الذين يفكرون فى العلاقات الروحية بين الله والإنسان ، وفى الأساليب التى يمكن بها إنقاذ البشرية من تسويلات الشيطان ، فيصابوا ، من شدة إدمانهم على الرياضة والتفكير ، بداء عصبى عقام يتخيلون معه أنهم يكلمون الملائكة ، ويتلقون بواسطتهم رسائل عن الله خاصة بإصلاح الناس ، فيهبوا لأدائها ، معتقدين أن الخالق يؤيدهم ولا يدعهم فريسة لأعدائهم ، فيمضون فى القيام بمهمتهم لا يلوون على شىء ، محتقرين كل ما يصيبهم فى سبيلها من أذى ، فلو صادفت هذه الدعوة

قوما يكونون على وشك تطور أدبى ومادى ، انضموا على متنبئيهم متحمسين ، وهبوا لتحقيق ما يوحيه الله إليهم مستبسلين ، وكثيرا ما كان هذا الاندفاع منهم سببا لخير اجتماعى وأدبى عظيم .

فالأنبياء فى نظر الماديين لا يمكن أن يكونوا كاذبين ، لأن الكاذبين لا يمكن أن يصبروا على الابتلاء إلا إلى حد محدود ثم يفتضحون ، ولكنهم من طائفة المتهوسين المصابين بضرب واحد من ضروب الاختلال العقلى ، وقد يكونون فيما عداه من كبار المتعقلين ، وعظماء المفكرين .

هذه هى النظرية التى صاغها أئمة الفلسفة المادية ، ليعللوا بها ظهور الأنبياء ونجاحهم فى إحداث التطورات الأدبية والاجتماعية العظيمة فى العالم الإنسانى . وهى نظرية مؤلفة من عناصر علمية لا تصلح لبناء مثلها إلا من طريق الإكراه ، والإكراه فى مثل هذه الأمور الجسام يعتبر جريمة لا تغتفر ، لما يكون من أثرها فى طمس معالم الحقائق ، وصرف العقول عن المصادر الصحيحة للمعرفة .

نعم إنه مما ثبت طبيا أن المصابين بالهيستريا يتخيلون رؤية أشخاص ويثقون بصحة ما يرونه منهم ، ولا يمكن صرفهم عن هذه الثقة مهما بذل فى إقناعهم .

وثبت أيضا أنه فى بعض الأمراض العصبية ، تتفكك وحدة الشخصية العادية للمصاب ، فيتسرب من خلالها معلومات من عقله الباطن ، أرفع من معلوماته الراهنة ، ومنها أمور غيبية ، فيظن من يسمعه أن المصاب اتصل بعالم الروح وأتى منه بهذه المعلومات .

ولكى يدرك القراء هذا الموضوع نذكر لهم أنه ثبت من التنويم المغناطيسى العميق ، أن للإنسان شخصيتين متميزتين ، إحداهما وهو فى حالته العادية ، والأخرى وهو فى حالة النوم المغناطيسى ، وهذه الأخيرة هى شخصيته الحقيقية لإدراكها لحالتيه ، وتحكمها فى حياتيه . فإذا أوقظ المنوَّم لم يذكر مما جرى له شيئا .

ثبت كل هذا علميا ، فظن قادة الماديين أنهم بهذه المكتشفات أدركوا سر النبوة التى قادت جميع التطورات الاجتماعية للعالم من أول وجوده ، فألفوا نظريتهم

المذكورة آنفا ، فأصبحت النبوة فى رأيهم حالة مرضية تعترى بعض الناس ، فيهبون للدعوة الدينية فى اندفاع لا يعرف هوادة ، ويصادفون نجاحا لا يبلغ عشر عشيره قادة العلم والفلسفة ممن لم يصابوا بمثل أمراضهم .

ويغيب عنهم أن المصابين بهذه الأمراض يكونون عادة ضعافا لا يصلحون لكسب أقواتهم من شدة ما بهم من الآلام الجسمية ، ومن الانحلال الناشئ عن تكرر أدوار التشنجات العصبية ، ومن ضيق الصدر الذى يسببه لهم الأرق المستعصى . ويكونون فوق ذلك ضعاف البنية ، متهدمى الأعضاء . فإذا جد الجد فى خصام حول مسألة ، أو فى دفاع عن حوزة ، أدركهم داؤهم فجمدوا حيث هم لا يصلحون لشىء ، أو صاحوا مذعورين وسقطوا مغشيا عليهم .

وإذا كان جنونهم لا يتعدى موضوعهم ، وهم فيما عدا ذلك أصحاء قويون ، فقدوا الاتزان العقلى ، والمرونة السياسية التى تمليها على القادة مراعاة الأحوال ، ومماشاة الظروف ، وكانوا من الصلابة والتطرف بحيث لا تلين لهم قناة ، وبحيث يندفعون إلى مصادمة الحوادث صداما يتبين منه أتباعهم أنهم لا يصدرون عن حكمة سماوية ، ولكن عن تهور مرضى خطير ، فينتهى أمرهم بفشل عظيم .

إننا نعجب لهؤلاء الماديين كيف يتجاهلون أن معالجة الجماعات تقتضى من الصبر على المكاره ، والأناة فى مضطرب الكوارث ، والحلم فى مزدحم المثيرات للعواطف ، وكل ما يمكن أن تمليه الكياسة وبعد النظر وتقدير العواقب على من قُدر عليهم هداية الجماهير الجاهلة وقيادة النفوس الجامحة ، ومداورة الأهواء المتغلبة ؛ ولا يعقل أن يطيق صبراً على هذه المهمة الشاقة سنين طويلة رجال مضطربو الأعصاب إلى حد أن يصدق تسميتهم بالمعتوهين !

وهنا أمر جدير بالتأمل وهو أن الأنبياء فى اتصالهم بالملائكة ، يتلقون منهم وحيا يستفيدُون منه علماً يمكنهم من أداء مهمتهم ، ورشداً يتذرعون به للوصول إلى غايتهم ، وكثيراً ما توحى إليهم أمور غيبية تختص بمستقبل أقوامهم وأمم العالم أجمع . بل قد يتفق أن يُلقى إليهم وحى يلومهم على بعض ما وقع منهم ، فهل تعتبر نظرية الماديين فى النبوة كافية فى تعليل ما ذكرت فيصبح الاختلال العصبى ،

أو الجنون فى تعبير الدكتور جوستاف لوبون ، معدنا للعلم والحكمة ، ومصدرا لعوامل أعظم التطورات الاجتماعية فى العالم ؟ وهل يعقل أن يكون العالم الإنسانى كله فى خلال آلاف مؤلفة من السنين ، تابعا فى أخص مطالب روحه ، وفى أهم أدوار تطوراته الاجتماعية ، لتخيلات جنونية للمتهوسين ، وللاضطرابات المخيّة للهستيريّين .

لنضرب لما نقوله مثلا بصلح الحديبية . وذلك أنه فى السنة السادسة من الهجرة أخبر النبى ﷺ أصحابه أنه يريد العمرة بمكة ، وخرج ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه ، وليس معهم من السلاح إلا السيوف فى قربها . ولما بلغ النبى وأصحابه ضاحية مكة أرسلت إليه قريش رسولا تسأله عما يريده . فأخبره رسول الله بأنه جاء معتمراً ولم يرد حرباً . فقالت قريش : والله لا كان ذلك أبداً وفيناً عين تطرف . فأرسل النبى إليهم عثمان رسولا ومعه عشرة ، فاعتقلوهم . عند ذلك قال النبى : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب ودعا أصحابه للبيعة على القتال .

عند ذاك خافت قريش المغبة ، فأرسلت سهيل بن عمرو ؛ ليكلم النبى فى الصلح ، فأبى حتى يردوا عثمان ومن معه . فقال مندوبهم : نفعل ذلك إذا أطلقت أسرانا ، وكان قد أسر منهم خمسين رجلاً ، فأطلقهم ، وعرضت قريش شروط الصلح وهى :

(١) وقف الحرب أربع سنوات .

(٢) من التجأ منهم إلى النبى مسلماً فعليه أن يرده ، ومن لجأ من أصحابه إليهم فلا يردونه .

(٣) أن يرجع المسلمون هذا العام بغير عمرة ، وأن يأتوا فى العام المقبل .

(٤) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش فله ذلك ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش سمح له به .

قبل النبى كل هذه الشروط ، ولكن المسلمين أجمعوا على أنها مهينة لكرامتهم ، وراجعوه فى أمرها ، فأصر على موقفه منها ، قائلاً إنه قد أوحى إليه بقبولها . فأطاعوه على مضض وكادوا لا يفعلون .

فكانت ثمرة هذه المعاهدة خيرا وبركة على المسلمين ، فإنه لما استقر الأمن بين المؤمنين والمشركين ، حدثت بين الفريقين مقابلات ومباحثات ، فأسلم من قادة المشركين رجال كانوا عدتهم إذا جد الجد ، فانكسرت شرة قريش ، فلما غزاها النبى ﷺ لم تقو على المقاومة .

فهل يمكن أن تعزى هذه المداورة التى لم يفقه جيش برمته لها معنى ، والتى تتطلب حكمة عالية ، إلى عمل الاضطرابات الهستيرية ، والخيالات المرضية ؟

إن من ضروب الجرأة الشائنة أن يخنع الماديون لمثل هذا الرأى المزرى بكرامة الفلسفة والحاط من قدرها وقدر الذوق العلمى السليم معاً .

هنا نكرر ما سبق لنا قوله من أن الماديين لنكرانهم وجود عالم الروح ، يتلمسون العلل من هنا وهناك ليستطيعوا أن يحموا جبهتهم المذهبية من الانهيار ، ولكن الفتوحات العلمية الحديثة فى البحوث النفسية ، كشفت تلك الجبهة ، وجعلتها عرضة لما لا قبل لها به من عوامل التحطيم ، فلم يعد لمثل تعليلاتهم التى ذكرناها من أثر فى العقول .



تاريخ حياة محمد [١]

بقلم المستر فرانك هـ . فوستر

شبهات داحضة وحملة فاشلة

— ١ —

نُبهنا إلى مقالة نشرت فى مجلة العالم الإسلامى التى تصدر بالولايات المتحدة بأمريكا (the Moslem World) اشتملت على مطاعن فى خاتم المرسلين ﷺ فرأينا أن نلخصها تباعا ، ونرد على ما جاء فيها من الأخطاء التاريخية والأضاليل المتعمدة . قال المستر فرانك هـ . فوستر كاتبها ما ملخصه :

« إن الكتابة الوحيدة التى وصلتنا من محمد فى تاريخ حياته هى ما جمع منها فى القرآن ، وهى وإن كانت غير مستوعبة لجميع ما تجب معرفته عنه فقد جمعت الكثير من حوادثه . والقرآن هو المصدر الوحيد الذى يصح الاعتماد عليه فيما نحن بصدده . أما التواريخ العديدة التى كتبت بعده بقرون كثيرة بأقلام كتاب متحيزين فليست لها قيمة فى نظرنا .

ثم شرع يورد حياة محمد ﷺ على أسلوبه فقال :

« قبل ألف وخمسمائة سنة (كذا) ، ظهر فى مكة رجل اسمه محمد ادعى أنه نبى ، فكان يجمع حوله جماهير من الناس فى مسجد مكة العظيم أو فى الطرقات ويخطبهم قائلا : إن الله أوحى إليه قوله : « اقرأ باسم ربك » .

« فلم يصدقه سامعوه ، إذ لم يتصف بصفات الرسل ، ولم يكن شخصا غير عادى ، محتجين بأنه يسير فى الشوارع ويأكل الطعام ، فهلا أنزل معه ملك يؤيده ؟ ولم يتساءلوا ما هى الصفات التى تجعله رسولا ، فكذبوه ولم يحفلوا برسالته .

---

(١) نقلاً عن المجلّد السابع من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٥ — هـ ص ٣٥١ وما بعدها .

« ولقد تركَنا محمد فى جهل من ناحيته ، فلم يخبرنا بشىء عن مولده ، ولا عن أسرته ، ولا عن حياته فى صغره ، غير ما قاله من أنه كان يتيما ، وأن الله عصمه من الزلل ، وأغناه بعد عيلته . ولاشك فى أن هذا الغنى الذى ناله ولم يبينه كان يستمد المعونة منه وهو نبى أيام إقامته بمكة .

« وفى الجملة قد أثار محمد على نفسه الازدراء بدعواه الرسالة عند ظهوره . وقد دعا نفسه النبى الأمى ، وهذا ما لا يمكن قبوله لأنه كان فى حاجة لأن يكرر قراءة كتابه أحيانا ليستظهره . ومع ذلك فلسنا نستنتج من عدم أميته أنه كان ذا اطلاع واسع ، فإنه لم يظهر شيئا من سمات المتعلمين الأدبية .

« ولم يذكر لنا شيئا عن زواجه ، ولكن المعروف أنه كانت له زوجات ، لأنه كان يذكرهن ، ولكنه لم يعين لنا أسماءهن . كذلك لم ينوه بشىء عن أسرته وعشيرته ، ولكن يمكننا أن نقول إنه كان من بيت ماجد ، فقد كانت أبهة السؤدد تبدو فى كلامه منذ الساعة الأولى ، دالة على أنه كان ناشئا من بيئة ذات سلطان .

« ولا يوجد فى القرآن ما يدل على صناعته أو تجارته فى السنين التى سبقت رسالته . ولكن المعروف أنه كان يزاول التجارة ، بدليل أنه أمر فيما بعد أن يمتنع عنها . وأن ملاحظاته الدقيقة فى الطبيعة ، والأمور الجارية فى المناطق البعيدة عن مكة ، تدل على أنه لابد أن يكون قد سافر إلى خارج البلاد العربية » .

« ولا مناص من القول بأنه اتصل باليهود والنصارى فى وقت ما ، لأنه أرانا أنه يعرف قصص كتبهم التاريخية ، ويعرف التحريفات الشائعة فى الإنجيل » .

« هذا ملخص المعلومات الضئيلة التى أعطاناها محمد عن حياته قبل أن يبعث رسولا » .

هذه مقدمة بَحْث المستر فرانك هـ . فوستر ، وقد وضعها تحت رقم ١ ، ونحن قبل مجاوزتها إلى ما كتبه تحت رقم ٢ نرى أن لابد من مناقشته فيها :

ردنا على ما ورد فى هذه المقدمة :

لا يدهشنا أن يكون فى الناس من لا يزال يكذّب برسالة النبى ﷺ ، ولكن يدهشنا أن نقرأ عن رجال ينزلون أنفسهم منازل الهداة والمرشدين أنهم يعتدون

على أبسط قواعد الدستور العلمى فى بحوث فلسفية على أعظم جانب من الخطورة . ذلك أن المستر فرانك يخوض فى نفسية أعظم رجل فى التاريخ ، بشهادة الأجانب أنفسهم ، معتمدا على أصل اعتقادى موروث ، وهو أنه كان نبيا كاذبا . ولكن هذا الأصل الموروث لا يصلح أن يكون أساسا لبحث فلسفى خطير كالذى هو بصدده . فقد كان يجب عليه أولا أن يقيم الدليل القاطع على أنه كان كاذبا فى دعواه النبوة . فإنْ نجح فى ذلك من طريق علمى مستقل لا أثر للوراثة الاعتقادية فيه ، ساغ له أن يبحث فى نفسيته من ذلك الطريق العلمى نفسه . أما وهو لم يفعل ، فقد ارتكب خطأً فاضحاً ، وصار كل ما قاله بعد ذلك فى عرف المعاصرين مبنيا على عقيدة سابقة . وإنى سأبين فى هذه العجالة جميع ما طوحت به فيه تلك العقيدة من المضالّ ، وما أوقعته فيه من الأخطاء الفاحشة ، والنظرات المضللة فنقول :

يظهر لنا أن المستر فرانك لم يقرأ سيرة النبى ﷺ ، فقد قال : إنه كان فى مبدأ ظهوره يجمع الناس حوله فى مسجد مكة أو فى الطرقات ويخطبهم بأنه نبى ، فكذبه الناس ولم يؤمنوا به .

وكان الذى وقع أنه فى أول ظهوره دعا الناس سرا ، فآمن به عشرات منهم رجالا ونساء ، ثم أمره الله أن يجمع عشيرته الأقربين ويدعوهم للإسلام مجاهرا بالدعوة ، ثم أمره أن يدعو الناس جميعا واعدا إياه بأنه يعصمه منهم ، ففعل ، ثم كان ما كان من انتشار الإسلام حتى عم جزيرة العرب كلها ، ثم تجاوزها حتى وصل إلى أقصى حدود الصين شرقا ، وأقصى حدود أوربا غربا ، فى عشرات معدودة من السنين ، مما لم يحدث مثله لدين من الأديان . فأعفى المستر فرانك نفسه من ذكر هذه النتيجة التى تعتبر من أجلّ الآيات الإلهية ، واكتفى بأن قال : فكذبه الناس ولم يؤمنوا به . ثم انتقل إلى سرد تاريخه من الكتاب الذى أنزل إليه ، باعتبار أنه هو الذى كتبه محمد بيده ، وشرع يعيب عليه أنه أغفل فيه ذكر تاريخ مولده ، وحالة أسرته ، غير ما قاله من أنه كان يتيما وأن الله عصمه من الخطأ ، وأنه أغناه ولم يبين مبلغ هذا الغنى الخ الخ .

هذا طراز طريف فى بحث النبوات ، ولكنها طرافة لا يُغبط عليها المستر فرانك ، لأن القرآن قُدِّم إلى الناس باعتبار أنه كتاب جامع لتعاليم الإسلام ، لا باعتبار أنه كتاب تاريخ لحياة محمد ، حتى يسوغ للمستر فرانك أن يحصى عليه إغفالات ليست من موضوعه .

وإذا كان القرآن لم يذكر تفصيل حياة محمد ﷺ ، فهل ذكر موسى عليه السلام تفصيل تاريخه فى توراته ، غير ما كتبه خلفاؤه بعد وفاته ؟ وهل ذكر عيسى عليه السلام مثل ذلك فى كل ما قاله لبنى إسرائيل من تعاليمه ؟ وهل يستطيع المستر فرانك أن يأتينا بكتاب دينى واحد يذكر حياة الرسول الذى جاء به بتفصيل يوفى بشروطه ؟

وإذا كان هذا لا وجود له ، فكيف يطالب به القرآن الكريم ويسجل عليه خلوه منه ؟

إن الذى حدا المستر فرانك لأن يرتكب هذا الشطط هو مضيه مع عقيدته الموروثة ، وهى أن محمداً كان مدعياً ولم يكن نبياً . فإذا سلمنا له هذا جدلاً ، فلا يكون لما أحصاه على القرآن محل أيضاً ، فإن الادعاء يقتضى المحاكاة لا الشذوذ . فلا ندرى بعد هذا حكمة ما سجله المستر فرانك على القرآن من هذه الناحية !

وقد حاول المستر فرانك تشكيك قرائه فى أمية محمد ﷺ ، وكل ما استطاع أن يستند إليه من الشبهات قوله : ليس من الممكن أن يكون محمد عاجزاً عن القراءة لاضطراره إليها من أجل استظهار كتابه بتكرار تلاوته .

أما التشكيك فى أمية النبى ﷺ فمحاولة محكوم عليها بالفشل من أول صدمة ، لأن هذه الأمية كانت إحدى الآيات التى تحدى الله بها الشاكّين فى صدق نبوته ، فلو كان غير أمى فى الواقع ، لأصبح تأثيرها معكوسا ، كما هو الحال فى كل معلوم يُتحدى الناس بضده .

هب أن محمداً كان قارئاً كاتباً ، أفكان بهذه الميزة وحدها يرتفع عن مستوى معاصريه ، فيأتى بكتاب يعتبرونه معجزة ، ويصلح أن يكون دستوراً لملك لا تغرب عن ولاياته الشمس قرونا كثيرة ، وأساسا لتطورات اجتماعية ومدنية

للشعوب الآخذة به توصلهم إلى زعامة العالم كله فى العلم والفلسفة والفنون والصنائع والسياسة فى سنين قليلة ؟

هذه أعمال لا أقول إنها تشرف متخرجا فى أكبر جامعة علمية ، ولكنى أقول إنها أعجزت جميع عباقرة العالم مجتمعين .

ولكن المستر فرانك يتجاهل كل هذه الحوادث التى لا يوجد فى تاريخ البشر ما يماثلها ، ويقفنا أمام موضوع تافه عقيم قال فيه الدهر قوله الفصل ، رجاء أن يكون فى إثارة الشك فى أمية محمد ، بابٌ يفتح إلى التكذيب بنبوته ، متذرعا بذلك إلى إثبات أنه ما دام يقرأ ويكتب فيكون هو الذى وضع القرآن ونسبه إلى الله .

إذا كانت القراءة والكتابة وسيلة للتشكيك فى كتب الله وصدق رسله ، فهذانِ موسى وعيسى كانا يقرءان ويكتبان ، فهل قَوَّلا الله ما لم يقل ، وهل قالا إنهما رسولان وهما كاذبان ؟

ولكن أمية محمد ﷺ ثبتت بإجماع أمة برمتها كانت مطلعة على أحواله وأطواره ، من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، فهل من المعقول أن يُخرق هذا الإجماع لا لشىء غير أنه لا يلائم هوى بعض أعدائه ممن أتى بعده بنحو أربعة عشر قرناً ؟

قال المستر فرانك عقب التشكيك فى أمية النبى ﷺ : « ومع ذلك فلسنا نستنتج من عدم أميته أنه كان ذا اطلاع واسع ، فإنه لم يظهر شيئا من سمات المتعلمين الأدبية » .

لم يقل محمد ﷺ عن نفسه ولا قال أحد من المسلمين عنه : إنه كان ذا اطلاع واسع ، وإنه فعل ما فعل بعلمه ، وغزارة مادته ، ولكنه قال ، وردده المسلمون معه ، بأن كل ما أتى به وحى من ربه . وهذا لا ينافى سمو فطرته ، ووفور عقله ، وصفاء ذهنه ، فإن الله لا يصطفى لرسالته إلا أكمل خلقه .

فإن كان المستر فرانك يستدل من القرآن على ما يقوله باعتبار أنه من كلام محمد ، وأنه فى جملته لا يدل على سعة اطلاع كاتبه ، فهو لم يقرأ القرآن ، وإن كان قرأه فقد سدل على عقله حجابا من تعصبه .

لقد تبين للذين درسوا القرآن تحت ضوء الفلسفة الحديثة ، أنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يُقَوِّم عوج النفوس ، ويعدِّل أَوَد العقول ، ويوقظ أشرف غرائز الشخصية الإنسانية ، ويدفعها فى طريق السمو الروحانى ، إلا أحصاها على أكمل الوجوه ، راسما لها أقوم الطرق ، ومتخيراً لها أقرب الوسائل .

وقد اتضح لأولئك الناظرين أن كل ما جاء به كبار العباقرة من الأصول الأصيلة ، والمبادئ النبيلة ، وما قرره المصلحون من الأسس الركينة ، والوطائد المكينة للاجتماع والسياسة والشريعة ، قد سبقهم القرآن إليها فى بيان لا يدع محلا للتردد ، ولا موضعا للتشكك . وقد حَفِيت أقلامنا فى سرد هذه الآيات الكبر وتطبيقها على الحوادث ، ولم نَبُلّ بعدُ منها أُواما ، ولم نبلغ مراما ، وقد شهد بهذا كله رجال من الأقطاب ليسوا من أهل هذه الملة ، لا يحصون كثرة ، من أمثال جوت الألمانى ولامرتين الفرنسى وبرناردشو الإنجليزى ، وليس فى هؤلاء إلا عبقرى طبقت الأرضَ شهرتُه ، وعمت الأقطار فلسفته .

فإذا لم يكن محمد أميا ، ولكنه كان أستاذاً جامعياً ، وافترِض أنه كتب هذا القرآن ، لَعُدَّ بهذا وحده آية من آيات الله فى خلقه ، ولبُحِث له عن درجة عقلية فوق العبقرية ، لأن العبقرية إنما تظهر فى الفرع الواحد من العلم أو الفن ، لا فى كل ما يختص بإصلاح الإنسانية جملة .

ومما هو بليغ الأثر فى التدليل الحسى ، أن هذا القرآن أوجد أمة عالمية من العدم ، لم تلبث إلا سنين معدودة حتى سادت العالم كله علما وعملا ، وسموا روحانيا وكمالا ماديا . فمن يجرؤ بعد هذا أن يقول إن ما نَصِف به القرآن شعر حملت عليه العقيدة الوراثية ، أو خيالٌ قضت به العصبية الدينية ؟

يقول المستر فرانك : « وفى الجملة فقد أثار محمد على نفسه الازدراء بدعواه الرسالة عند ظهوره » ، كرر هذه العبارة مرتين فى موضعين ، ظناً منه أنها تقدح فى رسالته ، كأن الرسالة لا تكون صحيحة إلا إذا قوبلت بالإيمان من أول وهلة . فهل نسى أن موسى وعيسى قوبلا بمثل هذا الازدراء عينه ، وأحدهما لازمه هذا الازدراء إلى يوم وفاته ، وعومل معاملة اللصوص وقطاع الطرق فى زعمه ؟

وقال المستر فرانك متابعا طريقته : « ولم يذكر لنا محمد شيئاً عن زواجه ، ولكن المعروف أنه كانت له زوجات ، فلم يعين لنا أسماءهن ، ولم ينوه كذلك بشيء عن أسرته وعشيرته الخ » .

هذه الإغفالات إن اعتبرت عيوبا فهى كذلك بالنسبة لكتاب وضعه صاحبه لبيان تاريخه الشخصى ، ولكنها لا تعيب كتاباً وضع للناس كافة كما قدمنا ، أفلا تعجب من إلحاح المستر فرانك عليها ، حتى جعلها موضوع فصله الأول كله . وقد أشبعنا الكلام فى هذا فلا نعود إليه .

فى العدد المقبل ننشر ملخص فصله الثانى ، ونرد عليه كما فعلناه مع الفصل الأول إن شاء الله .



تاريخ حياة محمد (١)

بقلم فرانك هـ . فوستر

شبهات واهنة ، وحملة فاشلة

– ٢ –

نأتى اليوم على ترجمة الفصل الثانى من مقالة المستر فرانك هـ . فوستر التى نشرها فى مجلة العالم الإسلامى (the Moslem World) التى تطبع فى الولايات المتحدة بأمريكا ، ثم نناقشها الحساب كما فعلنا بفصلها الأول . قال الكاتب :

« ومع كل ما مر فإن القرآن قد بين بجلاء شخصية محمد ، ولو أن ذلك قد حدث من غير قصد ، فإن مجرد وجود القرآن يستدل منه على نشاطه العقلى العظيم ، وهو أول خطوة فى سبيل إيجاد نثر فى الأدب العربى . وبذلك يمكن اعتباره عملاً جليلاً . كما يتضح من سوره ، ولاسيما الأوائل منها .

« وقد كان محمدا داعياً قديراً تتدفق العبارات من فمه كالسيل الجارف حتى يغص بها ، ولا يبقى منها غير كلمات مفردة أو مزدوجة . واستشهد على ما يقوله بسورة التكاثر وقال إنها لا معنى لها !

« ولقد كان رجلا صعب المراس ، قد يندفع فى خطابه كما ورد فى السورة السادسة والتسعين من الآية الثالثة عشرة إلى السادسة عشرة ، وقد يقطع المناقشة بسكون مدهش مقرراً أن من الناس من خلقوا للجحيم ، أو يرمى خصمه بوصف مهين متوحش . ولكنه رغماً عن هذا كان ذا عزيمة هادئة وإن كانت مصممة .

« تابع عمله فى مكة سنين دون أن يصادف نجاحا ، ولكن عزيمته لم تفل . فقد كان يتحمل المثبطات ولا يشكو منها ، ويظهر صبرا عظيما حيالها ، ثم يعاود

---

(١) نقلاً عن المجلّد السابع من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٥ هـ – ص ٣٩٢ وما بعدها .

دعوته مرة بعد أخرى من غير أن يظهر اضطرابا ، استمر على ذلك سنين دون أن يقبل دعوته أحد .

« ولقد يأخذ الإنسان العجب من شدة تواضعه على قوة إيمانه برسالته وبسلطانه الدينى .

« كان محمد رجلا عاديا مهمته قاصرة على الدعوة ، فلم يدّع أن له قوة غير طبيعية ، أو أنه قادر على إحداث الخوارق ، ولم يتبجح بأنه منزه عن الذنوب ، بل إنه اعترف فى بعض الأحوال بلوم الله له . راجع السورة التاسعة والعشرين .

« وقد أكثر محمد من التنويه بعطفه على بنى الإنسان وحدبه على قومه . ومن مزاياه العقلية عدم تأثره بالبيئة التى نشأ فيها ، ورفعه نفسه عنها .

« ولقد كان على جانب من قوة الخيال الشرقية ، يتضح ذلك من وصفه للنعيم والجحيم ، ومن السور الشعرية التى قالها فى أوائل أيامه .

« وكان يقظ الفكر على الدوام ، شديد الملاحظة للأمور . وكان أكبر ما يعاب به عدم قدرته على المناقشة والمحاجة ، وإنه لعيب عظيم . فلم تكن له طريقة منتظمة ولا تعاليم مرتبة فى المجادلة ، يشبهه فى ذلك جميع العرب الذين كانوا معاصرين له . لذلك كان يعمد للتكرار الذى لا ينتهى للتدليل على ما يريد . فكان يعجز أحياناً عن صوغ الحجة لمناقشته خصمه بعيداً عن الموضوع الذى هو بصدده (انظر السورة السادسة والعشرين) .

« لم يسلم محمد من العقائد الخرافية والمبادئ الإباحية بتأثير بيئته كما هو متوقع ، فقد اعتقد فى الجن ، وأباح لنفسه ولغيره رذيلة تعدد الزوجات واتخاذ السرارى ، وترى هذه الإباحة حتى فى وصفه للفردوس » انتهى الفصل الثانى .

ردنا على هذا الفصل :

إن المستر فوستر بعد أن ثلج صدره ، بلا دليل كما رأيت ، على أن محمداً ﷺ لم يكن نبياً ، وأنه جاء بهذا القرآن من عنده ونسبه إلى الله تعالى ، شرع يحاكمه على كل ما جاء فيه مما لا يرتضيه ذوقه ، غير معتد بالأحوال التى

أحاطت بالدعوة الإسلامية ، ولا بالأقوام الجاهليين الذين دُعوا للدين وهم فى وثنية منحطة ، ولا بالمناسبات والملابسات التى يمكن أن يوجد فيها داع فى تلك البيئة الشديدة الوطأة .

فنحن نتجاوز عن كل ما قاله فى نسبة القرآن للنبى ، وفى أنه كان أول من أوجد النثر فى الأدب العربى ، وفى نشاطه العقلى العظيم ، وفى قدرته الخطابية ، ولكنا نؤاخذه على ما حاول فيه أن يطمس الحقيقة أو يضلل القارئ عن الواقع .

من ذلك ما زعمه من أن سورة التكاثر من العبارات التى كانت تأتى عقب تدفق السيول الخطابية الجارفة من فم النبى ﷺ ، فتضيق عباراته حتى تنتهى إلى كلمات مفردة أو مزدوجة ، وزعم أن تلك السورة لا معنى لها .

نوجه ذهن القارئ قبل كل شئ إلى أن النبى ﷺ لم يكن يلقى خطابا على قومه ، ولكنه كان يدعوهم إلى الإسلام ويتلو عليهم القرآن . وكثير من آيات القرآن كانت تنزل بمقتضى الحوادث ، فللسورة التى يذكرها المستر فرانك سبب نزول ، وهو أن بنى عبد مناف وبنى سهم تباهوا بالكثرة فكاثرهم الأولون . فقال بنو سهم : فاخرونا بالأحياء والأموات . فعدوا الأموات فغلب بنو سهم . فنزلت هذه السورة تبكيتا لهم ، وهى فى أسمى درجات البلاغة ، فلا هى خالية من المعنى ، ولا هى ذيل خطبة حارت ألفاظها فى فم ملقيها فنثرها أزواجا وفرادى . فإليك سورة التكاثر : ﴿ أَلْهَـٰكُمُ التَّكَاثُرُ * حتى زُرتم المقابر * (أى حتى زرتموها لتعدوا الأموات) كَلاَّ سوف تعلمون * ثم كَلاَّ سوف تعلمون * (كرر الجملة للتهويل والتأكيد) كَلاَّ لو تعلمون علم اليقين * لَترَوُنَّ الجحيم * ثم لَترَوُنَّها عَيْنَ اليقين * ثم لَتُسألُنَّ يومئذ عن النعيم ﴾ .

فمن الذى يستطيع أن يرى فى هذه السورة مغمزاً من أى نوع كان غير متعنت يريد أن يصد عن سبيل الله ويبغيها عوجاً ؟!

يقول المستر فرانك : كان محمد رجلاً شديد الشكيمة قد كان يندفع فى الكلام ، كما فعل فى سورة العلق ، وقد يقطع المحاجة بنداء مدهشٍ ويُنَـوِّهُ بِخَلْقٍ خُلقوا للجحيم ، كما فعل فى الآية الثامنة والسبعين بعد المائة من سورة الأعراف ،

أو ينهيها بكنية قارصة متوحشة .

بحثنا فى سورة الأعراف عن الآية الثامنة والسبعين فإذا بها قوله تعالى : « ولقد ذَرَأْنا لجهنّم كثيراً من الجن والإنس لَهُم قلوب لا يفْقَهون بها ، ولهم أعين لا يُبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضَلُّ أولئك هم الغافلون » . أما الكنية القارصة المتوحشة فلم يذكر مثالاً لها .

والقارئ لا يحس بذلك الدهش الذى يذكره المستر فرانك عند قراءته لهذه الآية ، فإن الله يقول : إنه خلق لجهنم كثيراً من الإنس والجن ، وصفهم بأنهم الذين يعطلون مواهبهم عن القيام بما خلقت له ، فلهم قلوب ولكنهم لا يستفيدون منها فى التمييز بين الحق والباطل ، ولهم أعين ولكنهم لا يستخدمونها فى رؤية ما خلق الله من شىء للاعتبار به ، ولهم آذان ولكنهم لا يصغون إلى الهداة للانتفاع بالعمل بما يُفضون به إليهم ، أفَترى أن هذه الكائنات المتحجرة يوقظ إنسانيتها النائمة أقل من أن يقال لهم إن الله خلق لجهنم خلقا كثيراً أنتم منهم أيها الغافلون ؟

يظهر لنا أن المستر فرانك يجهل كثيراً من مقررات علم النفس ، وكثيراً من ضروب العلاجات التى تؤثر فيها . فالنفوس الخامدة الهامدة التى أماتتها المادة لا يوقظها من سباتها إلا عبارات قوية الفعل ، شديدة التأثير ، من قبيل هذه الآية الكريمة . وفى الكتاب الكريم من ألوان التعبيرات ما يصلح لعلاج كل نفس ، لذلك كان تأثيره فى تلك القلوب الجاهلية المتحجرة أبلغ تأثير لم يُرَ له مثيل فى حياة جماعة من الجماعات .

هذا ما نذكره فيما يتعلق بالآية الثامنة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة ، وقد رأيت أن ليس فيها ما يدهش ، إلا إذا أراد ما يدهش ، من شدة الروعة ، وعمق التأثير ، وسمو التعبير .

أما ما ذكره من الكنية القارصة المتوحشة ولم يضرب له مثلا ، فنتركه حتى يبينه .

ثم ألمّ المستر فرانك بشيء من شمائل النبى ﷺ ، فذكر ما كان عليه من قوة العزيمة ، وشدة الإرادة ، وحسن الاحتمال للمكاره ، وعدم الاكتراث بالمثبطات ، والتجرد عن الاضطراب والخور ، ووفور تواضعه على رسوخ إيمانه برسالته ، وثقته بسمو مهمته ، ولم يغفل ذكر عطفه على بنى الإنسان ، وحدبه على قومه ، وعدم تأثره بالعوامل التى كانت سائدة فى بيئته ، واستطاعته التخلص من شرها ورفع نفسه عن مستواها ، ويقظة فكره ، وقوة ملاحظته .

ألم المستر فرانك بكل هذا ، ولم يسائل نفسه : هل يمكن أن تكون هذه الصفات الجليلة كلها لغير رسول أو نبى ؟ وهل يتأتى أن تجتمع كلها لأفاك مدع ؟

اعترف المستر فرانك بأن محمداً ﷺ أمضى فى مكة على هذه الحالة سنين كثيرة ، ناله فيها من الاضطهادات ما لا يستطاع الصبر عليه . فهل يعقل أن يصبر على هذه الشدائد الهائلة منتحل لأكبر المهام العلوية ، دون أن تخونه قواه ، وتغدر به عزيمته ، ويفتضح أمره ، ويتشتت أنصاره ، ويصيبه ما أصاب كل كذاب أشر ؟

إذا كان هذا معقولاً فأى فرق يكون بين أرقى درجات الفضيلة وأخس دركات الرذيلة ، وأى قسطاس يمكن أن توزن به مواهب رسول إلهى ، وأحابيل دجال ظُلْمانى ؟ وكيف يتأتى للبشر بعد هذا أن يستدلوا على مظهر الروح الإلهى ، وأثر النفث الشيطانى ، وبخاصة إذا تكللت دعوة المحتالين بالنجاح التام ، وأثمرت أعظم الثمرات الأدبية ، لأمة كانت فى أخريات الأمم ، فأورثها الله خلافة الأرض قرونا كثيرة ، وتعددت الأصول الإصلاحية التى نفثها فى روعها إلى العالم أجمع ، فأدت إلى إصلاح عام لم تر الإنسانية له مثيلاً من قبل ؟

أما اطلع المستر فرانك هـ . فوستر على مبادئ علم النفس ليعرف أن النفوس الكاذبة الخاطئة ، التى تستسيغ الغش والتزوير ، لا يتأتى أن تصدر عنها إلا مبادئ ساقطة من جنس ما جبلت عليه من الخبث وفساد الطوية ؟

وقال المستر فرانك أيضا : « إن أكبر عيب فى محمد كان عجزه عن متابعة المحاجة ، وإنه لعيب عظيم ، فلم تكن له طريقة منتظمة ، ولا أصول مرتبة مثله

فى ذلك كمثل جميع العرب على عهده الخ » .

فى هذه الشبهة لا يزال المستر فرانك يجرى على وهمه الأول ، وهو أن محمداً ﷺ هو الذى وضع القرآن ، فيعيب عليه ما يعيبه الناقد على مؤلف . فأين المستر فرانك من الواقع حيال هذه الشبهة ؟

إن هذا القرآن الذى يعيبه بما يعيب به محمداً ، كان أثره أن أحال أمة برمتها من وثنية منحطة إلى توحيد سام ، ومن جاهلية جهلاء لا تعرف أصلاً كريماً ، ولا مبدأ شريفاً غير القوة الغاشمة وحكم الحديد والنار ، إلى حالة من السمو الأدبى والروحانى لم تعهد فى أمة منذ خلق الله العالم إلى اليوم .

فهل هذا كله نتيجة الحَصَر عن مواصلة المحاجة ، والعِىِّ عن الإفصاح بالحجة ، والانقطاع عن متابعة الجدل ؟

إن صح هذا فقد حبب المستر فرانك هذه العيوب الكلامية إلى الناس ، وجعلهم يُشكّون فى هل هى عيوب فى الواقع ؟

إن المستر فرانك قرأ القرآن أو بعضه لا قراءة باحث منزه عن الغرض ، غير مختزن فى نفسه فكرة موروثة عن الإسلام وما يتعلق به ، ولكن قراءة متعنت مدخر على القرآن والرسول الذى أتى به ، أسوأ ما يدخره رجل متعصب على غيره ، فلم ير فى القرآن غير ما يرى المحصور فى دائرة ضيقة من وهمه .

أما بلغ المستر فرانك أن رجالاً عباقرة قد شهدوا لهذا الدين بالسمو ، حتى حكموا بأن له العافية لاشك فيها ، فهل قرروا ذلك لقصور حجته ، وقلة مادته ، أم لعمايتهم عما رآه هو بثقوب نظره ، ورجوح عقله ؟

وقال المستر فرانك : إن محمداً لم يسلم من العقائد الخرافية والمبادئ الإباحية ، فقد اعتقد بوجود الجن ، وأباح لنفسه ولغيره رذيلة تعدد الزوجات واتخاذ السرارى .

ونحن لا ندرى لم يكون القول بوجود الجن من العقائد الخرافية ؟ ألدينا دليل قاطع على أن العالم ليس فيه إلا العوالم التى تقع تحت الحس مباشرة ؟

أما رأى أن العالم اليوم ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، قد غص بالبحوث النفسية الدالة على وجود العالم الروحانى ، وعلى أنه يموج بالكائنات المتجردة عن المادة ، وقد جعل الباحثون شعارهم الأسلوب العلمى الدقيق المؤيد بالتجارب الحسية ؟

أما قرأ التوراة والإنجيل ورأى فيهما أن موسى وعيسى كانا يعتقدان بوجود الجن ، وأن الأخير عليه السلام كان يخرجها من أجساد المرضى ويطردها بعيداً عنهم ؟

أمّا قوله : إن محمداً ﷺ لم يسلم من المبادئ الإباحية لسماحه بتعدد الزوجات ، فهو خلط بين الإباحة والشريعة . فالإباحة هى إطلاق الحرية للنفوس ترتكب باسم الحرية كل ما يبدو لها من الانحرافات الخلقية ، كشرب الخمر والمقامرة والفسق الخ ، والشريعة تحدد تلك الحرية فى دائرة الآداب الكريمة ، والأخلاق القويمة .

وقد أباح الإسلام تعدد الزوجات لتعذر كَبْت الطبيعة البشرية ، وقصر الرجال على زوجة واحدة . والدليل على ذلك أن المسيحية لم تستطع أن تحمى المجتمع هذا الشر ، فانتشرت المخادنات فى البلاد التى تسود فيها ، والمخادنة شر اجتماعى خطير نتائجه لا تقف عند حد .

وقد أحل موسى عليه السلام تعدد الزوجات ، فهل يتهمه المستر فرانك هـ . فوستر بهذه النقيصة أيضا ؟

اللهم إنه لا يستطيع ذلك ، فلم إذن يكيل بكيلين ، ويحاكم بقانونين ؟!



حياة محمد (١)

بقلم الدكتور هـ . فوستر

شبهات داحضة ، وحملة فاشلة

– ٣ –

نأتى اليوم على ملخص ما أورده الدكتور فوستر من الشبهات على رسالة محمد ﷺ فى مجلة (ذى مسلم وورلد) التى تصدر بنيورك ، ونتبعها بما يدحضها من الحقائق التى لا يختلف فيها اثنان .

ملخص شبهات الدكتور فوستر ، قال :

« إن محمداً وإن كان قد أعلن عن نبوته مفاجأة ، فإنه كان قد استعدّ لها استعداداً عظيماً من اتصاله باليهود والنصارى .

« لا يوجد شك فى أن محمداً نشأ على دين آبائه مشركاً ، ويحتمل أن اشمئزازه من عبادة الأوثان ومن ذيوع الشرور والآثام بين أهل مكة إذ ذاك ، قد دفعاه إلى الرجوع لدين قومه القديم وهو دين إبراهيم . فقد ألح فى أنه كان الدين السائد عليهم » .

« ولكن الأكثر احتمالاً أن فكرة التوحيد جاءته من محادثاته مع اليهود والنصارى ، ولكونه لا يعرف العبرية ولا اليونانية ، فلم تتح له فرصة الاطلاع على هذين الدينين فى مصادرهما الأولية ، ولكنه تلقف حكايات عنهما من البسطاء لا المتعلمين ، لذلك سرت إليه تلك التحريفات الغريبة والإضافات ، مما أقحم فى الإنجيل بعد نزوله ، وهى نتيجة الخيال البشرى الذى لا يقف عند حد ، فأساء محمد فهم المسيحية ، ولكنه لم ينكر أن اليهودية والنصرانية كانتا من آثار العناية الإلهية لإنقاذ الناس من الشرور ، وكان الإسلام فى اعتقاده آخر الأديان وأكملها » .

---

(١) نقلاً عن المجلّد السابع من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٥ هـ – ص ٥٣٢ وما بعدها .

« إن محمداً يجنح إلى توحيد اليهود أكثر من جنوحه إلى توحيد النّصارى ، هو لم يفهم روح المسيح . وقد كانت المسيحية الشرقية على عهده غرقة فى الطقوس الدينية الملتاثة بالوثنية ، حتى نسيت الفدية والغفران والإخاء مع الله ، وطاعة قانون الحب العام . لذلك عاقبها الله بأن سلط عليها سيل الإسلام المدمر . وإن الكنيسة الغربية اليوم التى لا تعنى بغير الشعائر الدينية ، وفن البناء ، وجمع الثراء ، تعرض نفسها لسقوط شبيه بذلك السقوط .

« وإن أحاديثه مع أهل الديانات الكبرى وإن كانت أكثر تأثيراً فى إعداده لعمله الذى قام به ، فإن لاقتداره الشخصى فى استغلال شوق الناس إلى النعيم العظيم ، وهلعهم من العذاب المقيم ، تأثيراً أيضا فى جذب الناس إلى ديانته ، فقد كان من هذه الناحية يبز (دانتى) فى الوصف وسعة الخيال » .

ردُّنا على هذه الشبهات :

يقول الدكتور فوستر : إن محمداً قد استعد لنبوته استعداداً عظيماً باختلاطه باليهود والنصارى ، ولم يقل كيف يكون الاستعداد للنبوة ؟

لا مشاحة فى أنه يريد بالنبوة النبوة الكاذبة ، ويريد بالاستعداد لها أن يتعلم مدعيها المسائل التى تعنى بها الأديان ، والأساليب التى تتبعها فى بث تعاليمها ، والفلسفة التى تدعمها بها .

فأما المسائل التى تعنى بها الأديان فلا يجهلها أحد ، سواء أكان وثنياً أو موحداً ، لأنها ميراث عام للبشر كافة ، وهى لا تعدو سبع مسائل رئيسية ، وهى العقيدة فى الله وفى الروح ، والخلود فى حياة بعد هذه الحياة ، وفى وجود العالم الروحانى ، وفى الأنبياء والمرسلين والكتب الإلهية ، وفى صحة العقاب والثواب الأخرويين ، وما يتبع ذلك من الدعوة إلى عقائل الأخلاق ، وكرائم الآداب .

بقيت الأساليب التى تتبعها الأديان فى بث تعاليمها ، والفلسفة التى تستند على أصولها فى تدعيمها ، مما أطلق عليه اسم علم اللاهوت ، وهذا هو الذى يحتاج لدراسة طويلة ، وتفكير عميق .

فهل هذا العلم هو الذى استعدّ محمد ﷺ بتلقيه لدور النبوة الذى قام به ؟

لا يعترف الدكتور فوستر بذلك ، وهو يقرر أن محمداً لم يقابل إلا العامة والسذج الأميين من اليهود والنصارى ، فلم يحصل منهم إلا ما هم أهل للإفضاء به من الأوهام والأكاذيب ، حتى إنهم لم يستطيعوا أن يفهموه حقيقة المسيح . فإذا اعتمدنا على قوله هذا أصبحنا لم نفهم معنى قوله إن محمداً استعد لادعاء النبوة استعداداً عظيماً بمقابلته لرجال من تينك الملتين . فهل الاستعداد العظيم لادعاء النبوة يكون بتلقف معلومات ناقصة وخرافية (كما يقول) من عامة أهل دينين سابقين ؟

وإذا كان ادعاء النبوة والنجاح فيها إلى الحد الذى بلغه محمد ﷺ يتم بتصيد معلومات ناقصة من عامة بعض الأمم المتدينة ، فلم لم ينجح فى دعوى النبوة العدد العديد من المغامرين الذين جمعوا بين أدق ضروب الختل والخداع ، ثقافة علمية عالية ، فكان جزاؤهم أن افتضح أمرهم ، وباءوا بخزى عظيم ؟

دعوى النبوة على القليل ككل دعوى لا تقوم على قدميها حتى يسندها دليل عملى . فمن ادعى الشعر أو الكتابة أو الفلسفة أو أى صناعة أخرى عقلية أو مادية ، أمهله الناس حتى يقدم الدليل على ما يقوم من قرض الشعر ، أو تحبير المقالات ، أو بسط الآراء والمذاهب وتحليلها واستخلاص لبابها الخ ، فإن لم يفعل ، أو فعل ولم يحسن ، لُفِظ لفْظ النواة ، وكتب فى سجل المدعين .

فدعوى النبوة أمر جلل ، وهى تمس أخص حالات الإنسان النفسية والعقلية ، والنجاح فيها لا يكفى فيه الدليل القاطع فحسب ، ولكن يجب أن يصحبه سمو خلقى عظيم ، وتأثير روحانى كبير . وليس فى تاريخ العالم من الناحية الدينية ما يشبه النجاح الباهر الذى أصابه محمد ﷺ عقب دعواه النبوة . فالمسألة كما يقول العبقرى الإنجليزى الكبير (كارلايل) : « ماذا تطلب من الأدلة على صدق من يدعى لك أنه بنّاء أكثر من أن يبنى لك صرحا يبقى أكثر من ألف ومائتى عام ، ويؤوى أكثر من مائتى مليون نسمة ؟ » .

وإذا أصر الدكتور فوستر على أن الأنبياء الكذبة قد ينجحون فى خدع ألوف الملايين من الناس فى عدد عديد من القرون ، فقد أبطل حجة الله على عباده ، ولم يكن هناك وجه لمؤاخذة أحد على الأخذ بأى دين أراد ما دامت لا توجد أوصاف مميزة للصادقين فى دعواهم والكاذبين ، وما دام التأييد الإلهى يصيب هؤلاء وأولئك بدون تفريق ، وهذا ما لم يسمع به فى عهد من عهود العقلية الإنسانية .

يبدى الدكتور فوستر الثقة كلها فى أن محمداً كان فى أول أمره مشركاً ، ثم اهتدى إلى التوحيد من اختلاطه بالنصارى واليهود .

فأما أنه كان مشركاً فليس لدى الدكتور فوستر عليه لا دليل ولا شبه دليل ، غير ما يتملكه من عاطفة التحيز وشهوة التحقير . وإنا لنعتبر نفيه الشك عن هذا الموضوع من ضروب الجرأة التى لا يسمح بها لباحث فى القرن العشرين ، إلا إذا كان بيده حجة محسوسة على ما يقول . وأين هى من الدكتور فوستر فى العالم الجديد ؟ أنصّت على ذلك الكتب السماوية التى بين يديه ، وقد أنزل آخرها قبل بعثة محمد ﷺ بستة قرون ؟ أم عثر فى بعض رحلاته فى بلاد العرب على كتابات حجرية ، أو محفورات وثنية تشير إلى ما يدعيه ، ولم تعلم عنه رحلة واحدة إلى بلاد العرب ، ولم يعثر غيره على شىء من هذا القبيل ؟

وهل عدم الشرك قبل النبوة شرط فى حصولها بواسطة الهداية الإلهية ؟ لم يقل بذلك ذو عقل فى العالمين . فإن كان قالها الدكتور فوستر بصيغة التأكيد وليس عنده عليها شبه دليل ، فقد طعن فى كفايته للبحث ، وشكك الناس فى كل ما يقول ، فإنه ليس من صفات المتثبتين أن يسرفوا فى تأكيداتهم وفى ترجيحاتهم ، بل فى ظنونهم ، بغير أثارة من دليل .

وأما أن محمداً ﷺ أخذ التوحيد عن النصارى واليهود ، فهو من أغرب ما يقوله باحث غير رشيد .

فمتى كان التوحيد مجهولاً فى عهد من عهود البشر حتى يضطر أحد الناس ، وإن كان فى أحط دركات الغباء ، أن يتعلمه من الغير ؟ يجوز أن يكون

فى البله والمعتوهين ، وفى الأطفال فى سنتهم الثانية ، من يجهل الاثنين والثلاثة ، ولكن ليس فيهم من يجهل الواحد على وجه التعيين .

فإن كان أمر يقتضى أن يسبقه التعليم والتلقين من أمور الدين ، فذلك يعقل فيما يُدّعى فى ذات الله من التثنية والتثليث ، أو ما فوق هذا القدر من التعديد ، أما التوحيد فلا يعقل أن يُجهل بوجه من الوجوه ، ولاسيما وقد أثبت الدكتور الكبير ماكس موللر من اطلاعه على أقدم المخطوطات لدى الهنود والصينيين ، أن الديانة العالمية كان أساسها التوحيد ، وما نشأ التعديد إلا بعد أن لعب الخيال دوره من قريب .

على أنه ماذا أخذ محمد ﷺ عن اليهود والنصارى الذين كانوا فى بلاده عن العقيدة بالتوحيد ، وقد تولاهم الكتاب الكريم عليها بالنقد ، ونعى عليهم ما تغابوا فيه عن سلطان العقل ، وما تورطوا فيه من حمأة الجهل ، حتى قال فيهم : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

أما ما قاله الدكتور فوستر : أن محمداً لم يلق إلا الجاهلين الأميين من اليهود والنصارى ، فتلقف عنهم خرافات عقائدهم مما أدمج فى الكتب المقدسة وأضيف إليها وليس منها ، فذلك أعجب من كل ما مر . فإذا كان الدكتور فوستر يقول إن التوراة والإنجيل قد كابدا تحريفاً وأدخل إليهما إضافات ليست منهما ، وألحقت باليهودية والمسيحية خرافات لا تمت إليهما بسبب ، فليبين لنا ذلك بصراحة يمكن الاعتماد عليها .

أما القرآن الكريم فلم يتناول بالنقد إلا ما كان عليه اليهود والنصارى وما لا يزالون عليه رسميا إلى اليوم .

ولا ننكر أن فى هاتين الملتين رجالاً لهم على كتابيهما نقد عظيم ، ونظرات صادقة بعيدة المدى ، ولكنهم معتبرون كفرة أو مبتدعة فى نظر اليهود والنصارى ، فهل فوستر من هؤلاء ؟

وإن كان هو منهم وجب عليه أن يعظم القرآن ويعترف بإمامته باعتبار أنه أول من فتح عيون البشر للنقد ، ووجهها للنظر والتمحيص .

ولكن الدكتور فوستر ليس من هؤلاء ، فإنه لا يزال يقول إن محمداً لم يفهم المسيح ، وهذا يُشعر بأن له فهما فى المسيح غير ما يفهمه الإنسان لأول وهلة . إن كان كذلك فله فهمه ، ولكن الناس وفى مقدمتهم أولو العلم والحكمة فى جميع الأجيال لا يستطيعون أن يفهموا إلا ما دل عليه القرآن من أمر عيسى عليه السلام ، وهو أنه رسول من رسل الله المكرمين ؟



ويلز ونبى الإسلام [1]
فى كتاب (مختصر تاريخ العالم)

يوجد كتاب باللغة الإنجليزية ، متداول فى مصر وغيرها ، اسمه : (مختصر تاريخ العالم) ، (A short history of the World) لمؤلف يدعى هـ . جـ . ويلز ، أتى فيه بنتف من تاريخ الأمم ورجالاتها ، ألم فيه بذكر لمعة من تاريخ الأمة العربية ، صدرها بفصل فى النبى ﷺ ، قال فيه :

« إنه تزوج بعدد من الزوجات فى شيخوخته . وإذا قيست حياته على العموم بالمقاييس الحديثة ، كانت حياة لا تأخذ بالأبصار . ويظهر أنه كان مركباً من كثير من الغرور والطمع والمكر وخداع النفس ، كما كان مخلصاً فى شدة عاطفته الدينية . وقد أملى كتاباً من الأوامر والقصص اسمه القرآن ، قال إنه أوحى إليه من عند الله ، إذا نظر فيه من الناحية الأدبية أو الفلسفية كان غير جدير بنسبته إلى الله » .

هذا ما قاله المستر ويلز ، وهو لغو كنا نستطيع أن نمر به مر الكرام ، لأن فى الأرض ألوفاً من الكتب تحيط النبى ﷺ بمثل هذا السقط من الكلام ، وفيما نكتبه كل يوم دحض موجه لها جملة ، لولا أن هذا الكتاب وقع لبعض نجباء طلبة كلية الشريعة ، فرفعوه لحضرة صاحب الفضيلة شيخها الموقر ، وطلبوا إليه أن يعمل على دفع هذه الفِرَى حفظاً لكرامة الإسلام . فكان حقاً علينا ، وقد انتشر هذا اللغو بين أيدى الطلبة وغيرهم ، أن نخصه برد حاسم ، فنقول :

هل تعديد الزوجات يقدح فى النبوة ؟

يكثر خصوم الإسلام من ذكر تعديد النبى ﷺ للزوجات ، ويعتبرونه دليلاً على توفره على الشهوات . وقد صرح كثير منهم بأن من كان هذا شأنه لا يصلح أن يكون نبياً . ولو تأملوا لرأوا أنه تزوج أكثر هذه الزوجات لأغراض

---

(١) نقلاً عن المجلّد العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ هـ – ص ٣٠٥ وما بعدها .

اجتماعية ، إما لإيواء ذات رحم ، أو لإحداث صلة من الصهارة تفيده فيما هو بصدده من تمكين ربط المجتمع الإسلامى الحديث ، أو لإبطال عادة جاهلية من طريق عملى مؤثر الخ .

على أننا لو جردنا زواجه من جميع هذه الأغراض الجليلة ، فإن تعدد الزوجات فى بيئة كان يربى فيها عدد الإناث على عدد الذكور ، إرباء يجر إلى تعطيل عدد من النساء من الزواج ، لا يعتبر عملاً شائناً . وقد كانت بلاد العرب ممنوة بالغارات والحروب ، حتى كان يكاد لا ينتهى الرجال فيها إلى عهد من السلام إلا ليستعدوا فيه لغارات أو حروب جديدة . ولاشك فى أن هذه الحالة ، التى دامت قروناً ، تكون قد جعلت عدد النساء فيها أكثر من عدد الرجال ، وهى نتيجة طبيعية لا مفر منها . (راجع كتاب علم الاجتماع للعلامة سبنسر) .

على أن المؤلف يدين بالمسيحية ، ويعتد بالتوراة ، وهى تشهد بأن من كبار الأنبياء من عدّد الزوجات حتى بلغ بعضهم بهن مائة زوجة ، فلم لم يشهّر بهم المستر ويلز كما شهّر بخاتم الأنبياء ﷺ ؟

الغرض من هذا التشهير ظاهر ، ولكن المعول على شهادة الحوادث ، فهل شهدت بأن محمداً كان مشغولاً بشهواته ، كما يؤثر عن الملوك الشهوانيين فى التاريخ ؟ التاريخ لا يحابى أحداً ، وقد اعترف بأن محمداً كان يشغل ساعات طويلة من ليله متهجداً ، وكان يطيل فى ركوعه وسجوده إلى ما يوازى قراءة خمسين آية من القرآن وأكثر ، وكان يستيقظ مبكراً فيصلى بالناس ، وكان ينظر فى شئونهم ومنازعاتهم معظم يومه ؛ أثِر عنه كل هذا ولم يؤثر عنه ما عُرف من سيرة الشهوانيين من إهمال الشئون العامة ، وتمضية الليل فى الشرب والغناء ، وسط سرب من النساء . أين هذا من بيوت رسول الله ﷺ التى كانت فى حقيقتها محاريب للنسك والعبادات ، لا مسرحاً للشهوات ؟ إن شئت دليلاً على ذلك فاتل قوله تعالى : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً * وقرن فى بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً * واذكرن ما يتلى

فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ . فهل هذه بيوت رجل شهوانى ؟ وإن لم تكن البيوت التى يقر نساؤها فيها مشتغلات بالصلاة والزكاة والطاعة ، وتاليات آيات الله والحكمة ، إن لم تكن هذا البيوت بيوت نبى فبيوت أى صنف من الناس تكون ؟

خل هذا جانباً :

خل هذا جانباً ، فالملاحاة فيه لا تساوى قيمة المداد الذى تكتب به ، وهات قول المستر ويلز : إذا قيست حياة محمد بالمقاييس الحديثة كانت حياة لا تأخذ بالأبصار ! الخ .

لا مشاحة أنه يريد بهذا القول أن حياته كانت ساذجة ، أى حياة فرد من سواد الناس ، ليس فيها ما يأخذ بالأبصار ، كما فى حياة الأفذاذ من الرجال إذا قدرت بالمعايير الحديثة ؛ أى أنه لم يكن بالخطيب المفوّه ، ولا بالشاعر الفحل ، ولا بالكاتب المبدع ، ولا بالمشترع المحيط بالأصول ، وكل ما فيه أنه كان ذا نفسية مؤلفة من خليط من صفات غير شريفة ، كالغرور والطمع والمكر وخداع النفس ، ولكنه مع ذلك كان مخلصاً فى شدة عاطفته الدينية !

نقول : أما أن حياة محمد الشخصية قبل النبوة ، كانت لا تستلفت الأنظار ، فصحيح ، لأنه عاش أربعين سنة فلم يشتهر بشىء أكثر من أنه كان قويم السيرة أميناً ، وهذا من أقوى أدلة المسلمين على نبوته ؛ فإن رجلاً يمضى زهرة الشبيبة ، وهى عهد التوثب لبلوغ المجد ، والتطلع لتحقيق المطامع ، ساكناً وادعاً ، حتى إذا شارف سن الكهولة ، هب بهمة لا تعرف الملل لجمع البشرية كلها على كلمة جامعة ، مضحياً فى سبيلها بنفسه وماله وصفاء باله ، واجداً من جرائها من الاضطهاد وضروب الأذى ما لا قبل لأحد على احتماله ، فى مدة لا تقل عن ثلاث وعشرين سنة ، ثم يضطر بعدها لتمضية بقية حياته فى جلاد وجهاد لتحقيق ما يرمى إليه ؛ قلنا : إن رجلاً يكون على هذه الشاكلة ، لا يعقل أن يكون قد صدر فى التحول الذى حدث فى سيرته ، عن هوى فى نفسه ، أو خبث فى طويته ؛ ولكن عن أمر جلل ، لا يكون أقل من النبوة ، لأن ما حققه

من الأمور العظيمة فى كهولته وشيخوخته ، لا يمكن أن يعقل تحققه فى مثل تلك المدة اليسيرة على يد رجل ملتاث بأقذاء الغرور والطمع والمكر وخداع النفس ، وهى الصفات التى وصفه بها المستر ويلز مؤرخنا مذ اليوم .

ولو كان نشأ محمد على حال تلفت الأنظار من المواهب : خطيباً مصقعاً ، أو شاعراً مفلقاً ، أو عالماً محققاً ، لكان المستر ويلز أول من يشك فى نبوته ، ويرفع عقيرته قائلاً : لا جرم أن رجلاً يسترعى الأنظار منذ نشأته ، فيقرع الأسماع بسحره ، ويستهوى النفوس بشعره ، لجدير بأن يمتلئ قلبه غروراً ، وصدره مطامع ، وخليق به أن يستخدم كل وسيلة من المكر والخداع والتزوير ليصل إلى التسلط على قومه . فما أعجب حال المستر ويلز وهو يدعى أن محمداً كان مجرداً من كل ما يلفت النظر إليه ، أن يسرد أعماله ، إن كان مؤرخاً جديراً بهذا اللقب ، من تأليف أمة ، ووضع ديانة ، وسن قانون ، وتحطيم وثنية ، ووضع أسس اجتماعية ، تصلح لإيصال أمته إلى خلافة الله فى الأرض فى سنين معدودة !

إيه مستر ويلز ! أين تَثَبُّت المؤرخ الناقد ؟ أين تدقيق الاجتماعى الممحص ؟ أين تحقيق البسيكلوجى المطلع ؟ إن نسبة كل هذه الشئون الجسام ، التى حققها محمد ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة ، وعجز عن تحقيق واحد منها فى مثل درجة الكمال التى هى عليه فى الدين الإسلامى أكبر عباقرة الأرض ، إلى بضع حالات نفسية خبيثة كالتى وصفت بها محمداً جزافاً ، لا يعتبر عملاً تاريخياً يوجب الاحترام ، ولكنه يعتبر ثمرة لتعصب دينى ذميم ، أو لجهل فاضح ، لا يصح أن يدرج فى صلب التاريخ .

لعل المستر ويلز يتخيل محمداً رجلاً دفعته وساوسه فى سن الكهولة ، أن يقوم بتأسيس دين ليعد فى زمرة القديسين ، فألف مجموعاً من عقائد خرافية ، وآداب سطحية ، وقام بنشرها بين ظهرانى قومه ، فاتبعه رجال منهم ، فنهض بهم لمقارعة خصومه ، وتمكن بعد عدة معارك من إجبارهم على مشايعته ! وغاب عنه ، والهوى يعمى ويصم ، أن الدين الذى أتى به محمد كله مُثل عليا لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأن هذا الدين نفسه قد أودع فيه كل ما يصلح لتطوير المجتمع الذى يقوم عليه ، ولم يزل به حتى يوصله لزعامة الأرض

فى سنين معدودة . أما رأى أنه قد قامت به أمم وسقطت أمم ، وبعثت به علوم كانت دفنت فأزهرت وزيد عليها زيادات لا تزال محل إعجاب العلماء إلى اليوم ، وتغيرت جغرافية العالم تغيرا لم تكابده فى عهد من العهود ، وانتعشت بما أدخل إليها من العناصر المحيية حتى صارت أما للمدنية الحديثة ، إلا ما التاثت به من قشور وبدع ؟ فإذا كان المستر ويلز يورد إلى ذهنه كل ما تم على يد المسلمين بسبب الإسلام لخجل أن يصف مثير كل تلك الحركة التى لم تشهد الأمم لها شبيهًا ، بما وصفه به من الصفات الذميمة ، ولركز بحثه فى هذه النفسية السامية كل السمو ، وهى نفسية محمد التى حملت أعباء الوحى السماوى ، وكانت واسطة فى إيصال كل هذا الخير إلى سكان الأرض .

كتاب محمد فى نظر المستر ويلز :

يقول المستر ويلز : « وقد أملى محمد كتاباً من الأوامر والقصص اسمه القرآن ، زاعماً أنه أوحى به إليه من عند الله ، وإذا نظرنا إلى هذا القرآن ، من الناحية الأدبية والفلسفية كان غير جدير بنسبته إلى الإله ! » .

لا جرم أن هذا أمر يؤسف له ، ويدل إما على تعمد الاستخفاف ، وهو لا يصدر إلا عن تعصب ذميم ، أو عن جهل ، وهو لا يغفر لمؤلف فى التاريخ ، والتاريخ فى عرف أهل العصر الحاضر يقتضى درس العلل الأولية للحوادث الكبرى وآثارها المترتبة عليها ، وما أدت إليه من الانقلابات فى خلال القرون ؛ ويستدعى تحليل نفسيات الشعوب وقابلياتها ، ونفسيات قاداتها ، ومكانة تعاليمهم من الأصول المقررة ، والحقائق الثابتة .

فأول ما كان يجب على المستر ويلز ، أن يدرس ما كان عليه العرب من الأحوال الاجتماعية ، وما طرأ عليهم بسبب هذا الدين ، وأن يدقق فى معرفة الغايات التى قام عليها هذا الاجتماع ، وما يحتمل أن تتأدى إليه الجماعة بالاتجاه إليها ، مع عدم إغفال عوامل التطور المودعة فى هذه التعاليم ، وما عسى أن توصل إليه ، وقيمة ما فيه من الآداب والوصايا من علم البسيكولوجيا ، وما يتوقع أن تفضى إليه بالسير عليها ، ومبلغ ما انتهى إليه حالها فعلاً ؛ كل هذا أغفله المستر ويلز ،

ولذلك لم يتبين له من أمر القرآن إلا ما تلقاه فى المدرسة الأولية التى أمضى أول سنى حياته فيها ، وهو أنه كتاب لا قيمة له ، وضعه رجل عربى لتقوم عليه قبائل بدوية ؛ ولكن هذا الضرب من التسرع فى إصدار الأحكام ليس من الآداب العلمية فى شىء .

إذا كان القرآن متى نظر إليه من الناحية الأدبية والفلسفية ، يظهر أنه غير جدير بنسبته إلى الله ، فلا يوجد كتاب فى العالم يستحق هذه النسبة . بل لو أنصف المستر ويلز لقال : ما كان الإنسان ليستطيع أن يدرك الفوارق البينة المحسوسة بين الكلام الإلهى فى روعته وسموه وروحانيته ، وبين الكلام البشرى فى نسبيته وماديته ، إلا بعد نزول القرآن .

نعم ، لأن الأناجيل كُتُب وضعها رجال معروفون فى سيرة عيسى عليه السلام ، والتوارة كتاب ضاع نصه العبرى وبقيت منه نسخ ، وقد قرر النقد التاريخى أن الذى وضعه كتّاب متعددون فى أزمنة مختلفة . فليس فى الأرض غير القرآن حفظ النص الذى أذاعه من أنزل إليه ، باعتبار أنه الوحى الأخير للعالم بأسره .

يدعى المستر ويلز أن القرآن من الناحية الأدبية والفلسفية غير جدير بنسبته إلى الله ، وإنما يصح هذا لو كانت آدابه وفلسفته تنم عن قصور لا تتنزه عنه البشرية ، وقِصَر نظر ملازم لها ، وخاصة فى عهد نزوله ، وفى بيئة لا عهد لها بعلم ولا فلسفة ؛ فما قولك وآداب القرآن وفلسفته قد بلغتا النهايات القصوى التى لا مذهب بعدها لسمو ولا لإطلاق ؟

ماذا عسى أن يتخيل أرفع الناس خيالاً من السمو الأدبى فوق قوله تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » ، وقوله : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » وقوله : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

فأنت ترى أن الإسلام يُعنى كل العناية بقلب الإنسان ، ويوجه إليه كل اهتمامه ، حتى لم يجد القلب فى كل تاريخ البشرية من عُنى به هذه العناية ، وهذه النزعة هى لب أرفع مذهب إصلاحى اليوم . وقد تابع الإسلام طريقته فى هذا الأمر الجلل حتى علق النجاة فى اليوم الآخر على سلامة القلب ، فقال تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ، ومدح بسلامته أنبياءه فقال : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ .

وهل يستطيع متحدّ أن يأتى فى باب العدل بما هو فى درجة قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ . ولكن أى عدل ؟ العدل المطلق الذى لا محاباة فيه للذات ، أو لأحب الناس إليها ، قال الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط (أى بالعدل) شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ .

ولو شئت استيعاب كل أمهات الآداب التى وردت فى القرآن ، وأريد منها نهاياتها البعيدة ، التى لم يصل لإدراكها الإنسان إلا بعد أن بلغ من التطور الأدبى والعلمى إلى الحد الذى وصل إليه فى هذه القرون الأخيرة ، لاستدعى ذلك منى سفراً كبيراً ؛ بَلْهَ الأصول الأولية التى تعتبر آساساً لآخر طور من أطوار الفلسفة ، وبها تم للعقل البشرى إدراك الوجود والحياة على الوجه الذى يحسب تتويجاً لجهود جبارة ، بذلها العلم فى آماد طويلة ، كقوله تعالى : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ ، وقوله : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ ، وقوله : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ وقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ وقوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ وقوله : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ ، وقوله فى لا نهائية العلم : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبْعة أبحر (أى من مداد) ما نفدت كلمات الله ﴾ ، وقوله : ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ ، وقوله : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ، وقوله : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره *

ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وقوله : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق * وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ، وقوله : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ، وقوله : ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ، وقوله : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ﴾ وقوله فى بر الأبوين : ﴿ فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ﴾ ، وقوله : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ، وقوله : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ، وقوله : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم (أى من أهل الملل الأخرى) أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ إلخ مما يملأ ما بين دفتى كتاب ضخم .

فإذا كانت هذه الأصول التى جاءت منثورة فى القرآن ، وكان كل منها مظهراً لعبقرية أدبية أو فلسفية أو علمية قام لها الناس وقعدوا ، وهللوا فى إبان ظهورها وكبروا ، ليست فى رأى المستر ويلز ذات شأن يذكر ، فليس يوجد فى الكون كله شىء يذكر . وإذا كانت هذه الأصول ، وكلها فتوحات علمية وصل إليها الناس بعد أن كلّت عقولهم بحثا وتنقيبا ، لا يصلح أن ينسب الكتاب الذى جاء بها جملة إلى الله ، فأى كتاب يصح بعد ذلك أن ينسب إليه ؟

□ □ □

دحض مفتريات المستشرقين [1]

فى سيرة أبى بكر الصديق

قرأنا بالعدد الخامس من مجلة دائرة المعارف الإسلامية التى تُترجم إلى العربية سيرةً لأبى بكر رضى الله عنه كتبها واحد من مؤلفى تلك الدائرة المستشرقين غمز فيها عليه وعلى رسول الله ﷺ ، فساءنا ذلك جداً كما ساء كل من اطلع على هذا العدد ، فرأينا أن نتعقبه هنا إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل .

قال كاتب ذلك الفصل : « وظل أبو بكر ثابت الإيمان حتى فى الأحوال الكثيرة التى كان الناس فيها يشكُّون فى أقوال النبى كما فى حديثه عن الإسراء ، أو عند ما حار الناس فى تعليل مسلك النبى كما فى صلح الحديبية » .

وهذا القول يوهم أن أصحابه كانوا كثيراً ما يشكون فى أقواله ﷺ إلا أبا بكر ، وهو كذب ومحض افتراء عليهم ، فإن إيمان أصحابه ﷺ برسالته كان أرسخ من الجبال الراسيات ، وما كان يختلج بصدورهم أى شىء من الوهم أو الريب فى صدقه ﷺ ، علماً منهم بأنه ما كان ينطق عن الهوى وإنما هو الوحى يوحى إليه من عند الله . وآية ذلك أنهم كانوا يضعون أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما يملكون من قوة فداء له ﷺ وتأييداً لدينه .

ونظرة بسيطة فيما قام به الصحابة من غزوات معه ﷺ تبين ذلك أجلى بيان ، فلو كانت الصحابة تنطوى قلوبهم على شك أو ريب فى رسالته لما استماتوا فى نصرته ، ولأعقب ذلك حتماً تفككهم وانفصام عرى اجتماعهم ، مع أن الذى ثبت وأوجب لهم خلافة الله فى الأرض أنهم كانوا من الترابط والتماسك بحيث لا تفصم وحدتهم أشد الخطوب تأثيراً فى النفوس .

وقد مروا سنين على ضروب من المحن كان يكفى بعضها لحل أية جماعة تتعرض لها ، حتى مدح الله إخلاصهم هذا فقال : « الذين قال لهم الناس إن الناس

---

(١) نقلاً عن المجلّد الخامس من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٣ هـ – ص ٢٠٨ وما بعدها .

قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ثم عاد فمدحهم إذ لم يهنوا ولم يضعفوا يوم ابتلاهم الله بتألب الأحزاب عليهم فقال تعالى : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » .

فلو كان أصحاب النبى ﷺ كثيراً ما كانوا يشكون فى أقواله لما صدرت منهم هذه العزمات التى دكت الجبال الشم ، وغيروا بها خريطة العالم فى سنوات معدودة .

وأما صلح الحديبية الذى ضربه كاتب ذلك الفصل مثلا فهو أن النبى ﷺ خرج معتمراً فى ألف من أصحابه حتى شارف مكة ، فمنعه المشركون من دخولها ، فعز ذلك على أصحابه وأجمعوا أن يدخلوها عنوة ، ولكن النبى ﷺ استقدم سفيراً من أهل مكة واتفق معه على أن ينصرفوا هذا العام ويأتوا فى الذى يليه ، فكلمه أصحابه فى أن هذا الصلح يعتبره المشركون انتصاراً لهم ، فقال لهم : إنى أمضيته بوحى من الله . فرجعوا مع رسول الله إلى المدينة ، وما كادوا يلبثون فيها إلا قليلاً حتى أراهم الله رأى العين أن هذا التسامح كان فاتحة خير كبير على الإسلام والمسلمين ، إذ أسلم فى مدته عدد جم من كبار القرشيين كان لهم قدم صدق فى نصرة الدين وإعلاء كلمته فى الخافقين .

وقد قال ذلك المستشرق : إن أبا بكر « استطاع فى كثير من الأوقات بفضل سداد رأيه أن يحول بين النبى وبين الاندفاع فى الأمور » .

وهذا إفك مبين . والحادثة المتقدمة تنفى ما يقوله من أن أبا بكر كان يحول بين النبى وبين الاندفاع فى الأمور ، إذ لو كان كما يصفه لاندفع باندفاع أصحابه إلى دخول مكة عنوة .

على أن المجمع عليه من صفاته ﷺ أنه كان حكيماً فى جميع تصرفاته ، ما خير بين أمرين قط إلا اختار أرفقهما ، وكان قبل أن يبت فى أمر استشار فيه أصحابه ، فلم يعهد عليه طوال مقامه فيهم أنه دفع بهم إلى مغامرة ولا مرة واحدة ، فأى فائدة يجنيها الناس من قلب حقائق التاريخ إلى هذا الحد ؟ وقد وصفه الله

فى رحمته بقومه بما لم يصف به أحداً من خلقه فقال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

أما تنويهه بمسألة الإفك وتسميتها بالفضيحة وأن التى أثارتها امرأة صغيرة طائشة فهذا منتهى التوقح ، ومن أشد ما رأينا خروجاً على آداب التاريخ المقررة . وهو ما وصف هذه الفرية بأنها فضيحة إلا ليستدرج القارئ حتى يخيل إليه صحة ما لغط المنافقون به فى حق أم المؤمنين ، وما وصفها بالطيش إلا ليؤيد مزاعمهم التى اختلقوها من عند أنفسهم . وقد ضرب صفحاً عن أن هذه المسألة قد محصت وقت حدوثها أكمل تمحيص ، فقد بنيت أولا على ظن سيئ بسيدة من أكمل سيدات البيت النبوى دينا ، وبصحابى جليل عرف الناس كلهم دينه وتقواه وحسن بلائه . ومن آداب التاريخ أن التهم التى لا يثبت وقوعها لا تسمى بالفضائح ، فما ظنك بالتى ثبت بطلانها بكل دليل ؟ ومنها أن لا توصم شخصية بارزة من شخصيات أى مجتمع كان بالطيش لمجرد وقوع أعدائها فيها ، وإلا لما نجا نبى مرسل ولا مصلح كبير من مثل هذه الصفات الذميمة ، فقد اتهموا جميعاً بالكذب والتدليس وسوء النية .

فكان من أول واجبات كاتب هذه المقالة أن يقدر موقف النبى ﷺ من أمة كان أكثر آحادها مشركين أو منافقين يترقبون به دائرة السوء ، ويسارعون إلى كل خيال من نقيصة ليذيعوها ويشهروا بها ليفسدوا عليه أمره .

وكان فى المدينة قوم أظهروا الإسلام واستبطنوا الكفر لا هم لهم إلا تصيد الشبهات والإرجاف بها فى مجالسهم ، وقد وصفهم الله تعالى بقوله : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » وقوله تعالى : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » وقوله : « إن تصبكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » وقوله : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً » . كان يجب على كاتب ذلك الفصل — وهو بصدد الكلام عن شخصية بارزة يحاسب على الكلام عنها حساباً عسيراً — أن يقدر هذه الظروف كلها ويدرك بذكائه — إن كان له من الذكاء نصيب — أن مثل هذه البيئة

تعتمد على الإفك والبهتان لإبطال أمر خصومها بعد أن عجزت عن إبطاله بالسيف والسنان ، فكل ما قالوه يجب أن يوضع فى ميزان النقد ، وأن يحلل إلى أدق عناصره حتى ولو لم يثبت خلاف ما قالوه ، تمحيصاً لوقائع التاريخ ، وإنصافاً لشخصياته البارزة ، وإلا لو كنا آخذين بأقوال خصوم هذه الشخصيات لكنا خائضين من آثار الأحقاد عليهم فى حمأة يكون مكاننا منها أدنى من مكان أولئك الخصوم درجات كثيرة ، فأولئك دفعهم التناظر على اختلاق ما اختلقوا ، ولكن الآخذين بأقوالهم لا عذر لهم فى تتبع خطواتهم إلا أن يكون لهم غرض فى تصيد مثل هذه الأباطيل وترويجها بين الناس من جديد .

أما مسألة الإفك فهى أن النبى ﷺ كان إذا عزم على الخروج إلى غزوة أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها ، فلما أراد غزو بنى المصطلق ، خرج اسم عائشة رضى الله عنها فأخذها معه ، فلما تمت الغزوة أمر جيشه بالانصراف إلى المدينة ، فلما قرب منها نزل منزلاً ، ثم أذن بالرحيل ، فقامت عائشة حتى جاوزت الجيش لقضاء حاجة ، فلما عادت إلى رحلها افتقدت عقداً لها كان على صدرها فوجدته قد انفرط فرجعت أدراجها لتلتمسه ، وفى أثناء بحثها عنه أقبل الرهط الذين كانوا يحملون هودجها فظنوها فيه لخفتها لأنها كانت حديثة السن ، وذهبوا بالبعير ، فلما عادت عائشة إلى مكانها لم تجد به أحداً ، فجلست موقنة بأنهم سيعودون فى طلبها .

وكان صفوان بن المعطل من أجلاء الصحابة معيّنا ليتعقب الجنود فيلتقط ما عسى أن يكونوا قد نسوه من أمتعتهم وسلاحهم ، فعثر بأم المؤمنين ، فسألها عما خلّفها فقصت عليه أمرها ، فنزل وتنحى عن بعيره حتى ركبت ، وأمسك هو بخطام البعير حتى أوصلها إلى بيتها . فلما سمع المنافقون بما حدث أرجفوا به ، وغضب النبى ﷺ ، ولبثت عائشة فى بيت أبيها شهراً تبكى ليلاً ونهاراً ، حتى نزل قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » .

وكان من الذين خاضوا فى هذا الحديث مسطح بن أثاثة وهو رجل معوز كان أبو بكر والد عائشة ينفق عليه ، فلما حدث منه ما حدث أقسم لا ينفق عليه شيئاً ولا ينفعه بنفع أبداً ، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى : « ولا يأتل (أى ولا يحلف) أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » فقال أبو بكر : إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح نفقته التى ينفقها عليه قائلاً : والله لا أنزعها منه أبداً .

هذا حديث الإفك ، فهل يثير فى بساطته التى تراه عليها شبهة فى نفس المؤرخ ، فينضم إلى المنافقين المرجفين فى تصديق ما تقوّلوه ، متناسيا آداب التاريخ ، متعدياً على أسلوبه من التمحيص ، لا لشىء غير حك حزازة فى صدره ضد الإسلام والمسلمين ؟

بقيت لنا كلمة نوجهها لحضرات الفضلاء الذين يترجمون هذه الدائرة ، هى أن هذه الدائرة تشتمل على الشىء الكثير من أمثال التهم الباطلة على الإسلام ورسوله ﷺ ورجالاته الصالحين ، وهم يعلمون أنه لا يدفع ببعض هؤلاء المستشرقين على التورط فى هذه الخطة المريبة إلا ما يحملونه فى صدورهم من البغضاء لهذا الدين ، فلا يصح والحالة هذه أن يحملوا أنفسهم إثم نقل هذه السفاسف إلى لغتهم وبأقلامهم ليقرأها الناس فى جميع بلاد المسلمين . هذا ما لا يتصور أن تفعله شبيبة أمة فى العالم ، ونحن أولى بهذا الأدب الكريم .

فالذى أراه أن يمتنعوا عن ترجمة ما يصادفونه من هذه الأباطيل ، وأن يكتفوا بالإشارة إليها مشفوعة بما يدحضها ، ويبين وجوه فسادها بكل دليل . أليس من البلاء العظيم أن يضطر أحدنا أن يصف أطهر نساء العالم وهى فى الوقت نفسه أمه فى الدين ، بالطيش والفجور ؟ أى فائدة أدبية ترجى من إذاعة هذه الفرية بين المسلمين فى عبارات وقحة يسمح بها لنفسه رجل أجنبى عن الدين ؟

لا يعترض أحد علينا بأن الامتناع عن ترجمة المفتريات يعتبر من الخيانة فى الترجمة ، فإننا نشير بالامتناع عن ترجمتها والإشارة إليها ، لا بترجمتها على غير

وجهها وتلطيفها بما يخرجها عن صبغتها التى أرادها لها كاتبها ، فالفرق بين الأمرين كبير .

ولا يقولن قائل بأن المترجمين للدائرة قد عقبوا على حديث الإفك بقولهم : « هذه هى ألفاظ المستشرق بالنص ونحن لا نقره عليها بحال من الأحوال ، أما حديث الإفك فمعروف وقد نزل فيه قوله تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك ﴾ الآية .

فنقول : نعم إنهم عقبوا عليه هذا التعقيب ، ولكنهم سخروا لنقله فى صلب كتابهم ، وما عقبوا به لا يكفى فى دحض تلك المفتريات ، فإن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا يعبأون بما نزل فيه من الآيات ، فتبقى تلك التهم لاصقة بأم المؤمنين ، وهذا إثم كبير .

ثم إنهم عقبوا على هذا الحديث ولم يعقبوا على التهم التى وجهها كاتب ذلك الفصل إلى خاتم النبيين من كثرة الاندفاع مما كان يتداركه أبو بكر ، ومن الإكثار من غير المعقول مما كان يصدقه أبو بكر ، وخطر هذه الدسائس على عقول النابتة لا يقف عند حد ، فإنها تتلقح بها ويصبح القول بها من دلائل الألمعية ، فهل نأخذ على عهدتنا أن نحدث مثل هذا الحدث فى الإسلام بترويج أراجيف ساقطة كتبها قوم ليشفوا بها داء فى صدورهم ، أو تأدوا إليها ضلالاً فى بحوثهم ؟!

المخرج من هذا المأزق أن يمتنع حضرات مترجمى تلك الدائرة كما قلنا عن ترجمة تلك المفتريات ، والاكتفاء بالإشارة إليها ، مع بيان وجوه الضلال فيها . أما نقلها ثم الإشارة إليها فى الهامش بأربعة أسطر ، فهى مقاومة سلبية لا يرضى بها إلا من عجز عن نقضها ، وهذا ما لا يرضاه مسلم ، بل ولا يرضاه إنسان يتحرى أن يصل إلى إدراك الحق له أو عليه .

□ □ □

محمد وشرلمان (١)

انتشار الإسلام بسرعة محيرة للعقل – شهادة مؤرخ كبير

جاء فى جريدة (الريبوبليك) الفرنسية تحت العنوان المتقدم ما يأتى :

« كان لكل من النبى العظيم والأمبراطور العظيم فى خلال عهود التاريخ دور حاسم . فكل منهما يمثل مدنية خاصة . ولقد كتبت حياةُ كل منهما فصلين تاريخيين نقشا على سور الأجيال بأحرف متخالفة كل التخالف .

« لماذا اختار المؤرخ البلجيكى المأسوف عليه (هنرى بيرين) أن يكون هذان الاسمان عنواناً للكتاب الذى قدِّر أن يكون تتويجاً لأعماله فى سنيه الأخيرة ؟ اختارهما للدلالة على العلاقات الوثيقة التى توجد بين فتوحات الإسلام ، وبين قيام عهد القرون الوسطى فى الغرب .

« وقد حداه أيضاً إلى ذلك كلفه بأن يضع الدور الذى بقيت صورته مبهمة فى مخاخنا ، فى موضع يساعد على إظهارها وإيضاحها ، وذلك الدور يبدأ من سنة (٦٣٢) وهى السنة التى توفى فيها محمد إلى القرن التاسع . فقد أطال المؤلف البحث فيه وتابعه فى مدى الحرب العظمى ، وكان من أسراها ، وخلص من ذلك إلى نتائج سيتولاها المؤرخون بالمناقشة والتمحيص » .

« أهم هذه النتائج هى أن غارات القبائل المتبربرة على الدولة الرومانية لم تغير من تركيبها الاقتصادى والروحى شيئاً ، وما بقى من تلك المدنية كان معتمداً على صلته بالبحر الأبيض المتوسط . فاقتصر التغير الذى حدث على انتقال المركز المخصب من روما إلى القسطنطينية .

« ولكن كل ما تم من التحولات الذريعة بأوربا كان بفعل الإسلام . فإنه قد أحدث انقلاباً حقيقياً فصل به الشرق عن الغرب نهائياً ، ووضع نهاية لجامعة المدنية التى كان رباطها البحر المتوسط .

---

(١) نقلاً عن المجلّد العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ هـ – ص ٤٧٢ وما بعدها .

« فانتقل بذلك محور الحياة الغربية هزيماً إلى الشمال لأول مرة فى التاريخ ، فأدى ذلك إلى ظهور أسرة الكارولنجيين فى الأقطار الجرمانية . وعليه فلولا ظهور محمد لما أمكن ظهور شرلمان [١] » .

« هذه الفتوحات العربية التى كان مجالها أوروبا وآسيا معاً ، يعتبرها المؤرخ البلجيكى (هنرى بيرين) لا مثيل لها فى تاريخ البشر . ولا يمكن لإنسان أن يقابل سرعة تتابعها بنجاح إلا بما تم فى عهود الدول المغولية على أيدى أتيلا وبعده بزمان جنكيزخان أو تيمورلنك . ولكن هذه الفتوحات الأخيرة كانت مؤقتة بقدر ما كانت الفتوحات الإسلامية ثابتة وراسخة . ولا يزال للإسلام أتباع فى كل جهة استولى عليها الخلفاء الأولون . إن انتشار الإسلام بهذه السرعة المحيرة للعقل تعتبر آية حقيقية إذا قوبلت بالبطء الذى تمشت عليه المسيحية .

لا يدهش أحد أن يكون من آثار انتشار الإسلام ظهور الأسرة الأمبراطورية الرومانية القديمة ، ولكن المرء يتساءل متعجباً : كيف لم يفن العرب فى سكان الممالك التى فتحوها كما فنى الجرمانيون فى سكان الممالك التى قهروها و لم يكونوا أكثر منهم عدداً ؟

لم يفن العرب فى سواهم لأنه كانت لهم ديانة جديدة يمكن مواجهة المسيحية بها ، ديانة لم تضطهد سواها ولكنها نفت أتباعها من جامعتها باعتبار أنهم غير مؤمنين ، وأحلت أصولها الشرعية محل الأصول القانونية الرومانية .

« فالدولة بدخولها فى المسيحية تتغير روحاً ، ولكنها بإسلامها تتغير جسماً وروحاً » .

---

(١) شرلمان هو ملك الفرنكيين أسلاف الفرنسيين ، ولد سنة (٧٤٢) وخلف أباه سنة (٧٦٨) شرع فى فتوحات موفقة إلا فى احتكاكه بعرب اسبانيا ، فقد دحروه دحوراً شنيعاً وقتلوا قائده . من أعماله العظيمة أنه أعاد فى شخصه عهد البراطرة الرومانيين وأعلنه البابا فى سنة ٨٠٠ أمبراطورًا للمملكة الرومانية الغربية بعد أن كانت انقرضت بسبب هجوم المتوحشين عليها من كل جانب ، وبسبب ما كان أصابها من الترف ، ولكن بموت شارلمان انقسمت ممالكه وتميزت الدول على النحو الذى هى عليه اليوم .

(مجلة الأزهر) كل يوم يمر على الإسلام يظهر فيه للعالم من أمره عجباً جديداً . فهذا العلامة (هنرى بيرين) المؤرخ البلجيكى الكبير يحدثنا أنه لولا فتوحات العرب فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى عهد الخلفاء الأمويين ، لما أمكن قيام شرلمان ، ولما تم له فى الفتوح ما استأهل به أن يتوج أمبراطورًا رومانيا سنة (٨٠٠) ، بعد أن كانت تلك الأمبراطورية قد انقرضت ، وأصبح فذاً من أفذاذ تاريخ القرون الوسطى ، ولما توفى لم يوجد فى أولاده من يخلفه بمثل الكفاية والحنكة اللتين كان متصفاً بهما ، فتجزأ ملكه بين أولاده وكان ذلك بدء نشوء الدول الأوربية الموجودة ، وهو انتقال ذريع فى حالة أوروبا غيرتها من حال إلى حال ، وأوجدت فيها عوامل جديدة للانقلابات والتطورات الاجتماعية والجغرافية . فإذا كنا فى كثير مما كتبناه ذكرنا أن الإسلام كان سبباً فى تغيير خريطة العالم شرقاً وغرباً ، وأنه أزال دولاً وأوجد دولاً ، ومخض العالم مخضاً نفى عنه كثيراً من أسباب الجمود والركود ، فإنما نعنى أمثال هذه الأحداث الخطيرة .

يعجب المسيو هنرى بيرين من أن الفتوحات الإسلامية تمت بسرعة محيرة للعقل ، ولو كان يعلم ما فى الإسلام من روح علوية ، وعوامل ليست من نوع العوامل المعروفة ، لما تعجب من ذلك ، ولاعتبره وجهاً من وجوه غلبة الحق على الباطل ، فإن ما كان يربط المسلمين الأولين بعضهم ببعض ، ويدبر حركاتهم للفتح والغلب ، ليست المطامع المادية ، والشهوات النفسية ، ولكن القيام بما عهده الحق إليهم من إعلاء كلمة الله فى العالم ، وتأسيس دولة تقوم فيه بواجب العدل ، وتدفع بالإنسانية إلى باحات الترقيات الصورية والمعنوية ، قياماً بخلافة الله فى الأرض . وهذا الشعور العالى يدفع بالنفس إلى الاستهانة بالاخطار ، والاستخفاف بالمعاطب ، فإذا وجد ألف من الناس استشعروا هذا المبدأ السامى ، أغنوا عن ألوف مؤلفة ممن ليس لهم من البواعث على المقاومة إلا ما اعتاد الناس أن يكونوا عليه حيال النوازل . هذا هو السر فى أن بضع عشرات من ألوف كانوا يهزمون مئات الألوف ويستولون على بلادهم التى كانت قبل ظهور الإسلام أمنع من الجبال الرواسخ . أضرب لك أمثلة بسوريا ومصر والفرس . فقد تقابل فى سوريا بضع ألوف من جيوش المسلمين بمئات الألوف من جيوش الرومان

المدربة أعظم تدريب ، والمسلحة تسليحاً يفوق تسلح المسلمين كثيراً . ومع كل هذا لم يثبتوا أمام المسلمين فى وقعة واحدة فجلوا عن الشام وفيها مكان حجهم .

أما مصر فتوجه إليها عمرو بن العاص بثمانية آلاف ، ثم أمده أمير المؤمنين الفاروق بأربعة آلاف أخرى ، فهزموا جيوشاً رومانية تفوقهم عدداً وعدة ، ولم تغن كثرتهم عنهم شيئاً .

وأما الفرس فأمرها أغرب من هاتين ، فإن سعد بن أبى وقاص تقصدها بنحو ثلاثين ألفاً مبتعداً عن قواعده مئات الكيلومترات ، فلم يفت هذا فى عضد المسلمين شيئاً ، وكان خاتمة المعركة أن استولى المسلمون على فارس كلها ، ولم تلبث أن انقلبت إسلامية ورفعت من شأن الإسلام ما لم توفق إلى مثله أمة أخرى .

فالمدار فى كل هذا على الروح التى تبعث على الإقدام ، فإذا كانت من نوع الروح العادية التى تدفع البعض إلى شن الغارة ، والبعض الآخر إلى الدفاع عن الحوزة ، توازنت الكفتان وكان الرجحان للعدد والعدة . ولكن إذا كانت الروح الباعثة من طراز هذه الروح العلوية لم يقف فى وجهها شىء ، لأنها تنشىء من الضعف قوة ، ومن القلة كثرة ، وليس بعد هذه الأمثلة من دليل ، وإلا فقد كان العرب عرباً قبل الإسلام ، فما بالهم قبلوا تحمل نير الفرس فى العراق واليمن ، ونير الرومان فى شمال بلاد العرب ، ولم يحدثوا أنفسهم بإلقاء هذين النيرين عن عواتقهم ، وقد لبثوا يحملونهما أجيالاً كثيرة ؟

ويعجب العلامة (هنرى بيرين) كيف لم يفن العرب على قلة عددهم فى الأمم التى دوّخوها ، كما فنى الرومانيون فى الأمم التى تسلطوا عليها ، وهذا موطن ظاهرة بسيكولوجية دقيقة جداً ، ذلك أن النفوس التى يفنى بعضها فى بعض بسبب القلة والكثرة ، هى النفوس المتشابهة فى الوجهات والمقاصد ، ولكن الجماعات التى تكون صادرة عن تعاليم عالية ، ومبادىء سامية ، ومقتنعة بها كل الاقتناع حتى أصبحت حالاً لها ، لا يمكن بحال من الأحوال أن تفنى فى غيرها ولو لم يبق إلا رجل واحد منها . وهذا دليل من طريق اللزوم على أن تعاليم الإسلام تطبع شخصية الآخذ بها بطابع لا يزول أثره ، يحميه شر الاندماج

فى أمم أحط منه نفساً ، وهو ما حفظ للمسلمين إلى اليوم وحدتهم الدينية ، وصبغتهم الاجتماعية ، رغماً عن إهمالهم العمل بالتعاليم التى يقدسونها .

من أروع الأمثلة على ذلك أمم إسلامية ساذجة وقعت تحت الاستعمار الأوربى أكثر من قرن من الزمان ، فبالغ المستعمرون فى بث لغاتهم فيها ، ونشر عاداتهم بينها ، حتى كادوا ينسونها لغتها وتقاليدها ، ومنعوها أداء فريضة الحج سنين كثيرة ، فلم يزدها ذلك كله إلا تقديساً لتعاليمها . يمكن أن يقال هنا إن هذا من الجمود على القديم ، والحق إنه من إدراك السمو الذى بين تعاليم كتابها وما ترى عليه المغير على بلادها . والمبادئ والأصول تتنازع الوجود كالأحياء سواء بسواء ، ثم لا يبقى منها إلا الأصلح للبقاء ، والأقوى على تحمل اللأواء .

ويعجب المؤرخ البلجيكى الكبير من بقاء الفتوح الإسلامية ودوامها ، على حين أن جميع الفتوحات التى حصلت قبله وبعده لم تبق إلا مدة بقاء من قاموا بها . ولكن إذا علم السبب بطل العجب . ذلك أن الفتوح الإسلامية لم تعمل لتخليد اسم مستبد غاشم ، ولا للتوصل بها إلى سلب الأمم مذخوراتها من مال وحطام ، ولكنها عملت لمقصد سام وهو تطهير الأرض من المظالم التى رانت عليها ، والمفاسد التى ذاعت فيها ، وإيقاظ الشعوب من طريق الفتوح إلى ما هى فيه من جمود يلحقها بالعجماوات ، وركود جعل كل ترق مستحيلاً عليها . ولم يصحب هذه الفتوح جيوش الدعاة يخرجون الناس من أديانهم بالقوة ، بل تركوا على ما هم عليه ، واحترمت معابدهم وكهنتهم وتقاليدهم ، ولم يكلفوا من الإتاوات إلا بعض ما كانوا يقومون به لحكوماتهم الوطنية ، وعوملوا بالعدل المطلق ، حتى إذا شجر بينهم وبين المتغلبين عليهم نزاع ، أو ثار خلاف ، وجدوا فى القضاء الإسلامى حكماً عدلاً ، فاقتص لهم فى الدماء ، وسوى بينهم فى الحقوق .

أين هذه الحالة مما كان يحدث فى الفتوحات غير الإسلامية ، من احتقار المغلوبين ، واستباحة أموالهم وأعراضهم ، وتسخير نسائهم ورجالهم ، ومعاملتهم بما لا تعامل به الحيوانات العجم من القسوة والعذاب المهين ؟

لا جرم أن الشعوب التى تقع تحت أيدى الفاتحين المسلمين تأنس للحياة تحت ظلهم ، وترتاح للعيش فى جوارهم ، وتكره أن تعود حتى إلى سلطان حكوماتهم الوطنية ، لأنها لم تكن على شىء من النظام الديموقراطى الذى يدعو إليه الإسلام ، ولكنها كانت على أخشن ما يمكن تصوره من النظام الأوتوقراطى الذى يسمح للعدد القليل من الأقوياء المتغلبين بتسخير جماهير الضعفاء لتوفير لذاتهم ، والكدح لزيادة ثرواتهم ، ولا بأس أن يموت هؤلاء الضعفاء جوعاً وعرياً وحرماناً ، فإنهم فى رأيهم إنما خلقوا لخدمة الأقوياء لا لأنفسهم .

على هذه السنة كانت تقوم الحكومات الوطنية ، وعليها كانت تسير الدول الفاتحة قبل ظهور الإسلام ، حتى إن أمما برمتها زالت بسبب فتح الأوربيين لأمريكا الجنوبية . فلا عجب بعد هذا البيان أن تثبت الفتوحات الإسلامية ، وتستمر خلال قرون تتطور فيها حتى تصبح بلاداً إسلامية محضة . فقد شوهد أن الإسلام لم يستقر فى بقعة من الأرض إلا انتشر فيها بلا إجبار ، وتغلبت لغته على لغة أهل تلك البقعة حتى نسختها .

إن حدوث هذا التحول السلمى كله أدلة قاطعة على أن أسلوب المسلمين فى معاملة المقهورين حبب إليهم التحول إلى دينهم يسيراً يسيراً . وهذا ما لم يحدث قط فى العالم الإنسانى فى أية بقعة من بقاع الأرض . فقد شوهد أن الأمم المقهورة إما أنها تمكنت من الإفلات من براثن المتغلبين ، وإما أنها فنيت برمتها فى أجسادهم .

ومن أغرب الظواهر الإنسانية وأدعاها للدهش ، وهو ما لم يحدث فى غير الإسلام ، انتقال بعض الأمم المقهورة بسرعة إلى حظيرة الإسلام ، وتحولها إلى صفوف المدافعين عنه بسيوفهم وأقلامهم ، حتى صاروا من أكبر حفظته ، وأعظم حفدته .

فهذه الممالك المفتتحة لم يكفها أن تبقى مستنيمة إلى سلطان الإسلام فقامت تذود عن بيضته ، وتحامى عن حقيقته .

ولو فطن العلامة هنرى بيرين إلى هذه الخصوصية للفتوحات الإسلامية لجعلها فى مقدمة ما استنزل عجب قرائه منه . وهو يدل على أن عاملاً أدبياً

يلازم الإسلام ويحل معه حيثما حل ، وهو عامل يصح أن يكون موضوع دراسة عميقة ، تؤدى حتما إلى معرفة كنه هذا الدين ، والعوامل المبثوثة فيه لإيقاظ الآخذين به والمتصلين بهم ، فإن قصر الأوربيون فى تلمسه ، فلا يعز على المسلمين أن يقوموا بهذا الواجب وهم أولى به من سواهم .



هرفيه وشبهات عن الإسلام [1]

- ١ -

من العجب العاجب أنه لا يزال فى العالم الغربى علماء يخبطون فى فهم الإسلام ، ويتهمونه بما ليس فيه ، ويجهلون نفسية الشعوب الآخذة به ، بعد ما كتب فيه فلاسفتهم وعلماؤهم ومؤرخوهم ما كتبوا من جليل البحوث ، ودقيق الدراسات . من ذلك ما نشرته جريدة كوكب الشرق المصرية لكاتب اسمه (أندريه هرفيه) ونحن نلخص آراءه هنا ونتبعها بملاحظاتنا عليها ، قال :

« لقد أثرت الديانة الإسلامية فى ذويها تأثيراً عظيماً بحيث جعلتهم على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم كأنهم أمة واحدة لهم مُثُل عليا ، وتصورات واحدة ، وهم شديدو الاعتقاد فى سمو عقائدهم ، ومتعصبون لها أكبر تعصب . فإن كان هذا التعصب لا ينذر اليوم بخطر جللٍ فذلك لأن الشعوب الإسلامية قد أدركها الضعف والهرم .

« وليس هذا الضعف الذى يشكو منه المسلمون إلا نتيجة جمود العقائد الإسلامية وتضييقها على عقولهم إلى حد أن أصيبت بالشلل .

« ومع هذا فالإسلام لا يزال يلعب دوراً فى تكييف الإنسانية لا يصح إغفاله . فالثلاثمائة مليون من المسلمين فى ازدياد مطرد ، بسبب التكاثر الطبيعى أولاً ، وبسبب دخول ألوف مؤلفة من أهل القبائل بفعل المبشرين بالإسلام .

وقد دخل أخيراً فى الإسلام فى الهند وحدها اثنا عشر مليونا ، وأسلم أضعافهم فى الصين وتركستان وسيبيريا والملايو .

« وفى الإمكان فهم عقلية المسلم وعدم التحامل عليه ، ونبذ الروايات الكاذبة التى تشيع عنه ، والقيام بخدمات مفيدة له . ولكن من السخف أن نتوهم أننا بذلك نستطيع أن نحكمه ، فإن بين المسلمين تضامنا عاماً وإن تفرقت بيئاتهم ،

---

(١) نقلاً عن المجلّد السادس من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٤ هـ - ص ٥٤٥ وما بعدها .

فكل واحد منهم تهمه مصالح إخوانه المسلمين وإن بعدوا مهما كانت أجناسهم ، فجميعهم يجمعهم وطن أعظم من أوطانهم هو الإسلام ، وعاصمته مكة ، والحاكم فيه دون منازع نبى الإسلام وحده .

« إن تتابع القرون قد كيفت عقلية المسلمين وطبعتها بعقائد الإسلام . ولما كانت هذه التعاليم هى عصارة العقل العربى ، وجب أن ندرس تاريخ العرب إن كنا نريد أن نفهم نفسية أى أمة من أمم العالم الإسلامى . ودراسة كهذه شاقة لوفرة موادها ، والديانة الإسلامية محتجبة عنا بسبب تعدد المعتقدات المسلّم بها ، وكثرة الروايات وأخطاء الشراح فيها ، وتحامل أعداء الإسلام عليه . ومع هذا فإن دراسة كهذه ضرورية لفهم نفسية المسلمين .

« إننا لا ندرى كيف فقد السوريون والمصريون والمراكشيون نشاطهم وقوة إدراكهم وروح الابتكار الذى كانوا عليه أيام سيادة اليونان والرومان بمجرد إسلامهم .

« وكيف نسى العرب تاريخهم الباهر واستسلموا للجهل والتفرق بعد أن كانوا وصلوا إلى مدنية راقية ؟

« وإننا لم نفهم إلى اليوم أسباب التوسع السريع فى فتوحات العرب ، ولم نفهم كذلك علل تدهور أمبراطورية الخلفاء ، وإصابتها بالشلل بسبب العقائد الدينية الجامدة التى تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية ، وكل مظهر من مظاهر نشاطه ، وعوامل الأثر السيىء الذى أبقى المسلمين بمعزل عن المدنية » .

« وصلت بعض المؤلفات العلمية والفلسفية الموضوعة فى اللغة العربية أو المترجمة منها إلى اللاتينية إلى أوروبا ، فأعجب بها علماء القرون الوسطى على قلة بضاعتهم العلمية ، أعجبوا بتلك المؤلفات وتخيلوا أن العرب وصلوا إلى درجة عالية من الثقافة العلمية . ولكننا عرفنا اليوم أن تلك المؤلفات لم تكن نتاج العقول العربية ، ولكنها ترجمات لمؤلفات يونانية قديمة ترجمها السوريون للعرب ترجمة لم يراعوا فيها الأمانة والدقة ، وما زال معظم المؤرخين ينخدعون بها ويدعون

أنه كانت توجد حضارة عربية عالية لا يمكن النزاع فيها ، والواقع أنه لا توجد مدنية عربية كما كانت توجد مدنية يونانية ولاتينية ، إذا كانت الحضارة هى بذل الجهود الشخصية المبتكرة فى سبيل التقدم العمرانى .

« على أنه يمكن أن يقال إن هناك حضارة إسلامية ، ولكنها حضارة ليس للعرب ولا للإسلام فيها شىء ، هى حضارة الأمم التى دخلت فى الإسلام ، فتابعت هذه الأمم تقدمها على الرغم من العرب ومن العقائد الإسلامية .

« والنجاح العظيم للفتوحات العربية لا يثبت لنا شيئا ، فأمثال أتيلا وجانكيزخان قد أخضعوا الشعوب ، ولكن المدنية ليست مدينة لهم ، فالشعب الظافر لا يمكن أن يترك أثره العمرانى إلا إذا كان أكثر تمدناً من المقهورين » .

« وقد هضم الإسبانيون وبربر أفريقا الشمالية الحضارة اللاتينية ، ولكن العربى الفاتح بقى بربريا ، وزاد فأخمد المدنية فى الممالك التى قهرها وخنقها . والذى دفع بعض المؤرخين أن يَعزوا للعرب مدنية هو أن المدنية اليونانية لم تمت فوراً فى الممالك المقهورة ، إذ كانت حافلة بالحياة ، فبقيت ثلاثة أجيال تطلق قذائفها القوية من وراء الجبهة المحمدية » .

« لقد كان على الأمم المقهورة أن تختار الإسلام أو المصير التعس ، أى أن تهلك ويصبح آحادها عبيداً . ولما كانت الأديان التى اصطدم بها الإسلام إما وثنية فى حالة النزع ، أو مسيحية لم ترسخ عقائدها بعد ، فضّلت الشعوب المقهورة قبول الإسلام دينا » .

« لم ينقض جيل واحد على سيادة العرب حتى استؤصلت الثقافة العقلية استئصالاً تاماً . والشعوب التى بقيت تحت تأثير الحضارة اليونانية أو اللاتينية قد أصيبت تحت النير الإسلامى بالشلل ، ولم تستطع الأمم الغربية إنهاضها مع ما بذلته من الجهود ، وذلك لأن عقلية هذه الشعوب قد شوهها الإسلام ، الإسلام الذى هو نتاج العقل العربى وعصارته .

« وقد كان العربى واقعيا لا يتصور شيئاً أبعد مما تقع عليه حواسه . لذلك كان فى الآداب كما كان فى العلوم والفلسفة مجرد جامع لا مؤلف » .

« يتولى الإسلام من يأخذ به من المهد إلى اللحد ، فلا يدع له أى مجال للتفكير أو النشاط ، ولا يدع له فرصة للحرية والإبداع . فهو أشبه بأداة تقبض على العنق ، ولا تتيح لصاحبها إلا قدراً محدوداً من الحركة » .

« مجمل القول أن العربى استعار كل شيء من الأمم الأخرى حتى أفكاره الدينية وسلط عليها عقله الضيق . ولما كان يعجز عن السمو إلى تصور الفلسفة العليا عمد إلى تشويه كل شيء وجده فى طريقه ، وإلى تحريفه وتيبيسه ، وهذا هو سر تأخر الأمم الإسلامية وعجزها عن التخلص من الحالة البربرية التى تعيش فيها » .

هذا ما نشره المسيو (أندريه هرفيه) وهو أشبه بأقصوصة منه بدراسة علمية ، ولكنها أقصوصة من نوع مبتكر مبنى على إنكار الواقع ، وهو لذلك يتهم الذين شهدوا للإسلام من بناة العقل العصرى بأنهم انخدعوا فعزوا للعرب ما هو لغيرهم من المقهورين ، ووصم الإسلام بنقائص ينطق كل نص من نصوصها ليس بأنه منها براء فحسب ، ولكن بأنه متحل بنقائضها من الأصول العليا .

ونحن نحصر آراءه فى دائرة محدودة ، ثم نكر عليها بالرد خدمة للحق وللتاريخ معاً ، فإليك :

(١) إن التعاليم الإسلامية ليست بشيء غير عصارة العقل العربى . .

(٢) كان للشعوب التى سادها اليونانيون والرومانيون نشاط وقوة إدراك وروح ابتكار جردتها منها السيادة الإسلامية .

(٣) عقائد الإسلام جامدة تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية .

(٤) العلم العربى لا يعدو ما ترجمه السوريون العرب ترجمة مشوهة انخدع بها المؤرخون ونسبوها للعرب زورا .

(٥) الحضارة التى يزعم أنها عربية هى فى الواقع حضارة الشعوب التى وقعت تحت نيرهم ، فتابعت سيرها على الرغم من العقائد الإسلامية الجامدة .

(٦) نجاح العرب فى فتوحاتهم العظيمة لا يعلى من قيمتهم ، فإن الفاتحين من أمثال أتيلا وجانكيزخان قد أخضعوا شعوباً كثيرة ولكنها ليست مدينة لهم بمدنية .

(٧) لقد هضم الإسبانيون وبربر أفريقا الشمالية الحضارة اللاتينية ، ولكن العربى مع احتكاكه بتلك الحضارة بقى بربرياً ، وأخمد مدنية الشعوب التى ساد عليها .

(٨) لقد كان على الأمم أن تُسلم أو تبيد . وكانت إما على وثنية فى حالة النزع أو على مسيحية غير أصيلة ، ففضلت هذه الأمم أن تسلم لتنجو من الهلاك .

(٩) لم ينقض جيل واحد على سيادة العرب حتى استؤصلت الثقافة العقلية استئصالاً تاماً ، ولم تستطع الأمم الغربية فيما بعد إعادة الحياة إليها لأن الإسلام قد قضى عليها .

(١٠) العربى لا يجيد التصور فلا يدرك فوق ما تدركه حواسه ، لذلك كان فى الآداب كما كان فى العلوم مجرد جامع لا مؤلف .

(١١) الإسلام لا يدع للآخذ به أى مجال للحرية والإبداع ، فهو أشبه بأداة تقبض على العنق ولا تتيح لصاحبها إلا قدراً محدوداً من الحركة .

(١٢) العربى استعار كل شىء من الأمم الأخرى حتى أفكاره الدينية ، وسلط عليها عقله الضيق . ولما كان يعجز عن تصور الفلسفة العليا عمد إلى تشويه وتيبيس كل ما صادفه فى طريقه ، وهذا سر تأخر الأمم الإسلامية .

هذه آراء المسيو أندريه هرفيه ، فلو كان مما يفيد أن نقابلها بأبلغ عبارات الأسف مما نشهده فيها من قصر النظر ، ونكران الواقع ، ومحاولة طمس الحقائق ، وجهل تواريخ الأمم ، لملأنا منها صحفا ، ولكننا نعلم أن الحكم للدليل القاطع ، فلنعتمد عليه فى تفنيد هذه المفتريات ، ثم نكل أمرها للحق يدمغها ويذريها فى الهواء ، شأنه مع كل باطل : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » .

الشبهة الأولى – يقول المسيو أندريه هرفيه : إن التعاليم الإسلامية ليست بشىء سوى عصارة الفكر العربى .

هذه دعوى لا تستحق النظر ، وعذر المسيو أندريه فيها أنه لا يعرف أصول الإسلام ، ولا عقلية العرب على عهد جاهليتهم ، فنرى أن نبينهما له بإيجاز ، فنقول :

(أ) كان العرب وثنيين يعبدون آلهة كثيرة ، زاعمين أنها تقربهم من الله زلفى ، وكانوا جامدين على وثنيتهم لا يبغون عنها حولاً .

(ب) وكانوا حريصين على تقليد آبائهم تقليداً أعمى ، لا يرون أن يجيلوا فيما هم عليه نظراً ، ولا أن يسمعوا فيه نقداً .

(جـ) وكان لا يعنيهم أن يفرقوا بين ما هو حق وما هو باطل من الأمور ، لأنهم كانوا لا يتوهمون للكون نظاماً ، ولا يتخيلون لحوادثه ناموساً .

(د) وكانوا يعتبرون الحق للقوة ، لا لصاحبه إن كان ضعيفاً .

(هـ) وكانوا إباحيين لا يرون للشهوات حدوداً ، إلا ما يفرضه عليهم العجز الطبيعى ، وما يحتمه الضعف الجثمانى .

(و) وكانوا فوضى من الناحية الأدبية ، ليس لديهم أصول يردون أعمالهم إليها ، إلا ما أملته عليهم الحالة الجاهلية ، والسذاجة البدوية .

(ز) وكانوا مستريحين إلى الجهل والأمية ، ومستنيمين إلى ما كانوا عليه من الحالة البدوية ونصف البدوية ، حتى اعتبروها المثل الأعلى .

(ح) وكانوا لا يعرفون للعدل حدوداً إلا ما تقرره التقاليد المبنية على أصول مناسبة للحالة القبيلية التى كانوا عليها .

(ط) وكانوا لا يقيمون للمساواة وزنا ، لا بين الأقوياء والضعفاء ، والأثرياء والفقراء فحسب ، ولكن بين البيوتات والجماعات أيضا لاعتبارات تواضعوا عليها ليست من الحق فى شىء .

هذه هى الأصول التى تنزلت منها عصارة الفكر العربى قبل البعثة المحمدية ، وقد جاء الإسلام بنقائضها .

فأمر بتوحيد الله وتنزيهه ، وأسقط الوسطاء والشفعاء ، وأخلى ما بينه وبين خلقه ، ونهى عن التقليد بدون نظر ولا دليل ، ودعا إلى التفرقة بين الحق والباطل ، وإلى العلم والفكر ، وإلى التقيد بنواميس الأخلاق ، وإلى تجريد العمل لله وحده فى جميع المقاصد ، وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأهاب بالناس إلى لزوم النظام فى كل شىء ، مقرراً أنه خلق كل كائن بقدر ، وإلى الاجتماع

والألفة تحقيقاً للوحدة الإنسانية والعمل على تعميمهما بين الناس حتى تصبح عالمية ، وإلى الحياة الحضرية الفاضلة وما تقتضيه من تعاطف وترادف وإحسان ، وإلى محق الفوارق الجنسية واللونية واللغوية ، مقرراً أن الكل أبوهم آدم وأمهم حواء ، وأن لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، وإلى العلم والحكمة بأقصى ما تستطيعه القدرة البشرية معلقاً عليهما سعادة الحياتين ، وإلى العدل المطلق بين الناس كافة : مؤمنهم وكافرهم ، عربيهم وأعجميهم ، وإلى القيام بالقسط والشهادة لله ، ولو على النفس والأقرباء والوالدين ، وإلى المساواة بين الخلق مهما كانت نحلهم وبيئاتهم ، وإلى تطلب الرقى الصورى والمعنوى من جميع مظانهما ، وعدم الجمود على حال واحدة .

ثم هو مع هذا كله قد دعا الناس إلى وحدة عالمية ، وإلى ديانة فطرية عامة تسع الناس كافة فى كل زمان ومكان . (راجع القرآن الكريم)

لا مشاحة فى أن هذا كله ليس بعصارة الفكر العربى ، ولا يمت إليه بأدنى صلة ، ولا هو بعصارة أرقى أمة كانت قائمة على عهد البعثة المحمدية أو قبل عهدها ، بل ولا عصارة أرقى أمة من الأمم العصرية كما يرى القارئ بأقل تأمل ، فإذا تقرر هذا فقد سقطت أولى شبهات المسيو أندريه هرفيه ، وأصبح بينها وبين الواقع المحسوس بُعْدُ المشرقين ، بل أبعد منه بما لا يستطاع تقديره .

الشبهة الثانية : يقول المسيو أندريه : كان للشعوب التى سادها اليونانيون والرومانيون نشاط ، وقوة إدراك ، وروح ابتكار ، جردتها منها السيادة الإسلامية .

اللهم إن هذا مناقض لبداهات التاريخ مناقضة صارخة .

وذلك أن البلاد التى فتحها المسلمون وكان يسود فيها آثار من المدنية اليونانية والرومانية هى سورية ومصر وشمال أفريقا كله والأندلس . فأما سورية فكانت تعانى من عنت الرومانيين فى الحكم ، ومن اضطهادهم لها فى الدين ، ما أفردت له صحف سوداء فى التاريخ ، حتى حمل ذلك مئات الألوف من اليهود واليعاقبة والنساطرة أن يلجأوا إلى بلاد العرب هرباً من الجور الذى كان حائقاً بهم ، وفى هؤلاء علماء أعلام استخدمهم العرب فيما بعد فى ترجمة العلوم ،

وأحسنوا مكافأتهم ، وحموهم شرور الاضطهاد ، وقربهم الخلفاء منهم حتى كانوا من أخص بطاناتهم ، وعولوا عليهم فى الطب والعلوم الطبيعية والرياضية ، وخلدوا ذكرهم فى مؤلفاتهم التاريخية .

وأما مصر فقد كانت كما يقول المسيوجول لابوم على عهد الرومانيين ، كالجثة المصبرة ، فبعد أن قتلوا من أهلها نحو ثمانمائة ألف نسمة لاعتناقهم المسيحية بقصد إبادتهم ، عادوا بعد أن تنصروا هم فاضطهدوهم لمخالفتهم لهم فى المذاهب ، وأرهقوهم بالضرائب والإتاوات ، حتى نضبت خيراتهم ، وجمد نشاطهم ، وتحجرت عقولهم . فلما انتدب العرب لفتحها رمى المصريون بأنفسهم بين أيديهم ، وعاونوهم على التخلص من نير مستعبديهم . أليس هذا التواطؤ وحده أدل دليل على ما كان يعانيه المصريون من عسف الرومانيين وظلمهم وهم أبناء دين واحد ؟ فلو كان للمصريين نشاط وقوة إدراك وروح ابتكار أفاضتها عليهم المدنية الرومانية لما سمحت نفوسهم أن يجازوا أصحابها بممالأة أعدائهم عليهم .

أما شمال أفريقا الذى استولى عليه المسلمون بحركة حربية تشبه رياضة عسكرية ، فقد كان أهله من البربر رازحين كالمصريين تحت نير الاستعمار الرومانى ، بل كانوا أتعس منهم حالاً ، فإنه كان للمصريين ذَماء من مدنيتهم القديمة ، وأما أولئك فكانوا مجردين من مثل هذا الذماء أيضاً ، لأنهم لم تكن لهم قُدْمة مدنية ولا وراثة أدبية ، فكانوا على ما هم عليه اليوم من البداوة المتأصلة فى نفوسهم ، اللهم إلا جماعات عايشت الرومانيين واليونانيين فى المدن التى أسسوها فى بلادهم ، وكان حظهم معهم حظ العبيد من سادتهم . فإذا كان المصريون قد برموا بسادتهم الرومانيين إلى حد أنهم مالأوا العرب على تسليمهم بلادهم ، فهل يعقل أن يكون بربر شمال أفريقا أحسن حالاً منهم ؟

وهذه الأصقاع من أفريقا ظلت خاملة الذكر لا يسمع عنها شىء يعتد به التاريخ حتى ملكها المسلمون ، فدخلت تحت ظل الإسلام فى دور جديد ، فتألفت فيها خلافة مدت سلطانها على مصر نفسها ، وكانت لها وللجزائر وتونس أساطيل تهيبتها أساطيل أوربا قروناً طويلة .

وأما الأندلس فقد كانت فى عهدها الأخير تسودها قبيلة الوزيغو ، وكانت عدوة للمدنية الرومانية لم تدع معلماً من معالمها إلا هدمته ، وجرت فى حكم البلاد على طريقة الجور والاستبداد المفرطين . وقد دخلها المسلمون بتواطؤ بينهم وبين الناقمين على حكومة المغتصبين . وما كادت تطؤها أقدامهم حتى أصلحوا إدارتها ، وأحسنوا سياستها ، وأسسوا فيها المدارس والجامعات ، وأقاموا المبانى والعمارات ، ونشطوا الزراعات والتجارات ، وأحيوا الفنون والصناعات ، حتى أصبحت مضرب المثل فى العمران والمدنية إلى اليوم .

أليس من غرائب التعصب أن ينكر المسيو أندريه كل هذه الآثار الناطقة ، ويدعى أن سيادة المسلمين أخمدت نشاط الشعوب فى البلاد التى احتلتها ؟! ألم ير أن الشرق الإسلامى لبث متفوقاً على الغرب فى كل مجال إلى نحو ثلاثمائة سنة ؟ فإذا كانت إسبانيا قد نجحت فى التخلص من حكم المسلمين بسبب انقسامهم على أنفسهم فقد استعاض المسلمون من ذلك بفتح شرق أوربا ، وما زالوا ظاهرين حتى وصلوا إلى وسط تلك القارة وهددوا رومية نفسها ، وحافظوا على فتوحاتهم فيها قروناً . وما ضرهم إلا فترة من السكون اعترتهم بعد عراك طويل للحوادث دام ألف سنة ، بلغوا فى خلالها قمة المجد ، وآلت إليهم فيها زعامة الأرض فى السياسة والعلم والفنون والأدب . فهل يسمح المسيو أندريه لنفسه أن يعتقد أن عصارة الفكر العربى الجاهلى تُمَكن الآخذين بها من الاستيلاء على الزعامة العالمية طوال تلك المدة الطويلة من الزمن ؟ فأين كانت عصارة الفكر اليونانى الرومانى لتقاوم هذه الحركة الجاهلية فى الأرض ؟ ألم يعلم أنها كانت قد جفت وتطايرت ذراتها فى الهواء حتى جاء المسلمون فأعادوا تقطيرها ثانية ، وزادوا عليها من فيض جهودهم ما ضمن لها البقاء والنماء ما شاء الله لها أن تبقى وتنمو وتؤتى ثمراتها للخلق ؟

من العبث أن أستشهد هنا بأقوال المؤرخين من أبناء الفرنجة ، فهم فى نظر المسيو أندريه هرفيه قد خُدعوا فظنوا المدنية التى كانت عليها الأمم التى سادها المسلمون مدنية عربية ، والحقيقة أنها كانت يونانية أو رومانية . إذا صح هذا كان المسيو أندريه هرفيه الذى ليس بمؤرخ قد أتى المكابرين فى التاريخ بوسيلة

فذة لا تكلفهم أقل عناء ، وهى خرق إجماع المؤرخين !

بخ بخ ! لو كانت هذه وسيلة من وسائل التمحيص لسهل على كل مكابر أن يثبت مدعاه برأيه الخاص ، فلا تصبح للحوادث التاريخية قيمة ، ولا يكون الإجماع أصلا من أصول التحقيق ، ويمتنع الاستشهاد بالتاريخ .

يقول المسيو أندريه هرفيه : إنه كان للشعوب التى أخضعها اليونانيون والرومانيون نشاط وقوة إدراك وروح ابتكار جردتها منها السيادة الإسلامية . فكيف يعقل هذا الكلام والصفات التى يذكرها لم تكن لليونانيين والرومانيين أنفسهم فى العهد الذى ظهر فيه الإسلام ؟

فهل يعقل أن يكون شىء منها لمستعمراتهم التى امتصوا دمها وتركوها جثة هامدة ؟! ألم يجمع المؤرخون على أن أوربا كلها كانت فى ظلام حالك من القرن الرابع إلى القرن الخامس عشر ، حتى لم ينبغ فيها فى مدى هذه العشرة القرون عالم واحد ، وهو العهد الذى يعرف عندهم بالقرون الوسطى ؟ فليدلنا المسيو أندريه هرفيه على النشاط وقوة الإدراك وروح الابتكار التى يذكرها لنرى أين كانت ثاوية من ثنايا هذه الغياهب المتلبدة .

لا مشاحة فى أن هذا خرق ثان لإجماع المؤرخين ، يتحمل منه المسيو أندريه هرفيه تبعة فادحة ، أقل ما فيها أن لا يكون لأقواله أية صبغة جدية ، ولا أقول علمية .



بقيت عشر شبهات نتولى دحضها فى المقالة التالية ، إن شاء الله .



هرفيه وشبهات عن الإسلام

– ٢ –

نشرنا فى العدد الماضى خلاصة مقالة للكاتب الفرنسى أندريه هرفيه ، ثم أوجزناها فى اثنتى عشرة شبهة رددنا منها على شبهتين ونرد اليوم على عدد آخر منها .

الشبهة الثالثة : يقول المسيو أندريه هرفيه : إن عقائد الإسلام جامدة تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية .

نقول : أتى الكاتب بهذه الوصمة مضمنة فى عبارة ينقض بعضها بعضاً ، وهى : « إننا فى الواقع لا نعرف حتى اليوم أسباب التوسع السريع فى فتوحات العرب ، ولم نفهم كيف تدهورت أمبراطورية الخلفاء وتمزقت أوصالها ، والأسباب التى أدت إلى هذا التدهور . نعم لا نعرف كيف أصابها الشلل والموت بسبب العقائد الدينية الصلبة التى تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية ، وكل مظهر من مظاهر نشاطه » .

فهو يعترف بأنه لم يعرف أسباب التوسع السريع فى فتوحات العرب ، ولم يعرف أسباب تدهور أمبراطورية الخلفاء ، ونحن إلى هنا لا نجد وجهاً لمؤاخذته ، وكيف نؤاخذ من يعترف بجهله أموراً معينة ؟ ولكنه عاد فقال : « نعم لا نعرف كيف أصابها الشلل والموت بسبب العقائد الدينية الصلبة التى تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية ، وكل مظهر من مظاهر نشاطه » . فكيف نوفق بين اعترافه بجهله أسباب النهوض والتدهور للأمبراطورية الإسلامية فى أول عبارته ، وبين تأكيده بأن تلك الأسباب أوجدتها العقائد الإسلامية الجامدة ؟

وإنا لسائلو المسيو أندريه هرفيه قائلين : إنه يعترف هنا بأن العرب كانت لهم فتوحات واسعة سريعة ، فكيف تسنت لهم وتمت على أيديهم ، وهم تحت سلطان عقائد جامدة تصيب أصحابها بالموت والشلل ؟

---

(١) نقلاً عن المجلّد السادس من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٤ هـ – ص ٦٠٥ وما بعدها .

ويعترف أيضا بأن العرب أسسوا أمبراطورية عظيمة ، فكيف أمكنهم تأسيسها وحفظها قرونا عديدة وهم يدينون لعقائد جامدة توجب على الآخذين بها الموت والشلل ؟ ولا يخفاه أن القيام ببناء أمبراطورية يقتضى أصولاً وقواعد تقام عليها ، وحوافظ تحفظ بها ، فكيف ساغ للعرب ذلك وهم مصابون بالموت والشلل بسبب عقائدهم الجامدة العقيمة ؟

ويقول المسيو أندريه : إن العقائد الإسلامية تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية ، وكل مظهر من مظاهر نشاطه .

ولكن هذا التحكم على إطلاقه لا يعتبر عيباً فى ذاته ، لأن هذا الوصف نفسه ينطبق على علم الأخلاق وعلى دستور الآداب ، فتعبيره للإسلام بهذا الوصف وحده لا يغنى شيئاً فى القدح فيه . والحقيقة أنه يريد أن يقول : إن الإسلام على ما هو عليه من العقائد الجامدة الموجبة للشلل والموت يتحكم فى كل نواحى الحياة اليومية لمتبعيه .

ولكنه لم يبين لنا ما هى تلك العقائد الجامدة فيه . لعله اكتفى بقوله إن التعاليم الإسلامية لم تكن شيئاً غير مصاصة العقل العربى ، وهو ما رددنا عليه فى العدد السابق . إن كان الأمر كما يقول فلم لم يوصل العقل العربى أهله على عهد جاهليتهم إلى الاجتماع على حالة أمة ؟ ولم لم يدفعهم إلى الفتوحات الواسعة السريعة ، وإلى تأسيس أمبراطورية عظيمة كالتى كانت للخلفاء وبقيت عهداً طويلاً ؟

مهّد المسيو أندريه لشبهته هذه بأنه يجهل الأسباب التى دعت العرب للتوسع السريع ، والأسباب التى قضت على أمبراطوريتهم بالتدهور ، فكان يجب عليه أن يعرف هذه الأسباب قبل أن يتصدى للتشهير بتعاليم يدين بها نحو ربع سكان الكرة الأرضية ، ولا تزال تُدخل ، كما يقول هو نفسه ، الملايين الكثيرة إلى حظيرتها فى كل عام .

لا جرم أن هذا الموضوع جدير بالبحث ، فإن أمة كالأمة العربية عاشت آلافاً من السنين على الحالة القبيلية ، تنقلب فى سنين معدودة إلى أمة شديدة التماسك ،

قوية الترابط ، فتنهض نهضة قوية تبنى لنفسها بها أمبراطورية لا تشبهها فى السعة وترامى الأطراف أمبراطورية فى العالم حتى ولا فى هذا العهد ، وتستطيع أن تحتفظ بها قروناً طويلة ، قلنا إن أمة كانت على تلك الحال من التفكك ، ثم آلت إلى ما آلت إليه فى سنين معدودة ، وتغلبت على أمم كانت على جانب عظيم من النظام الاجتماعى والمدنية ، لا يعقل أن تكون قد وصلت إلى هذا المستوى الرفيع وهى مجردة من أصول قوية ، ومبادئ قويمة .

كان يجب على المسيو أندريه هرفيه وهو يعالج مسألة خطيرة كالتى هو بصددها أن يعرف أن اجتماع القبائل المتعادية وقيامها على حالة أمة شديدة التماسك ، متناسية ما كان بينها من الثارات والإحن ، لا يمكن أن يكون ثمرة دعوة ساذجة ، أو بدافع أهواء طائشة ، بدليل أن أمثال هذه الانقلابات فى تاريخ المجتمعات لم تتم إلا بعد حدوث تطور عظيم فى نفسيات الآحاد اقتضته أمور جسام ، وقوارع عظام ، وتولت بناء الوحدات الاجتماعية الجديدة أصول ومبادئ كان مثلها بين الأفراد والجماعات مثل الملاط بين الأحجار إذا أريد تحويلها إلى قصور مشيدة . وفوق هذا فإن هذا التحويل يحتاج لمدبر خبير بأصول البناء وأسرار تماسكه ، حتى لا ينهار على نفسه من أى ارتجاج يصيبه .

فهل يكفى فى تعليل قيام الوحدة العربية أن يقال إنها ثمرة تعاليم هى مصاصة العقل العربى الجاهلى ، وإن هذه المصاصة كما وحدت الأمة العربية دفعتها لتكوين أمبراطورية عظيمة يحار المسيو أندريه هرفيه فى وجودها وأسباب فهم انحلالها ؟

أم هل يكفى فى تعليل قيامها أن يقال إن هذه التعاليم عقائد جامدة تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية ، ولا تزال به حتى تصيبه بالشلل والموت ؟

فهل حدوث هذه الآية الكبرى وهى الوحدة العربية مع ما تقتضيه من تطور يبعث عليها ، وأصول ومبادئ تقيم صرحها ، هو ثمرة تعاليم جامدة تصيب الآخذين بها بالشلل والموت ؟

وهل الانسياح فى الأرض ، والقيام بفتوحات لا عهد للعالم بمثلها ، وتأليف أمبراطورية لم يعهد النوع الإنسانى أوسع منها ، هو ثمرة تعاليم جامدة تستولى على عقلية أهلها فتصيبهم بالشلل والموت ؟

وهل دخول مئات الملايين فى هذا الدين ، وتوالى انتشاره فى جميع قارات الأرض متغلباً بدون دعوة على جميع الملل المنافسة له ذات الدعاة الذين ينفقون عشرات الملايين من الجنيهات كل سنة ، هل كل هذا نتيجة تعاليم جامدة لا تدع لأصحابها متنفسا فى الحياة وتصيبهم بالشلل والموت ؟

إنى أكاد أظن أن المسيو أندريه هرفيه يمزح فيما يقول ، أو هو غريب عن البحوث الاجتماعية لا يدرى عن أصول الاجتماع شيئا ، وهذا هو الأرجح .

وكما أنه غريب عن البحوث الاجتماعية كذلك هو غريب عن المسائل النفسية لا يضرب بأقل سهم فيها . فقد عرف الإسلام بأنه مصاصة العقل العربى الجاهلى ووصف تعاليمه بالجمود وبأنها توجب على الآخذ بها الشلل والموت . وسبق له فى أول مقالته أن قال : « أثرت الديانة الإسلامية على المسلمين تأثيراً بدرجة جعلت الأمم الإسلامية أشبه بأمة واحدة مؤلفة من أقطار متنوعة صهرت فى بوتقة واحدة . فالمثل العليا الإسلامية واحدة عند المسلمين ، وتصوراتهم الفلسفية كذلك واحدة . وهم متمسكون تمسكاً شديداً باعتقادهم القوى فى سمو عقائدهم الإسلامية المقدسة الخ » .

نقول : يمكننا أن نعقل وجود ديانة ذات تعاليم جامدة موجبة للشلل والموت ، وأن نفهم أن الآخذين بها يتخيلون فى عقائدها السمو ، ويتمسكون بها كل التمسك بحكم وراثتهم لها عن آبائهم ، ووقوعهم تحت سلطان التقليد الأعمى لأوائلهم . ولكن هل نعقل أن يكون لمثل هذه الديانة قوة انتشار ذاتية بحيث تتغلب بدون دعاة على ديانات يعتقد المسيو أندريه هرفيه أنها فى أعلى درجات السمو ، ولها دعاة يستندون إلى أقوى دول الأرض ، ويغرون الناس على الدخول فيها بالهيل والهيلمان ؟

اللهم إن هذا غير معقول .

فإن قال المسيو أندريه : إن الذين يدخلون فى ديانتكم هذه طوائف من أمم ليست على درجة من الثقافة تجعلها تميز بين الغث والثمين ، قلنا : فما ظنك بالأوربيين وقد دخل منهم فيها ألوف ، وقد بدأ غيرهم يعرفون فضلها ويقدرونها قدرها ، بل ما ظنك بكبار الفلاسفة والمفكرين أمثال كارلايل وجوت ولا مرتين وبرنارد شو وسديو ، وعدد لا يحصى من كبار العقول وقد شهدوا للإسلام بسمو العقائد ، وأصالة الأصول ، وشرف المقاصد ، وبعد الغايات ، والكفاية التامة لحاجات العالم الإنسانى الروحية والمادية فى كل زمان ومكان !

إن ساغ للمسيو أندريه أن يقول جزافاً إن هؤلاء العلماء قد وهموا فنسبوا مدنية المقهورين للعرب القاهرين ، كما ادعى ذلك ، وسنثبته ونرد عليه ، فهل وهموا أيضا فى نسبة السمو لهذا الدين وكتابه بين أيديهم يتلونه ويتدبرون آياته ، ويتأملون فى بيناته ؟

أما كان يجب على المسيو أندريه هرفيه قبل أن يكتب ما كتب عن دين هو آية الله الكبرى فى الأرض ، أن يقرأ ما كتبه أعلام العلم والفلسفة فيه ليعدل ولو بعض العدل فى الحكم عليه ، بدل أن يصفه بما وصف فجنى على نفسه شر ما يجنيه كاتب عليها ، لأن شيوع البحوث الإسلامية واستفاضة الأقوال عنها جعل أكثر الناس يرون فى أمثال كتابات المسيو أندريه هرفيه رجوعاً إلى تضليلات القرون الوسطى ، حيث كان يأتى كاتب بالساقط من القول طعنا فى دين فيصدقه جميع القارئين ، ويزيدون عليه ، وينقلونه مثقلاً بالمضاعفات من كل ضرب !

لقد انقضى ذلك العهد ، ونحن اليوم فى عهد آخر يسوغ فيه لمثل الفيلسوف الكبير (برناردشو) أن يقول : إنه لا يمضى على أوربا قرنان حتى تدخل جميع شعوبها فى الإسلام .

نكتفى بدحض هذه الشبهة اليوم تاركين ما بقى منها للشهور المقبلة إن شاء الله .

***

هرفيه وشبهات عن الإسلام [1]

- ٣ -

يذكر قراؤنا الكرام أننا أتينا فى السنة الماضية على ملخص مقالة للمسيو أندريه هرفيه الفرنسى ، نشرها فى فرنسا وأتى فيها على شبهات ضد الإسلام ، فرددنا فى أعداد تلك السنة على ثلاث شبهات منها ، ورأينا اليوم أن نتابع ردودنا على ما بقى منها .

الشبهة الرابعة : قال المسيو أندريه هرفيه : « إن العلم العربى لا يعدو ما ترجمه السوريون للعرب ترجمة مشوهة ، انخدع بها المؤرخون ونسبوها للعرب زوراً » .

نقول : إننا أول ما وقع بصرنا على هذه الشبهة كدنا لا نصدق صدورها عن كاتب فى القرن العشرين ، ليس لأنها تغمط المسلمين حقهم فى حفظ العلم فحسب ، ولكن لأنها تنسب لجمهرة المؤرخين الانخداع فى أمر لا يمكن فيه الخدع والانخداع البتة .

ذلك لأن العرب لما اندفعوا فى تحصيل العلم بحافز من الإسلام لم يكن أمامهم من سبيل إليه إلا سبيل الترجمة ، فاستعانوا عليها بالنساطرة واليعاقبة واليهود ممن يحذقون اللغات اليونانية والسريانية والكلدانية وغيرها ، فكانوا كلما تمت ترجمة كتاب كتبوا عليه اسم مؤلفه ومترجمه ، وأخذوا فى تدارسه وتفهمه ، فاجتمع لديهم من هذه الكتب المترجمة عدد كبير ، فلم يرو عن أحد من العرب أنه نسب إلى نفسه كتاباً من هذه الكتب ، ولا أخطأ مؤرخ عربى أو أجنبى فعزا واحداً منها إلى غير واضعه . فماذا يعنى إذن المسيو أندريه بقوله : إن المؤرخين انخدعوا بهذه العلوم المترجمة فنسبوها للعرب ؟

ليسمح لى أن أقول : إنها لا تعنى شيئا ، وإنها لا تستحق الرد لهذا السبب .

---

(١) نقلاً عن المجلّد السابع من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٥ هـ - ص ٦٦ وما بعدها .

ولكن العرب بعد أن أحسنوا العلم بها وضعوا تعليقات وشروحاً عليها ، وتفنيدات لبعض مزاعمها ، وتصحيحات لكثير من أخطائها . وهذه الثمرات الفكرية لا يمكن الخطأ فى نسبتها ، لأن أصول تلك الكتب التى ترجمها العرب لا تزال محفوظة فى مكتبات أوربا بلغتها الأصلية ، وهى خالية من تلك التعليقات والشروح والتعديلات العربية الباحتة . وفى الأوربيين ، وليس المسيو أندريه منهم ، فلاسفة وقفوا حياتهم على النظر فى تلك الأصول ، فلم يعثر واحد منهم على شيء انتحله العرب لأنفسهم . فالتفرقة بين ما كان للأمم المنقول عنها ، وبين ما هو من صميم العقول الإسلامية ، ميسورة فى كل وقت ، ولا يمكن الانخداع فى أمر يتعلق بها .

هنا يسوغ لنا أن نسأل : هل زاد المسلمون على المعارف القديمة علوماً جديدة ؟ وهل أكسبوا ما كان موجوداً منها تحسيناً لم يكن فيها ؟

الجواب على هذين السؤالين ليس بصعب ، فما علينا إلا نقل ما أجمع عليه المؤرخون ، وما أجمعوا عليه لا يمكن أن يقابل بالاستخفاف من فرد يرسل القول إرسالاً ، ولا يأتى على ما يقول بسلطان بين .

فإليك ما قاله تاريخ العلم على لسان الأستاذ الكبير (دريبر) المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) [1] :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الإسكندرية سنة (٦٣٨) ميلادية أى بعد موت محمد بست سنين . ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها قدرها الصحيح » . إلى أن قال :

« ولما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور من سنة (٧٥٣ إلى ٧٧٥) ميلادية ، نقل عاصمة الملك إلى بغداد وجعلها عاصمة فخمة ، فلم يأل جهداً فى نشر العلوم الفلكية ، وتأسيس مدارس الطب والشريعة .

---

(١) Les conflit entre la Science et la religion , Par le professeur Draper

« ولما تولى حفيده هارون الرشيد سنة (٧٨٦) م اتبع أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية ، وأمر بإضافة مدرسة إلى كل مسجد فى جميع أرجاء ملكه .

ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الآسيوية لم يشرق إلا فى خلافة المأمون الذى تولى الخلافة من سنة (٨١٣ إلى ٨٣٢) م ، فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى ، وجمع إليها كتباً لا تحصى ، وقرب إليه العلماء وبالغ فى الحفاوة بهم .

هذه المكانة التى اكتسبها العرب ، وهذا الذوق السليم فى العلم ، استمرا لديهم حتى بعد أن انقسمت مملكتهم إلى ثلاثة أقسام ، فإن العباسيين فى آسيا ، والفاطميين فى مصر ، والأمويين فى إسبانيا ، لم يكونوا متناظرين متنافسين على الحكومة فقط ، ولكن كانوا كذلك فى الآداب والعلوم أيضا .

« ذاق العرب فى الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ويصقل الذهن ، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم كلها مجتمعة » .

« أما فى العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئا من الأسلوب الذى توخوه فى المباحث ، وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الأوربيين ، فإنهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى إلى التقدم ، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها ، ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى والدستور العملى الحسى » .

« وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايدروستاتيك (علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والإبصار أنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات » .

« هذا (تأمل) هو الذى قاد العرب إلى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والإسالة (إسالة الجوامد والتصفية الخ) .

« وهذا بعينه هو الذى جعلهم يستعملون فى بحوثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرلابات (هى آلات لقياس أبعاد الكواكب) .

« وهو أيضاً الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيمياوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته .

« وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية (هى جداول تعرف بها حركات الكواكب) مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند .

« وهو الذى أوجد لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات .

« وهو أيضا الذى هم بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية .

« هذا هو ثمرة تفضيلهم أسلوب أرسطو الاستدلالى على مقالات أفلاطون الاستنتاجية » إلى أن قال :

« لقد كتب العرب فى كل فن وفى كل علم ، كالتاريخ والشريعة والسياسة والفلسفة وتراجم الرجال وتراجم الخيول والإبل ، وكل هذه المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة ولا حجر ، وما يعلم من المراقبة على الكتب اللاهوتية ، فقد حدث فيما بعد هذا التاريخ . وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التى تصلح لأن تتخذ مادة ، كثيرة جداً فى الجغرافيا والإحصاءات والطب والتاريخ وقواميس اللغة ، وكان لديهم دائرة معارف علمية ألفها محمد أبو عبد الله » إلى أن قال :

« كان الملك الإسلامى يغص بالمدارس والمكتبات ، وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والأندلس حاصلة على عدد عديد منها » إلى أن قال :

« ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى ، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم (تأمل) قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً ، وأوجدوا (تأمل أيضا) علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم » إلى أن قال :

« وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفات العرب من الآراء العلمية ما كنا تظنه من ثمرات العلم فى هذا العصر ، من ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثاً ، كان يدرس فى مدارسهم ، وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه ، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضاً » .

وقال المؤرخ الإنجليزى الكبير (جيبون) :

« كان من أثر تنشيط الأمراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى إلى فارس وقرطبة » .

نقول بعد هذا : أين تذهب شبهة المسيو أندريه هرفيه فى وسط هذه الأسنة المشرعة إليها من تأكيدات مؤرخى العلوم الإنسانية ونقبائها المعروفين ببعد النظر وشدة التمحيص ؟ فهل كان بينهم وبين العرب رابطة جنسية أو دينية أو لغوية حتى يعزوا إليهم ما ليس لهم ، ويحيطوا اسمهم بهذه الفتوحات العلمية التى لم تسجل لأمة قبلهم فى الأرض ؟

إن كل ما عمله المسيو اندريه بشبهته أن أثار من جديد تاريخا حافلاً بالعظائم لأمة لم يوجهها هذا التوجيه المدنى الخطير إلا الدين الذى يصمه بما ليس فيه ؛ ليلفت إليه نظرات الإعجاب به من جديد ، وإن كان يريد هو عكس ذلك : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكن الويل مما تصفون » .



هرفيه وشبهات عن الإسلام [١]

– ٤ –

يذكر القراء أننا لخصنا بحثاً للكاتب الفرنسى المسيو أندريه هرفيه حمل فيه على الإسلام ، وحصرنا شبهاته التى أوردها فى اثنتى عشرة شبهة . وقد دحضنا أربعاً منها ، وبقيت ثمانى شبهات ، فنأتى اليوم على دحض خامستها ومؤداها :

« إن الحضارة التى يزعم المؤرخون أنها عربية هى فى الحقيقة حضارة الشعوب التى وقعت تحت نير العرب ، فتابعت سيرها على الرغم من العقائد الإسلامية الجامدة » .

دحض هذه الشبهة :

يلوح لى أن المسيو أندريه هرفيه لا يكتب ليصل إلى حقائق تاريخية ، ولكنه يكتب ليطعن فى الإسلام . وتراه لأجل الوصول إلى هذه الغاية يسير على أسلوب لم يسر عليه كاتب قبله ، فهو لا يحترم المقررات التاريخية حتى التى دوّنها أبناء جلدته ، ويخالف الإجماع بغير دليل يقيمه غير رأيه الشخصى . مع أن مخالفة الإجماع على مقتضى الدستور العلمى لا يجوز إلا إذا وجدت أدلة محسوسة تنقضه ، ولا يجوز الاعتماد على تلك الأدلة إلا إذا اشترك فى تقديرها عدد من أهل البصر يعلنون بأنها كفء لذلك النقض .

أجمع المؤرخون على أنه كانت للمسلمين حضارة زاهرة كسفت كل ما سبقها من الحضارات العالمية ، وأنها بلغت حداً لم تبلغه نظائرها فى أقدم الأمم علماً ومدنية ، وعلى أن هذه الحضارة دعا إليها الإسلام نفسه وساعد زعماؤه على إبلاغها إلى كمالها بما بذلوه من جاههم وجهودهم وأموالهم ، وبما نشّطوا العاملين عليها على المثابرة بكل ضروب التنشيط والتحضيض ؛ فَخَرَق المسيو أندريه هرفيه هذا الإجماع ، وقرر بأن ما تخيله المؤرخون من أمر الحضارة الإسلامية ،

---

(١) نقلاً عن المجلّد السابع من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٥ هـ – ص ٢٦٧ وما بعدها .

هو ما كانت عليه الشعوب التى دوخها المسلمون وأخضعوها لسلطانهم من آثار الحضارة الخاصة بهم ، أما الإسلام نفسه فلا يعرف الحضارة ولا يدعو إليها ، ولكنه يقتلها حيث صادفها ، ويقضى على أهله وأهلها بالجمود والاستكانة .

هذا عجيب وأكبر من عجيب : فإن مدنية تقوم فى أمة من الأمم وتدوى أخبارها فى العالم كله دوياً قاصفاً ، وتصبح بلادها كعبة تحج إليها الشعوب من أقصى الأرض لتقتبس من نورها ، ويُجْمع على إكبار شأنها مؤرخو العالم أجمع ، ولا تزال آثارها ظاهرة فى أربعة أرجاء المعمورة ، تشهد لأهلها بالنبوغ الخارق للعادة ، والعبقرية البالغة ، يجرؤ على إنكارها كاتب بغير دليل ولا شبه دليل ، ولكن بجرة قلم ، كأن هذا القلم يستطيع أن يمحو ما انتقش فى لوح الوجود نفسه ، غير حاسب أن هذه الجرأة تكفى وحدها لدحض كل ما قاله ولو لم يتعرض له أحد بنقد .

لا ندرى كيف يغيب عن مثل المسيو أندريه هرفيه أنه لو كان المسلمون الأولون من الطراز الذى يتوهمه من الجمود والتوحش ، لبادت تحت نيرهم الثقيل تلك الحثالة من المدنية التى كانت للشعوب التى أخضعوها لسلطانهم ، ولم تعش إلا ريثما تودع الوجود ذابلة متداعية ، كما كان شأن المدنية الرومانية العظيمة تحت نير الفاتحين من قبائل الفنداليين والهونيين وقدماء البلغاريين ، لا أن تنتعش تلك المدنية وتزدهر تحت حكم المسلمين حتى تظهر على سائر مدنيات العالم ، وتبقى قروناً طويلة ناقلة العالم كله من الظلمات إلى النور فى تلك القرون الحالكة .

إذا كان الأمر كما يدعى المسيو أندريه هرفيه من أن المسلمين كانوا أهل جمود وجاهلية ، وأنهم لم يعبأوا بالعلوم ولم يكترثوا لها ، وأن ما حملوه للعالم من أصول دينهم يطفىء نور كل مدنية فى العالم ، وأن الحضارة التى يصادفها المؤرخون تحت سلطانهم لم تكن إلا حضارة الأمم التى أخضعوها لسلطانهم ، إذا كان الأمر كما يدعيه من هذا الخبط فهل يستطيع أن ينكر أن المسلمين نقلوا العلوم إلى لغتهم العربية ، وأن أئمتهم وزعماءهم بذلوا فى نقلها مالاً جما ، وجهداً جهيداً ؟

فلم يعقل أن يتكلف هَدَمة الحضارة هذه المشاق والتكاليف كلها فى نقل العلوم إلى لغتهم ما داموا هم مفطورين على كراهتها ، وعلى تثبيط همة أهلها ، وما دامت المدنية كما يقول كانت مقصورة على الأقوام المغلوبين لهم ؟

إن كان لما قاله المسيو أندريه هرفيه حظ من الصحة لأبقى المسلمون العلوم بلغاتها الأعجمية ، ولما تجشموا المتاعب فى الحصول على كتبها المهملة فى زوايا المكتبات الأوربية ، ولما بذلوا ملايين الدنانير لنقلها إلى لغتهم ، ولما عُنوا بأن يجعلوا كتبها فى أرفع مكان من مكتباتهم وجامعاتهم . فهل تتخيل عبثا بالعقول أشد من هذا العبث ؟ وإنى لمتعجب كيف تقبل الجريدة التى نشرت هذه المباحث أن تنشرها مع هذا الخطل ؟!

هذه الملاحظات تكفى للرد على شبهة المسيو أندريه هرفيه ، ولكننا نأتى هنا بفذلكَة عن تاريخ العلم فى الإسلام لنثبت بدليل محسوس أن أول من كتب فيه بالعربية وأمر بنقل ما يوجد منه فى البلاد الأجنبية هم المسلمون أنفسهم فنقول :

اشتغل المسلمون بطلب العلم على عهد النبى ﷺ ، فكانوا يحفظون القرآن كله أو بعضه ، ويتتبعون الأحاديث النبوية ويتذاكرونها . فلما لحق رسول الله بالرفيق الأعلى انقطع منهم قوم لدراسة التفسير والحديث ، وآخرون لتحرير اللغة وضبط قواعدها ، وجماعة لجمع التاريخ ، وأخرى للتبسط فى الفقه ، فكان هذا أول ما دعتهم الضرورة إليه .

فلما نالوا حظاً من هذا كله ، مدوا بأبصارهم إلى ما بعده من المعارف التى تقتضيها حالة التحضر التى دخلوا فيها ، ولم يمض عليهم فى الإسلام أكثر من خمسين سنة .

فكان أول من اشتغل بنقل العلوم الكونية إلى الأمة الإسلامية هو خالد ابن يزيد بن معاوية أحد أمراء بنى أمية المرشحين للخلافة ، فقد استقدم جماعة من علماء جامعة الإسكندرية اليونانيين وأخذ عنهم علم الكيمياء ، ثم أمر بنقله إلى اللغة العربية ، فترجمه له رجل اسمه اصطفان القديم ، فكان هذا أول ما نقل إلى هذه اللغة من العلوم الطبيعية .

واشتغل هذا الأمير أيضا بالعلوم الفلكية على علماء من اليونانيين ، منفقاً فى هذا السبيل مالا جماً ، وحصل على الآلات الضرورية له ، ويرجح أنه قد ترجم له منه . وقد جاء فى كتاب تراجم الحكماء أنه قد وجدت فى نحو منتصف القرن الرابع الهجرى فى مكتبة القاهرة كرة أرضية من النحاس عملها الفلكى المشهور بطليموس اليونانى ، وكان عائشا قبل المسيح بنحو مائة وخمسين سنة ، وجدت مكتوباً عليها هذه العبارة : « حُملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد ابن معاوية » .

فانظر كيف انبعث المسلمون من أنفسهم بداعية الدين نفسه ، وضرورة العمران ، لأن يستكمِلوا وجودهم المدنى بالعلوم التى تؤيده وتبلغه إلى أبعد ما يصل إليه علماً وعملاً .

توفى الأمير خالد بن يزيد فى سنة (٨٥) للهجرة ، وتولى عبد الملك ابن مروان ، وكانت الآراء قد اختلفت فيمن هو أحق بالخلافة من المرشحين لها ، وانقسمت الأقطار الإسلامية مشايعة لهم ، فكان هوى مكة والمدينة والعراق ومصر مع عبد الله بن الزبير ، وكان قد تولى الخلافة ونفذت كلمته فى هذه الأقطار الشاسعة . فلما تولى عبد الملك بالشام رأى أن أول ما يجب عليه لتثبيت خلافته ، أن يقاتل عبد الله بن الزبير ، فأرسل إليه الحجاج بن يوسف الثقفى على رأس جيش ، فأخذ يقاتله ، وفى الوقت نفسه بعث بجيش إلى العراق لطرد عامله منها ، فاتفق أن القائدين الأمويين تمكنا من القضاء على خصميهما ، فخلص الملك لعبد الملك ، ثم لبنيه الأربعة حتى نهاية القرن الأول ، فحدثت فتنة كان الغرض منها إسقاط الأمويين واستبدال العباسيين بهم ، فكانت حروب وقلاقل حتى استقرت الأسرة العباسية فى الملك ، فلم تطل أيام عميدها أبى العباس السفاح غير سنتين ، ثم خلفه أخوه المنصور سنة (١٣٦) ، وكانت نيران الفتن قد خمدت ، فدفعته هداية القرآن وضرورات العمران إلى البحث عن خزائن العلوم الكونية . فأول ما اتجه إليه بصره منها علم الفلك فاستحضر جمهوراً من أعلامه الفرس ، منهم نوبخت ، وكان ذا براعة فى العلم باقترانات الكواكب وحوادثها . ولما كبر خلفه ولده أبو سهل بن نوبخت . ثم توالت أعقابه فى خدمة العباسيين وترجموا لهم كتباً كثيرة .

وقد اشتهر أمر اهتمام المنصور بعلم الفلك ، فقصده أعلامه من البلاد الأجنبية كبلاد الهند واليونان .

وفى عهد المنصور ترجم إلى العربية أشهر كتاب للهند فى الفلك ، ونشر تحت اسم السندهند الكبير ، وجعل أصلاً يرجع إليه فى علم حركات الكواكب .

ولما كان علم الفلك يحتاج إلى العلوم الرياضية كتب المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتبها ليترجمها ، فبعث إليه بكتب أقليدس وبعض الكتب الطبيعية فأمر بترجمتها .

واهتم أمير المؤمنين المنصور أيضا بالطب ، واشتد كلفه بنشره ، وذلك أنه كان قد أصابه مرض ، فلما أعجز أمره الأطباء جمعهم وسألهم : هل يعرفون طبيبا ماهراً فى بعض الأقطار ؟ فدلوه على جورجيس بن بختيشوع ، فاستقدمه ، ولما سُرّ من علمه وخبرته ونجاح معالجته أمره بالإقامة فى بغداد ونقل كتب الطب إلى العربية ، وكان ملماً باليونانية والسريانية والفارسية ، فنقل له كتباً قيمة منها .

فلما أفضت الخلافة إلى حفيده هارون الرشيد من سنة (١٧٠ – ١٩٣) كانت ضرورة الحياة المدنية قد أعدت النفوس للاستكثار من العلوم الكونية ، وشعر العلماء فى الأقطار البعيدة بشغف المسلمين بها ، فأهرعوا إلى بلادهم يتلمسون نشر ثقافتهم فيها . فجاء عدد كبير منهم إلى بغداد من سريان وفرس وهنود واستقبلوا فيها بالترحاب ، وقربهم الخليفة وأغدق عليهم العطايا ، وأمرهم بترجمة أمهات الكتب اليونانية ، فشرعوا فى العمل تحت رعايتهم ورعاية الأمراء .

ولما أفضت الخلافة إلى المأمون بن هارون الرشيد ، نشطت حركة الترجمة والتأليف نشاطاً عظيماً ، وجارى الوزراء والأعيان الخلفاء والأمراء ، فكان لكثير منهم محلات خاصة للمترجمين يجرون عليهم الأرزاق من أموالهم الخاصة ، لينقلوا لهم عيون الكتب الأجنبية التى حصلوا عليها من بلادها الأصلية .

هنا أمر يجب أن لا يفوت القارئين ، وهو أن العلوم الكونية والمذاهب الفلسفية كانت قد كسدت كساداً تاما فى أوطانها من البلاد الأوربية . وكان رجال الدين هنالك يعاقبون بالقتل كل من يشتغل بها ، وقاموا بجمع كتبها

وحشروها فى خزائن مؤصدة لا يصل إليها إنسان . فكانت الحشرات تعبث بها عبثاً شنيعاً ، حتى إن الذى يقترب منها كان يسمع صرير أسنانها تعمل فى قرض صحائفها !

فلما نهض المسلمون نهضتهم التى حيرت العقول فى سرعتها وضخامتها وبُعد آثارها ، لم يقتصروا على ما كان محفوظاً منها لدى العلماء الذين هاجروا من تلك البلاد هرباً من الاضطهاد ، وتاقوا لأن يحصلوا على ما فى تلك الخزائن من الذخائر العلمية . فكتب المأمون إلى ملك الرومان يطلب إليه أن يسمح له بإرسال بعثة علمية إلى بلاده للبحث فى الكتب القديمة المهجورة ، وأخذ ما يقع عليه اختيارهم منها لنقله إلى العربية ، فتردد الملك أولا ثم سمح بذلك ، فأوفد المأمون جماعة من علماء النساطرة إلى تلك البلاد ، فاختاروا طائفة من تلك الكتب وأحضروها إلى بغداد وشرعوا فى ترجمتها .

فكانت اللغات المؤلفة بها الكتب التى شرع المسلمون فى نقلها هى اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية الهندية والنبطية واللاتينية وغيرها .

وإنما أراد المسلمون من الاستكثار من اللغات التى تترجم الكتب عنها ، أن يجمعوا بين محاسنها كلها ، وأن يعرضوا جميع ما فتح الله به على الناس من العلوم ، استخلاصاً لأحقها بالعناية ، وأولاها بالدراسة ؛ لذلك جاءت معارف المسلمين أرفع المعارف كلها ، وفلسفتهم أجمع الفلسفات للحقائق . ولا يوجد فى تاريخ الأمم نهضة فكرية تشبه هذه النهضة أو تقرب منها . ولهذا السبب لم يمض على المسلمين قرنان حتى كانوا زعماء العالم فى كل مجال من مجالات العلوم والفنون والصنائع ، وكان من آثار زعامتهم أن انتشر العلم بواسطتهم فى أوربا على رغم الاضطهادات التى كانت تنال علماءهم ، ولم ينتصر العلم على الجهل فيها إلا فى القرن السادس عشر .

فهل يرى المسيو أندريه هرفيه أن هذه الحركة الإسلامية فى سبيل الحضارة وترجمة العلوم وحفظها يمكن إنكارها ؟ إن من العبث محاولة ذلك ، فالتسليم بالأمر الواقع أولى ، ولكن التسليم به يعلى من قيمة الإسلام ، ويغرى الناس بتعرف أصوله المحيية ، وهو ما يريد المسيو أندريه هرفيه ضده ، وهيهات !

يقول المسيو أندريه هرفيه : إن الحضارة التى يدعونها عربية هى فى الواقع حضارة الأمم التى دوخها المسلمون ، أما هم فكانوا فى حالة جمود وتوحش خنقوا معهما كل حضارة وكل مدنية . فإذا رضى لنفسه أن يخرق الإجماع التاريخى وأن يرمى عرض الحائط بكل رأى مخالف لرأيه ، أفيستطيع أن ينكر الواقع الذى لا يقبل الطمس ؟ أيستطيع أن ينكر أن بغداد مدينة عربية ، بناها أبو العباس السفاح لتكون مقراً للإمامة الإسلامية ؟

لا يمكن إنكار ذلك ، كما لا يمكن إنكار أن مقر الملك فى كل أمة يكون مرآة صادقة لنفسية الأمة التى تمثلها .

كذلك لا يمكن إنكار أن بغداد هذه كانت موطن المدنية الإسلامية ، ومركزها الذى أشعت منه على العالم كله .

فكيف يمكن التوفيق بين هذه المحسوسات وبين ما يدعيه المسيو أندريه هرفيه أن مدنية المسلمين لم تكن مدنيتهم ، لأنهم غير أهل لتوليد مدنية ولا للمحافظة عليها ، ولكنها مدنية الذين كانوا خاضعين لهم من الأمم الأجنبية ؟ فهل كان لسان تلك الأمم عربياً ؟ وهل كانوا هم الذين سكنوا بغداد وعمروها ؟ وهل هم الذين قاموا بترجمة كتب العلم بأموالهم وأسسوا منها مئات من المكتبات العمومية ، فى جميع الأمصار الإسلامية ؟ اللهم إن الصمت حيال أمثال هذه المفتريات أبلغ من التكلم فيها !



هرفيه وشبهات عن الإسلام [1]

— ٥ —

مضت فترة من الزمان لم نتعقب فيها ما نشره الكاتب الفرنسى أندريه هرفيه من شبهات على الإسلام ، وقد وصلنا إلى شبهته السادسة ، فنذكرها ملخصة ، وَنكر بالرد عليها على نحو ما فعلناه بسابقاتها . قال :

الشبهة السادسة : إن نجاح العرب فى فتوحاتهم العظيمة لا يعلى من قيمتهم ، فإن الفاتحين من أمثال أتيلا وجانكيزخان قد أخضعوا شعوباً كثيرة ، ولكنها ليست مدينة لهم بمدنية .

رد هذه الشبهة :

يريد المسيو أندريه هرفيه أن يقول : إن مثل العرب فى توسعهم فى الفتوحات ، وبسط سلطانهم على الأمم ، كان كمثل الهونيين والتتار الذين قادهم أتيلا وجانكيزخان لمجرد الفتح والتسلط . ولما كان هذان الفاتحان قد أتيا على كل عامر فأخرباه ، وكل آهل فأقفراه ، ولم يكن همهم من الفتوح إلا سفك الدماء ، وسلب الأموال ، فنحن نسأل المسيو أندريه : هل هو بالقياس الذى أتى به يريد أن العرب كانوا على هذه السنة فى تحطيم العمران ، ونشر الذعر فى كل مكان ؟

إنه لم يشر إلى هذا الأمر لأنه لا يقوى على مناهدة الحقائق التاريخية إلى هذا الحد ، ولكنه أراد أن يقلل من عظمة هذه الفتوحات المحيرة للعقل ، حتى لا يستنتج منها الناظرون أنها تدل على فضائل نفسية ، أو على عبقرية حربية ، محاولة منه أن يجرد العرب المسلمين من كل مزية إنسانية ، فإن نهضتهم الفجائية تحت تأثير تعاليم الإسلام ، بعد أن كانوا قبائل ممزقة الأوصال ، وأوزاعا لا تجمعها رابطة ، ولا تؤلف بينها آصرة ، غير أهل لأن يعيشوا فى عقر دارهم أحراراً آمنين ،

---

(١) نقلاً عن المجلّد السابع من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٥ هـ – ص ٦٩٧ وما بعدها .

حتى وقعت أخصب بقاعهم تحت سلطان الفرس والأحباش والرومانيين ، قلنا فإن نهضتهم الفجائية هذه لا لأن يساووا الأمم فى تآلفها وتكافلها فحسب ، ولكن لكى ينقلبوا فاتحين متغلبين ، قد أدهشت جمهرة المؤرخين ، وحيرت عقولهم أجمعين . ومما زاد فى دهشهم وحيرتهم أن هذه الطائفة التى نهضت هذه النهضة الباهرة ، لمن تنثن أمام أية قوة ضخمة بليت بها من لدن الفرس والرومانيين ، الذين حارب فى صفوفهم حتى العرب الذين كانوا لسلطانهم خاضعين .

فهذه الفتوحات قد اعتبرت أطروفة التاريخ الإنسانى لأنها حدثت على غير السنن المعروفة ، وقامت بمهام عالمية فى سنين معدودة ، لم تأت بمثلها الأمم العريقة فى الوحدة الاجتماعية ، والنظم الحربية . فقد جمعت فى أقل من ثمانين سنة بين أقطار كان يجهل بعضها وجود البعض الآخر ، فى القارات الثلاث الكبرى ، آسيا وأوربا وأفريقا ، وانتظمت فى سلك أمبراطورية موحدة ، لا تزال أحكامهم فيها مضرب الأمثال إلى يومنا هذا ، حتى قال أقرب المؤرخين إلينا وهو جوستاف لوبون فى كتابه تمدن العرب : « لم ترزق الأرض بفاتحين أكثر رحمة بالمقهورين من العرب المسلمين » . وقال المؤرخ المشهور (سديو) الفرنسى : « لقد نشر المسلمون العلم والمدنية حيث وطئت أقدامهم » .

ومما لم يعهد فى تاريخ الفتوح الإنسانية ، وأصبح أعجوبة العلم الاجتماعى ، أن شعوباً دعت المسلمين لفتح بلادها ، والحلول محل المتغلبين عليها ، لما آنسوه فيهم من العطف على المقهورين والبر بهم .

فهل يصح أن يقارن المسيو أندريه هذه الفتوحات التى كانت خيراً وبركة على الشعوب ، بتلك الغارات المخربة التى شنها اتيلا وجانكيزخان على الأمم التى بليت بمجاورتهما ؟

لا يمكن أن يقول عاقل بأن ذلك يصح لا من ناحية سعة الفتوحات ، ولا من ناحية آثارها على المغلوبين . ففتوحات المسلمين كانت سلسلة انقلابات اجتماعية ، أوجبت تطوراً أدبياً عاماً بين شعوب كانت قد أصيبت بتحجر عقلى ونفسى لا ينقذها منه إلا حركة انقلاب عامة ، كالتى بعث الله خاتم النبيين

لإحداثها ، وقد أدت ما أريد منها ، ودخل العالم بسببها فى طور جديد ، أجمع المؤرخون كلهم على أن ما فيه الناس اليوم من نعمة الديموقراطية والفتوحات العلمية من آثارها وثمراتها . فأين هذه الفتوحات العمرانية من تلك الغارات التلصصية التى انتهكت حرمات الاجتماع ، وديست فيها العواطف الإنسانية بالأقدام ؟

يمثل المسيو أندريه هذه النفحات من الرحمة الإلهية بفتوحات أتيلا وجانكيزخان ، أفكلف نفسه أن يعرف قبل أن ينوه باسميهما من هما أتيلا وجنكيزخان ؟

فأما أتيلا فقد كان رئيساً لقوم يدعون بالهونيين ، هاجروا تحت قيادته من مقرهم الأول على سواحل بحر قزوين ، فى نحو منتصف القرن الخامس للميلاد ، واجتازوا آسيا إلى أوربا فى عهد كانت مهاجرات القبائل فيها مباحة ، وما زالوا سائرين حتى نزلوا على حدود بلاد الغول وهى فرنسا الحالية ، ولما استقر بهم المقام قاموا بما جبلوا عليه من الغارات والسلب ، فأخربوا مدنا كثيرة من تلك البلاد ، وكان رئيسهم يلقب نفسه ببلاء الله ، ويفخر بما يأتيه من أعمال التخريب . ومما يؤثر عنه قوله : « إن العشب لا ينبت حيث تطأ قدماى » وما زال قومه يزاولون أعمالهم التخريبية حتى اتفق عليهم القائد أيتيوس Aetius وتيودوريك thèodoric ملك الويزيغوتيين ، وميروفيه Merovèe ملك الفرنكيين ، فقاتلوهم قتالاً طاحناً فى كتالونيك Cataiaunique حتى هزموهم شر هزيمة ، وأجلوهم عن بلاد الغول ، فغادروها مذءومين مدحورين ، إلى أن استقر بهم النوى على شواطئ نهر الدانوب . ومات أتيلا سنة (٤٥٣) .

هذا أتيلا الذى يضرب المسيو أندريه بفتوحاته مثلاً ، ويقارن بها فتوحات المسلمين !

أما جنكيزخان فهو ابن يسوكاى بهادور رئيس قبائل يكامغول التارية . تولى الرئاسة بعد أبيه ، وأخذ يحارب قبائل المغول التى حوله ، ووقع مرات عديدة أسيراً فى أيدى أعدائه ، حتى كانت سنة (١٢٠١) ميلادية فانتصر عليهم . فتألبوا عليه ثانية فدحرهم . ولما هزم جيوش بويورك رئيس قبائل الرايمان وقتله ، اعتبر

نفسه من ذلك اليوم رئيساً لجميع المغوليين ، وأعلن نفسه ملكاً عليهم . وعقب ذلك أعلن الحرب على الصين ، فكانت حروب طويلة انتهت بدخوله بكين سنة (١٢١٤) . ثم أغار على مملكة خوارزم شاه وأخضعها ، وعلى سمرقند فسلمت له . ثم عاد إلى بلاده ، وتوفى سنة (١٢٢٧) .

لا مشاحة فى أن هذه الحركات تعتبر فتوحاً بالمعنى الاجتماعى ، ولكنها كانت موضعية جنسية ، لأن ثمرتها كانت جمع القبائل المغولية تحت حكومة واحدة ، وكانت قبل جنكيزخان تحت حكومات متعددة ، ثم لم تلبث هذه الوحدة أن انفصم عراها بفعل جنكيز نفسه ، فإنه قبل أن يموت قسم ملكه بين أولاده ، وفى هذا إيذان بأن هذه الفتوح كلها كان الغرض منها مصلحة أسرة مالكة ، لا إيجاد وحدة بين جنس واحد لغرض اجتماعى سام .

والفرق بينهما وبين الفتوح الإسلامية يظهر من ناحيتين : (أولاهما) أن تلك الفتوح كانت فى بقعة من الأرض محدودة ولم يك واحد منها ضد دولة لها شأن فى تاريخ العالم . (ثانيتهما) أنها لم تكن لغرض اجتماعى ابتنت عليه انقلابات جغرافية وأدبية .

فمن الناحية الأولى رأينا الفتوح الإسلامية لم تقتصر على توحيد الجنس العربى ، ولكنها كانت ذات صبغة عالمية ، فامتدت من جزيرة العرب إلى سورية فالفرس فما وراء النهر إلى الصين شرقاً ، ومنها إلى مصر وجميع شمال أفريقيا غرباً ، ومنها أيضا إلى أوروبا وجزائر البحر الأبيض المتوسط شمالاً .

وأعجب ما فى هذا أن الجيوش الإسلامية ، وهى قليلة العدد ، استطاعت أن تحفظ خطوط مواصلاتها فى أقطار شاسعة على مسافات لا تقل عن أربعة آلاف كيلومتر ، وكانت موجهة ضد دولتين انفردتا بالسلطان فى الأرض إذ ذاك ، وهما دولتا الفرس والرومان . ولم يكن على سطح الأرض من يستطيع أن يقف فى وجههما ، وكانتا مالكتين لجميع البقاع التى تجاورهما من بلاد العرب .

فهذه الفتوحات الإسلامية لا يمكن أن تقارن بها فتوحات جنكيزخان المحلية ، فالمقارنة على هذا النحو عبث بالعقول ، وتضليل يراد به الحط من الإسلام .

أما من الناحية الثانية فإن الفتوحات الإسلامية لم يكن الغرض منها زيادة سلطان أسرة مالكة ، أو تغليب جنس على جنس ؛ ولكن كان القصد منها إعلاء كلمة الله فى الأرض ، وتأسيس دولة تقوم على الحق والمصلحة العالمية ، لا على القوة والمصلحة الجنسية .

تتبين هذه الأغراض العالية من السياسة التى اتبعها أولئك الفاتحون فى هذا الملك العظيم ، فقد كانوا يرسلون إلى الأقطار أعقل رجالاتهم وأرفعهم نفوساً ، وأطهرهم قلوباً ، ويوصونهم بالعدل المطلق ، والمساواة التامة بين القاهرين والمقهورين ، والإحسان إلى المخالفين لهم فى الدين .

ولما حضرت الخليفة الأول الوفاة ، طلب إليه رجال دولته أن يختار لهم من يخلفه فامتنع ، فلما ألحوا عليه لم يقع اختياره على واحد من أولاده ، وما فيهم إلا من يصلح للخلافة ، ولكنه اختار لهم عمر .

فلما حضرت عمر الوفاة ألح عليه كبار أصحابه أن يعهد بالأمر إلى ابنه عبد الله ، وكان من أجدر الناس بهذا الأمر الجلل ، فلم يقبل ، ونهاه عن قبوله ، ولفت نظرهم إلى اختيار رجل من ستة رجال من خيرة أصحاب النبى ﷺ .

فالفارق كما ترى ظاهر بين الفتحين .

وإذا تأملت فى نتائجهما ألفيت فتوحات جنكيزخان كانت كفقاعة الصابون تضخمت ثم انفجرت ، ولم يبق منها عين ولا أثر ، ولكن فتوحات المسلمين ترتبت عليها نتائج عالمية خطيرة أدبية ومادية ، لا تزال باقية إلى عصرنا هذا ، وستبقى بفضل الله إلى آخر الزمان .

فهل ما وقع فيه المسيو أندريه هرفيه من هذه المقارنة مما يصح أن يقع فيه كاتب فى القرن العشرين عصر البحوث المدققة ، والمقارنات الموفقة ؟ وهل مثل هذه السذاجة الكتابية تصلح أن تهدم صرحاً مشمخراً من المآثر التالدة ، والمناقب الخالدة ، والأعمال الضخمة الماجدة ؟ !

نترك الجواب للقارئين .



أسياه بومان وشبهات عن الإسلام [١]

للأستاذ (أسياه بومان) العالم الجغرافى الأمريكى مؤلف عنوانه (العالم الجديد) أعاد طبعه وزاد عليه فصلا جعله تحت عنوان (العالم الإسلامى) ، وقد أفاض فيه فى نواح سياسية واقتصادية واجتماعية لا نرى أن نساجله البحث فيها ، ولكنه تعرض لناحية دينية لا نجد بداً من تصحيح نظره فيها . وإنا لناشرون هنا ما قاله فى هذا الصدد ، فإليك :

« قد وحّد محمد القبائل العربية التى كانت فى حالة تنازع مستمر ، وأقنعها بأن تجتمع على غرض مشترك هو إعلان الحرب على العالم غير الإسلامى وتوسيع سلطان المسلمين . فمضى على الإسلام ثلاثة عشر قرناً سمحت له فيها فرص كثيرة أن يمد رواق سلطانه على مساحات واسعة من الأرض وبين أمم مختلفة ، فخضع لتعاليمه السمر والسود والصفر ، وانتشر انتشاراً مخيفاً ليس بين أهل الشرق المزدحمين فى بيئاتهم فحسب ، ولكن بين سود أواسط أفريقا أيضاً . وسيطرة الإسلام بوجه عام على أتباعه خارقة للعادة إلى حد أنه لا يوجد قط مسلمون تحولوا إلى الديانة المسيحية . فمنذ نشوئه لم يتأثر أتباعه بما طرأ على الممالك المجاورة له من الحالات المتعاقبة كالتقدم فى الثقافة أو فى السياسة ، وكالتفكك والتضام ، وكالتوسع والتقلص ، ولم يتأثروا حتى من نتائج الحرب العالمية .

« لم تعوز الإسلام الفرصة ليكتشف ضعف أقوى أعدائه ثم يكر فيقضى عليهم . وعلينا أن نتساءل : هل فى تاريخ الإسلام أو فى الموقف الحالى للعالم الإسلامى مايعزز الخوف من أنه فى مملكته الواسعة قد يعمل للقضاء على المدنية الغربية الراهنة » ؟

فأجاب الأستاذ أسياه على نفسه : « بأن ذلك يقع لو أمكن اتفاقهم وتوحدهم ، ولكن لقيام عقبات من ضروب شتى فى وجوههم تمنع هذا الاتفاق ،

---

(١) نقلاً عن المجلّد السادس من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٤ هـ – ص ٣٣٧ وما بعدها .

فإنه لا يخشى منهم عليها » .

هذا ما قاله الأستاذ أسياه ، وإن لنا فيه لكلاماً ، فنقول :

يؤسفنا أن نرى عالماً جغرافياً يعرض لدين عالمى يدين به نحو خمس سكان الأرض على هذا الوجه ، فيعطى للناس منه صورة لا تمت إليه بصلة من أية ناحية من النواحى .

إن الذى يتلو العبارة التى نقلناها هنا عن كتاب (العالم الجديد) يخيل إليه أن الدعوة المحمدية كان مرماها الوحيد غاية حربية هى الإغارة على العالم غير الإسلامى ، وإخضاع أممه وشعوبه لحكم المسلمين . وهذه تهمة تنفّر من الإسلام كل من يطلع عليها ، ويعده خطراً على المدنية الإنسانية ، وعلى النظم الاجتماعية ، فهل يستطيع الأستاذ (أسياه) أن يدلل عليها من نصوص كتاب الإسلام ، أو من تاريخ رسوله ، أو من سيرة أصحابه ؟

وهل يصح أن يكون للدين الذى يقول كتابه : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » غرض مادى يسعى لتحقيقه من وراء إذلال الأمم وإخضاعها لسلطان أهله ؟

إنا لعارضون هنا حقيقة الإسلام وأغراضه الاجتماعية السامية ليرى القارئ أين منها الأستاذ (أسياه) وغيره من الذين يكتبون عن الإسلام بغير بحث ولا تحقيق :

الإسلام قبل كل شيء دين أنزل على فترة من الأديان ، وبأُخِرَة من الزمان ، ليبلغ أهل الأرض آخر رسالة سماوية ، ويختتم دور الوحي بحقائق فيها سعادة الإنسانية ، وشفاؤها من عللها الخلقية والاجتماعية . فجاءها بأصول هى على أعظم جانب من الخطورة ، فهمها السابقون الأولون وتخلقوا بها وقاموا بنشرها ، فدانت لهم الأرض . فإن كان يهول الأستاذ (أسياه) الدوى الكبير الذى أحدثه المسلمون فى العالم ، فهو أثر هذه الأصول لا أثر تلك الفتوح ، وهذا سر بقاء جميع الشعوب الإسلامية على عقيدتها طوال هذه الأحقاب ، لا تنتقل عنها إلى عقائد أخرى ، لأنها ترى أن ما هى عليه ليس مما يستبدل به شيء آخر من أعراض هذه الحياة .

وقد كان يجب على الأستاذ (أسياه) أن ينظر ما هى تلك الأصول وما سر تمسك أهلها بها إلى هذا الحد ، لا أن يتعجل فيصف الإسلام بأنه أشبه باتفاق جنائى على تدويخ العالم وإخضاعه لقوم مخصوصين .

أما ما يوصى به الإسلام كل آخذ به فهو :

١ – دعوة الناس كافة إلى تعارف عام ما داموا إخوانا أبوهم آدم وأمهم حواء ، والإهابة بهم إلى التعفية على الحزازات النفسية التى أوجدتها الأوهام القومية ، والفوارق الجنسية واللغوية ، وحملتهم على التحاقد والتناحر . قال الله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » وقال النبى ﷺ : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، كلكم لآدم وآدم من تراب » .

٢ – والدعوة إلى وحدة الدين . فإن الإسلام يقرر أن الله أوحى إلى أنبيائه جميعاً ديناً واحداً هو ما يتفق والفطرة التى فطر الناس عليها ، ويتلاءم والعقل الذى غرس فى نفوسهم احترام أحكامه . ولكن قادة الأديان تناولوا هذا الدين بالشرح والتأويل متابعة لأهوائهم ، وإخضاعاً للناس إلى سلطانهم ، فاختلف عن أصله ، وذهبت كل أمة فيه مذهباً يباين ما عليه غيرها ، فبعدت بينهم شقة الخلاف ، فصار الناس يتبعون أوهاماً وضعية ، لا حقائق إلهية . فكان الله يتدارك الإنسانية بالرسل يبعثهم إلى الأمم فى فترات من الزمان ليهدوها إلى ما كانوا يختلفون فيه من الحق ، وختمهم بمحمد ﷺ ليعلن للناس كافة حقائق أولية صرفهم عنها قادة الأديان استغلالاً لجهالتهم ، وهذه الحقائق هى أن دين الله واحد ، وأن الأديان لم تتخالف إلا بسبب بغى قادتها ، وأن الإسلام هو ذلك الدين الفطرى الأول فى نقائه ، فهو ليس بشىء جديد يريد أن يكلفه الإنسانية استغلالاً للعاطفة الدينية . وأن الناس ما داموا قد خلقوا ليتعارفوا ويتعاونوا وجب عليهم أن يرجعوا إلى هذا الدين الفطرى ويتخذوه إماماً لهم ، ومؤداه لا يخرج عما يجدونه منقوشاً فى صميم قلوبهم بالفطرة ، وما يدركونه ببداهة العقل ، وهو : أن يوحدوا خالق

الكون ولا يتناولوا ذاته بأفكارهم ، فإنه يتعالى عن متناول العقول كما تعالى عن متناول الأبصار ، وأن يعتقدوا بجميع من أرسلهم إلى الناس من رسل ، وما أنزل إليهم من كتب ، فلا يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، وأن يقيموا سلطان العقل ، فلا يستسلموا للأوهام ، ولا يعتقدوا شيئاً إلا بدليل ، وأن يطلبوا الحق حيث كان ، ويقيموا العدل ولو على أنفسهم ، وأن يتخلقوا بجميل الخلال كالإحسان والرفق ، والسخاء والحياء ، والشجاعة والحلم والأناة الخ ، وأن يطمحوا إلى معالى الأمور ويتجنبوا سفاسفها ، وأن يطلبوا العلم والحكمة حيث وجدوهما ويعلموهما الناس ، وأن يستعمروا الأرض ويحيوا مواتها ، وأن يتقنوا ما يصنعونه ويبلغوا به أقصى ما يمكن أن يبلغه من كمال ، وأن يرتقوا فى الأسباب ويأخذوا بالأصلح من كل شىء ، وأن يعملوا على نشر كلمة الله فى الأرض .

الإسلام يقول : إن هذا كله مؤدى كل دين أنزله الله إلى العالم ، فإن كان من الأمم من خلط فى عقائده ، وضل فى مذاهبه ، واستسلم لأوهامه ، وأوهام غيره ، فليس ذلك من دينه الفطرى الذى غرسه فى قلوب الناس كافة ، ولا من مولدات العقل فإنه مفطور على نفى الخزعبلات ، ولكنه من استسلامه لزعماء أمكنهم من ناصيته فطوحوا به إلى حيث شاءوا من مهامه الأضاليل ، ومتائه الخرافات .

أما وقد دار الزمان ، وبلغ العقل رشده ، فإن الله أرسل رسوله محمداً بالدين الأقدم وهو دين الفطرة البشرية ، ليهيب بالناس إليه تحت ضوء العقل ، وعلى هداية من العلم .

هذه مرامى الإسلام ، وهى عينها مرامى كل فلسفة وعلم فى الأرض ، فمن أية النواحى يعاب أهل دين على تمسكهم بهذه الأصول التى تعتبر عالمية عامة لا قومية خاصة ؟ وأى اتفاق جنائىً يمكن أن يلحظ فيها حتى يقوم مثل الأستاذ (أسياه) فى القرن العشرين فيعلن أن المسلمين يتربصون السوء بالإنسانية ؟

ينزعج الأستاذ (أسياه) من أن المسلمين لم يتأثروا بما طرأ على الأمم المجاورة من الحالات المتعاقبة ، ولم يتأثروا حتى من نتائج الحرب العامة . وإنى لسائله :

إن قوماً على مثل ما ذكرته هنا من الأصول القويمة ، والمبادئ العالية ، وعدم التناقض بين العلم والعقيدة ، كيف يعقل أن يتأثروا من أحوال متعاقبة طرأت على الممالك المجاورة من شكوك فى الدين تحت تأثير العلم ، ومن إلحاد فيه تحت مسولات الفلسفة المادية ، ومن تولد المذاهب المتطرفة فيهم كالاشتراكية والشيوعية من سوء توزع الثروة بينهم ، مما مزق أحشاء الممالك وجعل أهلها شيعاً ، ومما يهدد المدنية العالمية بالخطوب الجسام ؟

يعجب الأستاذ أسياه من ثبات حال المسلمين بإزاء جميع هذه التقلبات ، ولكننى أسائله : إذا كان قوم على مثل هذه المبادئ التى ذكرتها ، لا يجدون مطعنا فيما هم يدينون به من الدين ، ولا مغمزًا فى الأصول الاجتماعية والأدبية التى يوصى أهله بها ، بل يجدون أن كل ما أصابهم من محن ، وما أصاب العالم من ثورات وانقلابات ، أدلة محسوسة على صدق ما لديهم من تلك الأصول ، أفيكون تأثير هذه الانقلابات العالمية حولهم تثبيتاً لهم فى عقيدتهم أم تشكيكاً لهم فيها ؟

أما كان الأولى بالأستاذ (أسياه) أن يدرس علل هذا الثبات من المسلمين أمام التقلبات الخاصة والعامة ليرى السر فيه كما فعل قبله مواطنه الأستاذ الكبير (دريبر) فأودع كتابه (التنازع بين العلم والدين) ما أودع من ثمرات الدرس المستقل والفكر الحر والنظر الصحيح ؟

على أن دريبر ليس الوحيد فى دراسة الإسلام ، فقد تقدمه (جوت) أكبر عباقرة الألمان فقال : « إذا كان الإسلام هو هذا فنحن إذن فيه » . وتقدمه أيضا الفيلسوف الإنجليزى الكبير (كارلايل) ومؤرخون وفلاسفة كثيرون وأقربهم منا (برناردشو) وقد بزهم جميعا بقوله : « إنه لو تولى العالم الأوروبى رجل كمحمد لشفاه من علله كافة ، وإن العالم بدأ يفهم ما هو الإسلام ، وإنه سيتم إسلام أوروبا عامة فى قرنين من الزمان » .

أجل : ومن كان عنده دواء لنفسه وللعالم أجمع فإنه يفكر فى اتخاذ الوسائل التى توصله إلى استعمال هذا الدواء والانتفاع به ، وهو ما تراه باديا اليوم فى كل شعب من شعوب المسلمين .

يخشى الأستاذ (أسياه) من اتفاق المسلمين على مصير المدنية ، وفى هذه الخشية دلالة كبيرة على تجاهله تاريخ المسلمين . فليس مثله من يستطيع أن ينكر أن المسلمين فى أول عهدهم أنقذوا المدينة العالمية من التلاشى ، وحفظوا العلم من الزوال . ألم يعلم أن العالم الإنسانى كله كان فى إبان البعثة المحمدية فى ظلام حالك من الجهل تحت حكم الطوائف الدينية ، وكان يجازى بالحرق كل من يجرؤ على أى بحث حر أو إبداء أية نظرية ، أو القيام بترويج أى مذهب لم يكن مقرراً من قبل ، وأن الكتب العلمية كانت قد كدست فى خزائن مؤصدة ترتع فيها الحشرات ، وتؤخذ من عيون كتبها الصحف لاستعمالها فى الحاجات العادية . فلما بعث الله المسلمين أخذوا يجمعون هذه الكتب ويترجمونها إلى لغتهم ، ويزيدون عليها من مباحثهم ، وينشرونها فى جميع أرجاء العالم ، وأنهم قد ألفوا بين مدنية اليونان والفرس والهند والرومان ، فأخذوا من كل منها أحسنه ، وأسسوا مدنية جديدة بزت جميع المدنيات التى سبقتها فى الأرض رواء وروعة ؟

ويرى الأستاذ (أسياه) بعينى رأسه نابتة المسلمين تدرس فى جامعات الغرب مع أبنائه جنباً إلى جنب ، ويرى شعوب الإسلام تقتبس المدنية الحديثة ولا ترى حرجاً إلا مما يرى أهل الغرب أنفسهم أنه خروج عليها يجب التصون منه .

فلا يخافن الأستاذ (أسياه) من المسلمين على هذه المدنية ، فإنهم كانوا السبب الأول فى ازدهارها بعد ذبول طال عليها الأمد فيه ، بما أمدوها به من معارفهم ، وما زودوها به من صنائعهم . فلئن كان يخشى منهم على شىء منها ، فعلى العوج الذى بها ، وعلى العلل التى أزمنت فى أحشائها ، وهذا يعتبر إصلاحاً فيها لا إفساداً لها .

يروّع الأستاذ (أسياه) أن المسلمين قد توصلوا إلى بسط رواق سلطانهم على مساحة عظيمة من الأرض .

نعم إن قوماً يقومون على مثل ما قام عليه المسلمون من الأصول العالية والمبادئ القيمة لا يكونون جديرين لأن يبسطوا رواق سلطانهم على جزء عظيم

من سطح الأرض فحسب ، ولكن يحق لهم أن يؤملوا أن يثوب الناس إلى أصولهم ومبادئهم مسوقين بعوامل الترق ، وهم لا يركنون إلى هذه الآمال كما يركن أهل البطالة إلى الأحلام المستحيلة ، ولكنهم يقررونها علمياً ويشاركهم فى هذا الرأى رجال من أهل العلم الغربيين ممن لا يتهمون بمحاباة المسلمين وتملقهم .

فليهدأ بال الأستاذ (أسياه) وبال الذين يرون رأيه ، فإن المسلمين حموا العلم والمدنية أيام لا حامى لهما ، وجروا بهما شوطاً بعيداً فى طريق الترق والتكمل . وإذا عادت زعامة العالم إليهم كما كانت فسيكونون أبر الناس بهما وأكثرهم رعاية لهما .

هذا ما رأينا أن نعقب به على كلمة الأستاذ (أسياه) وإن لنا لكرّات أخرى على أمثال هذه التهم التى لا يفتأ يرمى المسلمين بها بعض المتكلمين عنهم وعن دينهم ، حتى يحق الله الحق بكلماته ، وهو خير الناصرين .



شبهات عن القرآن (١)

جاء تحت عنوان القرآن بجريدة البوبولير الفرنسية بقلم المسيو (بول تيتو) ما يأتى :

« من بين جميع الحركات الاجتماعية الكبيرة التى حدثت أو تنبهت بعد الحرب ، ما يثير العالم الإسلامى منها الآن يستحق عناية خاصة . ولكن الذى يذكر الإسلام لابد له من أن يذكر القرآن . فما هو القرآن الذى هو فى آن واحد دستور للحكم وكتاب للدين ؟ »

« عَرَّفه مستشرق عظيم بقوله : « هو وحى أنزل على العرب ، بلغة عربية ، بواسطة نبى عربى » . مؤدى هذا التعريف أن الذى يبدو للإنسان لأول وهلة فى القرآن ، هو أنه قبل كل شىء كتاب ديانة عربية .

« لا مشاحة فى أن صدور إحدى الديانات العظيمة من صحراء جزيرة العرب يعتبر آية حقيقية . ولكن هذه الآية يمكن أن تعلل طبيعياً بالوضع الجغرافى لشبه الجزيرة العربية التى كانت إحدى الطرق الكبيرة للتجارة العالمية .

« ومن ناحية أخرى كانت حياة البدو الرحل فى تلك البيئة القاحلة حياة ساذجة من ناحية الأحوال المادية ، ولكنها كانت مهذبة إذا رجعنا إلى ما نعرفه عنهم فى عالم الأدب .

« هذا التناقض يمكن تفسيره أيضا إذا اعتبرت قيمة تأثير التبادل التجارى فى نفسيات الجماعات . والمعروف أن البدويين كانت لهم علاقات ثابتة وودية بالبيزنطيين (أى أهل القسطنطينية) والسوريين والفرس وعدد عديد من النصارى واليهود . من هنا يستنتج أن نظرية الوحدة الإلهية لم تكن مجهولة عند العرب . فلهذا السبب صادفت ديانة محمد أرضاً مناسبة لنموها افتتحتها ببساطة عقائدها ، وبمسايرة أوامرها للشئون الإنسانية .

---

(١) نقلاً عن المجلّد التاسع من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ هـ – ص ٧١١ وما بعدها .

« فى هذه الناحية من الأرض انتشر القرآن فى أول ظهوره .

« إن العلم اللاهوتى المستمد من القرآن (يريد علم الكلام) موجز إلى الحد الأقصى ، وهو ينحصر فيما يلى : « أن الله قد أوحى الدين لعدد كبير من الأنبياء فى عهود متعاقبة ، أكبرهم شأناً إبراهيم وموسى وعيسى . ولكن اليهود والنصارى قد حرفوا التوراة والإنجيل ، فأرسل الله محمداً لإعادة الدين الحق . والله وحده هو الحاكم المطلق لا معقب لحكمه . والإنسان مسئول عن أعماله وسيعاقب أو يثاب عليها . وعلى المسلم أن يقوم بخمس عبادات : الإيمان بالله ، والصلاة اليومية ، والصيام السنوى ، والزكاة المشروعة ، والحج إلى مكة .

« أما تعاليم القرآن الواضحة كل الوضوح ، فتهب هذه العقائد الجديدة روحاً من البساطة هى من أشهر صفات هذه الديانة .

« وأما أصول القرآن الأدبية فهى كثيرة وذات مرام هى غاية فى السمو . فلا نذكر على سبيل المثال إلا بعضاً منها وهى : حب الناس ، والإحسان إليهم ، واحترام النفس ، وإنجاز الوعد ، والتسامح الدينى إزاء اليهود والنصارى .

« وفى مقابل هذا يقرر القرآن « الحرب المقدسة » ضد الوثنيين ، ويقرر الاسترقاق وتعديد الزوجات .

« ولا ننسى أن القرآن أصلح حال المرأة فى الحياة الاجتماعية إصلاحاً عظيماً .

« وقد استفاد النبى نفسه بتوسع من مبدأ تعديد الزوجات . فقد كان له ، بامتياز خاص ، عشر زوجات بينا القرآن لم يسمح إلا بأربع فقط .

« ولمناسبة ذكر مبدأ تعدد الزوجات الذى أخذ يقل العمل به تدريجياً ، يجب علينا أن ننبه أن فى الزواج على سنة الإسلام شرطاً محكماً جداً وهو مجهول على وجه عام ، يسمح لممثل الزوجة أن يطلب من الزوج تعهداً بعدم اتخاذ زوجة غيرها . فإذا لم يوف الزوج بهذا الشرط تحللت الزوجة من العقد الذى بينها وبينه وأصبحت حرة من علاقات الزوجية » .

ثم أخذ الكاتب يفصل قواعد الإسلام من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ثم قال :

« هذه هى الواجبات التى يفرضها القرآن ، ذلك الكتاب السامى الذى يدبر حياة ومحاولات مئات الملايين من الناس ، والذى يعتبر بهذا الوصف واحداً من الكتب السائدة على العالم . أما سلطانه على النفوس فعظيم جداً ، ويحسن الإلمام بالأصول التى يدعو إليها ليمكن فهم رد الفعل الذى يسببه ، وموقف الإسلام حيال المسائل الراهنة » .

***

(مجلة الأزهر) : هذا ما كتبه المسيو (بول تيتو) فى جريدة البوبولير الفرنسية ، وهو يعتبر معتدلا فى الجملة ، ولكنه لا يخلو من خطأ فى التقدير .

ذلك أنه يقول : إن ظهور دين من صحراء جزيرة العرب يعتبر آية حقيقية ، فلو كان اقتصر على هذا لصادف قوله الحق من جميع الوجوه ، فإن جزيرة العرب التى كانت تسكنها قبائل فى حالة تناحر ، ومغمورة فى أمية مظلمة حتى صارت الأمية علماً عليها ، وفى جاهلية لا حدود لها ، وسعت جميع صورها بأخص معانيها ، وأشنع مميزاتها ، مثل هذه البيئة لا تسمح بصدور دين منها لا يمكن تعليله بالعلل الطبيعية ، ولكن بسبب أن الكاتب كأكثر الذين يكتبون فى الشئون الاجتماعية مادى لا يعتقد بوحى سماوى ، ولا بعالم فوق هذا العالم ، أسرع يلتمس عللاً طبيعية يفسر بها صدور هذا الدين من جزيرة تسود فيها جهالة لا تسمح بصدور مثله ، فكان غير موفق فى تلمس تلك العلل . ونحن نُلمسك عدم التوفيق الذى صاحبه حتى تعجب كيف يستند إلى مثل هذه الأعاليل الواهنة رجل يتقى مأثور القول :

إن قوله فى مقدمة تعليله : إن موقع بلاد العرب الجغرافى جعلها واحدة من الطرق التجارية العظيمة ، من الأخطاء التى لا تغتفر فى عصر أصبح فيه العلم الجغرافى والطرق التجارية تدرس بتوسع فى المدارس الثانوية ، ولا تحتاج فى تفهمها لألمعية ممتازة . فالطريق الوحيدة التى كانت ولا تزال تصلح لنقل السلع هى التى

تخترق العراق ، والعراق فى أقصى الشمال الشرقى من بلاد العرب ، وكان واقعاً تحت نير الفرس ، وأهله هم الذين كانوا يترددون على فارس وسورية والقسطنطينية يبيعون ويشترون ، ولم يكن بينهم وبين أهل الحجاز الذين ظهر بين ظهرانيهم الإسلام علاقه مباشرة ، لما يفصل بين الأقليمين من الصحارى البعيدة الأكناف . والكاتب يعرف أن الإسلام ظهر فى الحجاز .

نعم كان للحجازيين علاقات تجارية بسورية ، فكانوا يترددون عليهم لبيع ما ينتج فى بلادهم من الصموغ والأعطار وغيرها ، ويستبضعون منها المنسوجات والأطعمة ، ولكن ماذا عسى أن تجلبه لهم هذه الرحلات التجارية من المعلومات ، أكثر مما تجلبه رحلات الأميين إلى مختلف الأقطار ؟ لو كانت تجلب شيئاً لأخذ العراقيون عن الفرس ديانتهم المجوسية ، ولأخذ الحجازيون عن السوريين ملتهم المسيحية ، أو عن الفلسطينيين نحلتهم اليهودية ، ولم يبقوا على وثنيتهم العربية طوال القرون .

ولكن فيم هذا التكلف كله لتصيد أسباب النقل ؟ ألم يكن فى بلاد العرب نفسها نصارى ويهود مجاورون للقبائل العربية ، حتى أن بعضها كبنى تغلب كانت تنصرت وبقيت على نصرانيتها حتى ظهر الإسلام ، وقد تهوّد كثير من أهل اليمن محاكاة لليهود الذين كانوا بين أظهرهم ؟

فلا محل والحالة هذه لتلمس أسباب اتصال العرب بغيرهم من الأمم ذوات الأديان .

ومن الغريب أن المسيو (بول تيتو) يرتكب هذا التكلف كله لتعليل انتقال التوحيد إلى العرب ، والتوحيد كان معروفاً فى بلاد العرب من أقدم العهود لأنه دين أبيهم إبراهيم ، وكان فى بلاد العرب رجال كثيرون على دين إبراهيم أجيالاً متعاقبة .

ولكن ألا يوجد شيء فى القرآن غير التوحيد يقتضى أن يتلمس له المسيو بول تيتو طرقاً للانتقال إلى العرب ؟

إن فى القرآن مبدأ التنزيه ، وهو لم يكن معروفاً عند ملة من الملل قبل ظهور الإسلام ، والتنزيه كما لا يخفى هو نفى جميع الصفات البشرية ، والأعراض الجثمانية عن الخالق عز وجل ، بل نفى جميع ما يجول فى الخيال عنه سبحانه وتعالى ، والاعتراف بالعجز المطلق عن الإلمام بشىء يتعلق بذاته . وقد وضع المسلمون قاعدة لذلك فقالوا : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » . ولم يكن فى الأرض دين يمكن نقل هذا التجديد العظيم فى موقف العقل عنه . فالديانة الإسرائيلية تقول : إن الله خلق الإنسان على صورته ، والإسلامية تقول : « ليس كمثله شىء » ؛ وفى تلك ما يستدل منه على جثمانيته ، فقد جاء فيها أنه بكى تأثراً من بعض الأحوال البشرية حتى رمدت عيناه . والديانة المسيحية تذهب إلى تَركب ذات الخالق من ثلاثة أقانيم ، والإسلامية تنفى ذلك بكل قوة وتعد القول به أمراً إدًّا ، « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر له الجبال هدًّا » .

فاتصال العرب بتلك الممالك التى ذكرها المسيو (بول تيتو) لم تكن دياناتها لتعلم العرب هذا التنزيه الذى لم تصل إليه الفلسفة إلا بعد الإسلام ، وهو فى الإسلام على حال من السمو بحيث لا يعقل أن تكون فوقه درجة .

وإذا كان هذا حال التوحيد الذى يدعى المسيو (بول تيتو) أن العرب نقلوه عن الأمم التى كانوا يتجرون معها ، فما ظنك بكل ما فى الإسلام من أصول العدل الطبيعى ، والمساواة المطلقة ، والآداب العالية ، والأسلوب السامى فى تزكية النفس ، وترقية المجتمع ، والدعوة القوية لطلب العلم والحكمة ، والتوصية الصريحة بوجوب فك العقل من أغلاله ، وإعطائه كامل سلطانه ، والاستهداء به فى تمييز السليم من السقيم ، والحسن من القبيح ، والخير من الشر من المذاهب والآراء والتعاليم ، ومعاملة الناس بالإنصاف حتى فى مواطن القتال ، وتقرير مبدأ الشورى فى الحكم ، والاعتراف بسلطة الأمة المطلقة ولم تكن معروفة فى الأرض ، حتى إن النبى ﷺ لم يعين من يخلفه ، فترك للأمة حق انتخاب من يتولى أمرها ، وهذا يعتبر نهاية النهايات فى هذا الباب . ولما حضرت الخليفة الأول الوفاة ، لم يعين من يخلفه إلا بعد أن استأذن الناس فى ذلك فأذنوا له . ولما يئس المسلمون

من شفاء عمر بن الخطاب طلبوا إليه أن ينتخب لهم من يخلفه ، كما فعل أبو بكر ، فأبى ولكنه حصر اختياره فى ستة رجال وأشار عليهم أن ينتخبوا أحدهم . وهذه نهايات لا تصل إليها الأمم إلا بعد أدوار شتى من الانقلابات .

كل هذا اقتبسه المسلمون الأولون من القرآن ، ولا يزال هذا القرآن يرينا من مكنوناته عجباً ، فهل كل هذا نقله العرب من الفرس والرومانيين والسوريين والهنود الذين كانوا من دينهم فى أمر مريج ، من تنازع السلطات ، وتنافس الطبقات ، وحيرة العامة بين المتنافسين حين كانوا يساقون إلى المجازر على غير بصيرة منهم ، لا لنصرة مبدأ ولكن للإيقاع بزعيم يرى الثائر عليه أنه أحق بالسيطرة منه .

نناشد المسيو (بول تيتو) العلمَ أن يقول لنا : ماذا يرى فى الممالك التى ذكرها من الحكمة العالية ، يحسن أن ينقله النبى عنهم ليستطيع أن يؤلف منه ديناً كالإسلام يدبر أمر مئات الملايين من البشر ، وقد كانوا هم أنفسهم غرقى إلى الأذقان فيما نعلم من المجادلات اللاهوتية ، والمظالم الحكومية ، والفوضى الخلقية ؟ وإن من يقرأ القرآن حق قراءته يرى أنه قد ألم بذكر تلك الأمم ، فأوسعها لوماً وتقريعاً على ما فرطت فى جنب عقولها ، وما استرسلت فى الخنوع لأهواء قادتها ، وما انقادت لاستهواء مضلليها ، ولم يستثن من ذلك اليهود والنصارى ، بل كان أكثر تشهيره بهم ، فكيف يعقل أن ينتقدهم ويدحض أصولهم ثم ينقل دينه عنهم ؟

***

يقول المسيو (بول تيتو) : إن الإسلام أقر الاسترقاق وتعدد الزوجات ، وإن النبى ﷺ ميز نفسه فى عدد الزوجات عن المسلمين بعد نزول آية تحديدهن بأربع والاكتفاء بهذا الاجمال ظلم للإسلام .

نعم أقر الإسلام الاسترقاق ، ولكن بعد أن ألغى جميع مصادره وحصره فى مصدر واحد وهو الحرب المشروعة . والأسر فى الحروب قائم إلى اليوم .

ولكن أما كان يجدر بالمسيو (بول تيتو) أن يذكر أن الإسلام كان أول من ألغى النخاسة فى الأرض ، أى قبل أن تلغيها المدنية بأكثر من اثنى عشر قرناً .

فإن قال : ولكن الإسلام أقر ما كان قد حدث بسببها ، فلم يفعل كما فعلت إنجلتره وفرنسا وجميع الأمم من تحرير الأرقاء جميعاً حين انتدبت لإلغاء النخاسة من الأرض سنة (١٨٣٤) .

نقول : إن الإسلام لم يفعل ما فعلته الدول فى العهد الأخير تفادياً من اختلال عظيم فى الحالة الاجتماعية إذ ذاك ، فإن أولئك المحررين كانوا يبقون بلا عمل ولا مأوى بعد أن تنحل أواصر الولاية بينهم وبين ساداتهم . ألم يعلم بأن إنجلتره تبرعت بسبعة ملايين جنيه وفرنسا بثلاثة ملايين لتنفيذ هذا المشروع ، فكيف كان يمكن الحصول ولو على جزء من مائة من مثل هذا المبلغ فى ذلك العهد من الاجتماع ولما يستوف مقوماته الاقتصادية ؟

ولكن الأمر الذى يهم فى هذا الموضوع هو أن الإسلام ألغى الاسترقاق الآتى من طريق النخاسة ، واعتبر مرتكب هذه المهنة مفسداً فى الأرض يستحق أشد العقوبات البدنية .

وبعد أن حصر الإسلام الاسترقاق فى الحروب المشروعة وكل إلى الحكومة القائمة بالأمر أن تتصرف فى أسرى الحروب ، إما بقبول الفدية عنهم ، أو بالمنّ عليهم بالحرية . وقد اتفقت الأمم اليوم على المن على أسرى الحروب بالحرية ، بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ولا مانع يمنع الحكومة الإسلامية من سلوك هذه الجادة وقد وكل الإسلام الأمر إليها فى ذلك .

على هذا الأسلوب يكون الإسلام بأحكامه القيمة قد مهد السبيل للوصول إلى إبطال الاسترقاق قبل أن يفكر فى ذلك سواه باثنى عشر قرناً .

أما إقرار الإسلام لمبدأ تعدد الزوجات فلم يكن القصد منه مواتاة ميول الرجال فى الاستهتار فى الشهوات ، ولكن قصد به حماية المرأة من عسف الرجال .

ذلك أن المشاهد إلى اليوم أن كثيراً من الرجال ، حتى فى المجتمعات التى بلغت شأواً بعيداً فى المدنية ، لا يكتفون بزوجة واحدة ، فتراهم يتخذون الخدينات فيعايشونهن معايشة الزوجات ، ولكن دون أن يكون لهن أدنى حق شرعى على من احتازهن حين يبدو لهم الاستغناء عنهن ، فتخرج المرأة من هذا

الارتباط الأثيم فاقدة كرامتها ، ومجردة من كل شيء يضمن حياتها ، وقد تكون قد أصابتها عاهة ، أو اعتراها الكبر ، فتنضم إلى كتائب التعسات .

فهذه الحالة لا ترضى أية نفس كريمة ، لاسيما وكثير من هؤلاء الخدينات يكن رزقن بعدة بنين ، فيخرجن بهم ، ويعشن معهم فى الحرمان المطلق ، وإذا كانت هذه الحالة لا ترضى النفوس الكريمة فهى لا ترضى الدين الذى شرعه الله رحمة للعالمين .

وما دام لا توجد وسيلة لحمل الرجال على الاكتفاء بواحدة ، ولا على عدم اتخاذ الخدينات ، فالإسلام رأى ، صيانة لحقوق النساء ، أن يقر مبدأ تعدد الزوجات ، ويحرم الفسق واتخاذ الخدينات تحريماً لا هوادة فيه ، ويعاقب عليهما بأشد العقوبات .

وما دام عدد لا يحصى من النساء يرضين أن يكن خدينات مجردات من الحقوق ، فيسرهن أن يرفعن إلى درجة الزوجات الشرعيات ، ولا عيب على مجتمع أن يكون مسموحاً فيه تعديد الزوجات ، ما دام هو لم ير من العيب أن يكون مسموحاً فيه اتخاذ الخدينات .

ولكنا نرى العكس ، نرى أن المجتمعات العصرية تستنكر كل الاستنكار تعديد الزوجات ولا تستنكر اتخاذ الخدينات . وأنت إن كلفت نفسك تحليلَ هذين الشعورين المتناقضين رأيت أن السبب فى التقزز من مبدأ تعديد الزوجات ، وعدم التقزز من مبدأ اتخاذ الخدينات ، أن الزوجية تقتضى من الحقوق ما لا يقتضيه احتياز النسوة غير الشرعيات . الرجال هم الذين يعملون القوانين فلا يريدون أن يثقلوا كواهلهم بالتكاليف مع عدم وضع حد للشهوات .

ولكن العدل يأبى ذلك ، فإما أن يكتفى الرجال بزوجة واحدة مع عدم العدوان على أعراض النساء ، وإما أن يقبلوا مبدأ تعديد الزوجات ؛ أما التوسع فى إشباع الشهوات مع عدم التقيد إزاء ذلك بالحقوق التى تترتب عليها ، فلا .

لست بما أقرره أستحسن شيوع مبدأ تعدد الزوجات ، وخاصة بدون قيد ولا شرط كما هى الحال الآن ، وأصرح بوجوب بذل عناية عظيمة لحصر مضاره ،

ولكنى أعارض كل المعارضة فى حذفه مع إقرار مبدأ آخر أشد منه على الأخلاق ضرراً ، وأقبح فى تشويه رونق المدنية أثراً ، ألا وهو إباحة الفسق ، فإذا عددتَ من سيئات تعدد الزوجات ما يقع فيه كثير من النسوة فى البؤس ، وما يلحق بأولادهن من الشقاء ، وما يصيب الأسر من التصدع والانهيار ، عددنا لك من شرور إباحة الفسق واتخاذ الخدينات ، ما تقشعر له الأبدان من شيوع الفحشاء ، واندساسها بقوة التعود بين الغرائز الشريفة للإنسانية ، وتغلبها عليها بسلطان الشهواتِ ، وسوقها لها إلى الوجهة البهيمية التى تنافى السمو الأدبى المقدر للإنسان أن يبلغه . ولو وقفت الحال عند هذا الحد لرضى به الذين لا يؤمنون بالسمو المقدر لهذا النوع ، ولكنها تسوق النفوس لتعيش فى جو من الدنايا لم تخلق لتعيش فيه ، فيعتريها كرب الاختناق ، فتضطرب لتخلص منه ، وما اضطرابها إلا ما تراه من التدافع والتناحر وعدم الاستقرار ، ودوام توقع الانهيار العام .

إن قيل : فلم تعلق هذا الشر المستطير على رذيلة واحدة مغفلاِ سائر الرذائل المنتشرة بين الناس ؟

قلنا : لأن تلك الرذائل غير مباحة ، ومترتب عليها عقوبات مختلفة فى القوانين ، وجميع قوى الحكومات عاملة على مكافحتها أنى وجدت ، ولكن رذيلة الفسق مباحة إن حدثت عن تراض من الطرفين ، والتراضى عليها من أيسر الأمور ، ولا تنس أن الفسق يجر إلى ارتكاب جميع الرذائل من الكذب والخداع والتغرير والكيد والسرقة حتى القتل نفسه . وقد ثبت أن الشهوة الجنسية أشد الشهوات تحكماً فى النفسية الإنسانية ، فتركها بدون قمع ، تدفع صاحبها للعبث بالأعراض ، لا يجعل لما تجره من المفاسد حداً تقف عنده .

وإنى لأعجب كيف يشكو الناس من انتشار العزوبة وما تجر إليه من الأمراض الاجتماعية العضالة ، ويغفلون عن سببها الرئيسى وهو إباحة الفسق ، وتيسير سبيله إلى حد بعيد ؟

وكيف يغفلون عن أن تحريم الفسق ، وسد الطريق على أهله ، يحفزهم إلى الزواج ، ويكفهم عن جميع الشرور التى تدعوهم إليه الإباحة الحيوانية ؟

دعانا إلى هذا الإسهاب ، التدليل على أن ما ينال الجماعات من الشرور بسبب إباحة الفسق ، يفوق أضعافاً مضاعفة ما ينالها منها بسبب إباحة تعدد الزواج .

فإن صدقت نوايا المصلحين فى البحث عن المخرج من هذه الورطات ، سهل عليهم أن يجدوه فيما يحفظ للدين سلطانه ، وللإنسانية كرامتها ، والله ولى المؤمنين .



إبراهيم والقرآن الكريم [١]

نشر بعض المستشرقين كتاباً فى أوربا ألمُّوا فيه بذكر إبراهيم عليه السلام ، واستطردوا من ذلك إلى التعرض لما ورد عنه فى القرآن الكريم ، مما خيل إليهم أنه يصح أن يعتبر شبهات على كتاب الله فيما ذكروه عن والد إبراهيم ، وصلة إبراهيم بولده إسماعيل عليهما السلام ، وعن بنائهما الكعبة ، وعن نسبة العرب الإسماعيلية إلى هذا النبى الكريم الخ . ونحن نلخص تلك الشبهات ، ثم نكر عليها بالرد ، إحقاقاً للحق ، وإزهاقاً للباطل ، فنقول :

قال هذا المستشرق ما ملخصه :

(١) إن ما ورد من اسم والد إبراهيم فى القرآن ينافى ما ورد عنه فى التوراة ، فإن القرآن أسماه (آزر) والتوراة دعته (تارخ) .

(٢) إن شخصية إبراهيم مرّت فى القرآن بدورين ، فقد ذكر عنه فى أولهما بالسور المكية أنه رسول كسائر الرسل ، أرسل لقومه المعاصرين له ، ولم يذكر له صلة بإسماعيل ، وصرح فيها بأن العرب لم يرسل إليهم قبل محمد ﷺ من نذير ، ولم يذكر عنه فى هذا الدور أنه أول بانٍ للكعبة ، ولا أنه أول المسلمين .

فلما انتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة تغيرت الحال ، فجاء ذكر إبراهيم فى السور المدنية مشفوعاً بأنه مؤسس لملة لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ، وأنه حنيف مسلم ، وأنه هو الذى بنى الكعبة ومعه ابنه إسماعيل .

قال : وسر هذا التطور أن محمداً كان قد اعتمد على اليهود فى أول أدوار دعوته للإسلام بمكة ، فلما لم ينصروه التمس نصيراً غيرهم بتلك الدعوى .

فهداه ذكاؤه الوقاد إلى إعلان أن إبراهيم أب للعرب ، فخلص بذلك من يهودية عصره ، إلى يهودية إبراهيم نفسه ، تلك اليهودية التى يزعمون أنها أساس للإسلام الذى انتدب لنشره .

---

(١) نقلاً عن المجلّد الرابع من مجلة الأزهر [نور الإسلام حنيئذ] سنة ١٣٥٣ هـ - ص ٥٩٩ وما بعدها

فلما أصبحت مكة تشغل جُلّ تفكير الرسول ، نسب إلى إبراهيم إقامته لبيت الله الحرام بمكة .

هذه شبهات أولئك المستشرقين ، ونحن نكر عليها بالدحض بحسب ترتيبها فنقول :

أما عن الخلاف الموجود بين القرآن والتوارة فى اسم والد إبراهيم ، فلم يجعله خلافاً غير هذا المستشرق ، إذ لم يعلنه أحد قبله ، وكان أحق بهذا الإعلان وبالطنطنة به اليهود المعاصرون للنبى ﷺ ، فإنهم كانوا أحرص الناس على إبطال دعوته ، وصرف الناس عن رسالته . وكانوا من أجل ذلك يترصدون لجميع ما يبدر منه من أقوال وأفعال ؛ ليتخذوا من بعضها وسائل للإرجاف ، وذرائع للخلاف . فلو كانوا رأوا فى مسألة والد إبراهيم وجها لإثارة شبهة لملئوا الجو بها اعتراضاً ، ولاتخذوها تكأة قوية لهم للتشكيك فى القرآن . فأما وقد مرّت عليهم هذه التسمية و لم يتشبث بها أى معترض ممن كانوا يناوئون رسول الله ﷺ ، فمعنى ذلك حتما أنها لاتستدعى أقل التفات ، ولا تثير أوهى شبهة .

فلقد مرت على وجود هذه التسمية أحقاب متطاولة ، واحتدم الخلاف كثيراً فى أدوار شتى بين المسلمين واليهود ، فى الدين ، وفى الكتاب الذى جاء به محمد ﷺ ، وتهيأت ظروف كثيرة للإرجاف والتشنيع من المنافقين واليهود ، كل هذا حصل و لم يستطع أحد من هؤلاء الخصوم العتاة أن يتمسك بما يسميه المستشرق اليوم خلافا بين القرآن والتوراة .

أفلا يدل هذا قطعاً على أن كلمة (آزر) كانت تطلق فى ذلك العهد وقبله على (تارخ) إطلاقا صحيحا شائعاً بين العرب واليهود ، فهو إما أن يكون لقباً عرف به والد إبراهيم ، أو صفة غلبت عليه فجرت مجرى العلم ؟

إن هذا المستشرق يفترض أن محمداً كان يعتمد فى نشر الإسلام على يهودية إبراهيم المزعومة ، فهل يعقل أن يخطئ فى اسم أبيه وهو بين ظهرانى ألوف مؤلفة من اليهود ، وفى أيديهم التوراة مترجمة إلى العربية ، وذكر إبراهيم ذائع بينهم كل الذيوع ، ويسهل عليه أن يعرف اسم أبيه من أى طريق شاء ؟

هذا ما يتعذر فهمه كل التعذر ، ويسوغ لنا أن نقول : إنه ليس لهذه الشبهة قيمة على الإطلاق .

فلننظر الآن فى بقية ما نشره ذلك المستشرق من الشبهات ، وهو أن شخصية إبراهيم قد مرت بدورين : فاعتُبر أولا واحدا من المرسلين ، ولم تذكر له صلة بإسماعيل ، وصرح القرآن بأن العرب لم يرسل إليهم قبل محمد ﷺ من نذير ، ولم يذكر عنه أنه أول بان للكعبة ، ولا أنه أول المسلمين . فلما انتقل النبى ﷺ إلى المدينة تغير ذلك كله ، فاعتُبر إبراهيم حنيفاً مسلماً ، وعدّ مؤسسا لملة لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ، وأنه بنى الكعبة مع ابنه إسماعيل ، الخ .

رتب هذا المستشرق هذه الخيالات يقصد من ورائها أن يقول فى صراحة : « إن القرآن الكريم ليس من كلام الله وإنما هو من وضع محمد ﷺ ، وإنه قد اتخذ فيه ما رآه من ضروب السياسة ومصلحته الشخصية أمام العرب « كبُرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً » .

ونحن نقول : إن هذا الكلام قد أملاه على قائله جهل بحقيقة الإسلام ، وخبط فى تاريخ أدواره ، وغفلة عن الأصول التى بنى عليها من أول يوم إيجائه .

وقبل أن نعرض لبيان هذه الشئون نتصدى لبناء هذه الشبهة ، فنبين تفكك أجزائها ، وتداعى أركانها ، ونثبت أنها أسست على حالات تاريخية لا تغتفر لكاتب .

فأما أن القرآن جعل إبراهيم واحدا من المرسلين ، مثله كمثل سائر النبيين ، فهذا لا علاقة له بأحد دورين دخلت فيهما شخصيته ، ولكنه وصفه الملازم له فى جميع الأدوار ، فكل مسلم من أول وجود الإسلام إلى اليوم يقول بذلك ولا يعدوه إلى غيره ، فإن كان لإبراهيم شأن فى تاريخ الإسلام غير ما لإخوانه من الرسل ، فذلك لأنه الجد الأول لفريق كبير من العرب ، ومؤسس البنية التى كانوا جميعا سواء الإسماعيليون منهم والقحطانيون يحجون إليها فى كل عام مرة ، وكان يدين بدينه منهم رجال كانوا موزعين فى جميع قبائلهم .

والعرب أجمعون بفريقيهم قبل الإسلام كانوا يعتقدون أن بيت الله الحرام بناه إبراهيم وابنه إسماعيل ليقيما فيه الصلاة .

هذه كانت عقيدة العرب فى الجاهلية ، ولذلك اتخذوا هذه البنية بيتاً مقدساً يحجون إليه فى كل عام مرة ، ولم يختلف أحد منهم فى شخصية بانيها ، وقد اختلفوا فى كل شىء حتى فى أسماء معبوداتهم إلا فى نسبة هذه البنية إلى إبراهيم وإسماعيل . وليس فى الأمر نفسه ما يوجب العجب من أية ناحية حتى يتخذ منه الناقدون المعاصرون شبهة على القرآن الكريم ، فالمسألة أصبحت بعد هذا البيان تنحصر فى هل نزل إبراهيم عليه السلام بلاد العرب ؟ فالعرب يقولون : نعم ، وبنى فيها هذا البيت الذى نحج إليه ، واليهود الذين يعتمد المستشرقون على كتابهم يوافقون العرب على ذلك ، ويعينون المكان الذى نزل فيه وأودعه امرأته هاجر وابنه منها إسماعيل (راجع التوراة ، الفقرة الثامنة عشرة من الإصحاح الخامس والعشرين ، والفقرة العشرين من الإصحاح الحادى والعشرين) .

هذا كله كان يعرفه العرب الجاهليون واليهود النازلون بين ظهرانيهم ، أفيعقل أن ينسب إلى الإسلام أنه مخترع هذه القصة ؟ وإذا عقل بعضهم هذه الشبهة ، فهل يعقل معها أنه هو الذى وضعها فى التوارة نفسه ؟

وما معنى قول هذا المستشرق : إن القرآن فى أول أمره لم يصرح بصلة إبراهيم بإسماعيل ؟ أفكان منه هذا الصمت لأن النبى ﷺ كان يجهلها وهو بمكة مع وجودها فى التوراة وشيوعها على ألسنة اليهود هنالك ؟

غريب أمر هذا المستشرق ! يزعم أن القرآن فى أول عهده وفى سوره المكية لم يصرح بصلة إبراهيم بإسماعيل ، مع أنه قد ذكر تصريحاً فى إحدى تلك السور المكية وهى سورة إبراهيم ، فقد قال الله تعالى فيها على لسان إبراهيم : ﴿ ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِى وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ ﴾ . فعلى أى أساس شيد هذا المستشرق زعمه الذى زعمه غير جهله بالسور المكية وما ورد فيها ؟ أيعقل أنه كان يطنطن بدعواه هذه ويقيم عليها تلك المفتريات التى رتبها عليها إذا كان قد وقع نظره مرة على سورة إبراهيم المكية ووجد

فيها صراحة صلة إبراهيم بإسماعيل ؟

نحن نعلم أن من المستشرقين من يفترى الكذب على الإسلام ، ولكننا كنا نظن أنهم يستحيون من نفى شيء ذكر صراحة فى كتابه الكريم .

أما قوله : وقد صرح القرآن بأن الله لم يرسل إلى العرب رسولاً قبل محمد ﷺ مستنداً إلى مثل قوله تعالى : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ فليس بصحيح ، لأن المراد من مثل هذه الآية أن الله لم يرسل إلى تلك الطبقة من العرب المستعربة رسولا قبل محمد ، ولم يقصد بما قاله فى أمثال هذه الآيات نفى إرسال أى رسول إلى العرب فى كل الأجيال على الإطلاق ، فقد ذكر القرآن الكريم نفسه فى نصوص صريحة بأنه أرسل هوداً عليه السلام إلى بنى عاد ، وصالحا إلى بنى ثمود ، وجميع هؤلاء العرب من طبقة العرب البائدة .

وقد صرح القرآن الكريم أيضا بأن إسماعيل كان رسولاً نبياً . وليس بخاف أنه نشأ فى بنى جرهم الذين أصهر إليهم ، فنشأت من هذا الاختلاط طبقة العرب الإسماعيلية الذين منهم قريش وربيعة ومضر وغيرهم ، فكان إسماعيل عليه السلام موجوداً فى أول أدوار تكوين تلك الطبقة . وأشار الكتاب الكريم إلى أن رسالته خصت عشيرته الأقربين ، فكان يأمرهم بالصلاة والزكاة ومكارم الأخلاق ، ولم يكلف أن تعدو رسالته تلك العشيرة ، فلم يكن مبشراً ونذيراً عاماً ، وعلى رأس انقلابات كبيرة كما كان شأن محمد ﷺ . وقد دل التاريخ على أنه منذ أن نشأت القبائل العدنانية إلى عهد خاتم النبيين لم يرسل إلى العرب نذير قبله ﷺ . فما ذكره القرآن صحيح وموافق للتاريخ العام كل الموافقة ، ولا تناقض فيه من أية ناحية من نواحيه .

أما قول ذلك المستشرق : إن النبى ﷺ كان يعتمد فى قيام أمره على يهود مكة ، فليس بصحيح ، ولايوجد فى الكتاب ولا التاريخ ما يثبته ، فلم يوجه إليهم الدعوة مرة واحدة ، ولم يُنقل أنه كان يجتمع بهم أو يشاورهم فى أمر الدعوة الإسلامية . والذى ورد فى الكتاب أنه فى أول أمره أمر أن يدعو إلى دينه سراً ، ثم بأن ينذر عشيرته الأقربين ، ثم أمر بإعلان دعوته ، فعاداه قومه لهذا السبب ، وعملوا على إبطال أمره ، ولم تُذكر اليهود فى تلك الأدوار ولا مرة واحدة .

ولم يبين لنا ذلك المستشرق نوع تلك المساعدة التى كان يرجوها منهم ، أهى مساعدته فى نشر الدعوة ولم يوجه إليهم الخطاب مرة واحدة ، أم إعانته بالقوة ولم يكونوا ذوى عدد يخشى لهم بأس فى وسط تلك القبائل القوية ، بل ما كانوا يغنون عن أنفسهم فيها ؟

إن الله لم يصارح أحداً بالعداء فى القرآن الكريم كما صارح اليهود ، فكيف يتملقهم محمد ويستعين بهم ! اللهم إن هذه أقوال ملقاة على عواهنها ، وليس فيها ظل من التحقيق العلمى .

إذا كان هذا الأمر صحيحا ، أما كان الواجب أن يرد فى القرآن الكريم ما يستوجب عطفهم ، ويستنزل جنوحهم ، من التنويه بسلامة عقائدهم ، أو الإشادة بذكر قرابتهم ؟ فكيف ذلك وهو يقول بأن الكتاب لم يعلن أبوة إبراهيم للعرب إلا فى المدينة ، أليس كان أولى أن يكون هذا وهو بمكة يستميح فيها عون اليهود ، من أن يكون بالمدينة وهو يصارحهم فيها العداء ، ويكشف عن سيئاتهم ؟ أليست هذه شبهة مفككة الأوصال ، منحلة العُرَا ، داحضة من نفسها دحوضا لا قيام لها بعده ؟!

ثم قال ذلك المستشرق : إنه لما يئس من اليهود وجّه وجهه شطر قوم آخرين . فمن هم أولئك القوم الآخرون ؟ النصارى ، ولم يكونوا بذوى عدد فى بلاد العرب ، ولا يأبهون لقرابة العرب إلى إبراهيم وابنه ، ولا بأنهما هما اللذان بنيا الكعبة ؟ أم كان أولئك القوم الآخرون هم أهل المدينة ، وقد كانوا من القبائل اليمنية الذين نزحوا بعد سيل العرم إلى بلاد العرب ، وكان لا يعنيهم من أمر إبراهيم شيء ؟ أم كانوا أولئك الأفراد الذين كانوا يدينون من العرب بدين إبراهيم ، وكانوا نفراً يعدون عداً موزعين فى القبائل ، ولا تجمعهم جامعة فى طول بلاد العرب وعرضها ؟ أم كانوا قوماً آخرين لا نعرفهم ولا يعرفهم التاريخ نفسه ؟

لقد تبين القارئ من كل ما مر أن هذه الشبهات التى أوردها ذلك المستشرق لا تقوم على أساس مطلقاً ، وما أملاها عليه إلا الخيال المحض ، وإرادة

الغض من كرامة الإسلام بمثل هذه الأقوال الفارغة .

وقد غفل هذا المستشرق عن أمر جلل ، وهو ما بنى عليه الإسلام من أصول عالية ، وما أقيم عليه صرحه من وطائد عالمية راسخة .

إن الإسلام لم يعتمد فى قيامه على تأليف شعب مختار تستند أبوته إلى شخصية ممتازة ، ولكن رمى إلى تأليف أمة عالمية تذوب فيها الجنسيات والفوارق الاجتماعية ، بإسنادها إلى الأبوة العامة المتفق عليها ، وهى أبوة آدم ، فقال تعالى مخاطباً الناس كافة : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

أما عن الاعتزاء إلى الشخصيات الممتازة ، والأبوات الماجدة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ ٱللهِ ، وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فالإسلام يسوى فى الحق بين من كان أبوه إبراهيم الخليل أو محمداً خاتم النبيين وبين من كان أبوه عبداً أسود ، أو من لا يُعرف له أب أصلاً ، فليس هو بالدين الذى بنى أمره على هذه الشئون التى لو راجت فى زمان محدود ، أو لدى طائفة معينة فى دور من أدوار عقليتها الساذجة ، فلا تروج فى كل زمان ومكان ، ولا لدى الأقوام الذين ارتقت عقولهم ، ويعدون أمثال هذه الأمور حاطة بكرامة الاجتماع .

الإسلام دين شرع للناس كافة : أبيضهم وأسودهم ، عربيهم وأعجمهم ، فسوّى بينهم مساواة لا محل فيها لأبوة ممتازة ، ولا لأصل ماجد ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لقد أزال الله عنكم دعوة الجاهلية واعتزازها بالأنساب ، كلكم من آدم وآدم من تراب » . وقد رمى إلى تأليف أمة عالمية ذات دين موحد ، لا هو دين إبراهيم ولا دين نوح ، ولكن دين الله نفسه ، القائم على الفطرة التى فطر الناس عليها ، وعلى العقل والعلم ، فقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ

اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » وقد قرر الله فى غير آية أن الإسلام هو الدين الأول الذى أوحاه الله إلى أول رسول ، فقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً ﴾ .

فإذا كان الكتاب يقول عن الإسلام بأنه دين أبيكم إبراهيم فلذلك ، لا باعتبار أنه أول من جاء به ، فإن عبارة الآية السابقة تمنع ذلك ، ولكن باعتبار أنه كان أكبر ممثليه فى العالم . وإذا كان الكتاب قد صرح بأن إبراهيم أول المسلمين ، فذلك بمعنى أنه فى مقدمة من دان بالإسلام ، لا بمعنى أنه واضعه ، أو أول من تلقاه عن الله تعالى . وذلك على حد قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ ﴾ فمعناه أن محمداً يبادر إلى عبادته ، لا أنه أول من قام بعبادته من الناس أجمعين .

فالإسلام كما ترى لا يقوم على أمثال هذه الأصول التى أتعب ذلك المستشرق نفسه فى تخيلها ، ولكنه يقوم على أصول عالمية عامة ، لم تقم على مثلها أمة إلى اليوم ، وتعترف أرقى فلسفة بأنها أكمل الأصول وأولاها بالإجلال . وهو فى كل أوامره ونواهيه ينحو هذا النحو العالمى العام ، ويحطم فى سبيل ذلك جميع الفوارق الاجتماعية التى أقامتها جاهلية الشعوب ، وروجتها عصبية القوميات فى أدوار التاريخ . وليس بين هذا الإسلام وبين أن يكون دين العالم كله ، إلا أن تعرفه الأمم حق معرفته ، وإذ ذاك يصبح الإسلام الدين البشرى العام ، فيتحقق معنى قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ .
« ولتعلمن نبأه بعد حين » .

□ □ □

عن الإسلام والمسلمين [١]

– ١ –

مات الشرق بموت (دارا) وعادت إليه الحياة بواسطة محمد
النهضة الأوربية أوجدتها المدنية الإسلامية

(سيباستيان شارلتى)

أدهش المفكرين من أهل المدنية الحاضرة سرعة نمو المدنية الإسلامية وإشراقها إشراقاً أخذ بالأبصار والعقول ، حتى فرضت زعامتها على العالم كله ، مما لم يعهد له مثيل فى تاريخ التطور البشرى ، وخاصة إذا كان حامل لواء هذه المدنية شعباً لم تعرف له أصالة فيها . فكان الكثيرون من كتاب الغرب ، لأجل أن يفروا من تبعة تعليل هذا الأمر الجلل ، يغفلون التنويه بعظمة المدنية الإسلامية . وإلى هؤلاء وجه الكلام المسيو سيباستيان شارلتى Sèbastien Charlety فى جريدة (دييبش دو تولوز) الفرنسية فقال :

« إننا كثيراً ما نظلم المدنية الإسلامية العظيمة ، ولا نذكر أنه لما قدَّم سفير هارون الرشيد إلى الأمبراطور شارلمانى ساعة حائط ، كان إعجابه بها بالغا ، ونحن لا نمثل لأنفسنا هذا الأمر بأنه يشبه فى أيامنا هذه أن يقدم أحد رواد المجاهيل إلى ملك زنجى فونوغرافا ، ويسمعه من أناشيده .

« لقد بالغ الناس فى تقدير الصفات العقلية العالية للعرب الفاتحين ، مما أصبح لا يمكن تصديقه اليوم . وقد حُلت هذ المسألة على الوجه الآتى : وهو أن عرب البلاد العربية والبدو من أهل القبائل لم تدم دولتهم إلا قرناً واحداً وهى دولة الأمويين . فلما جاءت الدولة العباسية سنة (٧٥٠) انسحب هؤلاء البدويون بعد أن أتموا عملهم الحربى ، وعادوا سيرتهم الأولى من الحياة المتنقلة .

---

(١) نقلاً عن المجلّد الحادى عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٩ هـ – ص ٤٤١ وما بعدها .

« ولقد اعتاد الناس كلما ذكروا تاريخ المسلمين أن يذكروا العرب ، والواقع أن الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم لم يكونوا عرباً ، ولكنهم كانوا أهل المدن المصرية والكلدانية والسورية ، أى المتمدنين القدماء من أهل الشرق الخالد الذين كانوا قد قبلوا الإسلام دينا لهم ، وحذقوا اللغة العربية .

« فى ذلك الزمان شرع هؤلاء المتمدنون العريقون فى المدنية ، الذين مر عليهم عهد المدنية اليونانية ، فى ترجمة كنوز المكتبات اليونانية إلى اللغة العربية ، وبواسطتهم ولدت المدنية الإسلامية . فلم تكن هذه المدنية والحالة هذه من عمل العرب ، ولكنها كانت من عمل أولئك الذين كان يطلق عليهم فى القرون الوسطى اسم سارازان (Sarrasins) [1] وهم الورثة المباشرون لمصر وكالدانيا (بابل).

« إننا نرى بأعيننا بدائع ألف ليلة وليلة ، والفن الأسبانى العربى فى العمارة ، ولكن يجب أن يكون الإنسان متضلعاً فى العلوم لكى يفهم أن هؤلاء الذين اكتشفوا علم المثلثات والجبر ، والذين رقوا علم الفلك ترقية عظيمة جدًّا فى مراصدهم المزودة بأدق الآلات ، ونهضوا بعلم الطب فى مستشفياتهم نهضة قوية ، وألفوا علم الكيمياء من معلومات كانت منثورة لاتجمعها جامعة ، فعلوا ذلك كله لأنهم اعتمدوا فى معارفهم على الأسلوب التجريبى .

« أما فى عالم تطبيق العلوم الطبيعية ، إذا أردنا أن لا نقول شيئاً عن تبريزهم فى الزراعة وصناعتى التعدين والنسج ، فإن العرب أورثونا البوصلة وبارود المدافع ، وهذا الاكتشاف الضخم وهو عمل الورق ، قد أدى إلى الحصول على الكتب بثمن زهيد .

« وقد قيل لنا إن نهضتنا ، كما يدل اسمها عليها ، كانت وليدة الآداب اليونانية والرومانية . وهذا كذب تقى [2] . والحقيقة أنه وليد المدنية العربية التى جلبتها

---

(١) هذه الكلمة مشتقة من فعل شرق (بتشديد الراء) وكان يطلقه أهل أوروبا على المسلمين حين زحفوا لفتح بلادهم .

(٢) يريد بهذا التعبير أن الحامل عليه كان التعصب للدين .

إلى بلادنا الحروب الصليبية . وقد عُلم من عرض تاريخ المدنيات الإنسانية ، وهو تاريخ هذا العالم الأرضى ، أنه قد وُجدت مدنيات قديمة ذات أصول شرقية ، تلتها المدنية اليونانية الرومانية ، ثم المدنية العربية طَوال عهد القرون الوسطى ، ثم عقبتها مدنيتنا الراهنة . وقد جحدنا فضل المدنية العربية علينا كما جحد اليونانيون قبلنا فضل المدنية المصرية . ولكن أمر هذا الجحود لا يهم كثيراً لأننا لم نُضع من حقيقة هذا التاريخ شيئاً .

« الإسلام فى القرن العشرين أصبح على وشك انقلاب عظيم ، وإن تحفزاته لتهز الكرة الأرضية ، ومعنى هذا أن الأمبراطورية الإسلامية تحاول أن تبعث فجأة ، والعلاج الذى يراه الشرقيون لتحقيق ذلك هو أن يأخذوا الغربيين طفرة بواسطة قرارات حكومية إجبارية ، فهم يريدون أن يكونوا مع بقائهم على ما هم عليه . ولذلك تراهم يتربصون بالمدنية الغربية الدوائر . وهم على حق فى ذلك إطلاقاً . فإن مدنيتنا ستبيد كما بادت المدنية اليونانية الرومانية . ولكنهم يتخيلون موتها فجأة ، وهنا هم واهمون . فإن الشرق مات قبل الآن بموت (دارا) [١] وعاد فحيى بظهور محمد ، ولكن بين موته وحياته مضت ألف سنة ، فيجب علينا أن نتذكر هذا الرقم لنُطَمئن به أنفسنا » .



(١) دارا ملك الفرس الذى حاربه الإسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد وقهره واستلحق مملكته الآسيوية سنة (٣٣٠) ق . م

شارل سيباستيان

(مجلة الأزهر) : إن ما كتبه المسيو سيباستيان وقال : إنه اقتبسه من كتاب (أخلاق وعادات إسلامية) للأستاذ ا . ف . جوتييه ، إن كان قصد منه الغض من قيمة الإسلام فى تطوير العقلية الإنسانية من طريق الطفرة ، فهو لم يؤد إلى ما قصده منه ، لأن هذا الدين لم يقل : إنه جاء لترقية أمة معينة ، وبعثها لتأتى بالعجب العجاب طفرة ، حتى يكون فى تدليله بأن الذى قام بالمدنية الإسلامية هم رجال دخلوا فيه من أجناس شتى ، كانوا قبل أن يجىء مستعدين للارتقاء بما صقلته المدنية اليونانية الرومانية من عقولهم ، وما لطفته من شعورهم ، نقضٌ لهذا الوعد . ولكن الإسلام قال : إنه جاء للبشر كافة ليفك عن أعناقهم أغلال التقاليد الضارة ، ويجلو عن بصائرهم غشاوات العقائد الباطلة ، ليحيوا حياة صحيحة ، يحققون بها ما الفطرة الإنسانية أهل لتحقيقه من الوصول إلى المثل العليا فى العلم والعمل . وهو لم يسند قيادة العالم فى هذا السمت لأمة من الأمم ، ولكنه ترك المجال حراً للمتنافسين فيه من كل جنس وبيئة .

فإذا صح ما ذكره المسيو سيباستيان من أن الذين قاموا بالمدنية الإسلامية هم أقوام من أعرق الشرقيين فى الممالك التى افتتحها المسلمون ، وليسوا هم العرب أنفسهم ، لم يحط ذلك من قيمة الإسلام ، ولم يناقض أصلاً من الأصول التى قررها ، أما قال الله فى آية محكمة من كتابه : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ؟ أو لم يقل رسول الإسلام محمد ﷺ : « لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ؟.

ولكن المسيو سيباستيان غاب عنه أن العرب وإن كانوا لم يبرزوا فى العلوم والفنون التى ابتنت عليها المدنية ، وقامت على أركانها ، بسبب ما كانوا عليه من البعد عنها ، فإنهم ساهموا فى إيجاد هذه المدنية مساهمة لا تقل عن مساهمة الذين باشروها بأنفسهم ، ذلك أنهم مهدوا الطريق لوجودها ، وأمدوها بالأموال لتوسيع نطاقها ، واستبقاء حياتها ، والاستفادة من ثمراتها .

يقول المسيو سباستيان : إن عمل العرب اقتصر على فتوح البلدان ، ثم انسحبوا من الميدان ، فتولاه الذين أسلموا من أبناء قدماء المصريين والبابليين . وهذا قول بعيد عن التحقيق ، ألم يكن من العرب أمراء المؤمنين ، وكثير من علماء الدين ، وحكام الأقاليم ، والقضاء والمفتين ؟ فهل كان نقلة العلوم الذين يذكرهم يستطيعون أن يقوموا بما قاموا به من نشر الكتب العلمية وترجمتها ، لو كانت هذه الهيئة الحاكمة لا ترضى عنه ولا تساعد عليه ؟ أنسى ما استفاض فى تاريخ المسلمين أن أمراء المؤمنين ووزراءهم كانوا هم الذين أوجدوا هذه الحركة العلمية ، وسخروا المترجمين لترجمة المؤلفات اليونانية والكلدانية وغيرها ، وبذلوا لهم من الأموال ما لايكاد يصدقه العقل ، وشجعوهم تشجيعاً لم يؤثر عن قادة الأمم قبلهم ؟ فهل كان يخيل له أن هذه النهضة تقوم لها قائمة لولا هذه الأموال الطائلة التى بذلت فى سبيلها ؟

فإن كان قيامها من الممكنات فلم لم تقم بنفسها قبل مجىء الإسلام ؟

إن العرب والبدو الذين يذكر أنهم قد قصروا عملهم على الفتوحات والتبسط فى الأرض ، كانوا يستطيعون أن يعملوا ما عمله الفاتحون قبلهم ، من هدم المعابد والهياكل ، وإحراق ما بها من ذخائر المؤلفات ؛ أفلا يكون تركهم لها قائمة وترك ما فيها لأهلها ، من المفاخر التى لم يسجل مثلها لأمة فاتحة ؟ وهم يعلمون أن فى تلك الهياكل والكنائس من أعلاق الذخائر الشىء الكثير ، فعفُّوا عنه كله وتركوه لأهله ، وأمَّنوهم على إقامة شعائرهم . ومن أغرب ما يؤثر عنهم من روح التسامح الدينى أنهم تركوا للشعوب التى فتحوا بلادها كل مقدساتها حتى التماثيل التى كانوا يقدسونها .

فهل هذه الروح العالية من التسامح التى كان لا يعرفها أهل ذلك العصر ، واحترام أهلها حتى الذين بقوا منهم على يهوديتهم ونصرانيتهم أو مجوسيتهم من المترجمين ، قليلة الأثر فى بعث الهمم على نقل تلك العلوم وزيادة مادتها ؟

إذا كان المسيو سباستيان يبحث عن علة بسيكولوجية ، لسرعة تطور العقلية الإسلامية وتبريزها فى العلوم الطبيعية ، ويرضيه منها ما نقلناه عنه هنا ،

أليس فى تسامح العرب إلى هذا الحد فى معاملة الأجانب عن دينهم ، والإبقاء على معابدهم وهياكلهم ، وما فيها من الأصنام والأنصاب ، مجال فسيح للبحث عن علة هذا التسامح فى نفسية شعب كان جاهلياً بالأمس لا يقيم للتسامح وزناً ؟

الإسلام لا يهمه أن يقوم بما أهاب بالناس للقيام به من نشر العلم وبناء المدنية الفاضلة هذا الشعب أو ذلك ، لأنه دين الإنسانية قاطبة ، ولديه أبناء آدم كلهم سواء ، ولا يهم العالم أن يعرف أى عنصر من العناصر الإسلامية تولى بناء مدنيته الباهرة ، ولكن يهمه أن يتحقق أن الدين الإسلامى هو الذى دعا إليها ، وبعث الهمم لإيجادها ، ليدحض به ما أرجف به المرجفون من أنه دين بدوى محض ، لا ينتظر منه عمل فى تشييد أية مدنية ، بل هو مسوق لأن يهدم أية حضارة يصادفها فى طريقه . وقد قال بهذا الضلال البعيد كتاب كثيرون ، فالذى يهم هؤلاء اليوم أن يدرك هؤلاء أنهم فى تأكيدهم ما ادعوه مبطلون .

أما إذا كان مرمى المسيو سباستيان أن يوهم قراءه أن أمر المدنية الإسلامية التى أصبح تاريخها يبهر العقول ، لم يقم به العرب الأقحاح ، ولكن أولئك الذين دخلوا فى دينهم من آحاد الأمم التى كانت متمدنة ، فتابعوا طريقتهم فى استثمار عقولهم وفنونهم ، فنُسب ما عملوه للإسلام وليس الإسلام منه فى شىء ، قلنا : إذا كان المسيو سباستيان يرمى إلى هذا فهو على خطأ عظيم ، لأن ما قلناه فى صدر هذا المقال يكفى فى إبطاله ، ونزيد عليه هنا : أن هؤلاء الذين يصفهم المسيو سباستيان بأنهم صاغة المدنية الإسلامية ، كانوا موجودين حيث كانوا قبل البعثة المحمدية وبعدها ، فكانوا قابعين فى أكسار بيوتهم لا يستطيعون أن يأتوا عملاً ، فلم لم يقوموا ببعض ما قاموا به والإسلام باسط رواقه عليهم ؟ أليس لأنهم كانوا ممنوعين عن ذلك ، وكانوا لا يجدون من المحيطين بهم مشجعاً عليه ؟ بل كان كثير منهم يرى رأى قادتهم فى أن التبحر فى البحوث مخالف للدين ، وأنه يجر إلى النار ؟

فلا يجوز للمسيو سيباستيان وهو يعلم كل هذا بالضرورة أن يغفله فى سبيل تعليل ظهور العقلية الإسلامية سامية كل السمو طفرة . وما أظنه قد بلغ مراده من هذا التعليل ، فقد يعترض عليه معترض قائلاً :

إذا كنت تعلل ما ظهر به المسلمون فى القرن الثانى من التطور العقلى بأنهم كانوا أبناء وأحفاد أقوام عاشوا فى المدنية آماداً طويلة ، وتمرست عقولهم بالمعارف والنظريات أجيالاً متعاقبة ؛ فبم تعلل تطور عقلية أصحاب النبى وآدابهم فى جميع أحوالهم ، وعدلهم فى حربهم وسلمهم ، ورحمتهم برعاياهم بصرف النظر عن عقائدهم وأجناسهم ؟ بم تعلل هذا الانقلاب الضخم فى شعب كان جاهلياً جافياً بالأمس ، لا يعرف غير سلطان القوة ، ولا عدلاً إلا ما تمليه عاداته القومية ، ولا رحمة إلا ما يتفق وأوهامه التقليدية ، فانقلب شعبا ، مدنياً لطيفاً ، لا يعرف لغير الحق سلطاناً ، ولا سوى العدل المطلق ميزاناً ، رحيماً بالضعفاء إلى حدود الإيثار ، عاطفاً على المقهورين إلى مستوى المساواة . فهل كانوا تمرسوا فى جاهليتهم بهذه الخلال التى يستحيل أن يتحلى بها شعب من طريق الطفرة ، بل لابد لأجل أن تصبح من طبيعة الجماعة أن تتمرس بها أجيالاً طوالاً .

فالإسلام الذى هو أصل هذا الخير كله هو الذى يجب أن يُنوَّه به ، وأن يُشاد بذكره ، وأن يُستنزل عجب الناس من اشتماله على جميع عناصر الترقى البشرى حتى لا يعقل أن يوجد فى التعاليم البشرية أجمع منه وأشمل لهذه العناصر التى تتولى اليوم النوع البشرى فى جميع مجالات النشاط العقلى والمادى .

نهضة الإسلام فى القرن العشرين

قال المسيو سباستيان فى هذا الموطن : إن المسلمين يتحركون للنهوض ، وإن رجات حركاتهم تهز الكرة الأرضية ، والعلاج الذى يأخذون به أنفسهم هو أن يأخذوا إخذ الغربيين طفرة بأوامر حكومية . وهم يتربصون بالمدنية الأوربية التلاشى والانحلال .. الخ .

نقول : أما أن المسلمين يتحركون للنهوض ، وأن رجات حركاتهم تهز العالم الأرضى كله فصحيح ، فإنك لا تكاد تجد ركنا من أركان الأرض لا يشغل أهله من أمر النهوض شاغل مستوعب لأفكارهم ، ولكنهم لا يرجون ذلك من طريق هلاك المزاحم لهم ، أى ليخلوا لهم الجو دونه ، وهم مقيمون على ما هم عليه من الحالة النفسية والخلقية . فهم يعرفون أنهم ما تدهوروا إلى الحد الذى وصلوا إليه

إلا لتركهم تعاليم الإسلام الإصلاحية ، ويرون بأعينهم أن الغربيين لم يبلغوا إلى ما بلغوا إليه إلا بالقيام على أصول وآداب قرآنية . وهذا هو السبب الذى يدفعهم لأن يأخذوا إخذ الغربيين من طريق الإكراه الحكومى .

فإذا كانوا يرون بعد هذا أن المدنية الغربية محكوم عليها بالتلاشى ، فليس ذلك لما يتسرب إليها من العلل من ناحية هذه الأصول المرقية ، ولكن من ناحية ما التاثت به من العيوب الأدبية ، وما اندس إلى صميم اجتماعها من العوامل المفككة . وهم يعلمون أن تلاشيها لن يجىء فجأة ، وأنها فى تلاشيها ستترك صدوعاً فى العالم البشرى يصعب رأبها على المدنية التى تخلفها إلا بعد بذل مجهودات عنيفة .

مات الشرق بموت (دارا) وحيًا بمجىء محمد

هذه أحق وأجمل عبارة نؤثرها عن كاتب أوروبى ، وهى من قبيل الاعتراف بالحق لصاحبه .

ولو نظرت نظراً علمياً لوجدت الأمر كما قال : فإن الأمة الممثلة لعظمة الشرق كانت فى ذلك العهد الأمة الفارسية ، وقد أدال دولتها الإسكندر ، واحتل بلادها ، ولما مات أصابها ما أصاب سائر الممالك التى دوخها العاهل المقدونى ، والتاثت من عوامل التحلل والتدهور بما تلتاث به كل بلاد تصدعت أركانها ، وتأكلت وطائدها ، فعاشت كما شاءت الحوادث ، لا كما شاءت المبادىء . وكل ما قام فى الشرق من دولة بعدها لم تقم بقواها الذاتية ، وبروحها المدبر ، ولكن قامت على أنقاض دولة سبقتها فى الوجود ثم بادت .

فلما جاء محمد ﷺ بعثت دولة الشرق ببعثه ، ظهرت وليدة ، ثم ترعرعت ونمت ، وشبت وازدهرت ، بروح خاصة حلت بها ، حاصلة على جميع مميزات الأرواح التى كتب لها البقاء ، تحوطها العوامل المدبرة ، وتحفها الأصول المقررة ، وتتراءى لها المثل العليا . فأدت للعالم رسالة لم تؤد له مثلها دولة فى مدى تاريخ الإنسانية كله .

فإن كانت هذه الأمة تتحفز للنهوض اليوم ، فإنها إنما تفعل محفوزة ببواعثها الذاتية ، وقواها المعنوية ، غير مبطنة شراً بأحد ، على السمت نفسه الذى اتبعته فى وجودها الأول .



عن الإسلام والمسلمين [1]

– ٢ –

(الانتشار الإسلامى بين مختلف الشعوب لا يمكن وقفه)
(وأثر الجامعة الأزهرية فيه)

جاء فى جريدة (لا سومور فودوا السويسرية) Le Semeur Vaudois تحت عنوان (على ذكر خريطة) [2] ما يأتى :

« يعلم الناس أن للإسلام قوة انتشار عظيمة . وقد عالجت هذا الموضوع مجلات وجرائد كثيرة جداً . ونحن ننشر هنا للتدليل على صحة هذا الأمر خريطة ذات دلالة قوية فى هذا الموضوع ظهرت فى عدد شهر فبراير سنة ١٩٣٨ من مجلة (ليفانجيلش داتشلاند) . وهى منقولة من كتاب الأستاذ (بول شمتز) المطبوع عند جولدمان بمدينة لبزج . وهى توضح بطريقة مؤثرة جميع الممالك التى أصبحت إسلامية محضة ، وجميع البقاع العالمية التى انتشرت فيها طلائعه ، وخاصة ما كان منها فى أفريقا وآسيا .

وقد ظهر مقال للاستاذ (مينولف كوسترس) فى مجلة (داتش رندشو) فيه تفصيلات عن هذه الحركة الانتشارية ، جاء فيه : « إنه من مائة وثلاثين مليوناً من الأفريقيين أصبح سبعون مليوناً يسيرون تحت لواء النبى . وقد أصبح جميع شمال أفريقا إسلامياً . وقد كان عدد المسلمين فى مستعمرة (داتش أوستافريقا) مائتين وخمسين ألفا قبل الحرب الماضية ، فأصبحوا الآن ثلاثة ملايين ! وتأثير الإسلام يمتد حتى جنوب أفريقا . والسبب فى ذلك أن الجامعة الأزهرية بالقاهرة ، وهى مركز الدعوة إلى الإسلام ، ترسل مندوبين غيورين

---

(١) نقلاً عن المجلّد الحادى عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٩ هـ – ص ٥١٠ وما بعدها .

(٢) نشر الأستاذ شمتز Shmitz كتاباً أسماه (الإسلام فى الغد) ذكر فيه ما يصادفه الإسلام من الانتشار العظيم وخاصة فى هذا العصر فى أفريقا وآسيا حتى يكاد لا يدع فيهما مكاناً لغيره . وقد نشر خريطة لون الممالك الإسلامية فيها بلون أسود يتضح منها أن هاتين القارتين تكادان تصبحان إسلاميتين صرفاً .

إلى جميع الأقطار الأفريقية . وتصدر جرائد كثيرة فى البلدان الكبيرة ، وترسل إلى تلك البقاع حاملة رسالة الكفاح ضد المسيحية ، والثقافة النصرانية إلى وسط تلك القارة الكبيرة » . انتهى ما قاله الأستاذ مينولف كوسترس .

وقد بين الأستاذ د . ج . ريشتر ، وهو عالم إخصائىّ فى هذه الشئون فى فصل مفيد جداً نشره عن التطورات البعيدة المدى التى حدثت فى العالم الإسلامى جاء فيه قوله : « إن التطور الإسلامى قد أصبح من أكبر الحوادث التاريخية للعصر الحاضر ، فيجب تتبعه بأكبر ما يمكن من الانتباه » انتهى .

هذا ما جاء فى جريده (لوسومور فودوا) السويسرية ، وهو موضوع كما يعرف القراء ليس بحديث العهد ، فقد كتب جميع المبعوثين الدينيين الأجانب عنه بحوثاً ضافية ، أشهرها ما نشره الكاردينال لا فيجرى Lavigeri الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد شكا مر الشكوى من فشل الدعوات النصرانية فى القارة الأفريقية ، وقال إن الدراويش البسطاء ، والتجار الذين يجوبون تلك الأقطار ينشرون الإسلام أينما حلوا ، فيقبل عليهم الناس أيما إقبال ، ويعاهدونهم على الإسلام دون أية مقاومة .

وقد أيد الكردينال لافيجرى مبعوثون كثيرون ، ولا يخفى أن هؤلاء يتذرعون للتحبيب فى ملتهم بالمال الوفير ، وبالوسائل التعليمية والتطبيبية ، ولكن كل ذلك لم يجدهم نفعاً . حتى قالوا : إن من يصبأ إلى ملتهم من المتوحشين لا يلبث أن يهرب إلى المسلمين ، وإن كان لا يجد لديهم بعض ما يجده عند أولئك الدعاة من العيش الرغيد .

ينصح الأستاذ رشتر فى البحث الذى نشره عن تطور العالم الإسلامى ، المهتمين بأمر الدعوة الدينية ، أن يتتبعوا بانتباه عظيم حركة ذلك التطور ، وماذا يفيدهم ذلك التتبع الدقيق ؟ أليس الأولى أن يدرسوا العلة الحقيقية فى هذا التهافت على الإسلام من أمم وشعوب وقبائل عريقة فى الوثنية ، عجزت المغريات المادية عن تحويلها عنها ، ونجحت دعوة مجردة من جميع المسولات لنشر هذا الدين ؟

أما وقد أغفلوا ذلك فنحن نتولى بيان هذه العلة خدمة للعلم والفلسفة والدين ، فنقول :

تلك العلة هى أن الإسلام دين سهل ترتاح له النفس ويستسيغه العقل بدون شرح ولا تعمق فى التدليل ، يجد فيه كل من الساذج والمثقف ثلَجا فى الصدور ، وسكَناً فى القلب ، يهب على الأول من ناحية ملاءمته للفطرة الإنسانية ، ومناسبته للغرائز الجِبِلّية ، وعلى الثانى من جهة ما يُفيض عليه من نور يكشف له من معضلات التدين ، ومشكلات الاعتقاد ، ما كان يحيك فى صدره ولا يجد له مصرفاً ، ويَرين على صدره ولا يصادف منه مخرجاً ، فلا يعود يشعر بحرج فى نفسه يقيمه ويقعده ولا يرى عنه مَعْدِلاً . وهذا ما أشار إليه الحق جل شأنه بقوله : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ .

هذا الشفاء للصدور هو الذى يحمل النفوس على الترامى على الإسلام لأول معرفتها به ، حتى يمكن أن يقال إنه لا يحتاج إلى دعوة غير التعريف به . وقد فتح الله مغالق قلوب أهل الجاهلية الجهلاء بهذا القرآن وحده ، فله ينسب هذا الانتشار الذى صادفه الإسلام لأول ظهوره مما ليس له مثيل فى تاريخ العالم ، ولا يزال يفتح به الدعاة إليه القلوب الغُلف التى يتصدون لها ، وكان إذا أراد النبى ﷺ أن يدعو قوماً إلى الإسلام قرأ عليهم آيات من القرآن ، فلا يلبثون أن يمدوا إليه أيديهم يعاهدونه على الإيمان .

فهذا التأثير العظيم ، لهذا الكتاب الكريم ، لا يجوز أن يغفل البحث فى مصدره ، وخاصة فى هذا العصر ، عصر التحليلات المعمقة ، والمقارنات المدققة . أما التفكير فى صده فمما لا سبيل إليه . فلقد عملت على هذا الصد جماعات وأمم فى خلال تاريخه فلم يستطيعوا أن يضعفوا من توثبه ، بل زادوه قوة على قوته . وقد أنبأ الله المسلمين بأن كل صد لهذا الدين محكوم عليه بالفشل مهما كان مصدره ، ومهما كانت الوسائل التى تبذل فيه ، فقال تعالى : ﴿ ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ﴾ .

وقد صدق هذا الوعيد مرات لا تحصى فى ظروف تاريخية معروفة . وقد تحقق فى هذا العصر على أوضح ما يكون . فإن دعاة الملل يصرفون ملايين الجنيهات ليضعفوا بها من سريان هذا الدين فلم يحصلوا على طائل ، فأنفقوا أموالهم وباءوا بالفشل كما قال وعد الله بذلك وأيده فى آيات أخرى منها : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴾ .

ولو كان الإسلام ديناً يمكن صد تياره لأمكن ذلك فى مثل هذا العهد الذى طمت فيه الشكوك ، وعمت فيه الشبهات ، ونسى الناس فيه أنفسهم ، من الضوضاء الفاتنة المصمة ، التى تحدثها هذه المدنية الساحرة . وإنك لتراه على عكس ما كان متوقعاً ، تراه يخوض غمرات هذه الفتنة العمياء فيفتح فيها إلى القلوب طريقاً . ألست ترى خفوف الناس فى كل بلد من بلاده إلى تأليف الجمعيات للتذكير بآياته والإهابة إلى بيناته ، وانتداب الأفراد إلى إصدار المجلات لنشر فضائله ، والإشادة بذكر دلائله ؟ وقد تعدت هذه الحركة مواطنه إلى البلاد الأجنبية فكثر الباحثون فيه ، والمعجبون به ، مما نلم به فى كل عدد يصدر من هذه المجلة نقلاً عن المصادر العلمية الوثيقة .

فإذا كان هذا كله والفتنة متغلبة ، والشبهات متوثبة ، والنفوس منصرفة ، والعقول معقولة ، فما ظنك حين تنجاب هذه الكِسَف عن الصدور ، وتزول هذه الغشاوات عن العيون ، وينشط الناس لتنور الحقائق واتباعها ، وتعرف الأباطيل واجتنابها ؟ عند ذاك ترى ما لا يخطر لك ببال من تدافع الناس بالمناكب دخولاً إلى حظيرة هذا الدين ، وفى الوقت نفسه تعرف أن ثوران هذه الشبهات التى كنت تشكو منها كانت سببا مباشراً فى تجلية حقائق هذا الدين ، فكأنها كانت محكاً له .

□ □ □

حالة المرأة العربية فى الحريم [1]

للأوربيين ولوع بالكتابة عن المرأة الإسلامية ، وكثيراً ما شطت أقلامهم طلباً للإغراب واستنزال عجب القراء ، فأتوا بما يشبه ما دُوِّن فى حكايات ألف ليلة وليلة . وهم إذا كتبوا عن المرأة العربية حيث الحجاب الكثيف ، والعزلة التامة عن الرجال ، جاءوا بما لايوجد إلا فى عالم الخيال . وقد انتشرت هذه الكتابات منذ قرون ، وزادها الكتاب المحدثون توكيداً ، فأصبحت هذه الخيالات حقائق يتعذر إزالتها من الأذهان . فإذا اتفق لأحدنا وقابل أوروبياً أقبل من بلاده حديثاً ، وجده دهشاً مما يجد من التناقص بين الصورة الذهنية التى علقها عن الشرق والشرقيين ، وبين ما عليه حالهم فى الواقع ، ولكن الذين يزورون الشرق عدد قليل ، وأكثرهم من التجار والمبستعمرين ، وهؤلاء لا تأثير لهم على الرأى العام فى بلادهم لأنهم لا يكتبون ؛ ومن يجىء إلى بلادنا من كتابهم تشوقهم الآثار والعاديات ، أكثر ما تشوقهم الأخلاق والعادات ، فلا يعيرونها إلا نظرات سطحية . وبذلك بقى الشرق الإسلامى معتبراً دار عذاب للمرأة تعانى فيه الويل والثبور .

وقد وقفنا على مقال نشر فى جريدة (جورنال دو جنيف) السويسرية ، تحت العنوان المتقدم ، آنسنا فيه اعتدالاً ، فرأينا أن نعربه لقراء هذه المجلة ليعلموا بعض ما يقال عنهم ، وسنلاحظ على ما يقتضى الملاحظة منه . قال :

« المرأة العربية فى الطبقة الثرية ليست بتعسة الحظ فى حريمها ، فهى لا تتألم من التشدد فى حبسها ، وإن شدة حبها للاطلاع على كل ما يمس عاداتنا وأزياءنا النسوية لا يقابل منها رغبة فى التحرر والخلاص مما هى فيه . فهى كطفلة جاهلة كل الجهل ، طيبة القلب عطوف ، لا تدرى مما هو خارج عملها سوى أسرتها شيئاً ، وكل معلوماتها تنحصر فى دائرة حليها ومسائل الحمل والإجهاض ، وهى تشعر بضجر لا تستطيع تحديده ، ولا تعرف كنهه .

---

(١) نقلاً عن المجلّد الحادى عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٩ هـ – ص ٥٧١ وما بعدها .

« يندر أن يكون للعربى الثرى من أهالى شمال أفريقا أكثر من زوجتين ، ويكثر أن لا يكون له غير زوجة واحدة ، تكون سيرته معها عادية ، أعنى ليست على أسلوب الوحشية الظالمة البهيمية التى تخيلها قصاصون ليسوا على شىء من العادات العربية البيتية . وقد اعتاد العربى أن لا يفضى بشىء عما يجرى فى داخل داره . ويرى أنه لا يصح أن يُسأل عن أحوال امرأته . فهذا الأمر لا يجوز الإلمام به إلا إذا رأى هو أن يتكلم فيه . فإذا اتفق أن امرأته محتضرة ، فلا يذكر ذلك لأحد ، محتفظاً باتزانه العادى ، وبأسلوبه الكلامى المشبع بالغاية القصوى من الأدب . وهذا التحفظ منه فى هذا الموطن عادةٌ يجرى عليها ، ولا يدل على عدم التأثر مما هو بسبيله . وللنساء العربيات ككل نساء العالم أزواج يختلفون فى صفاتهم الطيبة والرديئة .

« أما حالة هؤلاء النسوة فتلوح لهن عادية لا شية فيها . أما اللاتى يتألمن منها فهن اللائى يردن أن يذقن لذة الحرية التى لا تصلح لها بيئتهن ، ولا يصلحن هن لها ، والعربيات وإن كن على جانب عظيم من الذكاء ، فإن نفوسهن قد ألفت العادات التى نشأن عليها ، وإن كانت تربيتهن الحديثة قد جعلتهن كالمنحطات عن مكاناتهن . وقد عرفتُ شابتين عربيتين كلتاهما حاصلة على الدكتوراه فى علم الحقوق ، دخلتا الحريم بالزواج بعد عودتهما من جامعة باريس عن طيب نفس ، ولم تخرجا منه . وليس هذا بالأمر النادر .

« فعلى المرأة الأوربية التى يسعفها الحظ بأن تقبل فى الحريمات ، باعتبار أنها صديقة لأهلها ، أن ترى من الواجب عليها أن لا تحاول جذب أخواتها العربيات إلى قبول فكرة التحرير . فهذه قد تكون غلطة بسيكولوجية واجتماعية . ولكن يجب عليها أن تعتبر صواحباتها المسلمات الجميلات اللاتى يشبهن ملكات بيزانطة ، مخالفات لها فى الشعوز . فيجب أن تعاشرهن ، وأن تحترم أسلوب حياتهن ، دون أن تسعى فى بذر بذور الآراء التى لم تستعد عقولهن لقبولها .

« أما أعظم ما يمكن أن يعمل لهن فهو العناية بأمر صحتهن ، وإشراك الأزواج فى هذه العناية . ذلك لأنهن مصابات بفقر الدم بسبب معيشتهن فى الظل ، ولأن دورهن الفخمة تجاور فناء قذراً مملوءاً بالفضلات ، تقيم فيه خادمات قذرات ،

وأطفال مصابون بالقمل . وليس لهذه السيدات حديقة يمكن أن يستنشقن فيها الهواء بعيدين عن الأنظار . فإذا أصبن بمرض تولت علاجهن العجائز ، وهن اللاتى يقمن بصناعة التطبيب فى القبيلة ، ويعشن محترمات مبجلات ، وليس لعلاجهن أساس علمى ، بل هو مستمد من فنون الشعوذة . أما الطبيب من جنس الرجال فلا يقبل فى هذه الدور إلا نادراً ، ولا يلجأ أهل المريض أن يبعثوا به إلى المستشفى إلا حين لا يرجى له شفاء .

« فالمرأة الأوربية تستطيع أن تؤدى لهذه الأسر خدمات جليلة بالتوسط فى إدخال مبادئ العناية الصحية إليها ، ذلك أجدى عليها من بث الآراء الاجتماعية فيها .

وقد اعتادت النساء المسلمات أن لا يقبلن الأخذ بالوسائط الصحية ، فيما يتصل بالأمراض النسوية ، إلا من نساء بشرط أن يكن متزوجات . ويمكن بواسطة العلاج بالحقن مكافحة أمراض كثيرة ، وآفات جمة ، مثل الزهرى الذى يفتك بعدد عظيم من الجنس العربى ويدنسه !

« فإذا برت الأوروبية مرضى هذه الأسر بهذه الوسائل السهلة وبدون ألم ، فوجئت بشكر عظيم من هؤلاء النسوة ، وذكرن ذلك طوال حياتهن . وتجدهن لا يدخرن شيئاً فى سبيل الإعراب عن سرورهن ليثبتن فرط شكرهن . فيأيتها الممرضات من الجنس الأبيض ، هل تنتظرن من مرضاكم المتمدنات مثل هذه الثمرة ؟ » (د . جـ)

* * *

(مجلة الأزهر) : إن هذه المقالة على خلوصها من التجنى وتعمد التشهير ، لا تخلو من المبالغة والإغراب ، فإن الادعاء بأن العربيات المحجبات كلهن مصابات بفقر الدم ، يشبه قول خصوم الحجاب هنا : إن جميع المحجبات مبتليات بهذا الداء ؛ والواقع يدل على خلاف هذا الاتهام . فإن تلك النسوة إن كن محجبات فهن لسن بمحبوسات ، وكل من زار البلاد المغربية يعرف ذلك كل المعرفة ،

ولكن كتاب الفرنجة يعادون الحجاب ولا يقصرون فى اتهامه بكل نقيصة ، ويقلدهم لدينا من يأخذون إخذهم ، ويزيدون عليهم فى مناوأته .

واليوم وقد أسفر النساء ، ونتج عن سفورهن ما نتج من الاستخفاف بالآداب ، والإغراق فى التبرج ، قلب أنصارهن بالأمس لهن ظهر المجن ، وأخذوا يشهرون بهن فى كل ناد ، حتى أخذوا يصيحون بوجوب إقامة شرطة للآداب !

كل هذا ولما يمض على سفورهن غير سنين معدودة ، فما ظنك حين يتغلغلن فيه ، وترتكب الطائشات منهن من ضروب الاستهتار فى التبرج ما لا قِبَل للشعور الاجتماعى على قبوله ؟ عند ذاك يطرأ على الشرق داء جديد يدعونه تهتك النساء ، يضاف إلى سائر علله ، وهو أشدها فتكاً ، وأصعبها مراساً ، وأفعلها فى إفساد نفسية الجماعات ، وتفكيك عراها ، والإسراع بها إلى الهلاك .

فإذا كان يتعذر اليوم إعادة الحجاب ، فهل يعز على السلطات المختصة أن تحد من التبرج الممقوت ، وأن تصد من ضروب التهتك المعيب ؟ هل تستطيع تلك الجهات أن تضع لتقصير الثياب وتضييقها حداً ؟ هل يتسنى لها أن تمنع كشف الرأس والصدر والذراعين والساقين فى الطرقات ؟

إذا أمكن ذلك وأنا فى شك من إمكانه ، لاشتداد الفتنة وتحكمها ، فإن ترك حبل الأمور على غواربها ، والاكتفاء بالشكوى منها ، لا تكون له نتيجة غير تطور الداء إلى حالات يستعصى معها على العلاج ، ولا يدرى إلا الله ما يؤدى إليه من الأزمات الخلقية والمعضلات الاجتماعية .

ويبالغ الأستاذ (د . ج) فى حكمه بأن الزهرى شائع بين العرب ، وهو يريد عرب بلاد المغرب . فما أصدق المثل العربى فى هذا الموطن وهو : رمتنى بدائها وانسلت !

إن هذا الداء لم يكن معروفاً ببلاد الشرق قبل حلول الأجانب به ، فهم الذين جلبوه فيما جلبوه معهم من فوائد المدنية ومضارها ، حتى إنه قد نسب إليهم فسماه الناس بالداء الأفرنكى .

فإذا كان يكثر فى عرب المغرب كما يقول الكاتب ، ولم يقدم لنا دليلاً على ما يقول ، فإن هذا الداء قد يجىء من طريق العدوى ، ولا يشترط أن يكون المصاب قد التاث به من الوقوع فى الإثم المسبب له . فقد يشرب الإنسان من كوبٍ ماء فى مقهى يكون قد شرب منه قبله مصاب بالزهرى ، فإذا كان فى فم الشارب البرىء أو فى لسانه جرح ، تلقح بميكروب هذا المرض العضال ، فسرت ميكروباته فى دمه وأحدثت به الزهرى . وهذا المصاب الجديد يعدى أهله به ، وهؤلاء يعدون غيرهم من هذا الطريق ، فينتشر فيهم ، والجميع يتساوون فى الجهل به ، وفى الخجل من الاعتراف به لطبيب ، فيتطور لديهم ، ويبلغ أشد درجاته .

وقد فطن الإنجليز لهذه الحالة النفسية لدى المصابين به ، فأسسوا مصحات تتعهد لمن يترددون عليها كتمان أمرهم ، وتعالجهم منه بحيث لا يشعر بهم أقرب الناس إليهم . كل ذلك تشجيعاً للمصابين على المبادرة بالتخلص من هذا الداء الوبيل .

فلو فطن الشرقيون لتأسيس مثل هذه الدور ، خفت وطأة هذه الآفة الخبيثة التى لا تقتصر عواديها على الشخص وحده ، ولكن على ذريته أيضا إلى يوم يبعثون .

أقول هذا وأنا موقن بأن خير علاج لهذه الإباحة إعادة سلطان العقائد الأولية إلى النفوس ، فهى وحدها التى تتحكم فيها ، وتحد من سطوة الشهوات عليها . وفى العلم والفلسفة أسلحة ماضية لإثبات هذه العقائد ، لا تقوى عليها الشبهات الإلحادية . وهذا العلاج وإن كانت ثمرته بطيئة إلا أنها تكون دائمة ، ولا تترقب من القوة الوازعة ضعفاً لتعود أقوى وأكلب مما كانت عليه ، كما حدث ذلك فى كل أدوار التاريخ .

□ □ □

منصب الخلافة والديموقراطية (١)

دحض شبهات على سلطة الأمة فى الإسلام

أثارت الجرائد الغربية مسألة الخلافة وزعمت وشك إعادة إقامتها ، ونحن لا يعنينا هذا الأمر من الناحية الإخبارية ، ولكن يعنينا دحض ما يحيط به الغربيون هذا المنصب من المعلومات الخاطئة ، وقد خاضوا فيها اليوم ، وأقل ما فيها أنها تنافى الديموقراطية التى يفخر المسلمون بأن دينهم أول ما أقام صرحها فى العالم ، فنقول :

تولدت فى أوروبا بحكم الأوضاع الموروثة سلطتان : إحداهما روحية ، والأخرى دنيوية ، نشأتا متفقتين متكافلتين ، وكانت مهمة الأولى تنحصر فى القيام على الدين والعمل على نشره ، وتتويج الملوك واستنزال البركات عليهم . ولكن لم يمر على هذا الوضع زمان حتى انتحلت هذه السلطة لنفسها ، اعتمادا على مشايعة الناس لها ، حقوقاً لم تزل تزيد فيها حتى أصبحت معها قيِّمة على السلطة الدنيوية ، بحيث لا تستطيع هذه أن تبرم أمراً أو تحله دون استشارتها ، مما دعا الكثيرين من الملوك إلى مقاومة هذا التدخل بالقوة المسلحة ، ولكن تلك السلطة الروحية كانت قد استعدت لهذه الطوارئ فاتخذت لها جيوشاً وأساطيل خاصة بها لتقاوم القوة بمثلها .

فكان من أثر هذا التدخل الكنسى فى أعمال الدولة أن تحزب كثير من الملوك مع دعاة البروتستانتية حين نشوئها فى القرن الخامس عشر ، وتمكنوا من رفع يد السلطة الروحية عنهم بعد حروب لم يشهد تاريخ البشرية أشد هولاً منها . ومن ذلك العهد ما فتئت السلطة الدنيوية التى بقيت موالية للكنيسة تنازعها استقلالها ، حتى تم لها الغلب نهائياً بحدوث الوحدة الإيطالية سنة (١٨٧٠) ودخول جنودها ظافرة إلى المملكة البابوية .

---

(١) نقلاً عن المجلّد العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ هـ - ص ٣٦ وما بعدها .

مثل هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة لم تحدث فى العالم الإسلامى ، وليس فى طبيعته ما يسمح بحدوثها ، فالإسلام لم يجعل لولاية الأمة سلطتين ، ولم يكل أمر الجماعة لطائفة من الطوائف ، بل ترك السلطة كلها للأمة تهبها للرجل الذى تراه صالحاً لحكومتها ، وأمرها أن تحوطه برقابتها ومشورتها ، وأن تعطى لحكومتها الشكل الذى تجده أصلح لجمع كلمتها ، والقيام على مصلحتها . وهذا الوضع أرقى وضع وصل إليه البشر فى أمر السلطة الاجتماعية ، شأن الإسلام فى كل الشئون الإنسانية : يقرر المُثل العليا ويكلف الأمة تحقيقها بجهودها الذاتية .

وعليه فالمسلمون لم يعرفوا تنازع السلطتين الروحية والدنيوية ، وقد أوتوا أصولاً مراعى فيها المزج بينهما ، تفاديا من تنازعهما ، بحيث لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى ، وقد عاش المسلمون أكثر من ثلاثة عشر قرناً لم تنشأ فيهم مسألة قيام سلطة روحية إزاء سلطة دنيوية ، ولا يخشى عليهم ، وقد انتهوا إلى هذا العهد ، أن ينتحلوا شيئاً من ذلك . فالقائم بالأمر فى نظرهم يمثل النزعتين الإنسانيتين ، ومكلف بأن يقوم على حاجاتهما بما تستدعيه من علم وعمل .

أما الفرق بين الخلافة والبابوية ، فبعيد جداً إلى حد أنهما لا يلتقيان أبداً فى نقطة .

فالبابا ينتخبه الكرادلة وعددهم سبعون ، والكاردينالية أرفع الرتب الكهنوتية بعد رتبة البابوية . وأمير المؤمنين يعتبر رجلا عادياً تنتخبه الأمة ، وهى التى تهبه السلطة ، ولها أن تستردها منه وأن تمنحها غيره ، إذا رأت أن مصلحتها تقضى عليها بذلك .

والبابا بيده النقض والإبرام ، والغفران والحرمان ، وأمير المؤمنين ليس بيده شىء من ذلك .

والبابا من اختصاصه تفسير الكتاب ، ووضع حدود للتفكير فيه والاستنباط منه ، وليس لأمير المؤمنين شىء من ذلك يتجاوز به ما لأى رجل من المسلمين . فكل مسلم له حق التفسير والتفكير والاستنباط . وآية ذلك أن كل ما وضع

للمسلمين من التفاسير والشروح ، والنظم العبادية ، والأصول المستنبطة من الكتاب ، والمذاهب الفقهية ، كلها من عمل الأفراد ، وقد رضيها أمراء المؤمنين كما رضيها الناس ، وعملوا بها فى عباداتهم ، وحكموا بها فى محاكمهم . وهذه الحقوق الشعبية العامة التى لا تحلم بمثلها أرقى أمة فى الأرض من الناحية الدينية ، قد نشأت فى الإسلام من الجرى على سَنَنه ، والقيام على أصوله .

على أن الجمع بين السلطتين الروحية والدنيوية لم يصبح مستنكراً فى أوروبا بعد قيام البروتستانتية ، التى تخلصت من ربقة الكنيسة الرومانية بعد حروب طاحنة ساحقة . وقد ثبت فى العهد الأخير أنه لا ينافى قيام الأمة على الديموقراطية الكاملة . والمثل الذى نقدمه للدلالة على ما نقول اجتماع تينك السلطتين فى ملك الإنجليز ، فهو يعتبر الرئيس الروحى والدنيوى معاً للشعب الأنجلوساكسونى ، وهذا ما خول إنجلترة منذ عدة قرون أن تعد حامية للبروتستانتية فى العالم كله .

الذى يحدونا إلى إيراد هذه التفصيلات كلها ، أن جمهرة كتاب أوربا يرون فى إمارة المؤمنين منصبا يشبه البابوية ، وليس هذا من الحق فى شىء كما رأيت ، فديموقراطية المسلمين لم تُمس بسوء فى أى عهد من عهود الخلافة الإسلامية ، حتى فى العهد القريب جداً من النبوة . فأبو بكر تولى أمر الأمة بعد النبى ﷺ بالانتخاب المباشر ، فبايعه المسلمون يداً بيد ، وهذا فى العرف السياسى معناه أن الأمة منحته السلطة ليباشر بها مهمة القيام بشئون الدولة فى ناحيتيها الروحية والدنيوية على الأسلوب الإسلامى ، والدستور القرآنى .

فكان إذا أعضلت عنده مسألة ، سأل عنها أولى العلم فى مجلس عام ، وأمضاها على ما يستقرُّ عليه اجتهادهم . ولم يتخذ له بطانة يكل إليها البت فى الأمور ، ولا بَتَّ هو فيما لم يرد فيه نص صريح دون أن يعرضه على الكافة ، معطيا الحق للأفراد على السواء فى إبداء الرأى ، غير متقيد بقوم معينين ، أو بطائفة بعينها .

وقد تجلى المبدأ الديموقراطى إزاء الخلافة على عهد عمر الفاروق كل التجلى ،

فلم تبق منه جهة خافية يمكن أن يتقحم منها خصم لاتهام الإسلام بالعدوان على سلطة الأمة . فقد روى أن عمر رضى الله عنه رأى أن الناس قد أخذوا يتبارون فى زيادة مهور النساء ، فأراد أن يضع لها حداً لا تتجاوزه ، وهو ما مُهرت به بنات النبى ﷺ ، فدعا الناس لاجتماع عام وخطبهم فى هذا الشأن ، وطلب إليهم رأيهم ، فقامت امرأة وقالت : أوحىٌ بعد رسول الله ؟ قال الله تعالى : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا ﴾ ، وقوله قنطاراً يدل على إباحة التوسع فى المهور ، فكيف تضعون لها الآن حداً ؟

فأدرك عمر وجاهة اعتراضها ، ورجع عن رأيه إلى رأيها ، وترك الأمر على حاله .

فهذه إن دلت دلالة قاطعة على مهمة أمير المؤمنين من الوجهة التقنينية ، فهى تدل أيضاً على أوسع شكل للديموقراطية ليس وراءه مذهب .

وأدل منها على ذلك ما روى من أن عمر رأى رجلاً وامرأة على فاحشة ، فلم يدر أيحل له الاكتفاء برؤيته فى إقامة الحد ، أم تجب إقامة الدعوى العمومية عليهما ، والسير فيها على مقتضى الأصول المرعية ؟ فجمع الناس وكاشفهم بما هو بصدده ، وطلب إليهم آراءهم ، فقام إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه وقال له : الحكم أن يأتى أمير المؤمنين على ما يقوله بأربعة شهداء ، وإلا اعتبر قاذفا وأقيم عليه الحد .

لا جرم أن هذه الدرجة الرفيعة من الديموقراطية يجب أن تسجل فى تاريخها ، ليعلم أئمتها أن قد سبقهم المسلمون إلى أرقى ما تؤدى إليه من احترام الأوضاع القانونية ، ومراعاة الضمانات القضائية فى تطبيق العقوبات البدنية .

وتاريخ المسلمين حافل بأخبار دعاوى أقامها الأفراد على الخلفاء وصدور أحكام المحاكم عليهم ، وخضوعهم لأحكامها ، ولا نظن أنه توجد ديموقراطية فى العالم تبلغ هذا الحد . ولقد قلنا فى موطن آخر ونكرره هنا : إن لفت الأنظار

إلى دراسة أصول الإسلام تحت ضوء العلم اليوم قد يكون فاتحة انتشار له لا يقف عند حد ، فتاريخ تكوّن الأمة الإسلامية فى القرن الأول حافل بالحوادث التى تتجلى فيها حقائق هذا الدين ، وتتبين مُثله العليا فى كل ناحية من نواحى النشوء الاجتماعى ، والتطور الأدبى ، مما لو درس دراسة علمية لظهر أنه أكبر الآيات الإلهية فى هذا العالم . وهو ما سنبذل جهدنا للقيام به هنا إن شاء الله .



– ٢ –

مساجلات عربية

فى عالم الأدب العربى

الشعوبية وأثرها فى الأدب العربى (١)

– ١ –

طويت بسقوط الدولة الأموية صفحة ملئت بالنخوة العربية ، وانقرضت عصور كان يشعر فيها العربى بالسيادة المطلقة ، والأنفة التى لا تحد ، وغدت تلك المظاهر التى لمحناها فى العصر الأموى أحلاماً لذيذة ممتعة إذا استعرضها العربى على مخيلته هلل وكبر ، وما إن يفتح ذراعيه لمعانقة ذلك الأمل ، إذا به قد زوى وذبل ، لما يرى من حقائق واقعة ، وشواهد ملموسة .

فلقد جاء العباسيون وقامت دولتهم على أكتاف الفرس ، فكان طبعياً أن تلهج ألسنة العباسيين جهرة بالمدح والثناء ، وتؤمن قلوبهم من الأعماق بأنهم حسنة من حسنات الفرس ، وثمرة من ثمار جهادهم ؛ بذلك يجاهر داود بن على عم المنصور فيقول : « : يأهل الكوفة : إنّا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا » .

ويقول أبو جعفر المنصور : « يأهل خراسان : أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دعوتنا » . وحينما حضرته الوفاة أوصى ابنه قائلاً : « وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده » .

وكان يقابل ذلك الشعورَ من جانب العباسيين شعورٌ آخر من جانب الفرس ، ولكنه شعور لا كالشعور السابق ، فلقد تملكهم الزهو ، وسيطر عليهم فرح الانتصار ، وأحسوا بأنهم بناة ذلك المجد ، ومشيدو أركانه ، وبذلك يعلن

---

(١) نقلا عن المجلّد الحادى عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٩ ه – ص ٣٥١ وما بعدها .

أبو مسلم الخراسانى فى إحدى خطبه فيقول : « والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم تختارون تيمياً مرة ، وعدوياً مرة ، وأموياً مرة ، وأسدياً مرة ، وسفيانيا مرة ، ومروانيا مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون ... » .

ولم يقف شعور الفرس عند هذا الحد ، بل طمع أبو مسلم فى الخلافة مما أحقد عليه نفس المنصور فقتله ليسلم من شره ، وعند ذلك يقول : « وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » .

وكل أولئك لم يزعزع مكانة الفرس من نفوس العباسيين ، بل ما زال شأنهم يعلو صعداً حتى كان لهم ما فاضت به كتب التاريخ مما لا نقصده فى بحثنا . والذى يعنينا هنا أن نقرر فى غير مواربة ولا التواء ، أن المتعصبين على العرب وجدوا تربة خصبة مُمْرِعة الجناب ، فراحوا مسرفين فى الذم والقدح ، دون أن يصادفوا عتاباً يقف من غلوائهم ، أو يلقوا عقاباً يحد من طغيانهم ؛ فنرى بشار بن برد حامل هذا اللواء ، يطلق لنفسه العنان ما شاء أن يطلق ، ويرفع عقيرته مفاخراً بخراسان طوراً ، فيقول :

وهجانى معشر كلهمو	حمق ، دام لهم ذلك الحمق
ليس من جرم ولكن غاظهم	شرفى العارض قد سد الأفق
من خراسان وبيتى فى الذرا	ولدى المسعاة فرعى قد سمق

وطورًا آخر يفخر بالعجم فيقول :

ونبئت قوماً بهم جِنَّةٌ	يقولون من ذا ؟ وكنت العلم
ألا أيها السائلى جاهداً	ليعرفنى ، أنا أنف الكرم
نمتْ فى الكرام بنى عامر	فروعى وأصلى قريش العجم

ومن عجب أن يقول هذا أمام المهدى وعلى مسمع منه ، فلا يعاقبه كما فعل هشام بابن يسار ! بل يسأله : « من أى العجم أنت ؟ فيقول : من أكثرها

فى الفرسان وأشدها على الأقران ، أهل طخارستان » . وكثيراً ما تبرأ من الولاء العربى ودعا الموالى إلى نبذ ولائهم للعرب . فهذا هو صاحب الأغانى يحدّث : « أن رجلاً من بنى زيد شريف قال لبشار : يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منّا وترغبهم فى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء ، وأنت غير زاكى الفرع ولا معروف الأصل ! فقال بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه ! » .

فتلك الجرأة الجريئة التى تشاهدها فى كلام بشارحين يتناول العرب مجرحاً ومنقصاً ، ويكيل لهم بأوفى مكاييل الذم طاعناً وقادحاً ، على مرأى من خلفاء العباسيين وأمرائهم ، دون أن يحرك أحد ساكنًا ، فيضرب على يد الباغى ويأخذ بيد المهضوم كما كان ذلك إبان الحكم الأموى ، كل هذا يأخذ بيد الناظر السطحى حتى يقف على موطن الداء ، ويلمس تهاون العباسيين الذى لم يقف عند هذه التخوم القريبة ، بل تجاوزها فى لجاج إلى أعمق وأبعد ! وكأنى بالفلك وقد استدار دورته ، وراجع صفحة من تاريخه القديم ، تاريخ الجاهلية الأولى فى تلك الفترة التى كانوا يتغنون فيها بمفاخر الأنساب ونقاء الأحساب .

وإن الشواهد على ذلك لأكثر من أن تحصى ؛ فذلك هو عبد الله بن طاهر — وهو فارسى — يفتخر بنسبه فى الفرس ، وبأنهم قتلوا الأمين ، فيقول :

أنا من قد تعرفى نسبى ... سلفى الغر البهاليل

ويقول : انظر المخلوع كلكله ... وحواليه المقاويل

فثوى والترب مضجعه ... غالَ عنه ملكه غول

قاد جيشاً نحو نائلة ... ضاق عنه العرض والطول

من خراسانٍ مُصَمصمهم ... كليوث ضمها غيل

فانظر كيف يتغنى ابن طاهر بمجده الموروث عن آبائه من الفرس ، والخليفة عربى من بنى هاشم !

ولئن كان من السائغ أن يفتخر إنسان بنفسه وبجنسه حتى يبلغ السماء مجداً وشرفاً ، ويطاول الجوزاء أنفة وعزاً ، فلا يسوغ له أن يفخر بملء شدقيه بأن قومه قتلوا الأمين وطوّحوا به عن عرش الخلافة ، والمأمون بين الطرب والإعجاب راض عن كل هذا دون أن تأخذه الغيرة لأخيه !! وليس هناك من باعث على كل هذا سوى الحرية المطلقة من كل قيد ، وذلك ما أدى بالعباسيين إلى تفلت الأمر من يدهم ، وما غبنهم الفارسيون ولكن كانوا أنفسهم يغبنون . ولا عجب فقد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين إلى حد أنه كان يسمع هجوه بنفسه ويصفح !!

فمن ذلك ما يروى أن دعبلا حين هجاه بقوله :

أيسومنى المأمون خطة عاجز أَوَ ما رأى بالأمس رأس محمد

إلى أن يقول :

إنى من القوم الذين سيوفهم قتلتْ أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهد

لم يزد على أن قال : « قاتل الله دعبلا ، متى كنت خاملاً ، وفى حجر الخلافة ولدت ، وبدرها غذيت ، وفى مهدها ربيت » !!

بذلك وأمثاله أخذ الفرس ، طليقين من كل عقال ، يمعنون فى تنقيص العرب والحط من شأنهم ، فيرد العرب قولهم بمثله ، وربما كان أفظع وأقذع .

من ذلك قول فارسى :

بهاليل غرّ من ذؤابة فارس إذا انتسبوا ، لا من عُرينة أو عُكل
همو راضة الدنيا وسادة أهلها إذا افتخروا ، لا راضة الشاء والإبل

وهكذا تجد ذلك العصر الذى نتحدث عنه مصدر يمن ومنبع خير للأدب العربى ، وإن كان معول هدم للعرب أنفسهم ؛ وذلك ما ستراه فيما بعد .

أحمد إبرهيم موسى

تخصص البلاغة والأدب

- ٢ -

ملاحظاتنا على هذه المقالة (١)

إننا ننشر هذه المقالة لا لأننا نعتد بما جاء فيها ، ولكن لنعقب عليها بما لابد منه ، فإن التشكيك فى إخلاص بعض العناصر المكونة للأمة الإسلامية ، يسجل على الإسلام الفشل فى تكوينه أمة ائتلافية عالمية ، ويشكك الناس فى كل ما يجىء عن تلك العناصر المتهمة من دين وفهم ونظر . وماذا أنت قائل إذا علمت أنهم هم الذين تولوا فى فجر وجود الإسلام مهمة تأصيل أصوله ، ووضع علومه ، وتفسير كتابه وجمع سننه وتدوين تاريخه ؟

ألا إن المضى فى هذه الفتنة إلى حدودها المنطقية ، يشن على الإسلام شبهةَ عجز عن شنها عليه خصومه فى مدى تاريخه كله ، ويعيد لهذه الأمة النزعة القومية ، وهى ما جاء الإسلام لإزالته ، وبناء رأى جديد فى وحدة البشرية على أنقاضه . فهذا الرأى التجديدى العالى الشأن الذى انفرد الإسلام بالدعوة إليه ، وهو فى الوقت نفسه من أدل الأدلة على إلهيته ، يحاول المتأدبون اليوم انقياداً لشهوة خيالية أن يحطموه ، وهم لا يعلمون أنهم يحطمون معه أقوى دعامة للإسلام ، يقوم عليها وجوده ، وتبتنى عليها صحته ، وتنشاد عليها الدعوة إليه فى هذا العصر .

لذلك رأينا أن ننشر هذه المقالة ونتبعها بما نراه مزيلاً للبس فى هذه الناحية ، راجين من وراء ذلك الدفاعَ عن الإسلام نفسه ، الذى وضع لتوحيد النوع البشرى أقوم الأصول الاجتماعية ، ونجح فى ذلك إلى حد أن اعتُبر ذلك منه آية خالدة . فنقول :

تمهيد :

أرسل الله خاتم رسله محمداً ﷺ للناس كافة ، كما قال : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ ، فآمن به عرب وفرس وترك وديلم وسودان

---

(١) المصدر السابق م ١١ سنة ١٣٥٩ هـ

وحبشان وروم الخ الخ ؛ وكان هذا الأمر انقلاباً عالمياً ضخماً ، لم تكن تحلم به الشعوب ، ظهرت آثاره فى الأمم ، فأحدثت فيها انتقالات أدبية واجتماعية غيّرت وجه الأرض من حال إلى حال آخر .

وكان من الشعوب التى شاع الإسلام فيها ، الفرس ، وهم قوم كانت لهم قُدْمة فى العلوم والآداب والسياسة ، فسبقوا غيرهم من الشعوب الإسلامية فى النظر والتفكير ، والبحث والتمحيص ، ونبغ منهم أئمة فسروا الكتاب ، وأقطابٌ حفظوا سنة الرسول ، وأعلامٌ جمعوا لغة العرب ووضعوا علومها وآدابها ، وبرَّز رجال آخرون منهم فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى فى كل ما يتصل بالدين والدنيا معاً . فلم يشعر سائر المسلمين ومنهم العرب ، وكانوا أشد الناس تمسكاً بالنعرة القومية فى جاهليتهم ، بمضض من ذلك ، لأنهم لو كانوا شعروا بذلك لأسقطوا إمامتهم ، وحقروا زعامتهم . ولكن كيف كانوا يَسقطون إلى هذا الحضيض وقد محا الإسلام من نفوسهم التعويل فى مجتمعهم النموذجى العالمى على الاختلافات الجنسية واللغوية واللونية ؟

ذكر السخاوى فى شرح ألفية الحديث للعراقى أن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى قال للزهرى : « من يسود أهل مكة ؟ قال : عطاء . قال بما سادهم ؟ قال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام : نعم من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن . فقال الزهرى : إمامها طاوس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلاً كان هشام يسأله : هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى ، إلى أن أتى على ذكر النخعى ، فقال إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله لَيَسودَنَّ الموالى العربَ ويخطب لهم على المنابر » .

ولما حضرت عمرَ الفاروقَ الوفاةَ ، أوصى أن يصلى بالناس صهيب وهو الذى صلى عليه بعد وفاته ، وكان يريد أن يصلى عليه على وعثمان فمنعهما ابن عمر احتراماً لوصاة أبيه ؛ وصهيب هذا أصله رقيق رومى .

كان كل هذا جريا على المبدأ الإسلامى فى عدم جواز التفرقة بين الأجناس .

مضى الصدر الأول على هذا ، والصدر الأول هو الحال النموذجية التى يجب أن يكون عليها المسلمون فى جميع أدوارهم ، باعتبار أن دينهم عام لجميع الأمم ، وأنهم يؤلفون نواة الأمة العالمية التى يجب أن يكون عليها البشر .

ولكن لما انقضى عهد بنى أمية ، وتوطدت أركان الدولة الإسلامية ، وشرع الناس فى اقتباس ما يحفظ الاجتماع من العلوم والفنون والصناعات الضرورية للعمران ، جاء دور الأدب ، والعربية مجال فسيح له ، فكثر عدد الكتاب والشعراء كثرة لم يوجد مثلها لأية أمة . وهؤلاء كما لا يخفى يجرون وراء كل جديد من المعنى يبتكرونه ، وكل طريف من الموضوعات يخلقونه ، فلم يتركوا مجالاً يمكن أن يكون موضوعاً لشعرهم ونثرهم إلا جالوا فيه . وكان منها موضوع الشعوبية الذى نحن بصدده . وكيف يعقل أن يفلت منهم هذا الموضوع ، وجرثومته كانت لا تزال حية فى النفوس ، لا بين العرب وغيرهم من الشعوب الأجنبية ، بل بين بعض العرب وبعضهم الآخر ؟ فقد كانوا يتفاضلون بقبائلهم ، وأشعارُهم غاصة بما نقول . فأى مطلع على تاريخ الأدب لا يعرف أن العرب كانوا يضعون من باهلة وسلول وغيرهما ؟ ألم يقل السموأل :

وإنا أناس لا نرى القتل سبة　　　إذا ما رأته عامر وسلول

أَوَ لم يقل جرير :

فغض الطرف إنك من نمير　　　فلا كعبا بلغت ولا كلاباً

ولم يكن العرب وحدهم على هذا ، ولكن كانت عليه جميع الشعوب أيضا . فهل يعقل وقد جاء عهد الأدب فى الإسلام أن لا تثار هذه المسألة بين المتأدبين ، وأن لا يتخذها بعضهم مادة لأشعارهم ، وكثير من الوضاعين موضوعاً لمفترياتهم ؟ وهل كنت تحب أن تخلو من هذه الأقاصيص كتب المحاضرات ، وهى تقمش كل ما تجده بدون نقد ولا تمحيص ، وتملأ منه صحفاً لتذيعها طُرَفاً للقارئين ؟

ولما نشأت فى مصر للأدب دولة فى العهد الأخير ، وجدت من كتب المحاضرات مورداً عِدًّا فى هذا الموضوع ، فأخذته بحذافيره و لم تسرِّ عليه الأسلوب النقدى التمحيصى ، فوقعت فى حبائل تلك الكتب ، وزادت ما فيها صقلاً بما اكتسبته من ألمعية الأدب الحديث ، فلم لا يكون موضوع الشعوبية بابا من أبواب الأدب لدى النابتة التى تستمد من حياض أدبائنا البارزين ؟ المقال الذى نعقب عليه هنا مثال حى لما نقول .

مناقشة المقالة التى نحن بسبيلها :

يقول الأستاذ الكاتب : « لقد طويت بسقوط الدولة الأموية صفحة ملئت بالنخوة العربية ، وانقرضت عصور كان يشعر فيها العربى بالسيادة المطلقة !! الخ الخ » .

يقول هذا ولا ندرى كيف لم ير أن الدولة الأموية نفسها التى يشيد بذكرها ، لم تكن متأثرة بهذه النعرة القومية ، فلم يفرق الناس على عهدها بين العربى والأعجمى ، حتى إنهم لم يمنعوا الأعاجم من السيادة الدينية ، وقد بلغت أوجها على عهدها ، كما يتبين لك ذلك مما قدمناه هنا . فهل نحن أكثر منهم فهماً لمعنى النخوة العربية ؟

ولست أدرى كيف يسوغ لمسلم أن يلفظ بكلمة (نخوة عربية أو سيادة عربية) ؟ فهل هى شىء غير نعرة القومية الجاهلية التى نهى الإسلام عن ذكرها ؟ ألم يقل النبى ﷺ : « قد أذهب الله عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرَها بالآباء ، كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ؟

وقال الأستاذ الكاتب : « جاء العباسيون وقامت دولتهم على أكتاف الفرس ، فكان طبعياً أن تلهج ألسنة العباسيين جهرة بمدحهم والثناء عليهم الخ الخ » ثم استدل على قوله بما فعله عم المنصور والمنصور نفسه من الإشادة بذكر أهل (خراسان) . فهل غاب عنه أن خراسان ليست إلا إقليماً واحداً من أقاليم المملكة الفارسية المترامية الأطراف ، وأن أهلها لا يبلغون عشر الأمة الفارسية ،

فكيف ساغ له أن يفهم من ثناء العباسيين على أهل خراسان ، ثناءهم على الفرس قاطبة ؟ وهل كانت خراسان فى نظر أى مسلم من أهل العصر الأول إلا ولاية إسلامية كنجد واليمامة وتهامة الخ ، وإن كان أهلها فارسيين ؟

ومما يدل على أن شيئا مما تخيله من طغيان النزعة القومية للفرس لم يحصل ، أن أبا جعفر المنصور قتل أبا مسلم الخراسانى ، وهو أرفع رأس كان فى خراسان ، فلم ينتطح فيها من أجله عنزان ؛ أليس ذلك لأن المسألة لم تكن نزعة عصبية يتبارى فيها العرب والفرس ، ولكنها كانت جامعة إسلامية لا ترى للجنسيات فيها موضعاً ، وهى المعجزة الخالدة للإسلام الذى يحاول أن يهدمه بعض أهله اليوم (على غير علم منهم) ولا يستطيعون ؟

ومن عجب أن الأستاذ يستدل بشعر بشار على أنه كان يتنقص العرب فى الحين الذى يستشهد بقوله :

نمت فى الكرام بنى عامر   فروعى وأصلى قريش العجم

فهو كما ترى يفتخر بولائه لبنى عامر ، ويصفهم بالكرم ؛ وفى الوقت نفسه ينقل عن الأغانى (ومؤلفها فارسى) أن رجلاً قال لبشار : « أفسدت علينا موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا الخ وأنت غير زاكى الفرع ، ولا معروف الأصل » ، فقال له بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار ، وما فى الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه » .

كأن الأستاذ كان يود أن يسب العربى بشارا بقوله : إنه غير زاكى الفرع ، ولا معروف الأصل ، فيقابله بشار بالثناء والشكر ، ليدل بذلك على أنه غير متعصب لجنسه !

على أن بشارا هذا أمر الخليفة المهدى بقتله حين بلغه أنه يميل للزندقة ، فلقى حتفه ، وهو أول من نقل الشعر العربى من سذاجة البداوة ، وأفاض عليه رواء الحضارة .

واستشهد الأستاذ على ما ذهب إليه من طغيان النعرة الفارسية بما قاله عبد الله بن طاهر مباهيا بقومه ، ومتمدحاً بأنهم قتلوا الأمين بن الرشيد :

أنا من قد تعرف نسبي   سلفي الغر البهاليل

وقال مفتخراً بقتل الأمين :

فثوى والترب مضجعه   غال عنه ملكه غول

فإذا افترضنا أن نسبة هذا الشعر لعبد الله بن طاهر غير مشكوك فيها ، وأن المأمون علم بذلك و لم يحرك ساكناً ، وأن دعبلا الشاعر هجاه وافتخر بقومه فلم يكترث له ، وأن فارسياً افتخر بقومه وتنقص العرب بقوله :

هم راضة الدنيا وسادة أهلها   إذا افتخروا لا راضة الشاء والابل

إذا افترضنا أن هذا كله صحيح وليس من وضع الوضاعين ، (وقد وضعوا آلاف الأحاديث النبوية ، والحكايات الخرافية ، ووضعوا المعلقات ، وزادوا فى اللغة ما ليس فيها) ، أفلا يتجه اللوم فيه إلى أمراء المؤمنين أنفسهم ، بل إلى الأمة العربية بأسرها ، وقد غضت طرفها عنه ، وتركته يتغلغل فى كيانها حتى هدم العرب وأسقطهم ، وأدال للفرس منهم ؟ وهل هو بهذا يريد أن يذم العرب أم يمدحهم ؟

اللهم إن صح هذا فيكون أول ظاهرة اجتماعية من نوعها فى تاريخ البشر . ذلك أن تطغى النزعة القومية فى شعب من شعوب أمة ائتلافية كالأمة الإسلامية ، فتتفوق على جميع تلك الشعوب من طريق الخداع وإضمار سوء النية ، لا من طريق فضائلها الذاتية ومميزاتها الشخصية ، ثم يبقى هذا التفوق معترفاً به ، ومرضياً عنه ، فى أدوار تاريخها كله إلى عهدنا هذا ، حتى يقوم بعض المشتغلين بالأدب منا فينبه إليه ، فلا يأبه بهم أحد ! نعم ، لأنك لو سألت أية جماعة إسلامية فى أية بقعة من الأرض ومن بينهم العرب ، فقلت لهم : من هم سلفكم الصالح الذين حفظوا القرآن والسنة وآراء الصحابة ودونوها وبوبوها وشرحوها ولقنوها للشيوخ والأئمة ؟ لعدوا لك عشرات من الأسماء فى مقدمتهم : الحسن البصرى

وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسليمان الأعمش ومحمد بن سيرين ومجاهد وسليمان بن يسار وعطاء وطاوس ويحيى بن أبى كثير ومكحول وميمون بن مهران والضحاك وزيد بن سالم ومحمد بن المنكدر ونافع وربيعة الرأى وابن أبى الزناد ووُكيع وابن أبى ليلى وسفيان بن عيينة ، الخ الخ ، وكلهم من الفرس أو من شعوب شتى .

هذا الانحراف الخطير لدى النابتة الأدبية لدينا ، نشأ من خطأ جلل وقع فيه الأديب الكبير الدكتور طه حسين ، ونشره فى كتابه (الشعر الجاهلى) ، فتلقفه طلاب الأدب فى البلاد الشرقية ومضوا فيه قدماً لا يلوون على شيء . فقد قال الدكتور المذكور فى كتابه ذلك ما موجزه بألفاظه :

« لم يكد ينتصف القرن الأول للهجرة حتى كان فريق من سبى الفرس قد استعرب وأتقن اللغة ، واستوطن الأقطار العربية ، فأخذ هذا الشباب الفارسى الناشئ يتكلم لغة العرب ويحاول نظم الشعر ، وتجاوز هذا إلى مشاركة العرب فى أغراضهم الأدبية والسياسية ، ولم يكن هؤلاء الموالى مخلصين للعرب حقا ، وإنما كانوا يستغلون هذه الخصومات السياسية ليَعيشوا وليحيوا حياة السادة الأحرار ، ثم ليشفوا ما فى صدورهم من غل ضد العرب . ولعلك تلاحظ أن الكثرة المطلقة من العلماء كانوا من العجم الموالى ، وكانوا يستظلون بسلطان الوزراء من الفرس أيضا ، وكانت غايتهم قد استحالت من إثبات سابقة الفرس فى الملك إلى ترويج هذا السلطان الذى اكتسبوه أيام بنى العباس ، وإقامة الأدلة على أن الأمر قد رد إلى أهله ، وأن العرب الذين حيل بينهم وبين السيادة الفعلية لم يكونوا أهلاً لتلك السيادة . الخ » .

نقول :

الذى يستخلص من هذا الكلام أن هؤلاء الموالى قد عمّتهم روح الشر ، فلم يكونوا مخلصين فى عملهم ، فهبوا ينظمون الشعر ويتدخلون فى السياسة ، ويطلبون العلم ليستعيدوا ما كان لقومهم من سيادة على العرب ، وليشفوا ما فى صدورهم من غل عليهم ، وقد نجحوا فى ذلك بممالأة الوزراء لهم ، وكان جلهم من بنى جلدتهم .

هذا كلام فى نظرنا بعيد عن التحقيق ؛ فإنك رأيت أن هؤلاء الموالى نالوا السيادة العلمية على عهد بنى أمية ، ولم يكن إذ ذاك وزراء من الفرس يؤيدونهم ، بل كان الأمر كله بيد العرب ، ولم يشعر العرب أنفسهم ، وهم أهل ذكاء وفطنة ، أن هؤلاء الائمة الأعلام من الفرس الذين توزعوا سيادة الأقطار فى العلم كانوا يضمرون السوء لهم . ويبعد عن العقل أن أمة برمتها فى يدها الحكم تغبَى عن نية شر تضمرها لهم فئة فتخولهم قيادتها العلمية ، وسيادتها الدينية ؛ كما يبعد عن العقل أن تجمع هذه الفئة على هذه النية الفاجرة ولا يفتضح أمرها لهذه الأمة فى الأجيال المتعاقبة ، فتبقى على احترامها لهم ، وتبقى اعتبار أفرادها أئمة لها فى الدين إلى هذا العهد ، حتى يقوم منا أديب بعد مضى ثلاثة عشر قرناً فيكشف عن دخيلة أمرهم ، فلم يكترث بما كشفه أحد ، ويمضى الناس فى احترامهم إلى أبعد حد !

إذا فاز أدباؤنا المعاصرون بترسيخ هذا الخيال فى العقول ، فبأى عين ينظر الناس إلى علومنا الدينية وجل وَضَعتها ومؤلفيها من الأعاجم ؟ فهم الكثرة الساحقة للفقهاء والمفسرين والمحدثين والأصوليين والمتكلمين ، وكتبهم عليها التعويل فى جميع معاهد العلوم الدينية فى العالم كله ، فى التدريس والتحقيق والفتوى إلى يومنا هذا ؟

وإذا عرفت أن العالم كله فى العصر الراهن اعترف بعظم شأن النهضة الدينية والعلمية والأدبية للمسلمين الأولين ، واعتبروها من الانتقالات الجديرة بالإجلال والإكبار ، فهل كانت هذه النهضة فى جلالها وعظمتها قائمة على هذا الأساس المتداعى من الضمائر التى دنستها السخائم ، والقلوب التى أفسدتها الأحقاد ؟!

اللهم إن هذا لا يستقيم لعاقل ، ولا يمكن أن يعتبر رأياً جديراً بالاحترام . فلنقلع عن هذه الخيالات إن كان بنا إلى سمعتنا العلمية والعقلية حاجة !

□ □ □

الحياة الأدبية عند العرب [١]

– ١ –

وعدنا فى المقال الثانى من مقالات « تأريخ الألفاظ » بالتحدث عن الحياة الأدبية عند العرب ، واختلاف لغاتهم ، وقيمة النصوص الأدبية المعزوّة إلى العصر الجاهلى ، ووفاء بذلك الوعد نبدأ هذا المبحث بهذا المقال :

القرآن الكريم أصدق المصادر فى الإنباء عن حياة العرب باتفاق الموافقين والمخالفين ، فإذا حدثنا القرآن بشيء عن العرب أخذناه أخذ الواثق بصحته ، المطمئن إلى صدقه ، ثم نتتبع مقالات التاريخ والأدب ونمحص منها ما يغلب على الظن صدقه حتى نصل إلى نتيجة علمية واضحة .

وصف القرآن الحكيم العرب بالفصاحة ، وذرابة اللسان ، فقال فى قوم أظهروا الإيمان والودادة ، وأضمروا الكفر والعداوة : ﴿ أشِحّةً عليكم فإذا جاء الخوف سَلَقُوكُم بألسنةٍ حِداد ﴾ . ونعتهم بالطول فى البلاغة فقال : ﴿ ومِن الناس مَن يعجبك قولُه فى الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما فى قلبه وهو ألَدُّ الخِصام ﴾ . وخصهم بالفوق فى البيان فقال : ﴿ وإذا رأيتَهم تعجبُك أجسامُهم وإنْ يقولوا تسمع لقولهم ﴾ . قال الزمخشرى : « وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه ، ولهم جهارة المناظرة ، وفصاحة الألسن » . ووسمهم بقوة العارضة والدهاء إذ قال : ﴿ وقد مكروا مكْرَهم وعند الله مكرُهم وإنْ كان مكرُهم لتزولَ منه الجبال ﴾ وسجل عليهم اللدد فى الخصومة ، والجدل فى المحاورة بقوله : ﴿ وقالوا آآلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك إلا جدَلاً بل هم قوم خَصِمون ﴾ وبقوله : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدًّا ﴾ وذكر عنهم أنهم أولو أحلام ونُهى فقال : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾ قال فى الكشاف : وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى .

---

(١) نقلا عن المجلد السادس من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٤ هـ – ص ٦٨٢ وما بعدها .

والقرآن أيضا تحدى العرب أن يأتوا بحديث مثله لما بهتوا رسول الله ﷺ بتقوُّل القرآن من عند نفسه ، فهل كانت تلك الأوصاف كلها ، وهذا التحدى للعرب وهم فارغون من أدب حى يغذى عقولهم ، ويربى نفوسهم تربية أدبية تقوم على التفاصح بما يخلب الألباب ، ويستميل الأسماع ، من منطق حسن ، وكلام بليغ ، وبيان بديع فى فنون من المعارف الإنسانية الأدبية ، يستحقون بها تلك الأوصاف ، ويصح أن يتوجه إليهم هذا التحدى ، وكيف يقع التحدى الصارم لقوم ذوى عىّ وحصر ، وضعف فى المُنَّة العقلية يعيشون عيشة أولية فى حياة جاهلة بليدة ؟

ليس القرآن الحكيم كتاب خطابة يلقى بالقول على عواهنه ، وإنما هو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ولكن بعض الباحثين يحلو لهم أن يعبثوا حول أدب العرب ، وتاريخ العرب ، وأن يصوروهم أمة لا تشعر بالحياة إطلاقاً ، بله حياة الأدب التى تليق بهم كأمة لها تاريخ مجيد ، وحضارة زاهية يقول عنها ابن خلدون : « وما كان لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك ، ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك » . وقال فى موضع آخر : « وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين فى أمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف ، مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم ، والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها ، وتوفرت الصنائع فلم تبل ببلاء الدولة » .

فإذا قال العرب : تلك آثارنا تدل علينا ، وهذا أدبنا بين أيديكم فاقرءوه ثم احكموا ، ازورّ هؤلاء الباحثون ، وأنغضوا رءوسهم قائلين : هذا شعر مصنوع منحول ، وذلك النثر باطل الأباطيل ، وتلك الشخصيات أبطال روائية انتزعها الخيال انتزاعاً ولا وجود لها فى التاريخ ، وهذه مغامرة فى البحث لا يسوغها النقد الدقيق للتاريخ إلا لمن يأخذون تاريخ العرب بعيداً عن منابعه ، ويتلقفونه من غير مصادره .

فالعرب قبل الإسلام لم يكونوا فى حياة أولية ساذجة لا أثر للتفكير فيها ، نعم ، وإنما كان فريق منهم فى طور بداوة طارئ عليهم ، غير متأصل فيهم . ولو تتبع الباحث أطوار الحياة الاجتماعية عند العرب لوجدها حلقات متسلسلة آخذاً

بعضها بأطراف بعض ، ولوجد فيها ملكا وحضارة ظلت آثارهما قرية قائمة فى اليمن والشام والعراق حتى جاء الإسلام ، وأولئك الذين لحقهم الإسلام فى طور البداوة لم يكونوا إلا سلالة هؤلاء الصيد الأماجد ، فهم إما عدنانيون انشقت عنهم نبعة جرهم اليمنية بتلقيح أزكى دم من أشرف بيت وأكرم أرومة فى الأرض ، أرومة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وإما قحطانيون جاءوا إلى الحجاز إثر حادث سد مأرب بعد أن رتعوا فى بحبوحة الحضارة أزماناً طويلة هذبت عقولهم ، وصفت نفوسهم ، وصقلت ألسنتهم ، فكانت لهم معارف تليق بملكهم ، وكان لهم أدب يناسب حضارتهم ورّثوه أبناءهم من بعدهم .

وهل من المعقول أن تبلغ أمة من الأمم ما بلغه العرب من عظمة الملك فى قديمهم كما قال ابن خلدون – ولا يكون لها من الثقافة الفكرية والمعارف الأدبية شىء ، وتبقى حيث وصفها بعض الباحثين أمية جاهلة ؟ هذا بعيد ، لا يقره التاريخ ، ولا ترضى به أصول علم الاجتماع .

قال أحمد بن فارس فى كتابه الموسوم (بالصاحبى) : « وزعم قوم أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وأنهم لم يعرفوا نحوا ولا إعراباً ، ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً . قالوا : والدليل على ذلك ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له : أتهمز إسرائيل ؟ فقال : إنى إذاً لرجل سوء . قالوا وإنما قال ذلك لأنه لم يعرف من الهمز إلا الضغط والعصر . وقيل لآخر : أتجر فلسطين ؟ فقال : إنى إذاً لقوى . قالوا وسمع بعض فصحاء العرب ينشد :

نحن بنى علقمة الأخيارا

فقيل له : لم نصبت « بنى » ؟ فقال : ما نصبته ، وذلك أنه لم يعرف من النصب إلا إسناد الشىء ، قالوا : وحكى الأخفش عن أعرابى فصيح أنه سئل أن ينشد قصيدة على الدال ، فقال : وما الدال ؟ وحكى أن أبا حية النميرى سئل أن ينشد قصيدة على الكاف فقال :

كفى بالنأى من أسماء كاف وليس لسقمها إذ طال شاف

قلنا : والأمر فى هذا بخلاف ما ذهب إليه هؤلاء . فأما من حكى عنه من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجر والكاف والدال ، فإنا لم نزعم أن العرب كلها مدراً ووبراً قد عرفوا الكتابة كلها ، والحروف بأجمعها . وما العرب فى قديم الأزمان إلا كنحن اليوم ، فما كل يعرف الكتابة والخط ويقرأ . والذى نقوله فى الحروف هو قولنا فى الإعراب والعروض . والدليل على صحة هذا ، وأن القوم تداولوا الإعراب ، أنا نستقرئ قصيدة الحطيئة التى أولها :

شاقتك أظعان لليـ ـلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة . ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها ، لأن تساويها فى حركة واحدة اتفاقاً من غير قصد ، لا يكاد يكون . فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات أن أبا الأسود أول من وضع العربية ، وأن الخليل أول من تكلم فى العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً وأتت عليهما الأيام ، وقلا فى أيدى الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان ، وقد تقدم دليلنا فى معنى الإعراب .

وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفاً اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا أو من قال منهم : إنه شعر ، فقال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم : لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر : هزجه ورجزه ، وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئا من ذلك ، أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر » ؟ انتهى كلام ابن فارس ، وإنما سقناه على طوله ليعرف الباحثون المعاصرون أن العلماء الأقدمين عنوا بالبحث فى حياة العرب العلمية ، ووصلوا حديثهم بقديمهم ، وكان حذاقهم مؤمنين بأن العرب كانوا على جانب من المعارف الفكرية والعلوم الأدبية ، وإذا كان هذا الذى قاله ابن فارس صحيحاً فى حق العرب الأقدمين على ما هو فرض كلامه ، فهل يصح فى الأذهان النيرة أن يكون للأولين من العرب تلك الحياة العلمية ثم لا يكون لأبنائهم وأحفادهم ووارثى مجدهم حياة أدبية ؟

وإذا كان قد باد من العرب أجيال فقد عاصرتهم أجيال لم يأت عليها الفناء جملة أخذت عنهم معارفهم ونقلتها إلى من بعدهم ، على ما هو الشأن فى كل أمة

تتفرع من دوحة واحدة ، وتعيش فى وطن واحد ، ظل بهم ذلك الوطن عامراً طوال أحقاب التاريخ ، ولم يزعم أحد من المؤرخين أن جزيرة العرب أتى عليها حين من الدهر خلت فيه من ساكنيها ، ولا أن العرب انقرضوا قضهم بقضيضهم .

غير أن الحجازيين من العرب سكان الشمال بالجزيرة كان لهم من طبيعة وطنهم ما صبغ حياتهم الاجتماعية بصبغة تخالف صبغة إخوانهم فى اليمن والحيرة والشام ، لأن الحجاز إقليم تخالف طبيعته طبيعة تلك البلاد ، فلم تقم فيه حياة اجتماعية متحضرة كالتى قامت فى اليمن والعراق ، بل غلبت على أهله البداوة وما يتصل بها من أخلاق وعادات .

صادق إبراهيم عرجون

تعليق من مدير المجلة (١)

على المقالة السابقة

– ٢ –

ظهرت فى أفق الدراسات الأدبية فى هذا العهد الأخير كتابات ترفع من شأن العرب على عهد الجاهلية ، وتصورهم فى مستوى لا يتفق والحقائق التاريخية .

لقد كنا نقرأ ما كتبه بعض مؤرخى العرب من المبالغات عن الدول العربية القديمة ، فنعزوه لنقص فى أسلوبهم التمحيصى ، فأصبحنا اليوم أمام مبالغات من طراز جديد يرتكبها بعض الذين يكتبون فى الأدب ، عليها مظهر الدراسات التحليلية وليست منها فى شىء .

فنحن حيال ما كتبه أولئك المؤرخون عن قبيلة عاد من أن طول الرجل منها كان سبعين ذراعاً إلى مائة ذراع ، وأن رأس أحدهم كان كالقبة العظيمة ، وعينه تفرخ فيها السباع ، وأن أول ملوكها وهو عاد قد ملك ألفا ومائتى سنة ، وأنه تزوج بألف امرأة ، وولد له أربعة آلاف ولد ذكر ، الخ ، نحن حيال هذه المبالغات لا نشعر بأقل حرج ، فإن علاجها فيها ككل شىء يصوَّر خارجاً عن حدوده الطبيعية ، ولكنا حيال الكتابات التى عليها مظهر الأسلوب العلمى نشعر بكثير من الضيق ، لأنه مظهر خلاب يسلك إلى الأذهان الخالية من ملكة النقد ، فيرسخ فيها وينتج نتائج خطيرة على الدين والعلم معاً .

فأما نتائجها على الدين ، فالغض من قيمة الرسالة المحمدية ، فإذا كان صحيحاً ما يقوله ابن خلدون عن العرب القدماء ، وهو : « ما كان لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك » ، وقوله فى موطن آخر عن العرب الأولين فى اليمن والبحرين وعمان والجزيرة : إنهم « بلغوا الغاية من الحضارة

---

(١) المصدر السابق م ٦ سنة ١٣٥٤ هـ

والترف مثل عاد وثمود والعمالقة ، وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع فلم تبل ببلاء الدولة » .
وإذا كان صحيحاً أيضا ما عقب به الأستاذ الشيخ صادق عرجون على هذا وهو قوله : « فالعرب قبل الإسلام لم يكونوا فى حياة أولية ساذجة لا أثر للتفكير فيها . نعم ، وإنما كان (فريق منهم) فى دور بداوة (طارئ عليهم) غير متأصل فيهم . ولو تتبع الباحث أطوار الحياة الاجتماعية عند العرب لوجدها حلقات متسلسلة آخذاً بعضها بأطراف بعض ، ولوجد فيها ملكاً وحضارة ظلت آثارهما قوية قائمة فى اليمن والشام والعراق (حتى جاء الإسلام) . وأولئك الذين لحقهم الإسلام فى طور البداوة لم يكونوا إلا سلالة هؤلاء الصيد الأماجد » .

قلنا إذا كان هذا كله صحيحاً فلا تكون الرسالة المحمدية قد أخرجت العرب من الظلمات إلى النور ، ولا أوجدت فيهم وحدة اجتماعية ما كانوا يعرفونها ، ولا بثت فيهم من الأخلاق والآداب ما كانوا فى أشد الحاجة إليه ، ولا آتتهم دستوراً أفضى بهم السيرُ عليه إلى تبوء خلافة الله فى العالم قروناً كثيرة ، غيروا فيها وجه الأرض ، ونشروا علماً وحرية ومدنية قضت على كل ما كان متحجراً غير صالح للحياة فى العالم كله .

ولكن ما ذكره ابن خلدون وغيره وتابعهم فيه الأستاذ الشيخ عرجون ومن تقدمه من الكاتبين المعاصرين كله غير صحيح ، والصحيح منه مبالغ فيه مبالغة لا تحتمل النقد والتمحيص .

نحن لا ننكر أنه قامت لبعض قبائل العرب البائدة (دول قبيلية) ، فاشتهر بنو عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت بتأسيس دول ، لها ملوك يتوارثون العروش ، ومدنية مناسبة للزمان الذى وجدوا فيه .

وقد سميت هذ الطبقة الأولى من العرب بالبائدة ، لأنها انقرضت منذ زمان بعيد ، وغمض تاريخها إلى حد أن العرب أنفسهم لم يعرفوا منه شيئا يذكر غير مبالغات وخزعبلات تخيلها الخراصون تخيلاً على النحو الذى نقلته عنهم فى صدر هذه المقالة . وقد ظل العرب يجهلون أنه قامت فى اليمن فى بعض عصورها دولة

يقال لها المعينية حتى قام المستعرب هاليفى مستهدياً بما ورد عنها فى كتاب المؤرخ اليونانى القديم استرابون ، فارتاد بلاد الجوف شرق صنعاء ، واكتشف أنقاض معين ، ووجد بها كتابات بالقلم المسند دلّته على أسماء ستة وعشرين من ملوكها .

فتاريخ هذه الطبقة البائدة من العرب يجب أن يغفل فى بحث حالة العرب قبل الإسلام لغموضه وتغلغله فى القدم ، ولِما حدث من الانقلاب الذريع فى كيان الأمة العربية بعده ، حتى سميت تلك الطبقة بالبائدة ، ومن بقى بعد تلك الانقلابات سموا بالعرب المستعربة .

والذى نحب أن يلاحظه القراء أن الحالة القبيلية فى الأمة العربية لازمتها فى كل عهودها ، حتى جاء الإسلام فوحد بينها وجعل منها أمة : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

فالذين يذكرون الدول العربية مضطرون أن يسردوا أسماء قبائل ، فيقولون : عاد وثمود وجديس وطسم وأميم وحضرموت الخ . حتى إن اليمن ، وهى البلاد التى كان يصح أن تقوم فيها أمة موحدة ، لم تبلغ إلى هذه الدرجة . فقد كانت منذ أقدم أزمانها تقسم إلى محافد ، وكل محفد إلى قصور ، والقصر حصن يحيط به سور يقيم فيه أمير مستقل يوضع أمام اسمه لفظ (ذو) . وهؤلاء الأمراء يعرفون بالأذواء . وربما اجتمعت عدة محافد تحت أمير واحد متغلب فيسمى (قَيْل) . وكان الأقيال كثيراً ما يتقاتلون . وكان يتفق أن يكبر شأن قيل فيدخل جميع الأقيال تحت دولته ، ويورث الملك أعقابه ، ولكنها تجىء دولة يغلب على مزاجها البدوية والأمية . فقد دلنا التاريخ على قيام أربع دول فى اليمن وهى : المعينية ، والسبأية ، والحميرية ، والتبابعة . ولم تنقرض الأخيرة إلا فى القرن السادس أى قبيل ظهور الإسلام بمدة قليلة ، فلم يصلنا من واحدة منها كتاب مخطوط ، ولا أتانا خبر عن وجود أثارة من علم فيها ، وقد وصلنا عن أمم كثيرة غيرها مؤلفات وضعت قبل ستة آلاف سنة ، وأسماء علماء وفلاسفة وفنانين كانوا عائشين فى تلك العصور البعيدة .

والآن ننظر إلى الحالة التى كانت عليها الأمة العربية على عهد البعثة المحمدية :

كان ببلاد العرب فى ذلك العهد ثلاث ممالك : أولاها اليمن ، وثانيتها دولة اللخميين بالعراق ، وثالثتها الغساسنة بمشارف الشام ، ومن بقى فكانوا كلهم على الحالة البدوية .

فأما اليمن فكانت مستعمرة فارسية وعليها وال اسمه الهرمزان ، وكانت قبل أن يستولى عليها الفرس مملوكة للأحباش .

وأما دولة اللخميين فكانت تابعة للفرس أيضا ، تغلبوا عليها واستمروا متسلطين فيها أجيالاً حتى ظهر الإسلام .

وأما الغساسنة فكانوا يحملون نير الرومانيين ليس لهم من أمر أنفسهم شيء .

ولابد لنا هنا أيضا أن نذكر أن هذه الدول كانت محتفظة بوصفىْ عهد الجاهلية العربية ، وهما : البداوة والأمية . نعم إنه كانت لممالكهم مدن ولملوكهم قصور ، ولكن الرعية كان أكثرها على الحالة البدوية . وكان عدد المدن لا يتناسب وسعة الأراضى التى تقوم عليها تلك الممالك . وجزيرة العرب التى تساوى مساحتها ستة أضعاف مساحة فرنسا ليس فيها غير عدد من المدن يعد على الأصابع .

ومما تجب ملاحظته أن الأمية كانت أثيرة عندهم إلى حد أن هذه الدول على مجاورتها للفرس والرومان ، ووقوعها تحت نيرهم أجيالاً ، لم تأخذ أخذهم فى العلوم والفنون ، فلم يشتهر فيها فلكى أو طبيب أو فنان ، ولم يصلنا منها صفحة واحدة باللغة العربية حتى ولا ما يتعلق بالشئون الدينية . قال الله تعالى : « وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ » .

أما بقية العرب وهم السواد الأعظم فى سائر جزيرة العرب ، فكانوا يعيشون على حالة بداوة وأمية ، بأوسع ما تحتمله هاتان الكلمتان ، من يوم أن خلقهم الله إلى عهد البعثة المحمدية ، ولم يكن من الممكن أن يكونوا على غير

هذه الحالة ، لأن قوام المدنية الزراعة والصناعة والتجارة والعلم ، وأين هذه من أكثر العرب فى عهد جاهليتهم ؟

يريد الأستاذ صادق عرجون وهو يعالج الكتابة فى الأدب أن يجعل له قُدْمة عند الأمة العربية فى عهد الجاهلية ، فهو يقول :

« هل من المعقول أن تبلغ أمة من الأمم ما بلغه العرب من عظمة الملك فى قديمهم – كما قال ابن خالدون – ولا يكون لها من الثقافة الفكرية والمعارف الأدبية شىء ، وتبقى حيث وصفها بعض الباحثين أمية جاهلة ؟ » .

ونحن نقول : إن الذى وصفها بالأمية والجهل هو القرآن نفسه ، الذى يسلم الأستاذ صادق عرجون بأنه أصدق المصادر فى الإنباء عن حياة العرب قبل البعثة المحمدية : قال تعالى : « هو الذى بعث فى (الأميين) رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين » .

وقال تعالى : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب (والأميين) أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

فالأمية كانت الوصف المميز للأمة العربية من أقدم أيامها إلى أن أُرسل إليها وإلى العالم كافة محمد ﷺ ، حتى إن الجاليات الأجنبية التى كانت معاشرة لهم كانوا يطلقون عليهم هذا اللقب . قال الله تعالى : « قالوا (يريد اليهود) ليس علينا فى الأميين سبيل » أى ليس علينا ذم إن ظلمناهم لأنهم ليسوا من ديننا . فأطلقوا عليهم وصف الأميين وقد كان كافيا فى الدلالة عليهم .

فإذا كان العرب أمة أمية ، وهو ما لا سبيل إلى إنكاره ، فكيف يعقل أن يكون لديهم أدب بمعناه الفنى ؟ أين عُهِد مثل هذا الأمر ، وفى أى جيل ؛ حتى يعهد عند الأمة العربية ؟

المعهود حسياً أن الأمة إذا كانت أمية كانت فى أحط درجات الجهل ، فإذا تحركت لأن ترتفع عما هى عليه درجة واحدة فأول وسيلة تتخذها هى أن تتعلم أن تكتب ما تلفظه وأن تقرأه . وليس فى الأرض أمة من أول وجودها

إلى اليوم إلا كانت فاتحة نهوضها رفع الأمية عنها أو عن عدد كبير من آحادها . فإذا ارتفعت الأمية عن قسم منها تدرج هذا القسم فى الارتقاء ، فنشأ فيها أدب ساذج وعلم فى درجته . ثم لا تلبث أن تتقدم إلى الأمام خطوة أخرى حتى ينضج أدبها وعلمها بعد حين .

هذه سنة الله فى الخلق ، ولا يعقل أن تتخلف على الإطلاق . وقد اعتبر الله تخلفها خرقاً للعادة ، وجعلها معجزة لخاتم رسله ، فقال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون » أى لو كنت يا محمد غير أمى لارتاب المبطلون فى إتيانك بالقرآن ، أما وأنت أمى لا تقرأ ولا تكتب فكيف يعقل أن تأتى بكتاب تمليه على غيرك ؟

ربما اعترض علينا معترض فقال : ألم يصلنا عن الجاهلية شعر ، أليس الشعر فناً من فنون الأدب ؟ .

نقول : نعم ، ولعامتنا شعر ، ولعوام كل أمة أشعار بلغاتها المختلفة ، ولكن هل مجرد قرض الشعر يدل على عدم الأمية وعلى وجود الأدب بمعناه الفنى ؟ .

اللهم لا ، فالشعر الجاهلى ، وهو كل ما يستطاع الاحتجاج به ، لا يدل على وجود الفن الأدبى فى الجاهلية ، كما لا يدل كل شعر لأمة أمية على وجود هذا الفن لديها .

فعرب الجاهلية لم يكن لديهم أثارة من علم ، كما يقول الكتاب عنهم ، يمكن أن يُدْلوا بها إلى غيرهم ، كما لم يكن ولا يكون عند أية أمة أمية أثارة من علم تدلى به إلى غيرها . قال تعالى : « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » . وقال سبحانه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » .

وقد عاش اليمنيون فى اليمن واللخميون فى العراق والغساسنة فى جنوب سورية تحت سلطان الفرس أو مجاورين لهم وللرومان ، ولم يأخذوا إخذهم فى رفع الأمية عنهم ، لذلك لم تصلنا منهم ورقة واحدة مكتوبة ، فلو كان عندهم

أى فن أدبى أو غيره لنقله عنهم رواة اللغة الذين اختلطوا بهم وبغيرهم من القبائل ولبثوا بين ظهرانيهم سنين . فهل كان هؤلاء الرواة يحرصون على الألفاظ والأساطير هذا الحرص كله ولا ينوهون بكلمة عن أدب العرب وعلومهم ، وهم رواد الأدب العربى ، وقد جشموا أنفسهم الحياة وسط القبائل سنين لدراسة أسبابه ، فلم يجدوا غير ألفاظ اللغة فحفظوها عنهم ونقلوها إلينا ؟

ألم يكن جميع العرب الذين أسلموا جاهليين فى أمسهم ، فلو كان لديهم أثارة من علم فى أى موضع من المواضيع مما كانوا يمارسونه على عهد الجاهلية ، أما كانوا يحملونها معهم فى الإسلام فتُعرف عنهم وتنسب إليهم ، لاسيما والإسلام يحض على طلب العلم ويَعِد أهله بالدرجات العلا فى الدنيا والآخرة ؟

ولو كان فى اليمن أو العراق أو مملكة غسان أو فى قبائل نجد أو تهامة أو غيرها ، من التى قصدها رواة اللغة ، مسكة من علم ، لنقلها أولئك الرواة إلينا وقد بالغوا فى نقل كل شيء وجدوه لدى العرب حتى أخبار خيولهم وكلابهم .

ونحن فى القرن العشرين الميلادى اليوم ، ولدينا كتب وألوف من صحف لأمم كانت موجودة منذ ستة آلاف سنة ، وليس لدينا ولا صحيفة واحدة باللغة العربية عن أقرب عهد لجاهليتها . ذلك لأن الأمة العربية كانت أمية ، وكانت الأمية من صفاتها المميزة ، ناهيك بأمة ليس لديها أثر مكتوب فى شئونها الدينية ، على حين أن لجميع الأمم التى لعبت دوراً فى التاريخ كتباً مدونة فيها ولو كانت وثنية .

لا نقول هذا غمطاً لحق الأمة العربية ، ولكنا نقرر حقيقة تاريخية ، وهى أن الأمة العربية طبعتها طبيعة بلادها والأحوال التى أحاطت بها بطابعين : الحالة القبيلية ، والأمية . لذلك لم تستطع جهة من جهاتها أن تحفظ استقلالها أمام الأمم المعاصرة لها ، فاستولى الفرس والرومانيون على الأقطار المجاورة لهم منها ، حتى حدَّثت الحبشة نفسها بفتح اليمن ، ونفذت ما صممت عليه ، وعجز أهل اليمن عن إجلائهم عنها ، فاستغاثوا بالفرس فأرسلوا جيشاً وطرد الأحباش وحلوا محلهم فيها ، وما زالوا حاكمين فيها حتى أنقذها الإسلام منهم ، كما أنقذ العراق ودولة غسان أيضا .

فالإسلام وحده هو الذى وحَّد قبائل العرب وأسقط ما بينهم من فروق قبيلية ، ومن إحن وضغائن جعلت جماعاتهم أشبه بالأمم المتعادية ، لا تفتر عن التناحر والتناهب طرفة عين . والإسلام هو الذى رفع عنهم طابع الأمية ودفعهم لطلب العلم دفعاً لا هوادة فيه . وقد بدأ النبى ﷺ برفع هذا الطابع بعمل لم يسجل مثله لمصلح فى الأرض . وذلك أنه جعل فداء الأسير الذى كان يعرف القراءة والكتابة فى وقعة بدر ، وهى أول الوقائع الإسلامية ، أن يعلمهما نفراً من المسلمين ، ففعل . فبفضل الإسلام استقامت الأمة العربية على نهج الأمم التى كتب لها بلوغ أقصى الغايات من النظام والتوسع واحتمال التبعات العالمية ، مما لا يوجد له نظير فى الأرض . وبفضل الإسلام يسجل التاريخ للأمة العربية أنها كانت محيية العلوم الدارسة ، والفنون الطامسة ، وأنها كانت سببا لإيقاظ البشرية من سباتها العميق ، ودفعها فى سبيل الحياة والمدنية . وفوق هذا كله فنحن أبناء الإسلام لا أبناء العرب ولا الفرس ولا غيرهم ، قد وحد بيننا الإسلام وأهدر فى سبيل هذا التوحيد قومياتنا وجنسياتنا ، تذرعاً لتكوين أمة عالمية كانت وستكون مثالاً أعلى للاجتماع الإنسانى الصحيح . وقد بارك النبى ﷺ هذا العهد بقوله : « لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بآبائها » . فلا نقبل أن نعيدها جَذَعة ، فنرغم التاريخ على أن يقول فى جاهلياتنا ما ليس بحق . وقد مضت تلك الجاهليات مرذولة مذمومة إلى حيث لا تعود : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . وقد أنجز الله وعده ، فكانت هذه آية الإسلام الكبرى إلى يوم الدين .

□ □ □

تعقيب على السيرة النبوية (١)

– ١ –

قرأت مقالكم فى مجلة الأزهر عدد رجب سنة ١٣٦٠ تحت عنوان « الرسالة المحمدية للبشر كافة » .

وقد أعجبنى الموضوع جداً ، لكن بالرغم من ذلك وجدت به بعض عبارات جامحة ، وبعض جمل لا يصح إغماض الطرف عنها ، لأنها تمس صحيحى البخارى ومسلم ، وربما كانت تمس غيرهما من كتب الصحيح ، ولم أصدق بادئ ذى بدء أنها للأستاذ الكبير صاحب المقالات الممتعة والأبحاث الشيقة ، وقلت لعلها لأحد « أولئك الذين يريدون أن يظهروا » ولو من باب (خالف تعرف) ، ولذلك أعدت قراءتها ، ثم قلت لنفسى : قد يكبو الجواد وهو كريم ، وينبو السيف وهو صميم ، ويهفو الشيخ وهو عليم . ولاعتقادى حسن نيتكم فيما تكتبون ، وأنكم إنما تكتبون خدمة للحق ، وروم الوصول إلى الحقيقة ، كتبت إليكم هذا .

ذكرتم حضرتكم ما رواه علماء الحديث من كتب النبى ﷺ إلى ملوك زمنه وما كان لها من أثر لديهم ، وأن منهم من مزق الكتاب ككسرى ، ومنهم من أسلم بالفعل كالنجاشى ، ومنهم من قارب كهرقل ، ومنهم من جامل ورد رداً جميلاً كالمقوقس . ثم كررتم على ما حكى عن هرقل والنجاشى والمقوقس بالنقد ، بل جعلتموه من غير المعقول ، وما ذاك إلا لشبهتين :

الأولى : أن المسيحين كانوا متمسكين بدينهم أشد تمسك ، ومن غير المعقول أن يتحول أحد منهم عن دينه ويتقبل ديناً آخر بهذه السرعة وبهذه السهولة . .

الثانية : أن النصاى كانوا يعتبرون أن دينهم قد تم بتجسد الابن وصلبه وافتدائه البشر ، ومن غير المعقول أن المقوقس كان ينتظر نبياً آخر ، وأن يقول : قد علمت أن نبياً قد بقى . ويمكن أن يقال بالقياس على هذا إن من غير المعقول أن يقول هرقل

(١) نقلاً عن المجلّد الثانى عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٠ هـ – ص ١٨٣ وما بعدها .

كما فى صحيح البخارى : « قد كنت أعلم أنه خارج و لم أكن أظن أنه منكم » .

وبقيت شبهة ثالثة لا تستحق الإبطال لأنها واهية من أساسها ، وهى أن هرقل لم يكن من سرعة التصديق بحيث يعتمد فى إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغ صدقهم فيما يقولون ولم يسألهم عما يجب أن يسأل عنه .

فإن المطلع على صحيح البخارى يرى أنه سأل عما يجب أن يسأل عنه ، أسئلة فى منتهى الدقة تدل على عقل ناضج وعلم واسع ، حتى أعجب به رواة الحديث ، وقد علم أن أبا سفيان ومن معه أعداء للنبى ﷺ ، فكلامهم الذى يشهد للنبى ﷺ لا يجوز أن يكون موضوع شك وريبة لأنه شهادة من عدو .

إذاً فأساس البحث فى هذا الموضوع هو : هل كان النصارى يعتبرون أن ديانتهم قد تمت ولا نبى بعد عيسى عليه السلام ، وأنهم كانوا من التمسك بدينهم بحيث يستحيل أن أحداً منهم يسلم بسهولة وسرعة ، أو أن الأمر بالعكس ، أى كانوا يترقبون نبياً آخر ، وأن منهم من هو سريع الانقياد إلى الحق متى ظهر ؟

يروق لى أن أسوق إليكم نصاً من القرآن الكريم يقلب هاتين الشبهتين رأساً على عقب ، ثم أعقب ببيان السر فى ذلك : قال الله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » الآيات .

فهذا هو القرآن يقرر لنا جملة حقائق عن النصارى :

(١) أنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين ، وهذا يستلزم أنهم أقرب الناس لهذا الدين ، لأن تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلّية مبدأ الاشتقاق ، فهم ما قربت مودتهم من المؤمنين إلا لأنهم مؤمنون .

(٢) أن شيمتهم التواضع وعدم الاستكبار والاستنكاف عن قبول الحق .

(٣) أن منهم من إذا سمع القرآن فاضت أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق وبادروا بالإيمان .

فما هو رأى سيدى الأستاذ الجليل ، وكيف جاز لطائفة من النصارى أن تبكى بمجرد سماع القرآن ؟ وكيف لم يمنعها من الإيمان السريع تمسكها بدينها واعتقادها تمامه بتجسد الابن ؟ ولم لا يجوز أن يكون هرقل أو النجاشى أو المقوقس أو أى نصرانى آخر مثل هذه الطائفة ، فى رقة العاطفة ولطف الشمائل وعدم التعصب والانقياد إلى الحق ؟ اللهم إن هذا لا مانع منه ، لاسيما إذا علمنا أن الملوك فى العادة أعلى كعباً فى العلوم والمعارف ، وأرق طباعاً وألطف شمائل . وإذ قد ثبت هذا ، ولاشك فيه ، فلننتقل إلى بيان السر فى ذلك ، وبه تعلم السر فى أنه لم افترق الحال بين رد كسرى المجوسى وبين ردود ملوك المسيحية أهل الكتاب ، بل تدرك به السر فى سرعة انقياد كثير من المسيحيين للإسلام إلى يومنا هذا متى فهموه على وجهه الصحيح ؟

من المعلوم أن نبينا محمداً ﷺ كان مبشراً به فى الكتب السماوية السابقة ؛ يعلم هذا من نصوص القرآن نفسه ، ومن الرجوع إلى تلك الكتب نفسها ، والقرآن قد ذكر ذلك فى مواضع كثيرة فى مواجهة اليهود والنصارى ، ولم يجرؤ واحد منهم على تكذيبه ، ولو لم يكن له حقيقة لقامت قيامة اليهود والنصارى وملأوا الدنيا تكذيباً وتشنيعاً على صاحب الرسالة ﷺ .

ولنسق لك بعض الآيات القرآنية فى ذلك الصدد : قال الله تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ الآية .

وقال الله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ . بل قال عبد الله بن سلام : إن معرفتى بمحمد عليه السلام أشد من معرفتى بابنى . فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : أنا لا أرتاب فى أمر محمد بحال ، وأما ابنى فلا علم لى بما يفعل النساء . فقام عمر فقبل رأسه . فقال الله تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ أى كان اليهود إذا غلبهم مشركو المدينة

قالوا لهم : قد آن أوان نبى يبعث نقتلكم معه قتل عاد وثمود ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ﴾ والمجال فى هذا فسيح والقول فيه يطول ، فلنقتصر على هذا القدر .

أما الكتب السماوية السابقة ، فالمجال فيها أوسع ، ولننقل منها ما فيه الكفاية .

ففى التوراة : جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران . إصحاح ٣٣ تكوين . وفاران جبل من جبال مكة ، بدليل ما ورد فى التوراة نفسها فى حكاية قصة سيدنا إسماعيل والسيدة هاجر عليهما السلام : وكان الله مع الغلام ، فكبر وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران . إصحاح ٢٨ تكوين .

وفى التوراة أيضا : قال لى الرب : قد أحسنوا فيما تكلموا ، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى فأنا أطالبه . إصحاح ١٦ تثنية . وإخوة بنى إسرائيل هم أولاد إسماعيل بلاشك .

وفى إنجيل يوحنا إصحاح ١٦ : لكننى أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم . وفيه أيضا إصحاح ١٦ : إن لى أموراً كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ؛ وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يمجدنى . وهكذا يجد المتتبع لكتب العهدين القديم والحديث بشائر كثيرة لا تدع أدنى ريبة فى شأن محمد عليه الصلاة والسلام .

هذا هو السبب فيما كان من النصارى إجابة على كتب النبى عليه الصلاة والسلام ، بخلاف كسرى الذى لم يكن عنده علم من الكتاب ، ولم يكن منه إلا تمزيق كتاب النبى ﷺ ، فدعا عليه بأن يمزق الله ملكه ، وقد كان . وهذا هو السبب فى كون كثير من النصارى إلى يومنا هذا يدخلون فى دين الله عن

طيب نفس وانشراح صدر حتى القسيسين .

وبعد : فليعلم سيدى الأستاذ أن قصة هرقل مع أبى سفيان وصحبه قد رواها البخارى فى صحيحه ، وربما يكون قد رواها غيره من أصحاب الصحاح .

وقصة إسلام النجاشى وصلاة النبى ﷺ عليه لما مات رواها البخارى ومسلم . فهل يسوغ عقلاً أن نكذب هذه الأسانيد الصحيحة بهذه السرعة وبهذه السهولة بمجرد شبهة أظن أنه قد ثبت لك أنها لم تقم على أساس صحيح ؟ والله أسأل لى ولكم السداد فى القول والعمل .

محمد عبد الله الجهنى

ملاحظاتنا على هذا التعقيب (١)

فيما يتعلق بدعوة هرقل لقومه إلى الإسلام وجواب النجاشي

– ٢ –

نحن بكتابتنا فى السيرة المحمدية نرمى إلى غرضين : (أولهما) أن نشرح حوادثها على ضوء ما اهتدت إليه العلوم النفسية والاجتماعية من المكتشفات التى تجليها فى مظهر يؤثر على العقلية العصرية أعظم تأثير ، فنجعل الأدلة على رسالة محمد ﷺ فى مستوى البدهيات . (ثانيهما) أن نجرد من تلك السيرة كل ما أضيف إليها من ضروب المبالغات التى تضعف من تأثيرها على العقول ، وتكفى فى جملتها لإقناع الناهلين من حوض الثقافة الحديثة بوهن أصول الدين ، وأن الإسلام ليس من العزة والمناعة بحيث يرتد عنه طرف الناقد خاسئاً وهو حسير .

موقف عظيم الخطر يتعرض فيه المؤلف لمصادمات من نواح شتى ، ولكن ما لابد منه لا يمكن النكوص عنه ، لاسيما والرغبة أصبحت عامة فى وجود مؤلف من هذا الطراز ، ليمكن اتقاء شرور الدعايات السيئة بالاعتماد عليه ، أو بالرجوع فى حل الشبهات إليه .

من أشد ما وقفنا عليه من أنواع الدعايات تأثيراً فى العقول ، ما قام به كاتبان من الفرنسيين هما (لوميريس) و(جاستون دوجاريك) من وضع كتاب فى السيرة المحمدية تحت عنوان حياة محمد La via de Mahomet فى مجلدين ، ذكرا فى مقدمته أنهما سيوردان تاريخ النبى العربى مأخوذاً من الكتب الإسلامية ، لا يزيدان على ما قالته حرفاً . فجاء كتاباً من أفعل ما يتخيله العقل صداً عن الإسلام ونبى الإسلام ، لكثرة ما اشتمل عليه من الخرافات ، وهو لا يزال ماثلا بين كتبى ، كلما وقعت عليه عينى انقبض صدرى .

---

(١) المصدر السابق م ١٢ سنة ١٣٦٠ هـ

هذه الاعتبارات كلها دفعتنى لوضع السيرة المحمدية على أساس متين تحت ضوء العلم والفلسفة ، حتى إذا تمت سعينا إلى ترجمتها إلى الفرنسية والإنجليزية ، وعملنا على نشرها .

***

أسوق هذا الكلام لمناسبة ما ورد إلىَّ من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الموقر الشيخ محمد عبد الله الجهنى ، وإنى أشكر لفضيلته حسن تقديره لما أكتبه ، وأتقبل نقده بالارتياح ، فما لا ينقد من الآراء الجريئة لا تظهر قيمته الفلسفية ، ورب نقد جر إلى فوائد علمية جمة كانت لا تنكشف بدونه .

أخذ علىَّ فضيلة الأستاذ أموراً :

(١) شكِّى فيما لا يصح الشك فيه من صحيح البخارى .

(٢) ارتيابى فى سرعة تصديق هيرقل .

(٣) إنكارى انتظار النصارى لنبى بعد عيسى .

الشك فى إسلام هيرقل ومحاولته حمل قومه على الإسلام :

ليس كل ما ورد فى كتاب البخارى من آرائه الشخصية ، وتعليقاته ، يسرى عليه ما يسرى على ما أورده من الأحاديث مسنداً إلى النبى ﷺ . وقد سمح الأئمة السابقون لأنفسهم بنقد كل شىء فيه ، حتى الأحاديث ، فضعفوا مائة وعشرة منها .

وقد ظن بعض الناس أن الإمام البخارى روى ما قاله عن هيرقل عن الزهرى عن عبيد الله عن ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب ؛ والواقع أنه روى خبر سؤال هيرقل لأبى سفيان بهذا الإسناد ، وقد شاركه فيه مسلم ، ولكن البخارى انفرد بروايته إسلام هيرقل ومحاولته حمل أمته على الإسلام ، عن الزهرى عن ابن الناطور ، وهو أحد أساقفة دمشق كما نبه على ذلك الإمام ابن حجر العسقلانى فى المجلد الأول من كتابه فتح البارى صفحة (٣١) .

وبناء عليه يكون ما شككنا فيه خبراً زائداً على حديث سفيان ، نقله الزهرى عن ابن الناطور . ولذلك لم يذكره مسلم عند ذكره حديث مقابلة أبى سفيان لهيرقل .

وبذلك أصبحنا فى حل من نقده ، لأن ابن الناطور ليس بثقة فى نظرنا ولا فى نظر غيرنا من المسلمين .

ونحن إنما تشددنا فى هذا الأمر نظراً لمكانة الدولة الرومانية الشرقية من الدول النصرانية ، ومطامع هيرقل من حماية المسيحية . فإنه فى العصر الذى أرسل فيه النبى ﷺ ، كانت الدولة الرومانية الغربية قد حطمتها غارات القبائل الهمجية ، وسقطت هيبتها الدولية ، وضعفت عن حماية نفسها ، فتحولت الأنظار عنها إلى شقيقتها الدولة الرومانية الشرقية ، وعلق المسيحيون على وجودها حماية عقائدهم الدينية .

هذه الاعتبارات هى التى أوجبت علينا الشك فى رواية ابن الناطور ، وليس هو من رواة البخارى حتى يعتد بروايته ، وقد علمتَ أن هذه الرواية ترجع إليه وحده .

ارتيابى فى سرعة تصديق هيرقل :

لم ير فضيلة الأستاذ من حقى أن أرتاب فى سرعة تصديق أمبراطور الرومان ، معتمداً فى ذلك على الآية القرآنية التى قررت أن النصارى أقرب مودة من سواهم إلى المسلمين ، وأن منهم من إذا سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع .

وإنى أرى أن هذه الآية الكريمة لا تدل إلا على شىء واحد ، وهو أن النصارى أقرب مودة إلى المسلمين من سواهم ، لأن من أخلاقهم التواضع وعدم الاستكبار ، فهى تمدحهم بهذه الخلال ، ولا يعقل أن يُقرن هذا المدح بالذم بأن يتهموا بسرعة التصديق ، فإن هذه صفة ذم ، وقد مدح الله المتثبتين المطالبين بالدليل ، ولم يمدح سريعى التصديق .

ولو استعنا بالتاريخ فى هذا الموطن رأينا أن النصارى كانوا أبعد تصديقاً من جميع الأمم ، وقد وقفت دولهم للإسلام فى أول ظهوره وقفات ، لولا أن الله كتب له الغلَب والانتشار لقضت عليه وليداً . وقد دخلت أمم برمتها فى الإسلام

كالفرس والديلم والترك ، وجماعات غفيرة أخرى تعد بعشرات الملايين فى الهند والصين وغيرها ، إلا الأمم النصرانية فإنها تمسكت بعقيدتها إلى أبعد مدى .

وأما قوله تعالى : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع المشاهدين » ، فهو قول صريح فى أن الذين فاضت أعينهم بالدمع كانوا قد آمنوا بالنبى ﷺ من قبل ، وآمنوا بالقرآن ، فلا عجب أن ترق قلوبهم عند سماعه فيبكوا ، وليس هذا بعجيب من قوم تذوقوا طعم اليقين .

يريد فضيلة الأستاذ أن يتخذ من حال هذه الطائفة مثالاً يطبقه على أفراد معينين ، وغير معينين من جميع الطبقات ، وأنا لا أحيله من التدليل إلا إلى شىء واحد وهو الواقع المحسوس .

إنكارى انتظار النصارى رسولاً بعد عيسى :

قلت : إن النصارى يعتقدون أن دينهم قد تم بتجسد الابن ، وأنهم ما كانوا ينتظرون رسولاً يأتى بعده .

فلاحظ علىَّ فضيلة الأستاذ ذلك وقال : « إن نبينا كان مبشراً به فى التوراة والإنجيل ، وقد ذكر القرآن ذلك ، ولم يجرؤ واحد منهم على تكذيبه ، ولو لم يكن ذلك حقيقة لقامت قيامة اليهود والنصارى وملأوا الدنيا تكذيباً وتشنيعاً على صاحب الرسالة ﷺ » .

نقول : أما أن النبى ﷺ قد بُشر به فى التوراة والإنجيل فصحيح ، ولكن ليس المعول على إيماننا نحن بذلك ، وإنما المعول على إيمان أصحاب تلك الكتب به ، وقد دل تاريخ الدعوة الإسلامية على أنهم لم يؤمنوا به ، وقد ملأوا الدنيا تكذيبا وتشنيعا ، بل عمدوا إلى الحرب الضروس . ومن الذى يستطيع أن ينكر ما لقيه الإسلام والمسلمون من عنت القبائل اليهودية فى بلاد العرب ؟ نعم لم يقع من النصارى هنالك شىء ، ولكن ليس لأنهم كانوا أقل من اليهود تكذيباً ، ولكن لأنهم كانوا فى بلاد العرب قليلين ، ولا تجمعهم جامعة قوية ، فجاءت حروبهم متأخرة ، أى على عهد أبى بكر ومن جاءوا بعده ، وكانت من أفظع ما رواه التاريخ هولاً وشدة .

قلنا : إن المسيحيين لم يكونوا ينتظرون رسولاً بعد عيسى ، حتى فى أقدم عهودهم ، وما استشهد به فضيلة الأستاذ من إنجيل يوحنا ، وعده علماؤنا تبشيراً بالنبى ﷺ ، فإنهم ينكرون أن المقصود به محمد ، ويقولون إن المقصود به روح القدس ، وهو الأقنوم الثالث من الأقانيم الثلاثة فى عقيدتهم ، وقد أجمعوا على ذلك من أول عهدهم بالنصرانية إلى اليوم .

وإذا ساغ لنا أن نقول بأن اليهود كانوا يتوقعون ظهور نبى جديد ، فإنهم كانوا ينتظرون أن يكون إسرائيلياً ، فإن اليهودية مبنية على ما لأسرة إسرائيل من الامتيازات الروحية والعقلية ، كما ورد ذلك فى كتبهم ، لذلك لا تجد لهم دعاوة دينية فى الأرض . حتى إنه إذا أراد أحد الناس من الأجناس الأخرى أن يتهود ، وجب على القس اليهودى أن ينصحه بالعدول عن عزيمته ثلاث مرات ، بالتنويه له بصعوبة تكاليف اليهودية ، وتعذر قيامه بما تفرضه عليه منها . فإن أصر على طلبه وجب عليه أن يلقنه الناحية الخلقية من اليهودية دون الناحية العبادية . فلما أرسل النبى ﷺ من ولد إسماعيل كان ذلك كافياً فى نظرهم للتكذيب به .

والمعول فى موضوعنا على إيمانهم هم ، لا على إيماننا نحن ، فلو كانت البشارات فى كتبهم أصرح مما أورده الأستاذ ، ولم يفهموا هم منها ما نفهمه نحن ، كانت كأن لم تكن فى علاقتها بالموضوع الذى نحن بصدده .

أما ما قاله فضيلة الأستاذ عن إسلام النجاشى وصلاة النبى ﷺ عليه بعد موته . فقد نص البخارى على أن النبى صلّى على نجاشى مات مسلماً ، ولم ينص على أنه هو الذى أرسل إليه كتاب الدعوة ؛ وجاء مسلم تلميذ البخارى فنص على أن النجاشى الذى صلى عليه النبى غير الذى أرسل إليه كتاب الدعوة ، ويبتنى على ذلك أن الجواب الذى شككنا فيه مختلق . وقد كان كلامى محصوراً فى ذلك الكتاب وجوابه .

وهذا لا يمنع أن يكون سلف هذا النجاشى قد أسلم سراً ، وأرسل إلى النبى ﷺ يخبره بذلك خفية ، وكتم إسلامه عن قومه ؛ لأن النجاشى لو استبدل ديناً آخر بدينه ، وبلغ قومه خبره ، لكان هذا وحده يكفى فى أن يثوروا عليه

ثورة عامة ، لأنهم من أشد الشعوب تمسكاً بالمسيحية .

ومرادى من هذا كله تمحيص الحوادث التاريخية ، وتخليص السيرة النبوية من الأوهام التقليدية .

وإنى أختتم مقالى هذا بشكر فضيلة الأستاذ على ملاحظاته ، فإن غرضى من نشر سيرة للنبى  على مقتضى الدستور العلمى ، أن تناسب عقلية الشبيبة المتعلمة ، فيقبلوا على مطالعتها واجدين فيها من دقة التمحيص العلمى ، والنقد الفلسفى ، ما لا يدع لهم عذراً فى مقاطعتها ، وهى من أقوى أسباب الإيمان به ، والتسليم برسالته للناس كافة .

□ □ □

حول [1]

كتاب مناهل العرفان ومبحث ترجمة القرآن

تفضل البحاثة الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى بك مدير مجلة الأزهر الغراء ورئيس تحريرها ، فقرَّظ فيها الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر ، الجزء الثانى من كتابى مناهل العرفان فى علوم القرآن . كما تفضل من قبل فقرَّظ الجزء الأول من هذا الكتاب ، وقرظ كتاب المنهل الحديث فى علوم الحديث . وإنى لأشعر بدين فادح يثقل كاهلى بالشكر والتقدير لهذه التقاريظ العالية التى هى صورة من نفس مقرظها .

بيد أن هذا كله وما أعرفه من فضل الأستاذ وعلمه ، لا يجوز أن يحول بينى وبين واجب الدفاع عما أعتقد أنه الحق فى حكم ترجمة القرآن الكريم : ذلك الحكم الذى أعلن الأستاذ بأنه لم يَرُقْهُ من هذا الكتاب .

وإنى سأسلك مسلك صاحبى فى أسلوبه العفِّ الوجيز الذى اختاره للنقد . أما من أراد التوسع والبسط فسبيله أن يقرأ بحثى فى الترجمة ، فإن فيه تحقيقاً وتفصيلاً وتدليلاً ، كما أن فيه استعراضاً لكثير من الشبهات وتمحيصاً لها ، ومن بينها شبهة صاحبى التى أثارها بالذات .

١ — يقول الأستاذ : « إننى بذلت جهداً جاهداً فى أن ترجمة القرآن غير ممكنة » . والواقع أننى فصلت القول فى معانى الترجمة ، ورجعتها إلى معان أربعة ، وحكمت على ثلاثة منها بالجواز الشرعى الصادق بالوجوب : وهى ترجمة القرآن بمعنى تبليغ ألفاظه ، وترجمته بمعنى تفسيره بلسانه العربى ، وترجمته بمعنى تفسيره بلسان غير عربى . أما ترجمة القرآن بالمعنى الرابع وهو التعبير عما تضمنه القرآن الكريم بكلام استقلالى من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده ، فتلك هى التى حكمت باستحالتها عادة لا عقلاً ، كما حكمت بحرمة محاولتها شرعاً ،

---

(١) نقلاً عن المجلّد الخامس عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٣ هـ — ص ٣١٣ وما بعدها .

وقلت : إن هذا المعنى الأخير هو المعنى العرفى العام الذى لا تعرف الأمم سواه . أما المعانى الثلاثة الأول فخاصة بلغة العرب . ولا يجوز أن تخاطب الأمم الأجنبية ، بما لا تعرف من الاصطلاح الخاص باللغة العربية .

٢ – يقول الأستاذ : « إن حكمى على ترجمة القرآن بأنها غير ممكنة ، مبنى على إساءة الظن باللغات الأجنبية ، وعلى اعتقاد قصورها عما تستطيعه اللغة العربية . والواقع أن الذى يقرأ بحثى من أوله إلى آخره لا يجد فيه شيئاً من ذلك . فما عقدت مقارنة بين اللغات ، ولا اتخذت من امتياز اللغة العربية على غيرها دليلاً على عدم جواز هذه الترجمة ، بل لقد قررت أن كافة اللغات ومنها اللغة العربية ، عاجزة كل العجز عن محاكاة القرآن وأداء ما احتواه فى صورة كاملة ، لا لنقص فى نفس اللغات ، ولكن لتقاصر القدر البشرية عن أن تأتى بمثل القرآن وهو معجزة إلهية ، إلى غير ذلك من الأدلة التى سقتها هناك مفصلة (من ص ٥١ – ٦٣) .

٣ – يقول الأستاذ : « إن القائلين بجواز ترجمة القرآن لا يقصْدون منها إلا أداء ما وعوا من معانى القرآن باللغات الأجنبية ، وهو أمر لا يمكن أن يوجد من يجعله من المحالات العقلية » والواقع أن أداء ما وعاه الواعون من معانى القرآن باللغات الأجنبية ، لم أجعله أنا من المحاولات العقلية ولا العادية ولا الشرعية ، بل لقد قررت فى بحثى جوازه جوازاً صادقاً بالوجوب الشرعى ، وأقمت الأدلة على ذلك ، وذكرت له خمس فوائد ، ودفعت عنه ثلاث شبهات (من ص ٣٦ – ٤٥) لكننى قيدت هذا الجواز بقيود ، ومنعت أن يسمى ترجمة للقرآن بإطلاق ، وشرحت وجهة نظرى فى ذلك .

٤ – يقول الأستاذ : « والذين يغارون على ترجمة القرآن ترجمة صحيحة ، إنما يحفزهم إلى ذلك أن الإسلام أنزل للناس كافة لا للعرب خاصة ، وكلف المسلمون أن ينشروه بكل الوسائل بين الأمم قاطبة . ولا توجد وسيلة لذلك إلا أن يترجم القرآن ترجمة صحيحة ، وتنشر بين العالمين ليطلع عليها الناس طراً » .

ونحن نقول بما يقول به الأستاذ من عموم دعوة الإسلام ووجوب نشره ، ونحن لا نستطيع أن نوافقه على انحصار وسائل النشر والدعوة فى ترجمة القرآن

ترجمة صحيحة ، وإلا فأين تلك الترجمة التى قام عليها نشر الإسلام من لدن عهد الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه وعهود ازدهار الإسلام إلى يوم الناس هذا ؟ وإذا كانت هذه الترجمة التى ينوه بها الأستاذ لا وجود لها وهى واجبة كما يقول ، فهل قصر سلف الأمة وخلفها فى هذا الواجب ؟ وهل تجمع الأمة على ضلالة ؟!

والحق أن وسائل النشر والدعوة كثيرة مبسوطة فى كتب الدعوة والإرشاد ، وأهمها نشر تعاليم الإسلام وهداياته ، وإزاحة الشبهات والعقبات من طريقه ، وتسلح الدعاة بالقوى المادية والأدبية التى تحمى الدعوة وتبهر المدعوين . والحق أن سلفنا الصالح لم يقصروا عن واجب ولم يقعدوا عن غاية . والحق أنه يسعنا ما وسعهم ، بل ياليتنا نبلغ شأوهم ! وأقسم غير حانث أننا لو نشطنا نشاطهم وصدقنا صدقهم ، لكان للإسلام والمسلمين وللدنيا كلها شأن آخر ! ويرحم الله الإمام مالكاً فى قوله : « لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

٥ - يقول الأستاذ : « وقد انتهينا إلى عهد كثرت فيه الدعايات الدينية ، وتسلحت كل أمة بأسلحتها الأدبية ، من ترجمة كتبها المقدسة الخ » . ونحن نوافق الأستاذ على وجوب النشاط فى الدعوة إلى الإسلام ، وعلى وجوب التسلح بكافة الأسلحة المشروعة لهذه الدعوة ، ولكنا لا نوافقه على أن ترجمة القرآن بذلك المعنى العرفى العام مظهر من مظاهر هذا النشاط ولا سلاح من هذه الأسلحة . وإذا كان الأجانب قد ترجموا ما أسموه كتبهم المقدسة فإن المسألة أكبر من أن تكون مسألة تقليد مجرد ؛ كيف وطبيعة القرآن غير طبيعة هذه الكتب التى زعموها مقدسة ، بل طبيعة القرآن غير طبيعة سائر الكتب الإلهية والبشرية ، فإن مُنزله سبحانه قد صاغه صياغة جلت عن أن يكون لها مثال ، وأودعه معانى ومقاصد تنفد البحار ولا تنفد هى بحال ، ومسحه مسحة تحدى بسببها العالم ولا يزال يتحداه على مدى الأجيال ! « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

أما بعد فإن خلاف المختلفين فى الترجمة القرآنية يكاد يكون خلافاً لفظياً فى كثير من نقاط بحثها ، وإنى لأعتقد أنه إذا امَّحت العصبيات وحسنت النيات ، أمكن أن يتلاقى الجميع فى نقطة وسط لا إفراط فيها ولا تفريط ، وما أشد حاجتنا

إلى التصافى والتعاون والاتحاد ، فى هذا الزمان الذى نهكنا فيه التشاحن والتطاحن والشقاق .

وإنى فى الوقت الذى أجاهر فيه باستحالة ترجمة القرآن ترجمة عرفية ، أهيب بالقادرين منا أن يترجموا للأجانب ما استطاعوا من هدايات القرآن وتعاليمه ، وأن يترجموا لهم ما استطاعوا من العلوم الدينية كالتفسير والحديث والسيرة والأخلاق والفقه ، وأن يعالجوا شبهاتهم التى أطلقوها هنا وهناك فى الكتب والصحف والمجلات وفيما زعموه ترجمات للقرآن الكريم .

بل إنى لأعتقد أن العالم الإسلامى نفسه ، قد بات الآن فى أشد الحاجة إلى إخراج هدايات القرآن وعلوم الإسلام إخراجاً جديداً ، يساير أفكار المعاصرين ويرضى أذواقهم ويشبع حاجتهم ثم يدفعهم دفعاً إلى النهضة ، عن شعور قوى بعظمة الإسلام وجلال القرآن !

وختاماً أكرر شكرى لصديقى العلامة فريد بك ، راجياً أن يعيد النظر فيما كتبه ، وأن بفسح صدره وصدر مجلته الغراء للمناقشة إذا احتاج الأمر إلى مناقشة ، فإن الحقيقة بنت البحث ، وإلى الله نضرع أن يجمعنا على الحق « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

محمد عبد العظيم الزرقانى

المدرس بكلية أصول الدين

تعقيب على المقال السابق [١]

نشرنا ما أرسله إلينا فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ، رداً على النقد الذى وجهناه إلى ما نشره فى كتابه (مناهل العرفان) عن ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية ، ونرى أن نعقب عليه بكلمة لابد منها ، تجلية لحقيقة هذا الموضوع الجلل فنقول :

يقول فضيلته : « إن أداء ما وعاه الواعون من معانى القرآن باللغات الأجنبية ، لم أجعله أنا من المحالات العقلية ولا العادية ولا الشرعية ، بل قررت فى بحثى جوازه ، لكنى قيدت هذا الجواز بقيود . ومنعت أن يسمى ترجمة القرآن بإطلاق » .

لماذا ؟

قال فضيلته : لأن « طبيعة القرآن غير طبيعة سائر الكتب الإلهية والبشرية ، فإن مُنزله سبحانه قد صاغه صياغة جلت عن أن يكون لها مثال ، أودعه معانى ومقاصد تنفد البحار ولا تنفد هى بحال ، ومسحه مسحة تحدى بسببها العالم ، ولا يزال يتحداه على مدى الأجيال » .

نقول هذا كله مسلم به ، ولكنا لسنا بصدد الإتيان بمثل هذا القرآن ، وإنما نحن بصدد ترجمته ، وقد ترجمت فاتحته على عهد رسول الله ﷺ إلى الفارسية وصلى بها جماعة من الفرس ، ولم ينكر النبى ذلك . واستند على هذا الأثر الإمام الأعظم فأجاز ترجمة القرآن ، وأجاز الصلاة به لمن لم يعرف العربية ، بعد أن كان أجازها لمن يعرفها ومن لم يعرفها . وإليك ما جاء فى كتاب (المبسوط) لشمس الأئمة السرخسى صفحة ٣٧ من مجلده الأول قوله : « استدل أبو حنيفة بما روى أن الفرس كتبوا إلى سلمان رضى الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية ، فكانوا يقرأون ذلك فى الصلاة حتى لانت ألسنتهم » .

وقد أفتى الأستاذ الكبير الشيخ محمد بخيت ، وهو مفتى الديار المصرية ،

---

(١) المصدر السابق م ١٥ سنة ١٣٦٣ هـ

الترانسفاليين وقد سألوه عن إمكان الصلاة بترجمة القرآن ، بجواز الصلاة بها ، فإليك نص كلامه ننقله عن مجلد سنة ١٩٠٣ لمجلة المنار . قال :

« وفى (النهاية والدراية) أن أهل فارس كتبوا إلى سلمان الفارسى أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية ، فكتب ، فكانوا يقرءون ما كتب فى الصلاة حتى لانت ألسنتهم ، وقد عرض ذلك على النبى ﷺ ولم ينكر عليه » .

وزاد المرحوم الشيخ محمد بخيت فى بيانه فى تلك الفتوى فقال : « وتجوز القراءة والكتابة (أى القرآن) للعاجز عنها بشرط أن لا يختل اللفظ ولا المعنى ، فقد كان تاج المحدثين الحسن البصرى يقرأ فى الصلاة بالفارسية لعدم انطلاق لسانه باللغة العربية » . والحسن البصرى من أهل القرن الأول ومن أشهر أئمة المسلمين .

وهذا المفتى الكبير رحمه الله لم يخرج عن دائرة مذهبه ومذهب الدولة المصرية ، وهو مذهب أبى حنيفة ، الذى يبلغ عدد أتباعه نحو ثلثى عدد المسلمين ؛ فجميع الهنود ويبلغ عددهم نحو مائة مليون ، وجميع الصينيين وتبلغ عدتهم نحو خمسين مليوناً ، وجميع الترك وأهل التركستان الصينى والروسى ، ويرتفع عددهم إلى ثمانين مليوناً ، وأهل أندنوسيا ولا يقل عددهم عن ستين مليوناً ، يتبعون مذهب أبى حنيفة ، هذا عدا المؤتمين به فى سائر بلاد الإسلام ، فتكون جملتهم أكثر من ثلاثمائة مليون مسلم ، وهو قدر لا يقل عن ثلثى عدد جميع المسلمين فى الأرض .

وليس يخفى أن علماء الأحناف لم يخف عليهم شيء مما ذكره نظراؤهم من علماء المذاهب الأخرى ، فلم يروها تصلح أن تكون مانعة من ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية .

ولم تكن جمهرة الأئمة الأولين يحرمون ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية ، وإنما كانوا يحرمون القراءة بها فى الصلاة ، على اختلاف بينهم فى حظر ذلك . فأما الحنابلة فقد منعوا الصلاة بترجمته بتةً . وقد نقل فضيلة الأستاذ الشيخ الزرقانى عن ابن حزم قوله : « من قرأ أم القرآن أو شيئاً من القرآن فى صلاته مترجماً بغير العربية .... بطلت صلاته » . وعلل رحمه الله ذلك بقوله : « لأن الله تعالى قال : « قرآناً عربياً » ، وغير العربى ليس عربياً ، فليس قرآناً » .

وليس حتى فى هذا القول تحريم للترجمة كما ترى .

ونقل فضيلته عن كتاب « الأم » للإمام الشافعى قوله تحت عنوان (إمامة الأعجمى) : « وإذا ائتموا به ، فإن أقاما معاً أم القرآن ، ولحن أو نطق أحدهما بالأعجمية ، أو لسان أعجمى فى شيء من القرآن غيرها ، أجزأته ومن خلفه صلاتهم » .

قال أئمة الشافعية فى بيان هذا الكلام : إن الإمام والمؤتم به إذا قرآ الفاتحة بالعربية ، ثم قرأ الإمام الأعجمى شيئا من القرآن بعدها مترجماً بلسانه ، لا تبطل صلاته ولا صلاة من خلفه ، وإليك نص كلامهم : « فهذا النص يدل على أن اللسان الأعجمى بعد قراءة المفروض عنده وهو الفاتحة لا يبطل الصلاة ، وهو موافق للحنفية فى هذا » انتهى . ولا يخفى أن الإمام الشافعى لو كان يذهب إلى أن ترجمة القرآن محظورة كل الحظر ، لما أجازها فى الصلاة فى غير الفاتحة ، والصلاة أرفع أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهذا دليل ضمنى منه على إمكان ترجمة القرآن والترخيص بالصلاة به فى غير الفاتحة .

ومذهب المالكية هو إمكان ترجمة القرآن على الوجه المعروف عند أهل هذا العصر ، أى فى عباراته المطلقة الدالة على معان مطلقة ، فهو صريح فى ذلك كل الصراحة ، وقد نقل فضيلة الأستاذ الزرقانى عنه قول المحقق الشاطبى فى كتابه « الموافقات » ، وهو : « للغة العرب من حيث هى ألفاظ دالة على معان نظران : أحدهما من جهة كونها ألفاظاً دالة على معان مطلقة ، وهى الدلالة الأصلية ، والثانى من جهة كونها ألفاظاً وعبارات متعددة دالة على معان خادمة ، وهى الدلالة التابعة . فالجهة الأولى هى التى تشترك فيها الألسنة ، وإليها تنتهى مقاصد المتكلمين ، ولا تختص بأمة دون أخرى » .

وعليه فقد جوز الإمام الشاطبى ترجمة القرآن على الوجه الأول ، ورآه متعسراً على الوجه الثانى ليس بالنسبة للقرآن فحسب ولكن بالنسبة لكل كلام آخر .

وهل يقصد من يقولون بجواز ترجمة القرآن غير ترجمته على الوجه الأول ، وهل يعرف المعاصرون للترجمة معنى غير هذا الوجه ؟ إن المترجم المعاصر يقرأ ما يترجمه مثل قوله تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ، هل لكم مما ملكت

أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين * فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، يقرأها ويفهمها بالرجوع إلى ما قاله المفسرون ثم يضعها فى قالب أية لغة من لغات العالم ، فتجىء مطابقة من اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية بالفاظ وعبارات مطلقة مثلها ، ولو فعل غير ذلك اعتبر محرفاً . والمعاصرون لا يعرفون غير هذا الوجه من الترجمة . وإذا كانت فى نظر مثل الشاطبى وابن قتيبة وسائر علماء المالكية ممكنة ، فمسألة ترجمة القرآن لا تعتبر بدعة سيئة ، ونكون فى نظر الأمم خالصين من الشذوذ الذى يلاحظونه علينا من تجادلنا حول هذه المسألة .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن الشافعية يبيحون القراءة بترجمة القرآن فى غير الفاتحة ، والمالكية يبيحون ترجمته على جهة دلالته الأصلية ، والأحناف يبيحون الصلاة بالترجمة فى الفاتحة وغيرها لمن يجهل العربية ، حصلنا من وراء ذلك على رخصة شرعية بترجمته ترجمة رسمية .

لما عرض الإمام جار الله الزمخشرى لتعليل نزول القرآن باللغة العربية وحدها ، مع أنه مفروض على الأمم كافة وهم على لغات مختلفة قال فى حل هذا الإشكال :

« لا يخلو إما أن ينزل (أى القرآن) بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة ، لأن (الترجمة) تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ، فبقى أن ينزل بلسان واحد . فكان أولى الألسنة لسان الرسول لأنهم أقرب إليه ، فإذا فهموا عنه وتبينوه ، وتنوقل عنهم وانتشر ، قامت (التراجم) ببيانه وتفهمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم » .

هذا هو رأى أئمتنا وعلمائنا الأولين ، وهو يتفق وعقلية المعاصرين ، فلا يجوز لنا وفى عنقنا أمانة تبليغ هذا القرآن إلى الأمم كافة ، أن نضع أمام هذه المهمة

العالمية العراقيل ، بالتحرج مما لم ير أوائلنا حرجاً فيه .

نحن نعتقد أن القرآن الكريم قد بلغ الغاية فى سمو النظم ، وعلو الحكمة ، وجلالة المقاصد ، وبعد غور المرامى ، ولكننا لا نذهب بالغلو فى هذه الأوصاف إلى درجة التعطيل ، فليس هو بطِلَّسم تضل العقول فى فهمه ، أو بأحاج لا تصل منها الأفهام إلى حقيقة ، لأن هذا الفهم ينافى ما وصفه الله به ، إذ وصفه بأنه آيات بينات ، وقد أنزله ليتدبره الناس ويعقلوه ، ويعملوا بما فيه ؛ بل صرح بأكثر من هذا فقال : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ؟ » ، كررها أربع مرات فى سورة واحدة . ونص على أنه كان بمعناه فى لغات الأمم السابقة فقال تعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى » ، ومعنى هذا أنه يمكن التعبير عنه بألسنة الخلق كافة ، وإلا لما شرع هذا الدين للناس كافة .

إن المترجمين الأوربيين قد ترجموا الكتب الرمزية كالهيروغليفية المصرية والسانسكريتية الهندية الخ الخ ، فهل يقبلون منا أن نقول لهم : إن القرآن بوصفه ديناً عاماً يعنيكم كما يعنينا ، ولكننا لا نستطيع أن نعطيكم منه إلا ترجمة لتفسيره ، أما ترجمته على ما هو عليه بألفاظه المطلقة ومعانيه المطلقة فلا ؟ لا ، لا يتأتى لنا أن نقول لهم هذا ويقبلوه منا ، بل يدأبون على ترجمته على أسلوبهم ، ونكون نحن المسئولين عما يقع فيه من تحريف .

يقول فضيلته : « لا نستطيع أن نوافقه (يريدنا) على انحصار وسائل والدعوة فى ترجمة القرآن ترجمة صحيحة ، وإلا فأين تلك الترجمة التى قام عليها نشر الإسلام من لدن عهد الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه وعهد ازدهار الإسلام إلى يومنا هذا ؟ وإذا كانت هذه الترجمة التى ينوه بها الأستاذ لا وجود لها وهى واجبة كما يقول ، فهل قصر سلف الأمة وخلفها فى هذا الواجب ؟ وهل تجمع الأمة على ضلالة ؟ » .

نحن نقول :

(أولاً) لا محل لذكر الاجماع هنا ، لأنه لا يصدق إلا على عمل إيجابى أو سلبى اتفق عليه بعد إجالة النظر فيه ، لا على كل عمل أو وسيلة لم تتخذه

الأمة لعدم توافر دواعيه ، أو لعدم اقتضاء الأحوال إياه ، كالأمر الذى نحن بسبيله ، ولو كان إجماع الأمة ينعقد على كل ما لم يفعله أوائلها ، لما كان هنالك معنى للسنة الحسنة التى يقول عنها النبى ﷺ : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، ولاستدَّت فى وجه المسلمين كل وسيلة جديدة من وسائل الوصول للأغراض البعيدة ، إذا دعت إليها الدواعى أو اقتضتها الظروف ؛ فهذا الحديث يفتح أمام المسلمين باحات التجديدات النافعة . وقد أخذ صدر هذه الأمة بكل جديد مفيد صادفوه عند الأمم .

(ثانياً) إن انتشار الإسلام فى عهده الأول بين الأجانب لم يقم على ترجمة القرآن ، ولو كانت له ترجمة إذ ذاك لما أفادت بشىء ، لأن نسبة الأمية فى الأمم كانت كنسبة تسعة وتسعين إلى واحد ، وفى مثل هذه البيئات لا يفيد نشر الأديان بواسطة الكتب . زد على ذلك أن الحرية الدينية كانت مقيدة ، فلا يسمح رجال الدين للناس بأن يقرأوا ما يناقض كتبهم المقدسة .

فكان انتشار الإسلام فيهم إذ ذاك بالقدوة ، فإنهم لما آنسوا من الفاتحين عزوفاً عما بأيديهم من متاع الدنيا ، وعدالة لم يروا مثلها من حكوماتهم ، حتى إنهم كانوا ينصفونهم من أنفسهم ، ورحمةً بالضعفاء بحيث كانوا لا يفرقون بين الناس من أجل عقائدهم ، دفعتهم هذه المثل العليا إلى الدخول فى هذا الدين الذى يساوى بين الناس كافة ، وينشد أهله الفضيلة لذاتها . ولكننا فى زمان أضاعت جماعاتنا فيه المثل العليا ، وعولت فى أكثر تصرفاتها على عادات سيئة ، وبدع ينفر منها الطبع والذوق ؛ فلم يبق أمامنا من وسيلة للتعريف بالدين الذى عهد إلينا تبليغه إلا ترجمة كتابه ، فهل نحرم العالم من هذه الوسيلة أيضا ، وهم من شيوع التعليم فيهم بحيث لا يجهل القراءة منهم أكثر من خمسة فى المئة ، ومنهم أمم نسبة المتعلمين فيها مائة فى المائة ؟

فسلفنا الصالح لم يقصروا فى هذا الأمر ، ولو فعلوه قبل أن تتقرر الحرية الدينية بين الشعوب لما أفاد شيئا ، إذ كانت تصادَر الكتب ، ويحكم على مقتنيها بالإعدام ، وهذه الحرية لم تتقرر إلا بعد الثورة الفرنسية ، أى بعد سنة (١٧٨٩) .

هذه هى الأسباب التى صرفت آباءنا عن الدعوة للإسلام بنشر تراجم لكتابه . أما قرأنا فى تاريخ أوربا أن القائمين على الدين هنالك كانوا قد أقاموا هيئات سموها محاكم التفتيش ، مهمتها مراقبة الحركة العقلية فى الناس ، حتى إذا آنست أن عالماً منهم وضع كتاباً علمياً فيه بعض المخالفة لكتبهم قبضوا عليه وعاقبوه بالموت حرقاً ؟ فما ظنك بمن يقتنى كتاباً يدعو إلى دين جديد ؟

وهناك عقبة كانت تجعل ترجمته كأن لم تكن وهى عدم وجود أداة النشر وهى المطبعة ، وهى لم تخترع على علاتها إلا فى القرن الخامس عشر ، ولم تدخل بلاد المسلمين إلا على عهد المغفور له محمد على ، أى منذ نحو مائة وخمس وعشرين سنة .

لهذا أهبنا بأئمتنا منذ سنين أن ينشطوا لاتخاذ الأهب العصرية لنشر الإسلام ، وأهمها ترجمة كتابه إلى اللغات الأجنبية ، وتوزيع ملايين من نسخه فى العالم كله كما يفعل أئمة الملل الأخرى ، أما ما يستحسنه فضيلة الأستاذ من الاقتصار على نشر تعاليمه وهداياته فلا يفيد ، ولو كان يفيد لعول عليه منافسونا من أهل الأديان ، وهم أعرف منا بأساليب النشر والتأثير ، لأن الشك يفسد على المدعوين كل ما يستفيدونه من أثر الدعوة ، ويعتبرونها من الألاعيب البيانية ، والمداورات الخلابية ، فلا تقنعهم غير النصوص الكتابية .

لما كان المسيو لامبير ناظراً لمدرسة الحقوق عرض له ذكر المذاهب الفقهية فزعم أن المسلمين قصروها على أربعة ؛ فقال له بعض الطلبة إن الإسلام لا يوصد باب الاجتهاد إلى يوم القيامة ، فرد عليهم بقوله : إنكم تستخدمون ثقافتكم فى فهم الدين وتخلعون عليه ما ليس فيه ، ولم يسلم بما قالوا . فلو اكتفى المسلمون بنشر هدايات القرآن باللغات الأجنبية لأنهم المسلمون بهذه التهمة نفسها ، فتصبح غير مغنية عن ترجمة الكتاب نفسه .

□ □ □

الفلسفة بين الوجود والفكر (١)

- ١ -

يذكر كثير من مؤرخي الفلسفة ، وفى مقدمتهم فندلبند Windelband ، أن الفلسفة لا يحدها تعريف واحد ، وليس لها ضابط عام ، لاختلاف الموضوعات التى تناولها الفلاسفة بالبحث فى العصور المتعددة ؛ ويذكرون أن كل فيلسوف كان يحدها بالموضوع الذى يميل أو قد يضطر إلى بحثه ؛ وهذا صحيح إلى حد ما .

ولكن لو ألقينا نظرة عامة على ما تناوله البحث الفلسفى منذ القدم حتى الوقت الحاضر لوجدنا أن هذا الذى تناوله البحث الفلسفى ، على سعته وتشعب أطرافه وكثرة تفاصيله ، يرجع إلى موضوعين أساسيين : إلى « الوجود » وإلى « الفكر » . وطبيعة العصر هى التى كانت توجه نظر المفكرين إلى بحث واحد دائر بينهما على أنه الأصل وعلى أن الآخر إضافى له .

***

فالفلسفة منذ أن تفلسف الإنسان حتى آخر القرون الوسطى ، أى إلى آخر القرن الخامس عشر تقريباً ، كان موضوع بحثها الرئيسى هو الوجود ، وكانت صبغته العامة هى الصبغة الميتافيزيكية . فأفلاطون يقول : الفلسفة هى معرفة الوجود ؛ وعند أرسطو : علم ما وراء الطبيعة . والعصور الدينية بعد ذلك على تنوعها تراها فى بحث الوجود وعلة الكون . ومعنى أن الفلسفة إلى آخر القرون الوسطى كانت تبحث فى « الوجود » أنها كانت تحاول تحديد أصل الكون ، وتحديد هذا العالم ، وتحديد علاقته بعلة الكون ، وتحديد غايته ومصيره . ومهما اختلفت الفلاسفة فى هذه الفترة ، واختلف طابعهم ، من فرضى خيالى ،

---

(١) نقلاً عن المجلّد الثانى عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٠ هـ - ص ٤٣ وما بعدها .

أو منطقى طبيعى ، أو دينى . ومهما اشتد التفاوت فى طرق بحثهم وفى المبدأ الذى حاولوا منه الشرح والتعليل ، فغايتهم جميعاً كانت واحدة وهى معرفة الوجود الأزلى - أو الله - وتحديد درجات الموجودات الأخرى منه .

ترى أفلاطون ، وهو أول فيلسوف إغريقى له نظام فلسفى خاص به ، يضع مبدأ « المثل » ليصل منه إلى التمييز بين « الوجود » الباقى « والوجود » الفانى ، أو بين الوجود الحقيقى وما له شبه بالوجود ، وليتخذ من هذا الوجود الحقيقى علة لشبه الوجود ، وشرحاً لما هو حاصل فيه . وبهذا يجعل من عالمنا الفانى تابعاً له هو علة له ، وهو الوجود الحقيقى - الله ، أو المثل ، وعلى رأسها مثال الخير - فى النشأة وفى المصير . و« الوجود » إن كان - فى نظر إفلاطون - فى غاية الكمال ، فما هو شبيه به (وهو العالم) يطرأ عليه النقص بسبب ما خالطه من مادة . والإنسان جزء من هذا العالم فعليه أن يسعى لتكميل نفسه بعدم تلبية رغبات المادة ، بالزهد وبالعلم .

ومع أن أفلاطون لا يلقب بالفيلسوف المنطقى - لأن عنصر « الفرض » يسود تفلسفه ، ولأن معظم ما كونه من آراء لا يمكن التمادى فى تعليله ، ولا فى مناقشته مناقشة عقلية - لا يفترق عن أرسطو **المنطقى** إلا فى الطريقة التى سلكها كل منهما فى تفلسفه ، وفى شرحه للوجود . فغاية أرسطو فى بحثه كانت أيضا تحديد الوجود **الواجب** ، وتحديد علاقته بالوجود الممكن ، تحديد المبدأ الأول وعلاقته بالعالم . وهو وإن لم يصرح بتبعية الثانى للأول - لأنه طبيعى يحاول شرح الشىء من نفسه لا من أمر خارج عنه كما هو شأن الإلهى ، وهما طريقتان فى البحث الفلسفى - إلا أنه فى شرح أحدهما بالآخر يجعل غاية الوجود الممكن ، وهو هذا العالم ، السعى إلى التقرب من الوجود الواجب ، والوصول إلى درجته فى الكمال . وبنى ذلك على ما فرضه من مبدأ عام له ، وهو مبدأ التطور ، أو مبدأ الصورة والمادة .

وليس بغريب أن أهمية البحث الفلسفى الإغريقى تكاد تكون وقفا أولاً وبالذات على « الوجود » ، وأن تكون فكرته الرئيسية هى « فكرة الوجود » ، لأن تفلسف الإغريق لم يكن كله ابتكاراً بل غالبه « انتزاع » لآراء كانت منثورة فى الأساطير الدينية Mythologie ، وتعديل قائم على النقد لبعض العقائد الشعبية

الموروثة ، فلم يتخلص تماماً من الدين ، ولا من أصل فكرته ، وإن لم تكن له قداسته . وطبيعة الدين تعنى أول ما تعنى بإعطاء صورة عن الخالق – وهو المبدأ الأول أو العلة الأولى فى تعبير الفلاسفة – فى غاية الكمال تستحق وحدها وصف **الوجود** ، ثم بإعطاء صورة أخرى عن علاقته بمخلوقاته . وهم على كل حال دونه مرتبة وكمالاً .

فالفلسفة وإن ادعت الاستقلال فى البحث ، بعيدةً عن التأثر بمصادر الدين ، فقد قلدته – على الأقل فى عهدها الأول – فى اتجاهه ، وفيما يعنى به . فاتجهت إلى « الوجود » وعنيت بشرح « مبدئه » ، وأطلقت على ذلك « ما وراء الطبيعة » ، وسماه الدين « مصدر الفيض » . والدين فيما يحكيه عن مصدر الفيض أو مصدر الوجود يعتمد على الوحى السماوى (العلوى) ، بينما تعتمد الفلسفة فى بحثها فى « ما وراء الطبيعة » على أداة من نفس الطبيعة ، أى على الإنسان . ولذا كان حكمه ، مهما بدا فى صورة منطقية ، على عالم ما وراء الطبيعة ، حكم الأجنبى على غير بيئته ، حكم المتخيل غير المجرب .

والفلسفة الدينية ، وهى الفلسفة المسيحية والإسلامية واليهودية ، لم تخرج عن تقليد الفلسفة الإغريقية فى العناية بموضوع « الوجود » وإن كان على أساس التقيد بما ورد فى العقيدة الدينية . ولذا كانت ترى أن مهمتها فى التوفيق بين ما ينسب إلى فلاسفة الإغريق من جهة ، وبين ما يقوله الدين من جهة أخرى ، أكثر من الاستمرار فى البحث على أساس الاستقلال ؛ الأساس الذى تميزت به الفلسفة عن الدين . فرجال الأفلاطونية الحديثة ، والفنوسطية ، وآباء الكنيسة ، وفلاسفة المسلمين ، وفلاسفة اليهود – كموسى بن ميمون – عُنوا ببحث الوجود ، وعلة الكون أيما عناية ، محاولين تفلسف الدين ، أى التقريب بين وجهتى نظر الفلسفة والدين .

وإذاً فقد كان قوام تفلسف الإغريق فيما قبل الميلاد ، وتفلسف رجال الدين فيما بعده حتى آخر القرون الوسطى ، واحداً ، وهو تحديد « الوجود » ؛ ولكن فى نظر الفلاسفة باسم علة العلل ، وفى نظر علماء الدين باسم الله . وليس معنى ذلك أن بحث الفلاسفة كان قاصراً على تعرف العلة الأولى ، وبحث رجال الدين لم يتجاوز الله ، بل العلة الأولى أو الله كان بدء البحث – وجوهره كذلك –

فى نظر الفريقين .

***

منذ عصر النهضة ، أى منذ أن تحول البحث وتحول الاتجاه فيه عن « ما وراء الطبيعة » إلى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون إلى الكون نفسه ، انتقلت عناية البحث الفلسفى بالتدريج شيئاً فشيئاً إلى الإنسان وإلى « عقله وفكره » ؛ وابتدأنا نرى ديكارت يعرف الفلسفة بالعلم لأصول المعرفة الإنسانية ؛ وهيجل من بعده يحدها بعلم العقل المفكر . وحل الفكر الإنسانى فيما بعد عصر النهضة محل « الوجود » أو المبدأ الأول فى العهد القديم ، سواء أكان فى العناية ببحثه أو فى الاعتداد به . ولكن مع ذلك ، وإن كان منزلة إظهاره إلى حد بعيد ، لم يغفل هنا بحث ما وراء الطبيعة ، كما لم يغفل هناك فى العصور الأولى للفلسفة بحث الإنسان .

هذا التحول يرجع فى بدء الأمر ، أى فى أول النهضة ، إلى رغبة الباحثين فى تجنب الاحتكاك برجال الكنيسة خشية أن ينالهم من سلطانهم أذى ، ثم فيما بعد إلى تحديد معنى العلم الذى تأثر إلى حد كبير بالأبحاث الطبيعية التجريبية والأبحاث الرياضية النظرية . ففى القديم كان معيار العلوم المفاهيم الكلية ثم المنطق الصورى . والآن أصبحت التجارب والتحديدات الرياضية هى المقياس الذى الذى يحتكم إليه فى وصف « المعرفة » باليقين أو الاعتبار العام . ولاشك أن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيراً عما يطلبه المقياس العلمى الحديث . فتعرضُ الباحث لها إذاً – على أنها الأهم كما كان الحال فى القديم – حكم منه على نفسه بالعزلة عن بيئة الوقت العلمية ، وعن موضوع التنافس فى البحث ؛ ولذا رأى « كانت » أن اختصاص الفلسفة كعلم هو الناحية العملية وتحديد الحياة الواقعة . أما القسم الإلهى فإن بحثه فلا يحق لها أن تطلب لهذا البحث صفة العلم اليقينى .

وقد كان من أثر التحول والاتجاه أن تطرف بعض الباحثين ، وهم الملقبون بالعقليين (Rationalisten) ، فى تقويم الإنسان ، فقطعوا صلته بالعالم العلوى

ولم يصبح « منحدراً عنه » ولا فى معرفته معلقاً به كما كان الحال فى مدارس الإغريق (أفلاطون وأرسطو) . ولم يصبح علمه « فيضاً » ولا غايته « تشبها بالله » أو اتحاداً به » كما أرادت المدارس الدينية بعدها ، بل أصبح علمه من « ذاته » وإرشاده من « نفسه » ، وأصبح هو الذى يفيض من نفسه على نفسه ، وصاحب الكلمة فى هذا الكون .

وكلما مال المقياس العلمى إلى التجربة وإلى التحديد المادى ، مال البحث فى دائرة الإنسان عن الناحية التى يشوبها الظن أو الخيال فيه ، إلى الناحية التى هى أقرب إلى المشاهدة . وبهذا تولدت ، منذ آخر القرن التاسع عشر ، الرغبة فى بحث تصرفات الإنسان أكثر من بحث عقله ، وفى بحث طريق اكتسابه المعرفة أكثر من إمكان استقلال معرفته عن التجارب أو عدم إمكانها . وأصبحنا نرى أبحاثاً نفسية تجريبية بجانب الأبحاث الإنسانية العقلية . أصبحنا نرى علم النفس التجريبى بجوار « نظرية المعرفة » وبجوار « مبدأ الواجب » .

فإذا كانت أبحاث ما وراء الطبيعة هى التى لعبت الدور الأولى فيما قبل الميلاد حتى القرن الخامس عشر بعده ، فالأبحاث الانترويولوجية هى التى تركز فيها تفكير الإنسان منذ عصر النهضة حتى أوائل القرن العشرين . وإذا تميزت فلسفة الماضى البعيد بأنها (Transjendenz) ففلسفة الحاضر والنهضة من قبل (Immanenz) .

محمد البهى

مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

هل من فلسفة إسلامية [١] ؟

– ٢ –

نشرنا هذا البحث الممتع لحضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى ، ولسنا نعقب على ما كتبه لنرد عليه ، فإن كل ما كتبه صحيح فى ناحية الفلسفة المادية ، ولكن مجلة الأزهر متى كتبت فى الفلسفة فلا يجوز لها أن تقتصر على الناحية المادية منها ، ولا أن تغفل ذكر ما أصاب هذه الفلسفة من تدهور وسقوط أمام المكتشفات الحديثة .

ذكر حضرته الفلسفة الدينية وفسرها بأنها المسيحية والإسلامية واليهودية ؛ وذكر أن مهمتها كانت التوفيق بين ما يُنسب إلى فلاسفة الإغريق من جهة وبين ما يقوله الدين من جهة أخرى ، أكثر من الاستمرار فى البحث على أساس الاستقلال ، الأساس الذى تميزت به الفلسفة عن الدين . ولكن منذ عهد النهضة فى أوروبا (أى فى القرن الخامس عشر والسادس عشر) تحول البحث عن (ما وراء الطبيعة) إلى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون (أو الله) إلى الكون نفسه . ثم قال : إن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيراً عما يطلبه المقياس العلمى الحديث ، فنعرُّض الباحث لها ، كما كانت الحال قديماً ، حكمٌ منه على نفسه بالعزلة عن بيئة الوقت العلمية ... الخ الخ .

هذا كلام لا شية فيه من ناحية تصوير النزعة الإلحادية للفلسفة المادية ، وكل ما يعنينى من إيراده أن أنبه القارئين أنه لا توجد فى الإسلام فلسفة مستمدة من الخارج يمكن أن توصف بالدينية أو الإسلامية ، وكل ما وجد فى عهد نهضة المسلمين ، أن أفراداً منهم أُغرموا بالثقافة اليونانية القديمة ، فأخذوا إخذها فى الفلسفة ، واشتغلوا بدراسة مذهبى أفلاطون وأرسطو ، وأوسعوهما تفلية وشرحاً ، حتى صاروا زعماءهما على عهدهم . ولست أنكر أن هؤلاء حاولوا تطبيقهما على الإسلام ؛ ولكن أئمة الدين ، فى كل زمان ومكان ، أنكروا عليهم ذلك ،

---

(١) المصدر السابق م ١٢ سنة ١٣٦٠ هـ

وجاء حجة الإسلام الغزالى فى القرن الخامس من الهجرة ، فبيَّن قصر نظرهم ، وضعف أدلتهم فى كتاب مشهور له ، دعاه بتهافت الفلاسفة . والتهافت لغة : التساقط قطعة قطعة هلاكا وتلاشيا . فيقال : تهافت القوم : أى تساقطوا موتاً ؛ وتهافت الثوب : أى تساقط وبلى .

فإذا كان قد حدث فى الفلسفة تطور منذ عهد النهضة العلمية الحديثة ، فرجع عن أساسها الإغريقى وهو البحث فيما وراء الطبيعة إلى البحث فى الطبيعة نفسها ، وعن البحث فى علة الكون أو الله إلى الكون نفسه ، واعتبرت الفلسفة القديمة لهذا السبب عتيقة رثة ، لا يجوز أن يشتغل بها إلا من يريد أن يتخطى المقياس العلمى الحديث ؛ قلنا إذا كان قد حدث هذا ، وهو لم يحدث إلا فى ناحية الفلسفة المادية ، فلا يصيب الإسلام منه شيء وإنما يصيب تلك الفلسفة التى اشتغل بها رجال من أهله منذ نحو ألف سنة . بل يشهد هذا الرجوع عنها ببعد نظر أئمة المسلمين الأولين الذين كرهوا الاشتغال بها على الأسلوب اليونانى ، وبثقوب رأى حجة الإسلام الغزالى فى وصف الذين كانوا يشتغلون بها بالتهافت .

ليس فيما نقوله ما يؤيد قول خصوم الإسلام : إنه يصد عن الفلسفة ، ولكنه يؤيد أنه يصد عن الخبط فيما ليس فى متناول العقل الإنسانى القاصر إدراكه من حقيقة هذا الوجود الضخم ، وعن الجمود على خيالات تعتبر مسلمات ، ويُبنَى عليها ما يشاء الهوى من أوهام لا تقف عند حد ، ثم يتبين فسادها فيما بعد .

كان أساس الفلسفة اليونانية أن للوجود أصلاً هو الجوهر الفرد . وما هو هذا الجوهر الفرد فى نظرهم ؟ كانوا يقولون إنه جرم مادى متناه فى الصغر ولا يقبل الانقسام ، تألفت منه جميع ما فى العالم من الأجرام العلوية ، وما على الأرض من الأجساد النباتية والحيوانية . وهذا الأصل المادى قديم أزلى . وقد اختلفوا فى علة تنوع الصور التى نشأت منه ، فبعضهم كان يقول إنها نشأت بإرادة إله قادر حكيم ، قدَّر لكل منها الصورة التى هو عليها ؛ وبعضهم كان يقول بأنها نشأت على طريقة الاتفاق والخبط .

وكان الأولون يثبتون للإنسان روحاً غير مادية ، تخلد فى عالم أرقى من هذا العالم ؛ والأخيرون ينكرون الروح ويزعمون أن الإنسان يفنى بفناء جثمانه ؛

وللفريقين فى إثبات الروح ونفيها ، وفى إثبات المعاد ونفيه ، أقوال كلها مستمدة من عالم الخيال . فهى ملتطم من نظريات ساذجة ، وأوهام باطلة ، ليس عليها من مسحة العلم إلا ما أودعته من العبارات المؤنقة .

قلنا : إن أئمة الإسلام قاوموا الفلسفة اليونانية فى أول ظهورها ، وثابروا على منابذتها لا بالوسائل التعسفية كما فعل سواهم ، ولكن فى مجال البحث الحر ، وهم ما فعلوا ذلك ليعيشوا بدون فلسفة ، معيشة السذج البُلْه ، ولكنهم فعلوه لأن الإسلام نفسه أتاهم بحكمة ذات أصول مقررة فى كتابه ، وجدوا الفلسفة اليونانية بجانبها قاصرة . ونحن الذين بُلينا فى هذا العهد بوجوب الأخذ بفلسفة نقوِّم بها عقولنا ، ونسترشد بأصولها فى ثقافتنا ، وجب علينا أن نعرض على أفهامنا مبادئ جميع الفلسفات ، وما انتهت إليه العقول من أشكالها لنأخذ بأحسنها .

فلنترك هذا الموضوع جانباً الآن لنعود إليه بعد .

قلنا : إن كل ما كتبه حضرة الأستاذ الدكتور البهى صحيح من ناحية الفلسفة المادية . فهى التى حولت البحث عما وراء الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون (أو الله) إلى الكون نفسه .

ونريد هنا أن نقول : إنها فعلت ذلك ذهاباً منها أن ليس للطبيعة وراء غير العدم ، فماذا ترجى أن تجد فى العدم ؟ وأن ليس للكون علة أوجدته ، فهو قديم بمادته وقواه ؛ فعلام البحث عن الله ؟

ولكن ليس جميع المفكرين على هذا الرأى ، وخصوصاً فى هذا العهد الذى حطمت فيه المكتشفات الحديثة أصول المذهب المادى تحطيماً ذريعاً ، فقد ظهر فيه عملياً أن مذهب الجوهر الفرد المادى وهم من الأوهام ، وهو أساس الفلسفة المادية ، إذ ثبت ثبوتاً قاطعاً أن المادة المحسوسة مؤلفة من كهارب ، وقد اكتشفت وسيلة لتحليلها وأحالتها إلى قوة مجردة عن المادية . وقد قام علماء كثيرون بتجارب على الشخصية الإنسانية فشوهد أن لها وجوداً مستقلاً واتصالاً بعالم أرقى منها ، فأصبح بذلك كشف ما وراء الطبيعة أمراً لابد منه لإمكان فهم الوجود المادى على حقيقته . وقد تأثرت العقلية الفلسفية بهذه المكتشفات إلى حد بعيد ،

حتى أحدثت انقلاباً خطيراً فى وجهات النظر العلمية . جاء فى مجلة المقتطف فى مجلد سنة (١٩١٨) تحت عنوان (البحث الفلسفى الحديث) ما يأتى :

« من يطالع ما ينشر من الكتب والمقالات الفلسفية يجد أن أصحابها مالوا عن الطريقة العلمية إلى الطريقة الروحية » .

ثم أنحت المجلة على هذا التحول بالاستنكار ، فرأينا أن نلاحظ على هذا الاستنكار بمقال أرسلناه لتلك المجلة ، فنشرته فى عددها الذى صدر فى يناير سنة ١٩١٩ ، قلنا فيه بعد أن أوردنا قولها :

هذا كلام صريح بأن الميل العام أخذ يتجه غير الوجهة المادية فى المباحث الفلسفية . وهو حادث جلل فى تاريخ الفلسفة الأوروبية لا يصح أن يهمل أمره ، ولا أن يعلل تعليلاً بنظرة عجلى ، فإن أوروبا التى بلغت أشدها فى المباحث المادية ، وذاقت ثمار جهادها فيها عدة قرون ، لا تظهر فيها مثل هذه الحركة اعتباطاً ، ولكن لابد لذلك من علل جديرة بإنعام النظر » . ثم طالبنا المجلة بوجوب النظر فى تلك العلل وتقديرها .

ونقول هنا : إن العالم الفلسفى لم يكن فى عهد من عهود تاريخ الإنسانية العقلى ، على مثل ما هو عليه اليوم من التداعى والتفكك ، فجميع النظريات العلمية الكبرى التى كان يظن أنها تمثل الحقائق الثابتة وُضعت اليوم فى الميزان ، وظهرت الثغرات التى كانت محجوبة عن الأنظار فيها ظهوراً أفقدها الثقة التى كانت لها إفقاداً لا مرد له ، وأصبح الناس يتطلعون إلى نظريات على الوجود والموجودات تناسب المكتشفات الحديثة فى عالمى المادة والروح معاً .

قال الفيلسوف الكبير (جيو) (Guyau) فى كتابه « لا دينية المستقبل » (de l'Avenir l'Irreligion) ناقداً المذهب المادى ، وهو كما يدل عليه اسم كتابه ليس من أنصار الأديان :

« إذا وُسِّع المذهب المادى وجب عليه أولاً نسبة الحياة إلى العنصر العام ، بدلاً من أن يفترضه مادة عمياء . قال الفيلسوف (سبنسر) : « كل جيل من الطبيعيين يكتشف فى المادة الموصوفة بالعمى ، قوى ما كان يحلم بوجودها أعلم

علماء الطبيعة قبل ذلك بسنين معدودة » ، ذلك لأننا لما رأينا أجساماً جامدة تحس رغماً عن جمودها الظاهر بتأثير قوى لا يحصى عددها ، ولما أثبتت لنا آلة التحليل الطيفى (السبكتروسكوب) بأن الذرات الأرضية تتحرك بالاتفاق مع الذرات الموجودة فى الكواكب ، ولما اضطررنا إلى أن نستنتج من ذلك أن ذبذبات لا يحصى لها عدد تخترق الفضاء فى كل وجهة وتحركه ، لما رأينا ذلك كله وجب علينا أن ندرك كما يقول « سبنسر » : « أن الوجود ليس بمؤلف من مادة ميتة ، بل هو وجود حى فى كل جهة من جهاته ، حى بأعم معانى هذه الكلمة إن لم يكن بأخص معانيها » . ثم عاد « جيو » فقال :

« الاصلاح الثانى الذى يحتاج إليه المذهب المادى لكى يفى بحاجة البحث عن العلل الأولية ، هو أن يفترض أن للمادة مع الحياة جرثومة روحانية . وبما أن هذه المادة الأولية هى عبارة عن قوة صالحة للحياة وللفكر معا ، فليس هذا ما يفهم عملياً ولا علمياً من معنى المادة ، فضلاً عما يفهم من معنى الأيدروجين (الذى يظن البعض أنه المادة الأولية) . فالمادى البحت الذى يلمس بيديه كرة الدنيا معتمداً على الحاسة الغليظة ، وهى حاسة اللمس ، يصيح قائلاً : الكل مادة ! ولكن المادة نفسها تستحيل فى نظره إلى قوة (كما ثبت من تحليلها) ، والقوة ليست إلا صورة من صور الحياة ، وعلى هذا يستحيل المذهب المادى إلى مذهب روحانى . وتجده مضطراً أمام الكرة الأرضية الدائرة لأن يقول : إنها حية . وإذ ذاك يتدخل شخص ثالث يضرب هذه الكرة برجله كما فعل غاليليه ، ويقول نعم هى قوة ، بل حركة ، بل حياة . ومع ذلك فهى أيضا شىء آخر لأنها تفكر فىَّ ، وتدرك ذاتها بى . » انتهى كلام الفيلسوف جيو .

نعود نحن فنقول : ما الذى حدث فى العالم حتى أصبحت المذاهب التى كانت تزعم أنها راسخة رسوخ الجبال ، تتطاير شعاعاً أمام النقد الصارم ؟ حدث ما يحدثك عنه الأستاذ الكبير (جوستاف لوبون) مكتشف تحليل المادة إلى قوة ، كما جاء فى كتابه تحول المادة : (La transformation de la matière) .

« دامت الثقة فى صحة المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها إلى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمى (تأمل) ، الذى كان لا يرى صدوعَه إلا عدد قليل من العقول العالية ،

بأن يتزعزع فجأة بشدة عظيمة ، وصارت التناقضات ، والمحالات العقلية التى فيه ظاهرة للعيان ، بعد أن كانت من الخفاء بحيث لا تبلغها الظنون .

« أدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون : هل كانت الأصول المؤلفة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية ، أكثر من افتراضات واهية تحجب تحت غشائها جهلا لا يسبر له غور ؟ »

وقال الأستاذ العلامة الرياضى هنرى بوانكاريه العضو بالمجمع العلمى الفرنسى ، فى مقدمة كتابه العلم والافتراض (La science et l'hypothèse) صفحة ١ :

« لما تروَّى العلماء قليلاً لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وأن التجربة لا تستغنى عنها كذلك ، حين ذاك سأل بعضهم بعضاً : هل هذه الصروح العلمية على شىء من المتانة ؟ وتحققوا أن نفخة واحدة تجعل عاليها سافلها . فمن ألحد على هذا الوجه صار سطحياً أيضا ، فإن الشك فى كل شىء أو الاعتقاد بكل شىء يعتبران حلين قليلى الكلفة ، فإن كلا منهما يعفينا من إعمال الروية » .

نفخة واحدة قد تنسف هذه المقررات العلمية المعتبرة اليوم يقينية ، وتجعل عاليها سافلها ! هكذا يقول الأستاذ الرياضى الكبير هنرى بوانكاريه ، فماذا يكون كلام المحبين للعلم ، الراغبين فى أن يروا له حرما آمنا من الانقلابات والزعازع ، كما كان الناس يتخيلون ذلك له من قبل ؟

ذلك ما لا سبيل إليه ، فما دام الوجود غير محدود ، ووسائل الإنسان لدراسته قاصرة على ما تؤتينا به حواسنا الخمس ، وهى لا ترى منه إلا القشور الظاهرة وفى ناحية منه صغيرة ، فلا يمكن أن ينتهى الإنسان منه إلى مقررات يقينية لا تتزعزع .

وقد أجاد العلامة الكبير (الدكتور جوستاف لوبون) مكتشف تحليل المادة فيما قاله فى هذا الصدد فى كتابه تحول المادة المذكور آنفاً :

« من حسن الحظ لا شيء أكثر ملاءمة للترقى من هذه الفوضى العلمية . فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذى يحجبها عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التى تفرضها علينا تقاليد العلم الرسمى ، فلا يمكن عمل أية خطوة إلى أمام إلا بعد تفكك عُرَا الآراء السابقة . والأمر الشديد الخطر على ارتقاء العقل الإنسانى ، هو تقديم الظنيات للقراء لابسة حلل الحقائق المقررة ، على نحو ما تفعله كتب التعليم ، والتطاول لوضع تخوم للعلم ، ورسم حدود لما يمكن معرفته كما كان يود ذلك (اجوست كومت) » .

نقول : إذا كان العلم الذى كان معتبراً فى قرار مكين من الثبوت والرسوخ قد انتهت مقرراته السابقة إلى ما ترى من تزعزع الأركان حيال المكتشفات الجديدة ، فما ظنك بالفلسفات وهى لا تقوم إلا على تلك المقررات ، ولا توصف باليقينية لأنها من عالم التفكير والاستنتاج ، وقد اختُلف فيها حتى بلغت بأصحابها أبعد حدود التناقض ، وهو أمر لا يحتاج لبيان ؟

وبعد :

فإن ما نشهده فى هذا العصر من هذه الثورة العلمية والفلسفية ، ستكون له آثار بعيدة المدى فى الطأمنة من كبرياء علماء الطبيعة والفلاسفة معا ، فقد كانت وصلت بهم الخيلاء إلى أبعد حدود التمرد ، حتى زعموا أنهم يستطيعون أن يعللوا جميع الظواهر الوجودية ، حتى الروح الإنسانية والقوى العقلية ، بعدد قليل من النواميس الطبيعية ، وهذا من الغرور الذى لا علاج له إلا ما أصابهم من هذا الإبلاس الذى فاجأهم من هذه المكتشفات فى عالم الطبيعة المادية نفسها ، لا فى عالم الروح كما قد يتوهمه بعض قراء هذه المجلة .

ونحن حين نقدم لقومنا ثمرة ما حصلناه من العلوم والفلسفة ، لا يجوز لنا أن نقدمها إلا على هذا النحو من النقد والتمحيص والتفلية ، فإن المسلمين بما طولبوا به من إقامة مبدأ التثبت عملاً بقوله تعالى : « يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ، لا ينبغى أن تُحمل إليهم المعلومات إلا محاطة بوسائل التثبت والنقد ، لكى يستطيعوا أن يستصفوا منها اللباب المحض

فيأخذوا به ، أو يتميزوا الظنى المرجوح فيعرفوه ولا يغتروا به . وقراء هذه المجلة الذين يستنزلون المعرفة الحقة من ناحيتها لهم الحق فى هذا الاحتياط نفسه .

لو سرنا على هذا السمت خدمنا المسلمين وقراء مجلة الأزهر خدمة تؤتى ثمراتها اليانعة مباركة موفورة ، وحميناهم من نُفاية الآراء الضالة التى قد تبقى مادة للدراسة مدة طويلة قبل أن تأخذ طوراً جديداً كما يقول الأستاذ الدكتور (جوستاف لوبون) فى مقدمته التى نشرنا هنا فقرات منها ، فقد قال :

« لا مشاحة فى أن الأصول التى كان العلم يختال بها اختيالاً لم تزُل كل الزوال ، ولكنها سبتقى أمداً طويلاً فى نظر الدهماء كحقائق مقررة ، وستستمر الكتب التعليمية على نشرها ، ولكنها قد فقدت كل ما كان لها من مكانة فى نظر العلماء الحقيقيين » .

ولما كانت العلوم الطبيعية وفلسفتها أُصبحت تنهمر على دور الدراسات الإسلامية ، فقد أضحى واجباً على مجلة الأزهر أن تقف لها بالمرصاد ، فتنبه على جهات الضعف فيها ، وعلى ما رآه النقاد من ثُلَمها ، مع شفعها بتفصيل العوامل التى قضت على العلماء بأن يتنبهوا لانخداعهم بها .

هذه الدراسة التحليلية لنظريات العلوم وللفلسفة المبنية عليها إن اعتبرت واجبة فى ذاتها ، فهى لطلاب الحقائق الدينية أوجب ، لأنها تؤمِّنهم خطر التدهور فى مزدلقات الآراء الإلحادية ، وتهديهم إلى طرق تمحيصها بحيث ييأس مريدو فتنتهم أن يهاجموهم من قِبَلِها .

لقد كانت العلوم الطبيعية وفلسفتها فى جميع أدوارها خصماً عنيداً لطلاب الحقائق العلوية ، حتى جاء زمان كان لا يجرؤ فيه الباحث فيما وراء الطبيعة من العالم غير المنظور أن يُظهر نفسه ، تفادياً من أن يسخر منه الناس ويعتبروه من ذوى العقول الساذجة ، ولكننا أصبحنا فى زمان يعتبر فيه من يُغفل هذا البحث ، مكتفياً بالقشر عن اللباب ، وليس هذا من سلامة الفطرة ، وصحة النظر فى شىء . فعلينا أن نمضى مع العلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، ولكن لا يجوز لنا أن نقف معهما حيث وقفا من تعاليم هما نفساهما يعتقدان

أنها وقتية ، بعد ما بلغا رشدهما وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديداً قد يحدث فيهما انقلاباً ما كان يخطر على قلب أوسع الناس تخيلاً .

ولم يأت على الناس عهد شهد العلم فيه على نفسه بالعجز ، واعترفت فيه فلسفته بالقصور ، مثل العهد الذى نعيش فيه . فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولنستقبل علما أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منهما نور الحق « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .



هـل من فلسفة إسلامية ؟ (١)

– ٣ –

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ مدير هذه المجلة معلقاً على ما نشرته لى بمجلة الأزهر فى عددها الأول لسنة ١٣٦٠ هـ بعنوان « الفلسفة بين الوجود والفكر » ولكن لا ليرد عليه ، بل لأن مجلة الأزهر ترى من واجبها تنبيه قرائها إلى ما فى بعض المذاهب الفلسفية من ضعف و« تهافت » إذا عرضها بعض الكتاب على صفحات هذه المجلة باسم الفلسفة . « ونحن – يقول حضرته – حين نقدم لقومنا ثمرة ما حصلناه من العلوم والفلسفة لا يجوز لنا أن نقدمها إلا « محاطة » من النقد والتمحيص والتفلية ، فإن المسلمين بما طولبوا به من إقامة مبدأ التثبت عملاً بقوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ، لا ينبغى أن تحمل إليهم المعلومات إلا محاطة بوسائل التثبت والنقد لكى يستطيعوا أن يستصفوا منها اللباب المحض فيأخذوا به ، أو يتميزوا الظنى المرجوح فيعرفوه ولا يغتروا به . وقراء هذه المجلة – مجلة الأزهر – الذين يستنزلون المعرفة الحقة من ناحيتها ، لهم الحق فى هذا الاحتياط نفسه . لوسرنا على هذا السمت خدمنا المسلمين وقراء مجلة الأزهر خدمة تؤتى ثمراتها اليانعة مباركة موفورة ، وحميناهم من نفاية الآراء الضالة التى قد تبقى مادة للدراسة مدة طويلة قبل أن تأخذ طوراً جديداً ... ص ٥١ ، ٥٢ » .

* * *

وتعليق الأستاذ الكبير على كلمتى باسم هذه الغاية يفهم منه أن كلمتى كانت :

(١) تمثل مذهباً فلسفياً ، ومذهبا فلسفياً باطلاً .

(٢) ثم يوحى هذا التعليق كذلك بأنه كان يجب علىَّ – كعالم أزهرى أولاً ، وكمشتغل بالفلسفة ثانياً ، وكمبعوث للأزهر فى أوربا لغرض خاص

---

(١) نقلاً عن المجلد الثانى عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٠ هـ – ص ٩٩ وما بعدها .

أهمه معرفة معرفة الدفاع عن الدين ثالثاً – على الأقل أن أشارك المجلة فى غرضها ، فلا أدع الكتابة فى ناحية فلسفية إلا محاطة بوسائل التثبت والنقد ليستخلص منها المسلمون اللباب المحض ...

وفعلاً تضمن تعليق عزته :

(١) التساؤل عن وجود فلسفة إسلامية .

(٢) ودحض ما صوره ، لنفسه ، مقالى « من مذهب فلسفى مادى وماله من نزعة إلحادية دلت المكتشفات الحديثة على تدهوره وسقوطه » .

(٣) وتحديد الغاية للكاتب فى الفلسفة ، وبعبارة أدق تحديد الغاية الصحيحة للتفلسف .

***

١ – تساءل حضرته عن وجود فلسفة إسلامية ، ثم ذكر « أنه لا توجد فى الإسلام فلسفة مستمدة من الخارج يمكن أن توصف بالدينية أو الإسلامية ... وعليه إذا اعتبرت الفلسفة القديمة عتيقة رثة فلا يصيب الإسلام – من هذا الاعتبار – شيء . ص ٤٧ » .

والمعروف فى تاريخ الفلسفة أن الفلسفة [١] الدينية شيء آخر غير ما فى مصدر الأديان ، وأنها فقط عنوان على تراث الإغريق الفلسفى الذى اشتغل به رجال الدين . ومن اسم الدين الذى ينتمى إليه هؤلاء الرجال يشتق مؤرخو الفلسفة وصفاً لما اشتغل به ذلكم فى تراث الإغريق من تنظيم أو شرح ، أو تعديل بحذف أو تأويل ، حتى لا تبدو معارضة للدين . فيقال الفلسفة المسيحية ، ويعنون بها مؤرخو الفلسفة مسائل الفلسفة الإغريقية التى اشتغل بها علماء المسيحية ، ويقال الفلسفة اليهودية ، ويقصدون بها أيضا مسائل الفلسفة الإغريقية ذاتها التى اشتغل بها علماء اليهود ، ويقال الفلسفة الإسلامية ، ويريدون بها كذلك تلك المسائل بالذات التى اشتغل بها نفر من علماء المسلمين .

---

(١) وهى غير فلسفة الدين .

فالفلسفة الدينية واحدة فى جوهرها عند مؤرخى الفلسفة . وتنوعها بين مسيحية ويهودية وإسلامية لاختلاف المذاهب الدينية التى كان ينتمى إليها أولئك العلماء ، الاختلاف الذى من شأنه أن يجعل تغايرا فى كيفية التعديل أو الشرح للمسائل الإغريقية . وكثيراً ما تسمى الفلسفة الإسلامية بالفلسفة العربية . فليس ملحوظا فى هذه التسمية على الإطلاق صلتها بالدين نفسه .

والاحتمال إذاً الذى نفاه حضرة مدير المجلة « لمدلول الفلسفة الإسلامية » احتمال يعرض لهذا التعبير لا من حيث هو اصطلاح معروف لمؤرخى الفلسفة ولقراء الفلسفة والمتصلين بالثقافة الفلسفية .

٢ – ذكر حضرته أن ما كتبته ونشرته المجلة فى عددها السابق صحيح من حيث هو تصوير للمذهب المادى ولنزعته الفلسفية الإلحادية . وبناء عن فهم هذا التصوير رأى حضرته أن يكشف عن ضعفه ... ليعين المسلمين على التثبت الوارد فى قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ .

وهذا غرض دينى نبيل فى ذاته . ولكن كلامى كما يبدو من عرضه لا يصور إلا تاريخاً لتحول التفكير الفلسفى ، وتحول عناية الفكر الإنسانى من موضوع إلى موضوع فى عصر من العصور لعوامل دعت إلى هذا التحول .

فذكرت أن الفكر الإنسانى فى بدء تفلسفه كان يعنى ببحث الوجود وبحث ما وراء الطبيعة ، وكانت فلسفته لهذا فلسفة ميتافيزيكية . والعامل المشترك الذى حمل على بحث الوجود فى كل مدة بحثه (من قدماء اليونان إلى آخر القرون الوسطى) طبيعة الثقافة فى ذلك الوقت – والثقافة من أهم عوامل تكوين الفلسفة – فثقافة الإغريق كانت إلى حد كبير دينية ، وثقافة رجال الدين (منذ الميلاد إلى عصر النهضة) كانت بطبيعة الحال كذلك دينية . وشأن الدين – أيا كانت قيمته – أن يعنى أولاً وبالذات بتوجيه النظر إلى ما وراء الطبيعة ؛ إلى موجد الكون . وليس ذلك العامل هو التدين إذ لم يعرف التدين لفلاسفة الإغريق ؛ لمنشئى المدارس الفلسفية المختلفة حتى عصر النهضة .

ثم ذكرت أن البحث الفلسفى منذ عصر النهضة تحول إلى بحث الطبيعة ، وعللت هذا التحول بخشية الباحثين من تعقب رجال الكنيسة ، إذا بحثوا فيما وراء الطبيعة وخالفوهم فى رأى من آرائهم ؛ وكذلك برغبة الباحثين فى أن يصلوا فى أبحاثهم إلى يقين ترتضيه التجارب والتحديدات الرياضية . وليست هذه الرغبة بمحققة فى بحث ما وراء الطبيعة ، لأن ما وراء الطبيعة أوسع من محيط تفكير الإنسان فضلاً عن أن يخضع لتجاربه – وليس عامل التحول هنا (كما لم يكن عامل توجه الفكر هناك هو التدين) هو عداوة الدين أو نزعة إلحادية . وإن احتمل أن يكون أيضا كره رجال الكنيسة وعدم الخضوع لتعاليم الكنيسة ، كفكرة الخلافة فى السلطان عن الرب ، وفكرة صكوك الغفران ... ولكن رجال الكنيسة ليسوا هم حواريى عيسى ، وتعاليم الكنيسة فى القرون الوسطى ليست هى المسيحية [1] – .

وإذا كان هذا التحول فى البحث عن « ما وراء الطبيعة » إلى « الطبيعة » نفسها يصور لنا بإيجاز المذهب الطبيعى Naturalism وهو محاولة شرح الطبيعة من الطبيعة ذاتها ولا يصور لنا لا فى قليل ولا كثير المذهب المادى Materialism لأن هذا المذهب له نواح ثلاث :

(أ) الناحية النظرية : وهى ناحية ميتافيزيكية تحاول شرح الطبيعة من « ما وراء الطبيعة » – على النقيض من المذهب الطبيعى – ؛ هى ناحية تفرض وجود شىء مستقل Substantia نشأ عنه هذا العالم ؛ هذا الشىء المستقل فهمه ديموقريط وإبيقور من فلاسفة الإغريق على أنه نوعان من المادة : نوع غليظ وهو أصل الأجسام ، ونوع دقيق وهو أصل النفوس . وفهمه هوبز Hobbes ولاماترى Lamattrie وبوخنر Buchner من الفلاسفة المحدثين على أنه فى جوهره واحد وهو أصل الأجسام . أما الظواهر النفسية والعقلية فى نظرهم فخاصة من خواص الأجسام أو أثر من آثارها .

---

(١) هيجل الفيلسوف القسيس الألمانى أبان فى محاضراته عن فلسفة الدين فى جامعة هيدلبرج ضروباً كثيرة من التفرقة بين تعاليم الكنيسة فى القرون الوسطى والمسيحية . ومن أشهر هذه الفروق نسبته إلى المسيحية مبدأ الوحدة فى التأليه .

ويسمى فهم فلاسفة الإغريق للمذهب المادى بالمذهب المادى الثنائى ، وفهم غيرهم من المحدثين بمذهب الوحدة للمادة .

(ب) والناحية العلمية (الأخلاقية) : وهى حصر الغرض من الحياة الإنسانية فى التمتع بالملذات الحسية ، واحتقار القيم المثالية .

(جـ) والناحية التاريخية : وهى اعتبار الجانب الاقتصادى فى الحياة هو الأساس المحدِّد لمصير المدنية حتى للثقافة العقلية .

على أن بعض فلاسفة المذهب المادى منذ القرن الثامن الثامن عشر أمثال هول باخ Holbach (الفيلسوف الألمانى المتوفى سنة ١٧٨٩ م) ولينين Lenin (الفيلسوف الروسى المتوفى سنة ١٩٢٤) قد نحا بالمذهب المادى فى شقه النظرى ناحية أبعد عن الفهم الحسى الساذج من أن هناك شيئا مستقلاً اسمه المادة نشأ عنه الكون وما فيه من أجسام ونفوس . فالمادة فى نظر هذا البعض ليست إلا كلمة - وتعبيراً - تدل على معنى الوجود كما يبدو لنا فى أجزاء الكون وحوادثه ، وكما يتضح لنا هذا الوجود بالمعرفة شيئا فشيئا .

فالمذهب المادى إذاً فى جزئه النظرى - وهو الذى يمكن أن يفهمه رجال الدين أو مدافعو الدين على أنه يتعارض مع الدين - مذهب ميتافيزيكى . وأنا فيما ذكرته فى تصوير البحث الميتافيزيكى حتى عصر النهضة لم أتعرض إلى التحديدات المختلفة للفلاسفة فيما عساه فيما وراء الطبيعة أن يكون علة للطبيعة والكون حتى أكون قد أشرت إلى المذهب المادى جملة فضلاً عن تصويره .

(٣) قصد حضرته أيضا من محاولة هدم المذهب المادى Materialism بعرض آراء أمثال المؤرخ جوستاف لوبون ، ومن ترجيح المذهب الروحى Spiritualism نصرة الدين من جهة الفلسفة : « فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ولنستقبل علماً أرفع وفلسفة أوسع نستشرق منهما نور الحق « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » ص ٥٢ . وبهذا يحدد مهمة التفلسف أو مهمة كاتب الفلسفة .

وهذا غرض دل تاريخ تفلسف الدين ، أو تاريخ اشتباك الفلسفة مع الدين لخدمة هذا الأخير ، ودلت بسيكولوجية الدين الحديثة ، على أنه غرض يسيئ -

من غير قصد – إلى العقيدة فى الصميم . إذ تفلسف العقيدة ، فضلا عن أنه يعقدها ويقلل من قداستها ، يعرضها للتقلب فى نظر البحث بين الصحة والخطأ . لأن الآراء الفلسفية نفسها التى تعالج الموضوع الذى يعالجه الدين – وهى الآراء الفلسفية الإلهية – والتى تجذَب أحيانا لغاية تأييد الدين ، عرضة للتبديل والتغيير ، وموضع للتخطئة والتصويب .

وما أحكم نظر (كانت) إذ يقول : « لندع القول فيما وراء الطبيعة للدين فلسنا بقادرين على أن نأتى فيه بيقين » . وما أحكم نظر ماكس شيلير Max Scheler (الفيلسوف الألمانى المتوفى سنة ١٩٢٨) إذ يقول : « للدين قيمته واعتباره فيما يحكيه عن الله ، وللفلسفة قيمتها واعتبارها فيما تحكيه عن الإنسان » .

إن محاولة الاستدلال على صحة العقيدة الدينية فى الله من طريق الفلسفة ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلال العقيدة فى وجودها بذاتها .

لندع عاطفة الإنسان الدينية فى قوتها وحرارتها ، فإن وضع العقيدة موضع النقاش والنقد إضعاف لقوة الإيمان بها .

* * *

وأخيراً يطلب النقد العلمى الحديث ، إذا أريد إبطال رأى فلسفى أو تأييد رأى آخر ، أن يلجأ الكاتب إلى الفلسفة ذاتها . ومعنى ذلك أنه فى حل من أن يلجأ إلى الدين فى إبطال المذاهب الفلسفية أو تأييدها ، ولكن فقط تحت عنوان دينى وليس باسم الفلسفة .. فالمزج لم يعد وسيلة من وسائل البحث العلمى الحديث ، وإن بقيت له قيمته فى نظر الشعب والجمهور .

والإمام الأكبر المراغى ، وهو قائد نهضة الأزهر الدينية والعلمية ، فى مناقشة رسالة « العرف » للشيخ أحمد فهمى أبى سنة بدار كلية الشريعة فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ ، قد حدد شعار البحث فى الأزهر الجديد : وهو الفصل بين القيم الذاتية ، لأنه أقر التفرقة بين الفقه الإسلامى والدين .

محمد البهى

مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

الفلسفة بين الوجود والفكر [1]

– ٤ –

رأى حضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى أن يلاحظ على ما كتبناه تعقيباً على ما نشره تحت العنوان السابق فى العدد الماضى ، وقد نشرت ملاحظاته ورأيت التعقيب عليها ، لا إيثاراً للجدل ، ولكن لأن فى تعيين الأسلوب الأكمل فى مزاولة الفلسفة فى هذا العصر ، حداً فاصلاً بين الأوهام وإن دعيت بالفلسفة ثلاثين قرناً متوالية ، وبين الحقائق العلمية التى تجلت فى هذا العهد ، لاسيما ونحن هنا فى طليعة نهضة ثقافية يجب أن نجردها من كل ما يلابسها من أضاليل سابقة .

يشهد كل من اطلع على ما كتبت أنى تجردت للموضوع ولم أمس ما عداه ، وسأسلك فى هذا التعقيب ذلك السمت نفسه فلا أجاوزه ، ولذلك لا أناقش فى غيره مما سمح لنفسه به حضرة الدكتور من العبارات .

بدأ الأستاذ ملاحظاته بتقرير أن الغرض من إطلاق كلمات يهودية ومسيحية وإسلامية على الفلسفة ، هو تعيين ما اشتغل به من الفلسفة الإغريقية أصحاب هذه الأديان الثلاثة . والذى أراه أنا أن هذه التسمية لا تصح ، وخاصة فى معرض الكلام على الفلسفة عند المسلمين . وكل ما قرأناه فى كتب الفرنجة أنهم يعبرون عن هذه الفلسفة بقولهم : (الفلسفة عند العرب) La philosophie chez les Arabes ، وقد أردفوا ذلك بقولهم : إن عناية المسلمين بالفلسفة كانت قليلة فليس لهم فلسفة مستقلة .

ثم قال حضرته ما خلاصته :

« إن كلامى لا يقصد منه إلا تصوير تاريخ تحول التفكير الفلسفى من البحث فيما وراء الطبيعة ، إلى البحث فى الطبيعة ، وكانت ثقافة الإغريق والأوروبيين إلى عصر النهضة دينية ، وشأن الدين أن يعنى قبل كل شىء بتوجيه

---

(١) المصدر السابق م ١٢ سنة ١٣٦٠ هـ

النظر إلى ما وراء الطبيعة ، إلى موجد الكون . وعللتُ هذا التحول بخشية الباحثين من تعقب رجال الكنيسة إذا خالفوهم فى رأى مما وراء الطبيعة ، وبرغبة الباحثين فى أن يصلوا بأبحاثهم إلى يقين ترتضيه التجارب والتحديدات الرياضية ، وليست هذه الرغبة بمحققة فى بحث ما وراء الطبيعة ، لأنه أوسع من محيط تفكير الإنسان ، فضلاً عن أن يخضع لتجاربه . وليس عامل التحول هنا هو عداوة الدين أو نزعة إلحادية ؛ ولا يصوِّر هذا التحول المذهب المادى ، لأن هذا المذهب له نواح ثلاث : نظرية ، وعلمية ، وتاريخية ، وفى هذه النواحى يتعارض هو والدين ؛ ولكنى فيما ذكرته لم أتعرض للتحديدات المختلفة للفلاسفة فيما عسى أن يكون علة للوجود ، حتى أكون قد أشرت إلى المذهب المادى جملة فضلا عن تصويره . فهذا المذهب هو الذى يتهمه رجال الدين بأنه يناقض الدين . وأنا فيما ذكرته لم أتعرض إلى التحديدات المختلفة للفلاسفة فيما عساه أن يكون علة للطبيعة والكون حتى أعتبر أنى قد أشرت إليه فضلا عن تصويره » .

وأنا أعقب على هذا بقولى :

الفلسفة من المحاولات العقلية التى لا يمكن وضع تعريف جامع لها . جاء فى المعجم الفلسفى للأستاذ جوبلو Goblot قوله : « لما كان لكل مذهب فلسفى وجهة نظر خاصة فى تحديد الفلسفة ، وعلاقتها بالعلوم وبالحياة ، فإنه من المحال أن يعطى لهذه الكلمة تعريفاً يصح عليها جميعاً » انتهى .

ولكن للفلسفة من ناحية عامة معنى مستقراً فى وجدان الناس ، وقد عبرت عنه دوائر المعارف بقولها : « الفلسفة إلمام عام بالكائنات والأصول والأسباب » .

كذلك انقسمت الفلسفات إلى مذاهب شتى من حيث وجود أصل حيوى عام مستقل عن المادة ، أو عدم وجوده ، وظهور الحياة فى الأحياء كثمرة للتفاعلات الكيماوية . هذه المذاهب يجمعها اسمان عامان : المذهب المادى والمذهب الروحى Matérialisme et Spiritualisme . فالأول يقول بوجود كائنات غير مادية . وفسر المعجم الفلسفى هذه الكائنات بقوله : « إنها لا تقع تحت سلطان الحواس وليس لها صورة ولا حجم ولا حيز الخ ؛ منها مذهب ديكارت

فإنه كان يقول بوجود نوعين من الكائنات ، أولهما مادى والآخر روحانى ؛ ومنها مذهب لبنتز ، ومذهب باركلى ، وكانا لا يسلمان بوجود صحيح إلا للكائنات الروحانية » .

وقد اعترف الدكتور البهى نفسه فى مقدمة بحثه ، بأن الفلسفة لا يحدها تعريف واحد . ثم عاد فقال : « إنها ترجع إلى موضوعين أساسيين : الوجود والفكر » وانتهى من ذلك إلى القول بأنه « قد تحول البحث فى الفلسفة عما وراء الطبيعة إلى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون إلى الكون نفسه » .

ثم قال : « ولاشك أن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيراً عما يطلبه المقياس العلمى الحديث . فتعرُّض الباحث لها – على أنها الأهم كما كان الحال فى القديم – حكمٌ منه على نفسه بالعزلة عن بيئة الوقت العلمية ، وعن موضوع التنافس فى البحث . ولذا رأى (كانت) أن اختصاص الفلسفة كعلم ، هو الناحية العملية وتحديد الحياة الواقعة . أما القسم الإلهى فإن بحثته فلا يحق لها أن تطلب لهذا البحث صفة العلم اليقينى » انتهى .

فإذا كانت الفلسفة فى قسميها العامين لا يمكن أن تخرج عن كونها إما روحية كمذهب ديكارت وسبينوزا ولبنتز وباركلى وغيرهم ، وعدد لا يحصى من أئمة الفلاسفة المحدثين وعلى رأسهم العبقرى (هنرى برجسون) Bergson الذى توفى فى الشهر الماضى ؛ وإما هى فلسفة مادية لا تعتد بغير البحث المادى ، ولا تتلمس فى تعليلاتها للحياة والعقل والروح الإنسانية غير العلل المادية ؛ قلنا إذا كانت الفلسفة لا تخرج عن هذين القسمين ، فأين يصح أن توضع الفلسفة التى يكتب عنها الدكتور البهى والتى قطع صلتها بما فوق الطبيعة ؟

يمكن أن يقال إنها لا توضع فى واحد منهما ، لأنها اختارت لنفسها خطة مستقلة تجرى عليها فى البحث عن الحقائق غير متقيدة بصبغة معينة .

نقول : هذا كان يصح لو لم تقيد نفسها بأصول مذهبية مقررة ، وتحد للآخذ بها مجال البحث تحديدا لا يسمح له بتخطيه ، فإذا كان الدكتور البهى يتنصل من تصوير المذهب المادى محتجاً بأنه لم يتعرض للتحديدات المختلفة

للفلاسفة ، فأى تحديد أشد من قطع الصلة بين الفكر الإنسانى وعالم ما وراء الطبيعة ، وبينه وبين علة الكون ، وحصر التفكير كله فى الطبيعة المادية ؟ أليس فى قطع هذه الصلة تأكيد ضمنى بأن ليس وراء الطبيعة شىء يمكن التحسس منه ، ولا للبحث فى علة الكون موجب يوجبه ، بعد ما تبين أن الوجود قائم بذاته ، ولا يحتاج فى قيامه إلى قيوم فوقه ؟ أليست هذه ميتافزيكا أشد تطرفاً واستبداداً من ميتافيزكة هوبس ودلامترى وبوخنر ؟

ومن ناحية أخرى :

إن مقالة الدكتور البهى تصلح أن تصوِّر نزعة لفلسفة معينة ، أكثر مما تصلح أن تكون مدخلاً على الفلسفة على وجه عام ، فقد ذكر الأستاذ فى أول كلامه أن الفلسفة لا يحدها تعريف واحد ، وليس لها ضابط عام الخ ؛ وكل الناس يعرفون أن الخلافات فى المبادئ والأصول الفلسفية لا تقف عند حد ، وخاصة فى العصر الحاضر ، وأن من المخالفين للمذهب الذى يقطع الصلة بما فوق الطبيعة رجالاً يعتبرون من أرقى من أنجبتهم الإنسانية ، لا يقطعون الصلة فى الفلسفة بما فوق الطبيعة ، ويرون لهذه الصلة ضرورة عقلية وعلمية ؛ فهل نغفل ذكر مذاهب كل هؤلاء الفحول فى عرض ذكر الفلسفة ، ونكتفى بذكر مذهب واحد من أشد المذاهب المادية تطرفاً ، فيتوهم القارئ أن الفلسفة قد تأدت على وجه عام إلى هذه البيئة القاحلة ؟

يقول الدكتور البهى فى بيان مؤدى هذا المذهب : « إن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيراً عما يطلبه المقياس العلمى الحديث » . والذى أفهمه أنا منه أن مؤسسه الأوروبى يقصد بالبحث النظرى فى الإلهيات مسائل ما يسمونه عندهم بعلم التيولوجيا ، وهى مسائل كهنوتية متشعبة مبنية على الآراء والظنون والتُّقول ، لا مجرد القول بوجود خالق مدبر للكائنات لا تدركه الأبصار ، وتعجز عن فهم كنهه العقول . لأن المقياس العلمى الحديث لم يأب الاعتراف بالأثير كافتراض علمى لابد منه لإمكان تعليل أكثر الظواهر ؛ والأثير لم يره أحد ، ولا يعقل توافر صفاته فى شىء من الأشياء . فالذين لم يأنفوا أن يفترضوا ما لم يروه ، وأن ينحلوه صفات لا تعقل ، ليتوصلوا بذلك إلى تعليل

بعض الظواهر الطبيعية ، لا يجوز لهم أن يعتبروا البحث فى وجود قدرة أزلية حكيمة بعداً عن المقياس العلمى الحديث .

أما قول (كانت) إن اختصاص الفلسفة كعلم لا يجوز أن يدخل فيها القسم الإلهى ؛ فهو قول لا غبار عليه ، ولكن من ناحية اعتبار الفلسفة علماً ، لأن العلم لا يصح إلا بالتجربة ، والإلهيات غير مادية لا تخضع للتجربة . فتحصيل اليقين بالإلهيات من فلسفة منتحلة اسم العلم غير ممكن لهذا السبب .

ولكن اعتبار الفلسفة علما أو انتحال الفلسفة مهمة العلم ، قد انقضى زمنه منذ قرون ، بعد وضع (بيكون) Bacon الدستور العلمى ، وبعد تحديده مناطق النشاط العقلى ، وتسمية كل منطقة باسمها الحقيقى . فليس فى عصرنا الراهن من يطلق كلمة فلسفة على العلم . فالعلم يبحث فى الكائنات التى تقع تحت الحس وتتناولها التجربة ، وأما الفلسفة فتنظر فى مقررات العلوم نظرة إجمالية ، وتستخرج منها بأدواتها من الاستقراء والاستدلال والاستنتاج والتحليل والتركيب ، معرفةً عامة عن الوجود والموجودات والأصول والعلل .

وللفلسفة طريق مَهْيع يعرفها فيلسوف كونيجسبرج الكبير (كانت) تأدى من طريقها إلى درجة اليقين بالخالق الحكيم ، وإلى وجود الروح وخلودها بعد الموت .

وهل الفلاسفة الذين بلغوا درجة اليقين من هذه العقيدة ، ويعتبرون من أكبر أقطاب الفلسفة العصرية ، وصلوا إليه إلا من طريق النظر العقلى ، والاستدلال المنطقى ؟ ألا توجد مبادئ عقلية ضرورية هى فى تحصيل اليقين فى مثل قوة الحس بل أشد ؟

وإذا كانت الفلسفة تبرأ من الذين يتأملون فى الكون ، لتعرُّف علة الوجود فى عالم ما وراء الطبيعة ، فأى أداة ترجى بعدها لتحصيل حكم يثلج عليه الصدر إثباتاً أو (نفياً) فى هذه المسألة ؟

أليس تجريد الفلسفة من النظر فيما فوق الطبيعة يعتبر بعد هذا من تعاليم الماديين الأقحاح ، والفلسفة التى تقول به تعتبر مادية متطرفة ؟

تفلسف الدين يضر أكثر مما ينفع !

قال الدكتور البهى ما ملخصه :

« قصد حضرته (يعنينى) هدم المذهب المادى بعرض آراء أمثال المؤرخ جوستاف لوبون لنصرة الدين من جهة الفلسفة . ثم قال (يعنينى أيضا) : فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولنستقبل علما أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منهما نور الحق . وبهذا يحدد (يريدنى كذلك) مهمة التفلسف أو مهمة كاتب الفلسفة . وهذا غرض دل تاريخ اشتباك الفلسفة مع الدين ، ودلت بسيكولوجية الدين أنه يسيئ إلى العقيدة فى الصميم الخ الخ » .

ونحن نقول :

إننا بما قلناه لم نرد تحديد مهمة الفلسفة ولا مهمة كاتبها ، وكيف نُتهم بذلك ونحن القائلون فيما كتبناه فى ملاحظاتنا : « علينا أن نمضى مع العلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، ولكن لا يجوز لنا أن نقف معهما حيث وقفا من تعاليم هما نفساهما يعتقدان أنها وقتية ، بعد ما بلغا رشدهما ، وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديدا قد يُحدث فيهما انقلابا ما كان يخطر على قلب أوسع الناس تخيلاً » .

فقولنا : علينا أن نمضى مع العلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، معناه أن لا نضع فى سبيلهما العراقيل ، وأن ندعهما حرين فى مجاليهما ، فكيف نُتهم مع هذا بأننا نحدد للفلسفة مهمتها أو مهمة كاتبها ؟ لا محل لهذا الاتهام ، ولكننا ننصح مزاولها أن لا يقف معها حيث وقفت من تعاليم هى نفسها تعتقد أنها وقتية بعد ما بلغت رشدها . فهل نلام على هذا الاحتياط الذى أصبح شعار أهلها وأهل العلم فى هذا الزمان الأخير كما رأيت ؟

يقول الدكتور البهى : إنى سلكت هذا المسلك لنصرة الدين ، على حين أنى لم أذكر الدين فى كل ما كتبت ، وإنما ذكرت العقل والتبصر والاحتياط وعدم الانخداع بالمعلومات المؤقتة ، واستشهدت بأقطاب العلم العصرى على ضرورة وقوف هذا الموقف إزاء جميع المقررات العلمية والفلسفية . وقد حاول

الدكتور البهى أن يحط من أقدار هؤلاء الأقطاب كأنهم أتوا أمراً إدًّا ، فوصف أولهم بأنه مؤرخ ، وأن الباقين من أمثاله . والواقع أن الدكتور جوستاف لوبون فيلسوف وطبيعى كبير ، وإليه يرجع الفضل فى تحليل المادة وإحالتها إلى قوة ، وهو أكبر اكتشاف علمى حدث فى القرن العشرين . وأن مارى جان جويو من أشهر الفلاسفة المعاصرين ، وقد اشتهر كتابه (لا دينية المستقبل) فى العالم كله . أما سبنسر فأشهر من أن يذكر ، وكذلك العلامة الكبير هنرى بوانكاريه ، الرياضى الجليل وعضو المجمع العلمى الفرنسى . فهؤلاء أئمة عالميون ليس فى المشتغلين بالعلم والفلسفة من يجهلهم ، وهم ليسوا متدينين ولا من أنصار التدين ، ولم يقولوا شيئا يوجب السخط عليهم ، فهم وعدد لا يحصى من أمثالهم الأقطاب يبينون خطر الانخداع بالعلم والفلسفة ، ويهيبون بالناس إلى استقبال عهد جديد لهما ، وهذا لا يتأتى حدوثه إلا بعد تحطيم الأوهام المحيطة بهما . فهل أساءوا هم وأسأنا نحن فى وقوفنا هذا الموقف المشرف للعقل الإنسانى ، والمبشر بفتوحات عظيمة فى العلم والفلسفة ؟

يقول الأستاذ البهى : إن اشتباك الفلسفة مع الدين يسئ إلى العقيدة فى الصميم . ومعنى هذا أن الدين لا يقوى على منازلة الفلسفة ، فإذا حدَّث الدين نفسه بذلك أصيب فى الصميم .

وأنا مع عدم ذكرى للدين فيما كتبت ، ومع عدم تحاملى على الفلسفة إلا من الناحية التى يحمل عليها منها الأقطاب الذين أفاقوا من غرورها القديم ، أحب أن أرى كيف تصبح فلسفة أساسُها العقل والعلم والدليل ، خطرة على دين أساسه العقل والعلم والدليل ؟

على أن القول الذى أتى به الدكتور البهى قرأناه كثيراً فى كتب الفلاسفة الماديين ، ولكنهم يوجهونه إلى أديان ليس أساسها العقل والعلم والدليل ، وليس يتجه إلينا منه شىء ؛ فنحن على دين نفخر بأنه يقاوم كل حملة يمكن أن تحملها عليه أية فلسفة فى العالم ، ولولا ذلك لكنا شاكين فيه ، وقد خبرنا ذلك بأنفسنا ، فإن كان فى الأرض من يستطيع أن يعطينا مثالاً من صراع دينى فلسفى ، يصاب منه الإسلام فى الصميم ، فليتفضل علينا به ، لنريه أنه واهم فيما يقول .

ألا إن أخوف ما أخافه على المسلمين ، وخاصة على علمائهم ، أن يتسرب إليهم هذا الوهم من الفلسفة إلى هذا الحد فلا يبقى لهم دين !

وقال الدكتور البهى : « إن محاولة الاستدلال على صحة العقيدة فى الله من طريق الفلسفة ، ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلال العقيدة فى وجودها بذاتها . لندع عاطفة الإنسان الدينية فى قوتها وحرارتها ، فإن وضع العقيدة موضع النقاش والنقد إضعاف لقوة الإيمان بها » .

ونحن نقول :

إن الاستدلال على صحة العقيدة من طريق النظر والتأمل ، هى الوسيلة التى اتفق الفلاسفة والعقلاء قديماً وحديثاً على القيام بها . ولم يقل أحد من المفكرين إنها ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلالها ، بل لا يفهم هنا معنى لاستقلالها ووجودها بذاتها ، وهى ثمرة عقلية لا أقل ولا أكثر .

إن العقيدة مدرك عقلى يقوى ويضعف ويزول ككل مدرك عقلى آخر . وقد لجأ أهل الأديان جميعا قديماً وحديثاً إلى النظر والاستدلال لتحصيل العقيدة ، واتفق الفلاسفة القدامى والمحدثون على تسخير المنطق وقوى العقل فى هذه السبيل ، وزاد الدين الإسلامى على هؤلاء جميعاً فطالب كل معتقد بالدليل ، حتى قال أصوليوه : إن إيمان المقلد غير جائز ؛ فهل لم يفطن كل هؤلاء إلى أن هذا الجهاد العقلى منهم لتثبيت العقيدة ، ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلالها ؟ وما معنى استقلال العقيدة ووجودها بذاتها مقطوعة عن جميع وسائل التفهم والتعقل والتدليل ؟ وهل التفهم والتعقل والتدليل شيء غير الفلسفة الحرة من قيود الماديين ؟

الفلسفة لا تكافح إلا بفلسفة مثلها لا بالدين .

قال الدكتور البهى : « إذا أريد إبطال رأى فلسفى أو تأييده وجب أن يلجأ فى ذلك إلى الفلسفة لا إلى الدين » .

ونحن نقول : يشهد الله والناس أننا لم نلجأ فى يوم من أيام حياتنا فى مكافحة رأى فلسفى إلى الدين . ألم يرنى الدكتور قد لجأت فى مكافحة ما كتبه

إلى آراء كبار الفلاسفة الأوربيين ، وهل فى كل ما كتبته ذكر للدين أو إلى مخالفته للدين ؟

وإنى فى كل ما حاولته فى مؤلفات سابقة لى ، وأحاوله فى هذه المجلة ، أعمل على حماية النابتة الإسلامية من الانخداع بكل ما يرد إلينا محمولاً فى كتب الدراسة من الآراء المضللة ، فى عهد وُضعت فيه جميع الآراء العلمية ، والمذاهب الفلسفية فى الميزان ، واعتُرف فيه بأن أبعد ما كان يُظن خلوصه من التجريح ، لا يخلو من عوج يجب تقويمه ، حتى لا يؤدى فيما يبتنى عليه إلى انهيار شنيع .

هذه الحالة النفسية الجديدة للعلماء الأوربيين فضلاً عن أنها لا يجوز أن تؤلمنا ، يجب أن تسرنا إلى حد بعيد ، لأن ما نحصله بعد اليوم ، ونحن على هذه الحالة من الحذر ، والخلوص من الانخداع ، يكون إما حاصلاً على جميع ضمانات الحق اليقين ، وإما موسوماً بطابع من الشك حتى يُفتح على الناس فيه بسلطان مبين .

أى موقف أولى بطلاب الحقائق ؟ أأن يعيشوا فيما يسمونه بالعلم والفلسفة فى ضلال يزيدهم كل يوم بعداً عن الحق ، ودنوا من الباطل ، وتغلغلاً فى العماية ، أم أن يحيطوا علماً بحقيقة موقفهم فلا ينخدعوا به ، وخاصة إذا كان هذا التثبت يقوم به اليوم أقطاب الفلسفة والعلم فى بلاد المتمدنين ؟

وإنى مختتم هذه الملاحظات بما اختتمت به الملاحظات السابقة وهو :

« علينا أن نمضى مع العلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، ولكن لا يجوز لنا أن نقف معهما حيث وقفا من تعاليم هما نفساهما يعتقدان أنها وقتية ، بعد ما بلغا رشدهما ، وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديداً قد يُحدث فيهما انقلاباً ما كان يخطر على قلب أوسع الناس تخيلاً » .

« ولم يأت على الناس عهد شهد العلم فيه على نفسه بالعجز ، واعترفت فيه فلسفته بالقصور ، مثل العهد الذى نعيش فيه ؛ فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولنستقبل علماً أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منهما نور الحق ، « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

□ □ □

بين رجال الدين والفلسفة [١]

– ١ –

اعتزمت كتابة هذه الكلمات لهذه الظاهرة التى تحققتها بعد طول التجربة ، وهى أنه قد يكون من العسير أحياناً إقناع فلان من الناس – وهو مثقف أو فى طريقه للثقافة الفكرية العالية – برأى أو فكرة فى العلم أو الفلسفة يعتقد بادئ الأمر أنها لأحد المفكرين الأحرار أو الفلاسفة الذين وسمهم بالإلحاد أو الكفر . فإذا أسندت هذا الرأى نفسه أو هذه الفكرة ذاتها لصاحبها وعرف أنه الإمام الغزالى مثلاً ، رآها صحيحة سهلة الهضم ومعقولة ، وسلم بها !

معنى هذا أن للماضى قداسته وقوته العارمة ، وأن أحكام الغزالى ومن لفّ لفّه على الفلاسفة بالكفر لا يزال لها أثرها الذى رجاه وعمل له من نزع الثقة بهم وتنفير الناس منهم [٢] . ومعنى هذا أيضا أن جانباً كبيراً منا لا يزال يخلط فى هذه الخصومة التى أذكى نارها رجال الدين ضد الفلاسفة والمفكرين ، بين ما كان منها للدين وما كان للدنيا ، وبين الحكم بالإلحاد عن يقين والحكم به عن هوى أو تقليد . وكأن هذا الفريق منا يعتقد أن الله أعفانا من النظر بعقولنا ، وقد نظر حجة الإسلام وقدر وحكم ، فتراهم يصدرون عن رأيه ويتقبلون حكمه ، ويرفضون أن يسمعوا لمخالفيه رأياً وإن كان صحيحاً ! ومن ثم ما يلقاه الباحث من عسر وصعوبة فى إقناع الغير – وإن كانوا تلاميذه – ببعض ما يقتنع من آراء .

من أجل ذلك رأيت معالجة هذا الأمر والتصدى لهذا البحث الشائك ، وأعنى به تبيّن العلاقة بين رجال الدين والفلسفة ، حتى نسير على بينة من أمرنا ،

---

(١) نقلاً عن المجلّد الثانى عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٠ هـ – ص ٣٤٨ وما بعدها .

(٢) هذا الغرض يبين كثيراً من أقوال الغزالى : مثلاً المنقذ من الضلال طبع دمشق ص ٨٩ – ٩٠ ، ١٠٤ – ١٠٥ ، التهافت طبع الاب بويج ببيروت ص ٦ – ٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٧٦ – ١٧٧ .

وحتى نعطى – فيما نبحث ونناقش – ما لقيصر لقيصر وما لله لله . والغرض الذى أهدف إليه هو معرفة الموقف الصحيح الذى كان لرجال الدين مع الفلسفة وما يتصل بها ، وتبين البواعث التى جعلت من الأولين خصوماً لُدًّا للفلاسفة والمفكرين ، والغايات التى قصدوا إليها من هذا اللدد فى الخصومة والإمعان فى الكيد ، والحكم على بعضهم بالإلحاد فى الدين ومحادة الله ورسوله ، وبيان أن من الفلاسفة من كان مستوجباً لبعض ما اتهم به ، وأن منهم من كان يرى الحيطة فى الأمر فلا يرضى بتعليم تلاميذه طرفاً من الفلسفة إلا بعد تثبتهم من الدين وحذق علومه التى تعتبر منه بمنزلة الأصول ، وذلك لما يعلمه من أنها – أى الفلسفة – مزلقة لغير المتثبت من دينه قبل كل شيء . ويتصل حتماً بهذا الغرض أو الأغراض تعرف الجهود التى بذلها الفلاسفة للتوفيق بين الدين والفلسفة ، وبيان أنهما رضيعا لبان [1] ، فما كان يصح فى العقل المستقيم أن يكون بينهما إلا كل تعاون وتآزر فى البحث عن الحقيقة وتجليتها . كما نذكر أيضا أن هذه الخصومة ليست مما يعيب الإسلام فى شيء وإن عابت بعض رجاله ، وأنها ليست مما اختص به الإسلام ورجاله .

حقيقة ليس الإسلام بدعا فى هذه الخصومة التى تقتضيها طبيعة الدين وطبيعة الفلسفة ؛ ذلك أن تاريخ العلم والفكر فى القرون الوسطى المسيحية حافل بأعنف ألوان الصراع بين العلم ورجاله ورواد الكشف والاختراع ، وبين الكنيسة وحماتها ، لأمور ما كان يجوز – فى رأى الباحث اليوم – أن ينتطح فيها عنزان .

هذه الخصومة شبت نارها فى أزمان مختلفة لبواعث تتقارب وتتباعد وتتشابه وتختلف ، لا فرق بين المسيحية فى هذا والإسلام ، إلا أن يكون عنف الخصومة وتفاهة أسبابها أظهر فى الأولى .

الدين مصدره القلب الذى يتفتح للعقيدة بإلهام قوة عليا ، فترسخ هذه العقيدة بحيث يهون لدى المؤمن التضحية بالنفس فى سبيل الدفاع عنها والمنافحة

---

(١) كتاب فلسفة ابن رشد نشر ميلير (Muller) بمونيخ عام ١٨٥٩ م – ص ٢٦ .

دونها . والفلسفة أداتها العقل الذى يستقرئ ويحلل ويستدل ثم يعتقد دون أن يتقيد بادئ الأمر برأى أو عقيدة لم يقم عليها دليل . من أجل هذا يكون عدم الالتئام بين الدين والفلسفة لاختلاف مصدريهما ، وتكون الخصومة والإلحاح فيها واضطهاد الفلاسفة أحيانا ، واجبا فى رأى بعض رجال الدين دفاعا عنه ، ووقوفا فى سبيل المعتدين عليه المناهضين له على ما يرون .

على أنه لو أنصفنا الحق وفهمنا الأمر على وجهه ولم نطلب الدنيا بالدين ، لرأينا – لما سيجئ ذكره من أسباب – أنه لم يكن ليصح أن يقوم بين الدين الذى يستند إلى العقل فى ترسيخ قواعده واستكناه أسراره وبين هذا العقل الذى لا يستغنى عن الدين ، خلافٌ أو خصومة فى حال من الأحوال . ورحم الله الغزالى حين يرى أن العقل كالأس والشرع كالبناء ، وأنه لن يغنى أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس [1] . وليته صرف بعض جهده الجبار فى التوفيق بين الدين والفلاسفة – ما دام يرى هذا الرأى – بدل الحرب التى أرث نارها ضد الفلسفة والفلاسفة بلا هوادة ولا رحمة ، وبلا إنصاف أحياناً ! بعد هذا ندخل فيما قصدنا إليه أولاً ، وهو عرض ما كان من هذه الخصومة فى الإسلام ، فنقول :

عاش العرب قبل مجىء الإسلام فى بيئتهم القاسية فى جوها وأرضها وسمائها ، فكانوا مضطرين أن ينتجعوا الغيث ويتتبعوا مواقع القطر ، وأن يحيوا حياة قلقة مضطربة لا قرار فيها يساعد على النظر أو يدفع إليه ؛ لذلك نجدهم شغلوا بضرورات الحياة عن العلم والفلسفة إلا ما كانوا مضطرين إليه من أنواع المعارف المختلفة . ولهذا يقول صاعد بن أحمد الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم [2] : « وكان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها ، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها ، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة ، لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة ... وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز وجل شيئا منه ، ولا هيأ طباعهم للعناية به » .

---

(١) معارج القدس ، الطبعة الأولى عام ١٣٤٦ هـ – ص ٥٩ .

(٢) الطبعة المصرية ص ٥١ .

ولما جاء الإسلام ونزل القرآن ، بهرتهم تعاليمه ، وأخذتهم روعته ، ووجدوا فيه بعد أن تقبلوه غذاء لقلوبهم ومتعاً لنفوسهم وإرضاء لطلعتهم ، فانصرفوا به عن الفلسفة . لم يكن لهم فى صدر الإسلام حاجة للتفلسف وقد أغناهم القرآن عن البحث فى الألوهية ، وخلق العالم ، والقضاء والقدر ، وخلود النفس ، والحياة الأخرى ، وما إلى ذلك من المشاكل والمسائل التى شغلت ولا تزال تشغل الفلاسفة بعد أن رأوا فيما نزل الله على رسوله ما اعتبروه حلولاً لهذه المسائل . إذن انصرف العرب فى جاهليتهم عن التفلسف لقسوة الحياة التى كانوا يحيونها ، وانصرفوا أيضا عن الفلسفة طوال العصر الأول من الإسلام لأنهم وجدوا فى القرآن غنية عنها .

ثم اتصل المسلمون بالثقافة اليونانية ، وانتفع علماء الكلام لاسيما المعتزلة بها فى تأييد آرائهم والرد على مخالفيهم . وهكذا بالترجمة وبعوامل أخرى انسابت الفلسفة اليونانية أو علوم الأوائل بين المسلمين بما فيها من آراء لا تتفق مع الإسلام فى رأى كثير من المسلمين ، فأوجسوا منها شراً ، ورفضوها جملة وتفصيلاً ، ورأوا فى رجالها وأشياعها أعداء للدين يجب الحذر منهم والتنكيل بهم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ؛ إلا أن هذه الخصومة كانت تشتد حيناً وتخف حدتها حيناً ، وتستعلن آنا وتستسر آنا ، تبعا لتعصب رجال الحكم أو تسامحهم ، ولقوة رجال الدين أو ضعفهم ، ولغير هذا وذاك من العوامل التى كان لها أثرها فى تلكم الأيام .

هذه الخصومة بل هذا العداء لم يكن بين رجال الدين والفلسفة وحدها ، بل كان بين الأولين ورجال علم الكلام أيضا ، كما كان كذلك بين أهل السنة والمعتزلة . فالباحث المؤرخ للحالة العلمية فى القرن الثالث والرابع من الهجرة يرى أن أهل السنة كانوا فى القرن الثالث يظهرون الكراهية والاحتقار للمعتزلة ويناصبونهم العداء ، وأنه فى أثناء القرن الرابع كان أصحاب مذهب أهل السنة القدماء (أى قبل الأشعرى) يضيقون على المعتزلة الخناق فى جميع البلاد لاستعانتهم بالفلسفة وإدخالها فى علم الكلام [1] بل إن أبا حسن الأشعرى الذى كان معتزلياً

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى للمستشرق الألمانى آدم متز حـ ١ ص ٣٣٩ من الترجمة العربية للأستاذ محمد عبد الهادى أبى ريده .

ثم خرج على أصحابه وبدأ يحاربهم بسلاحهم – وهو النظر العقلى الذى يستند بعض الشىء للفلسفة اليونانية – لم يعدم من رجال الدين المتزمتين خصوماً لُدا فى خصومتهم . ذلك أن المذهب الأشعرى لم يكد يأخذ فى الانتشار بالعراق نحو عام ٣٨٠ هـ حتى بدأت تظهر آثار اضطهاده ؛ ومن ذلك ما حاوله الحنابلة من منع الخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ هـ من دخول المسجد الجامع ببغداد لا لشىء إلا لأنه كان يذهب مذهب الأشعرى [١] وبلغ من لدد الحنابلة فى الخصومة وتحاملهم على الأشاعرة فى ذلك العصر ، أن وقع بسبب إثارتهم العامة قتال فى شوارع بغداد سببه الاختلاف فى الرأى وقصر النظر وضيق العطن ، وأن لم يتورع شيخ الحنابلة حوالى عام ٤٠٠ هـ من لعن أبى الحسن الأشعرى [٢] .

هذه مثل تبين نظر رجال الدين الأوائل لعلم الكلام على مذهب الأشعرى أو مذهب المعتزلة ، ومبلغ الخصومة التى كانت بينهم والكراهة التى كانوا يحسونها لرجال الكلام عامة ، والاضطهاد الذى لاقاه هؤلاء من الأولين . ولكن يحسن ألا ننتهى من هذه الكلمة قبل أن نشير إلى ثلاثة أمور تبين بجلاء لا خفاء فيه ولا لبس موقف رجال الدين عامة من علم الكلام ؛ هذه الأمور هى :

(١) يذكر ابن الأثير فى تاريخه عند عرضه أخبار عام ٢٧٧ هـ أنه كان من المفروض على النساخ المحترفين ببغداد فى ذلك العام أن يقسموا بأنهم لن يشتغلوا بانتساخ أى كتاب فى الفلسفة ، وكان هذا القرار – كما يروون – يشمل تحريم الاشتغال بنسخ كتب علم الكلام أيضا [٣] .

(٢) إن الحملة التى أثيرت ضد المتكلمين وبخاصة المعتزلة ، والتى حمل لواءها الحنابلة ومشايعوهم ببغداد ، حملت الحكومة على أن تتدخل رسمياً لوضع حد لتلك المنازعات الدامية أحياناً ؛ فأصدر الخليفة القادر بالله العباسى عام ٤٠٨ هـ كتاباً ضد المعتزلة يأمرهم فيه بترك الكلام والتدريس والمناظرة فى الاعتزال والمقالات

---

(١) المرجع المذكور جـ ١ ص ٣٣٩ . ويرجع أيضا للمقريزى فى الخطط جـ ٢ ص ٣٥٨ .

(٢) الطبقات للسبكى جـ ٣ ص ١١٧ .

(٣) انظر أيضا التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ص ١٣٥ .

المخالفة للإسلام ، وأنذرهم بحلول النكال والعقوبة الصارمة إن خالفوا أمره [١] .

(٣) إن المقريزى ذكر فى خططه — فى الفصل الذى عقده لبيان الحال فى عقائد أهل الإسلام فى الزمن الأول إلى أن انتشر مذهب الأشعرى — أنه لما حدث مذهب الاعتزال وتكلم المعتزلة فيما تكلموا فيه عن العدل والتوحيد وإثبات أفعال العباد إلى غير ذلك من مسائلهم « تبعهم خلائق فى بدعهم ، وأكثروا من التصنيف فى نصرة مذاهبهم بالطرق الجدلية ، فنهى أئمة الإسلام عن مذهبهم ، وذموا علم الكلام وهجروا من ينتحله » [٢] . ثم ختم المقريزى هذا الفصل الأول بقوله : « فهذه جملة من أصول عقيدته (أى عقيدة الأشعرى) التى عليها الآن جماهير أهل الأمصار ، والتى من جهر بخلافها أريق دمه » [٣] .

وموعدنا إن شاء الله تعالى العدد الآتى لبيان ما يأخذه الباحث من هذه النصوص التاريخية والواقعات الثابتة ، ليستطيع أن يحدد فى وضوح تام موقف رجال الدين من علم الكلام وكتبه ورجالاته .

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

---

(١) الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٤٠ .

(٢) جـ ٤ ص ١٨٣ .

(٣) جـ ٤ ص ١٨٨ .

الحكمة القرآنية والفلسفة اليونانية [١]

— ٢ —

نشرنا المقال السابق لفضيلة الأستاذ النابه الشيخ محمد يوسف موسى ، وموضوعه خطير ، وهو إيجاد عهد سلام بين الإسلام والفلسفة ، وقد اضطر لأجل الوصول إلى هذه الأمنية أن يسرد تاريخ المسلمين فى مجافاة الفلسفة اليونانية متابعين فى ذلك أئمتهم ، ثم قال : « ومعنى هذا أيضا أن جانباً كبيراً لايزال يخلط فى هذه الخصومة التى أذكى نارها رجال الدين ضد الفلاسفة والمفكرين » ، وذكر حجة الإسلام الغزالى فقال : « إن أحكام الغزالى ومن لفّ لفّه على الفلاسفة بالكفر لا يزال لها أثرها الذى رجاه وعمل له » . وقال فيه أيضا : « ليته صرف بعض جهده الجبار فى التوفيق بين الدين والفلسفة (ما دام يرى أن العقل كالأس والشرع كالبناء) ، بدل الحرب التى أرَّث نارها ضد الفلسفة والفلاسفة بلا هوادة ولا رحمة ، وبلا إنصاف أحياناً » .

ونحن نقول : إن هذا بعينه رأى الفرنجة ، وهم يعللونه بأن أئمة المسلمين وقفوا هذا الموقف جهلاً منهم واستبقاء لسلطانهم على العامة . ولسنا نرى نحن هذا الرأى ؛ وليس بحث مسألة الفلسفة على هذا الوضع بمؤد إلى حسم مادة الخصومة بينها وبين الإسلام ، ولا هو بمتفق مع أمر جلل قام به المسلمون الأولون ، ولم يدون مثله فى تاريخ ملة من الملل ، ألا وهو أخذهم كل ما صادفوه فى الناحية العلمية الطبيعية من الفلسفة اليونانية حتى بزوا فيها أصحابها ، مع إصرارهم على رفض الناحية الفلسفية المحضة منها ، وكراهتهم لها إلى أقصى حد . فكيف يعقل أن الأئمة الذين لم يمنعوا ذويهم من الأخذ بما نضج من ثمرات العلم مهما كان مصدره ، والذين قرروا وجوب تأويل كل نص يخالف ظاهره حكم العلم ، يعمدون إلى معاداة الفلسفة اليونانية ، مع شغفهم بأخذ كل جديد صادفوه لدى الأمم ؟

---

(١) المصدر السابق م ١٢ سنة ١٣٦٠ هـ

السبب فى ذلك هو ما ذكرناه فى عدد سابق ووعدنا ببسط القول فيه ، أن المسلمين لم يجافوا الفلسفة اليونانية سذاجة وبلاهة منهم ، ولكن لأنه كان لديهم فلسفة آتاهم إياها القرآن ، تسمو على كل فلسفة فى الأرض ، وتجليها على ما هى عليه فى الواقع أوهاماً لا يقام لها وزن .

ما هى الفلسفة القرآنية ؟

لا عبرة بالتسمية ، فكلمة فلسفة يونانية معناها محبة الحكمة ، وقد أطلقوها على ثمرات تفكير عقلائهم فى الوجود وموجده ، وفى القوى العاملة فى الكون ، وفى الإنسان وعلاقته بالعالم ، وفى النفس البشرية وخصائصها الخ الخ ؛ جاعلين أساسَىْ إنتاجهم العقلَ وقوةَ التصوُّر . وقد اختلفوا فى مذاهبهم بقدر ما اختلفوا فى هذين الأساسين ، حتى كان منهم المثبت إثباتاً مطلقاً ، والنافى نفياً مطلقا ، بل كان منهم من أنكر المحسوسات مؤكدا أن الوجود وهم فى وهم .

وقد جرت الفلسفة على هذا السمت نحو ألفى سنة حتى تخلص العلم من الأوهام والظنون واتخذ لنفسه دستوراً أساسه المشاهدة والتجربة ، فألقى بكل فلسفة خيالية من حالق ، وأسس الآخذون إخذه فلسفة دعوها بالفلسفة الطبيعية ، جعلوا قاعدتها المكتشفات العلمية . وقد أريناك من أقوالهم إلى أى حد من الأدب والتحفظ وصلوا ، فى مقالنا الفلسفى المنشور فى العدد الرابع .

بعد هذه المقدمة الوجيزة نتساءل : هل جاء القرآن للمسلمين بفلسفة ؟

نعم ، جاءهم بفلسفة تبز فى سموها أرقى فلسفة ، وأطلق عليها ما يقابل هذه الكلمة من اللغة العربية ، وهى (الحكمة) ، وقد نوه بها القرآن فى آيات كثيرة ، وأفردها بالذكر فى مقامات تقتضيها ، إشارة إلى أنه سيأتى يوم يكون النضال فيه حول هذه الكلمة شديداً ، وتكون المقابلة بينها وبين مزاحماتها من الفلسفات الأجنبية متحتماً .

نبدأ بحثنا فى هذا الموضوع بإثبات صحة نظرنا وجود (الحكمة) القرآنية بالاعتبار الذى بيناه هنا ، ثم نأتى ببيان الأصول التى تقوم عليها ، لتتعين اسماً ومعنى ، وتمكن المقابلة بينها وبين أرقى فلسفات العالم ، والمنافحة عنها على أساس علمى لا تتأتى الملاحاة فيه .

بعض الآيات التى تثبت ادعاءنا فى وجود الحكمة القرآنية :

قال الله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب (والحكمة) يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب (والحكمة) ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب (والحكمة) ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب (والحكمة) ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ واذكرن (الخطاب لنساء النبى وسائر النساء) ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله (والحكمة) ﴾ .

هذا بعض ما ورد فى القرآن الكريم من التنويه بالحكمة ؛ وفى خصها بالذكر إشارة لا يجوز أن تخفى على أحد اليوم ، فلا عجب أن يستعصى الذين أنزلت إليهم (حكمة) أساسها العقل والعلم والمشاهدات ، على حكمة أجنبية قُدمت إليهم تحت اسم فلسفة أساسها الظنون والخيالات والأوهام .

بهذا وحده يمكن تعليل تسارع المسلمين الأولين إلى تلقف ما صادفوه لدى الأمم من العلوم الطبيعية ، وشغفهم بما قام لديهم الدليل على صحته منها ، حتى أولوا فى سبيله ما يناقضه من ظاهر الكتاب ، وتوقفوا عن أخذ الناحية النظرية من الفلسفة كل التوقف .

نعم إن المسلمين أمروا أن يبادروا إلى تصيد (الحكمة) حيث وجدت ، لقوله ﷺ : ﴿ الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولو من مشرك ﴾ ؛ ولكن هذا لا يصح إلا فيما لم يكن لديهم ما يقابلها ؛ وقد قامت لديهم الأدلة على سمو ما لديهم على جميع منافساتها ، كما سيتضح للقارئ مما سنعرضه عليه من أصول الحكمة

الإسلامية ، وأصول الفلسفة اليونانية .

ومما يدل على أنهم جروا من هذا التخير على أساس صحيح ، مبادرتهم إلى اقتباس المنطق من القسم النظرى من الفلسفة اليونانية ، لأنهم رأوا أن المنطق أداة نافعة للتدليل ، وواقية من الخبط فى وضع المقدمات واستخراج نتائجها ، وكان هذا المنطق مما استخدموه من الوسائل لنقض الفلسفة اليونانية التى افتتنت الأمم بها ، ثم اضطرت لأن تتركها لما ارتقت العلوم والعقول ، ورأت أنها لا تقوم إلا على الخيال الذى لا يغنى أمام الحقائق اليقينية شيئا . فبطلت الفلسفة اليونانية وبقيت (الحكمة القرآنية) قائمة ؛ وسيتضح للقارئين كافة أنها من الحقائق الخالدة ، وأنه كان لدى أئمتنا الأولين بصيرة نافذة فى التعويل عليها ، ورفض ما عداها رفضا لا هوادة فيه ، ولأنهم رأوا أن لا أساس لها إلا الظنون والخيالات ، وقد نهتهم حكمتهم عن الأخذ بالظنون التى لا تستند إلى برهان .

أصول الحكمة القرآنية :

الحكمة القرآنية تتناول جميع ما يتصل بحياة الإنسان المادية والأدبية ، وهى تبتدئ من قواعد الآداب العادية وموجباتها الحيوية ، إلى الحالات العالية للنفسية الإنسانية ، وبواعثها من العوامل الروحية ؛ ومن أوليات الأصول الاجتماعية ، إلى نهايات الوحدة الإنسانية بل العالمية ؛ ومن بسائط الأسس الإدارية والاشتراعية ، إلى أعلى المبادئ الحكومية والدستورية ؛ ومن أوضح القواعد الثقافية ، إلى أسمى وأدق القوانين الفلسفية والعلمية . الخ

هذه الأصول كلها مبثوتة فى الكتاب الذى أُمر المسلمون أن يتخذوه دستوراً لهم فى جميع ما تدفعهم إليه الحياة الدنيوية ، والأغراض الأخروية . وهى كما ترى ذات نواح متعددة قد درسنا كثيراً منها فى عدد عظيم من بحوث نشرناها هنا . وحاجتنا اليوم ماسة إلى استخراج ما يتصل منها بالقواعد الثقافية ، والأصول الفلسفية والعلمية ، وشهوة العقل للوصول إلى الحقائق الوجودية ، لمقابلتها بأصول الفلسفة اليونانية وأصول الفلسفة العصرية .

الأصل الأول : الإنسان لم يحصل من العلم إلا قليلاً : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

الأصل الثانى : يجب على الإنسان أن يتعلم لمصلحته المادية ومصلحته الروحية : ﴿ وقل رب زدنى علماً ﴾ ، ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ بكسر اللام . ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ ، ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ .

الأصل الثالث : العلم لا يحصّل إلا بالنظر فى الوجود والموجودات ، والتأمل فى أحوال الكائنات ، لا بالظنون والأوهام : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ ، ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ ، ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ ﴾ .

الأصل الرابع : إقامة سلطان العقل ، واللجأ إلى حكمه فى كل خلاف ، مع البعد عن الأهواء والجنوح إلى الأباطيل : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ، ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ ، ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ ، ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ﴾ .

الأصل الخامس : الاعتماد فى تحقيق المسائل إلى تقرير العلم الممحص لا إلى الأوهام ولا المقررات الموروثة : ﴿ وإن كثيراً ليُضلون بأهوائهم بغير (علم) ﴾ ، ﴿ سفها بغير (علم) ﴾ ﴿ عَدْواً بغير (علم) ﴾ . ﴿ يضلونهم بغير (علم) ﴾ . ﴿ قل هل عندكم من (علم) فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تَخْرصُون ﴾ أى تكذبون .

الأصل السادس : عدم متابعة الخيالات فيما ليس وراءه علم يسنده ، ويعدل من تطرف الناظر فيه : ﴿ ولا تَقْفُ (أى ولا تتبع) ما ليس لك به (علم) إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ .

الأصل السابع : وجوب التثبت فى العلم وعدم الأخذ بدون دليل : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ ، ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

الأصل الثامن : تحريم التقليد للآباء فى العلم ، والتعصب لآرائهم : ﴿ قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ .

الأصل التاسع : عدم الجمود على المعلومات المختزنة ، وضرورة سماع كل رأى والأخذ به إن كان حقا : ﴿ فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب ﴾ .

الأصل العاشر : وجوب الحذر من الظنون والأوهام ، فإنهما كانا السبب فى تضليل الناس وإفساد نفوسهم فى جميع الأجيال : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ . ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، إن الله عليم بما يفعلون ﴾ .

كره الإسلام لذويه الاعتماد على الظنون حتى فيما يتعلق بفهم القرآن نفسه ، فقرر فيه نوعين من الآيات ، أولهما يشتمل على الحلال والحرام وأصول الشريعة والأخلاق ، وما تحتاج إليه الأمة فى كل ما يتصل بحياتها الاجتماعية والاقتصادية ؛ وهى جلية صريحة لا تعترك عليها الأفهام ، وسمى هذا النوع (مُحْكما) .
ثانيهما يتعلق بأمور تعلو متناول العقل البشرى ، ولو عولجت به اختلفت عليها الآراء ، وتباينت فيها التأويلات ، وصارت مثاراً للجدال والنزاع ، وسمى هذا النوع (متشابها) ؛ ففرض على الآخذين به النظر فى الأولى ، والعمل بها ، وحرم عليهم الجدل فى الثانية ومحاولة تأويلها ، فقال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب (أى أصله) ، وأخر متشابهات (أى لا يتضح مقصودها لكونها غير موافقة للظاهر) ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

فإذا كان مذهب الحكمة القرآنية عدم جواز الخوض فى الظنيات ، حتى فيما يتعلق بفهم القرآن ، فهل يسمح به فى سبيل الناحية النظرية من الفلسفة اليونانية ؟

القرآن لم يحرم النظر فى الوجود بل حث عليه وطالب به ، ولكنه نبه على أن الحكم على شىء منه لا يجوز أن يكون إلا إذا كان مستنداً إلى (علم) ،

أما إلى مجرد الأوهام والخيالات فلا ؛ وهذه نزعة فلسفية لم يسمع بها إلا فى القرن التاسع عشر ، واعتُبرت خطوة نهائية فى سبيل إبلاغ الفلسفة أوج تطورها ؛ فهل يلام أئمة المسلمين الأولين على توقفهم عن الأخذ بالفلسفة اليونانية ، عملاً بأصول حكمتهم ، وخاصة بعد ما ثبت فى القرون الأخيرة أن بضاعة تلك الفلسفة فى ناحيتها النظرية كانت وليدة الظنون والأوهام ؟

المقرر المعلوم أنه كان للفلسفة اليونانية ناحيتان : ناحية علمية طبيعية ، وناحية نظرية افتراضية ؛ فأما الناحية الأولى فقد أخذها المسلمون عنهم ، وأوسعوها بحثاً وتمحيصاً ، وزادوا مادتها زيادة عظيمة ، حتى بزوا فيها أصحابها الأولين . ولم يكتفوا بذلك بل أضافوا إليها كل ما صادفوه منها لدى الأمم الأخرى كالفرس والهنود والصينيين ، مما جعل جامعاتهم محط رحال طلاب العلم من جميع الشعوب .

وأما الناحية النظرية الفكرية التى اعتمد اليونانيون فيها على الآراء والظنون ، فقد أهملها المسلمون عملاً بالحكمة المنزلة إليهم من عدم إضاعة الوقت سدى وراء ما ليس لهم به (علم) ، ولا يمكن تحقيقه بدليل محسوس .

فهل يلام أئمة المسلمين على إهمالهم التوفيق بين دينهم وبين الناحية النظرية الافتراضية من الفلسفة اليونانية ، وليس لديهم لتحقيق صحتها أثارة من علم يقين ؟

أثر هذه التعاليم فى نفسية المسلمين :

هذا الدفع المتواتر فى وجوه الأوهام والظنون ، وهذا الزجر المتتابع لعدم التعويل على خواطر الصدور ، وهذه الإنذارات المتوالية للمتسامحين فى الأخذ بدون دليل ، يضاف إلى هذا كله الوصايا المشددة بوجوب التثبت مما يقال ، والاستيثاق من صحته ، تفادياً من الوقوع فى الضلال ؛ كل هذا أنشأ لعقلية المسلمين مناعة عظيمة ضد الآراء والظنون ؛ مناعة حملتهم على نقد كل شىء حتى أحاديث نبيهم ، فأنشأوا ضوابط للرواية ، لم يسبقهم إلى مثلها سابق من العالمين ، وصاروا لا يقبلون ما يروى لهم منها إلا سالماً من جميع علل الرواية والرواة والمؤلفين .

هذه المناعة نفسها خدمتهم فى أخذهم بالعلوم الطبيعية ، فقد أوسعوها نقداً ، وتمكنوا بذلك من تمحيصها وتثبيتها على قرار مكين .

وهذا كان السبب الرئيسى فى تمهرهم فى العلوم الطبيعية ، وحلولهم مكانة الزعامة منها دون سائر الأمم التى كانت عريقة فيها . وهذه ظاهرة اجتماعية لم يدونها تاريخ البشرية لغير الأمة الإسلامية . ذلك أنه لم يشاهد قط أن أمة تشتغل ، وهى فى دور حماستها الدينية ، بالعلوم المادية ، فضلاً عن أن تبز فيها حاملى لوائها بين العالمين .

فإن تعجب من هذه الظاهرة الفذة فى تاريخ العقلية الإنسانية ، فإن الفضل فيها لتوجيهات (الحكمة القرآنية) لأهلها من الناحية الثقافية ، ولو كان المسلمون نكبوا عنها إلى الفلسفة اليونانية ، لما بلغوا المكانة التى وصلوا إليها ، ولخلطوا بين المنقول والمعقول خلطاً يتعذر عليهم بعده أن يتخلصوا من تبعاته ، ولانحرف دينهم الفطرى عن صراطه ، كما انحرفت الأديان التى سبقته ، ولاضطروا إلى محاولة إصلاحه ، وهذ المحاولة تجر بطبيعتها إلى فصم عروة وحدته ، وفى فصمها الشر كله على أهله كما لا يخفى على خبير .

وليس فى بقاء الإسلام نقياً خالصاً من الشوائب ، فضل يعود إلى شيء غير (الحكمة) التى قرنت به ، فإنها أُلفت بحيث تحميه من كل عدوان يوجه إليه ، وحليت من الحوافظ بما يجعله بمأمن من كل انحراف يؤثر فيه ؛ وكان من أقوى هذه الحوافظ سدها الطريق على الظنون والأوهام والتأويلات التى جعلته ينبذ كل فلسفة ظهريا ، ودفعته لتطلب العلم الثابت دفعاً حتى جعلت نجاة الآخذ به معلقة عليه . ألم يقل الله تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ؟ أو لم يقل أيضا : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ ؟

ومن آثار (الحكمة القرآنية) فى عقلية المسلمين كراهة أئمتهم أن تُعتبر آراؤهم قضايا مسلمة لدى تلاميذهم ، فنهوهم عن الأخذ بها بدون نقد ولا تمحيص ، فاشتغل هؤلاء التلاميذ بعرضها على الموازين العلمية ، واستدركوا على أساتذتهم فى بعضها ، وأعلنوا ذلك للباحثين .

هذه الحرية فى البحث لم تؤثر إلا عن المسلمين ، وهى من أينع ثمرات (الحكمة القرآنية) التى نعرضها اليوم على الناظرين .

وكان من النتائج الطبيعية لهذه الحرية ، أن اعتبر باب التجديد مفتوحاً فى وجوه الناس إلى يوم الدين .

رجوع الفلسفة الغربية الحديثة إلى أصول (الحكمة القرآنية) :

إذا كان فى القرن العشرين ما يجب اعتباره سموا لا مرتقى بعده للعقل البشرى ، ونضجاً لا يخشى عليه معه الانخداع بالأوهام ، فهو ما تحققه هذا العقل نفسه بعد طول مراسه لظواهر الوجود ، أنه لم يصل من حقائقها إلا لذرو لا يسمح له أن يُزْهَى به ، وأن يعتبر نفسه بسببه قد وصل إلى شىء يحسن به أن يجمد عليه .

وقد صرح بهذه الحقيقة أعلام الباحثين فى الكون ، وقد نقلنا بعض أقوالهم فى مقالنا المنشور بالعدد الرابع من هذه المجلة ؛ ونرى أن نحلى مقالة اليوم بواحدة منها للفيلسوف المشهور هربرت سبنسر الإنجليزى منقولاً عن كتابه (الأصول الأولية) فى فهم حقيقة الكون ، قال :

« أى وظيفة تؤديها هذه الأصول فى تكوين هذا الفهم ؟ هل تستطيع واحدة منها أن تعطينا فكرة عن هذا الوجود ، أعنى عن مجموع ظواهر الموجود الذى لم يمكن إدراكه ؟ وإذا اعتبرناها مجتمعة ، فهل تستطيع أن تعطينا فكرة تساوى جلالة هذا الوجود ؟ وإذا رُتبت وجعلت مذهباً ، فهل تستطيع أن تكوِّن لنا هذه الفكرة المرجوة ؟ ليس لنا على كل هذه المسائل إلا جواب واحد ، وهو : لا ! » .

***

نقول : فى هذا الدور من التطور البعيد المدى للعقلية الإنسانية ، تتفق الفلسفة العصرية و(الحكمة القرآنية) ؛ فإذا طُلب إلى المسلمين أن يوفقوا بينهما لمصلحة الثقافة العامة ، فها هما قد اتفقتا كل الاتفاق فى هذه النهاية المناسبة لسمو المواهب الإنسانية .

وأما ما كان يُرجَى أن يقوم به الإمام الغزالى من التوفيق بين (الحكمة القرآنية) والفلسفة اليونانية ، فى الوقت الذى كان فيه العقل لا يزال فى درجة الطفولة ، تخدعه العبارات المنمقة ، والألفاظ المبهرجة ؛ والذى كانت فيه الفلسفة مجموعة ظنون وأوهام وخيالات ، فإن ذلك مما كان يعجز عنه الإمام الجليل كل العجز ؛ وكان أجمل موقف يستطيع أن يقفه : هو أن يكافح تلك الفلسفة ويبعد خطرها عن عقلية المسلمين ، كما فعل أسلافه من قبل .

خلاصة القول :

خلاصة القول أن الحكمة القرآنية تأبى قبول أية فلسفة تستند على مجرد الظنون ، فهى تشترط للأخذ بها أن تكون قائمة على (علم) يؤيدها ؛ قال تعالى : ﴿ نبئونى (بعلم) إن كنتم صادقين ﴾ ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير (علم) ﴾ .

و(العلم) فى عرف (الحكمة القرآنية) يجب أن يكون محققا بوسائل التحقيق المتفق عليها ، فإن ظفرتْ بشىء من ذلك أسرعتْ إلى اقتباسه ، واستنتجتْ منه كل ما يحتمله من ثمرات مادية وأدبية . وهل يراد منها فى سبيل احترام العلم اليقين ، أكثر من صرف الآيات عن ظواهرها إن ناقضت ما ثبت منه بالدليل المحسوس ؟

(فالحكمة القرآنية) بطبيعة تركيبها ، ومقتضى أصولها ، هى من الضرب الذى اتفق على تسميته حديثا بالفلسفة العلمية ، وهى التى تقرر أنها الفلسفة الحقة التى لا يجوز تجاوز حدودها ، بعد ما ثبت أن ما لا يقوم على (العلم) فلا يبعد أن يكون وهما من الأوهام ، وهو ما يجب أن يتقيه الإنسان ، وخاصة بعد ما بلغ رشده الفلسفى فى هذا الزمان .



بين رجال الدين والفلسفة [١]

– ٣ –

كتبت الكلمة الأولى من هذا البحث ، وما كنت أتوهم أن تكون سبباً للتعقيب عليها من حضرة .... رئيس التحرير فى نحو ثمانٍ صفحات فى نفس العدد الذى ظهرت به . ذلك أنى عنيت – كدأبى دائما – بنسبة كل حقيقة علمية أو نقل تاريخى للمرجع الذى رجعت إليه بكل دقة ووضوح . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الكلام لا يزال فى أوله ومقدماته ، ولم تصل إلى موضع بيان الرأى الذى أراه فى الخلاف بين رجال الدين والفلسفة ، حتى يصح أن يتوجه عليه نقد مهما كان أمره . على أنى – وقد تفضل حضرة الأستاذ الجليل بالتعقيب الذى أشرت إليه – لا أجد بدّا من تناوله بكلمات موجزات قبل متابعة الحديث فيما رأيت بحثه من أمر العلاقة بين رجال الدين والفلسفة .

(١) القارئ للتعليق المذكور يعتقد – كما قال السيد الأستاذ – « أنى سردت تاريخ المسلمين فى مجافاة الفلسفة اليونانية متابعين فى ذلك أئمتهم » ، مع أنى لم أتكلم إلا عن جانب من موقف رجال الدين من علماء الكلام ورجالاته ، ولم أشرع بعدُ فى بيان موقفهم من الفلسفة والفلاسفة ؛ كما يعتقد أنى قد أدليت برأيى فى هذا الموقف ورأيت ما يراه الفرنجة الذين يعللونه بجهل أئمة المسلمين والرغبة فى استبقاء سلطانهم على العامة . هكذا قال السيد الأستاذ الجليل ، وسارع فقرر أن بحث مسألة الفلسفة على هذا الوضع لا يؤدى لحسم مادة الخصومة بينها وبين الإسلام ، مع أنى أيضا لم أصل إلى الكلام على بواعث تلك الخصومة وتحديدها حتى يمكن أن يقال إنى ذهبت إلى هذا الرأى أو ذاك ، وإن ما رأيته يتفق ورأى الفرنجة .

(٢) وأحب لهذه المناسبة أن أذكر فى صراحة أنى مع انتفاعى إلى حد كبير ببحوث الفرنجة ودراسات المستشرقين ، وبما عرّفونا به من مصادر لها خطرها

---

(١) نقلاً عن المجلّد الثانى عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٠ هـ – ص ٤٦٥ .

وقيمتها فى بحث تاريخنا العلمى ، لا أرضى لنفسى أن أكون تابعاً لأحد منهم فيما يرى عن هوى أو تقليد . إننى أومن بضرورة الرجوع للمصادر الأصلية العربية التى رجعوا إليها وتفهمها واستنتاج ما يجب استنتاجه منها ؛ فنحن أقدر منهم بلا جدال على فهم العربية وأساليبها ، وإن كانت الأيام وعوادى الزمن مكنتهم من الاطلاع على مراجع لا نجدها بين أيدينا بفضل كسلنا وإهمالنا تراثنا العلمى المجيد ! .

(٣) لا يرى بعد هذا صاحب العزة رئيس التحرير أن من المعقول أن يعادى الأئمة الفلسفة اليونانية مع حثهم ذويهم على الأخذ بما نضج من ثمرات العلم مهما كان مصدره . ولست أتقدم للقارئ فى هذا إلا بوجوب التريث حتى أتكلم عن موقف رجال الدين من الفلسفة ، فيتبين من الوقائع والحالات التاريخية الثابتة كيف أن هذا الذى يراه عزته غير معقول هو الذى كان ! وإنما أتعجل فأشير إلى حادث إحراق كتب عبد السلام بن عبد القادر المعروف بالدكن ، وهو – كما يقول القفطى [1] – من بيت تصوف وتعبد ، قرأ علوم الأوائل فأجادها ، فحسده أرباب الشر واتهموه بالاعتداد بأقوال الفلاسفة ، فصدر الأمر بأحراق كتبه فى حفل كبير ، وتولى كِبْرَ هذا العمل عبد الله التيمى البكرى المعروف بابن المارستانية . جعل لعبد الله هذا منبر صعد عليه ، وبدأ تنفيذ ما أمر به بخطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم ، وذكر الدكن عبد السلام بشَر ، وكان يخرج الكتب التى له كتابا كتابا فيتكلم عليه ويبالغ فى ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه فى النار ! والذى يهمنا أكثر ، هو أنه – كما يرويه للقفطى شاهد عيان – لما وصل إلى كتاب الهيئة لابن الهيثم قال ، وهو يشير إلى الدائرة التى مثل بها الفلك : « وهذه الداهية الدهياء ، والنازلة الصماء ، والمصيبة العمياء » ! وبعد تمام كلامه خرقها وألقاها فى النار ! فهل لا يعد هذا جهلاً وتعصباً ؟! وأخيراً انتهى الأمر بسجن عبد السلام عقاباً على أنه كان له فضل عقل فاستعمله فيما أمر الله به من النظر فى الوجود وملكوت السموات

---

(١) أخبار الحكماء ص ١٥٤

والأرض ، واستمر فى السجن حتى أفرج عنه عام ٥٨٩ هـ . كما أشير أيضا إلى فتوى ابن الصلاح والنواوى بتحريم دراسة المنطق ! وإلى الحكم بالإلحاد – إن لم يكن بالكفر – على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لتدريسه العلوم الحديثة بالأزهر ، ومنها الحساب والجغرافيا ! جهلاً وحسداً وبغياً أن يؤتى الله من فضله من يشاء من عباده ، كما حدثنا بذلك منذ قريب حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى فى ذكرى الأستاذ الإمام .

(٤) بقى بعد هذا تأكيد السيد الأستاذ « بأن القرآن جاء للمسلمين بفلسفة تبز فى سموها أرقى فلسفة ، وأطلق عليها ما يقابل هذه الكلمة من اللغة العربية ، وهى : الحكمة » . هذا الموضوع لا يحسن أن يمس مساً رفيقاً فى مقال أو مقالين ، بل يجب أن يبحث فى دقة وعناية بحثا تدعمه الأدلة والأسانيد ، وليس هذا موضعه ، ولا يتصل بما جعلته عنواناً عاماً للكلمات التى اعتزمت كتابتها . ولكن يجب مع هذا أن نقول بأن كلمة الحكمة كما وردت فى القرآن لا تدل على ما يراد فى اصطلاح العلم بكلمة فلسفة ، حتى ما كان منها قائماً على النظر الصحيح . وأعتقد الأمر فى هذا واضحاً يكفى فى التثبت منه أن يتصفح القارئ أى كتاب من كتب التفاسير المعتبرة ، فيرى أن كلمة الحكمة فى الآيات التى ذكرها صاحب العزة الأستاذ الجليل وأمثالها يراد بها السنة النبوية ، أو الأحكام والشرائع كما يذكر أبو السعود ، أو القضاء بالوحى كما يقول القرطبى . وأين هذا من الفلسفة التى حاول كثير من المفكرين التوفيق بينها وبين الدين !

ومهما يكن فإن مما لا ريب فيه أن كلمتى التى كانت سبب هذا التعقيب الطويل كانت خيراً وبركة ، أو بعبارة أخرى كانت سبب خير كثير نال القراء الكُثر الذين يعجبون بحق بالسيد الأستاذ ، ويقدرون ما يطالعون له من بحوث لها قيمتها وقدرها .

وبعد ما تقدم كله نعود لاستئناف الكلام فى الموضوع الأصلى ، فنقول :

ذكرنا فى المقال الماضى ثلاثة أمور ، رأينا أنها تبين بجلاء موقف رجال الدين عامة من علم الكلام ، فماذا يأخذ الباحث من هذه النصوص عن المؤرخين الثقات ، ومن النصوص الأخرى التى نقلناها أو أشرنا إليها ؟ للباحث أن يقرر

وهو آمن من اتهامه بالمبالغة أن النظر الحر ، حتى فى علم الكلام ، صار فى القرن الثالث مقيتا بغيضاً محرماً من جهة الدين ، حتى لا يجوز للناسخ أن يشتغل ولو لحساب الغير بنسخ شيء من كتبه ، وأن هذا المقت لعلم الكلام – وخاصة على غرار نظر المعتزلة – أخذ صورة إيجابية أقلقت بال الدولة ، ووجدت فيها ما تخشاه من اضطراب حبل الأمن العام ، فيصدر الخليفة أمراً يقضى بتحريم النظر فى هذا العلم والمناظرة فيه ، وإلا فالويل لمن يعصى الأمر المرسوم ، وأنه أخيراً – كما يقول المقريزى – صار مذهب الأشعرى هو مذهب جماهير أهل الأمصار حتى العصر الذى عاش فيه ، وأن من خالفه كان مطلول الدم . ومعنى هذا كله خصومة عنيفة صارت عداء واضحاً يستباح فيه دم المخالف من رجال الدين ، أقضّت على المتكلمين الأحرار مضاجعهم ، وأوردت الكثير منهم موارد المنون دفاعاً من رجال الدين عنه حيناً ، وتعصباً له عن جهل حيناً آخر . ونقول : دفاعاً آنا وتعصباً آنا عامدين لا مسرفين فى القول ولا متجنين ؛ ذلك أنه لنا أن نلتمس لرجال الدين والمحدثين – وعلى رأسهم الحنابلة – بعضَ العذر فى خصومتهم الحادة للمعتزلة وانتقامهم منهم لما فعلوا بهم أيام فتنة القول بخلق القرآن التى أحدثها المأمون ، وقَفَاه فيها المعتصم والواثق ، حتى ولى المتوكل عام ٢٣٢ هـ فأبطل هذه المحنة ورفع عن الناس الإصر ؛ وحسبنا مما نال المحدثين فيها من أذى أنْ ضرب الإمام الجليل أحمد بن حنبل بالسياط ضرباً مبرحاً سال منه الدم وتعددت الجراحات . على أن المحدثين لم ينقموا على المعتزلة إثارتهم هذه المحنة وموقفهم فيها فحسب ، بل نقموا منهم أيضا فلسَفَتَهَمْ للدين وتأْويلَهم للآيات التى تعارض أصلاً من أصولهم الخمسة (هى : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر) [1] ، ورَدَّهمْ للأحاديث التى لا تتفق معها ، مما هال المحدثين وجعلهم يرون فيهم أعداء للدين يجب ذيادهم عنه والوقوف فى وجه اعتدائهم عليه ، وينسون ما كان لهم من بلاء مبين فى الرد على الفرق الضالة وطوائف الملاحدة ، كما يدل لذلك إجالة النظر فى مؤلفاتهم

---

(١) الانتصار والرد على ابن الروندى : للخياط المعتزلى ص ١٢٦ ، ومروج الذهب للمسعودى ، طبع دار الرجاء بمصر جـ ٢ ص ١٥٠

ومنها كتاب (الانتصار) للخياط الذى يقول عن النظام وأمثاله من المعتزلة : إنهم « شغلوا أنفسهم بجوابات الملحدين ووضع الكتب عليهم إذ شُغل أهل الدنيا بلذاتها وجمع حطامها » (١) . ولكن إذا كان للمحدثين ومن إليهم من رجال الدين بعض العذر فى وقوفهم موقف الخصم اللدود من المعتزلة ، فما عذرهم وقد انتصروا عليهم بمجىء المتوكل العباسى فى عدائهم للأشاعرة – الذين كانوا يرمون المعتزلة معهم عن قوس واحدة – حتى لا يرى شيخ الحنابلة كما قدمنا بأساً فى لعن أبى الحسن الأشعرى ، وحتى يمنعوا الخطيب البغدادى من دخول المسجد الجامع لذهابه فى علم الكلام مذهب الأشعرى ؟! ثم بعد أن تنفس الأشاعرة الصعداء بعد ذهاب سلطان الحنابلة بمرور الزمن ، وصار مذهبهم هو المذهب الرسمى ، ما ذنب مخالفيهم فى عقيدتهم حتى يكونوا مطلولى الدم إن جهروا بما يرون كما روينا عن المقريزى !

ومهما يكن فهذا جانب من موقف رجال الدين من علم الكلام ورجاله وكتبه ، ومنه يتبين أنهم كانوا يعتبرونه مدة طويلة علماً مقيتًا بغيضاً لا يتفق الخوض فيه والدين الحق . ولم يكن هذا بالمشرق فقط بل كان بالمغرب أيضا ، حتى إنه لما تولى على بن يوسف بن تاشفين الحكم بعد وفاة أبيه عام ٤٩٣ هـ قرر الفقهاء عنده تقبيح علم الكلام وأنه بدعة فى الدين ، حتى استحكم فى نفسه بغضه وأهله ، فكتب للبلاد مشدداً فى نبذ الخوض فى شىء منه ، وتوعد من وجد عنده شىء من كتبه (٢) بل إن ابن تاشفين هذا أمر بإحراق كتب حجة الإسلام الغزالى نفسه لما دخلت المغرب ، وتوعد بالقتل من خاطر بنفسه فاقتنى شيئاً منها ، لأنه قيل له إنها مشتملة على الفلسفة ، وفعل ذلك قبل أن يطلع عليها أو يعرف ما فيها ! (٣)

والآن نترك الحديث فيما يتصل بعلم الكلام ، وننتقل لعرض موقف رجال الدين من الفلسفة ورجالاتها ؛ فإلى اللقاء إن شاء الله تعالى .

محمد يوسف موسى

---

(١) كتاب الانتصار المذكور طبع دار الكتب ص ٤١ .

(٢) المعجب : للمراكشى ، نشر دوزى ص ١٢٣ .

(٣) نفسه ص ٩٦ وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى حـ ٤ ص ١١٤ .

الحكمة القرآنية والفلسفة اليونانية [١]

– ٤ –

نشرنا المقال السابق لفضيلة الأستاذ الألمعى الشيخ محمد يوسف ، وإنا لنثنى على حسن تقديره للنقد ، وعظيم تمكنه من آداب البحث ، راجين له توفيقاً عظيماً فى حياته العلمية والفلسفية .

لاحظ علىّ فضيلته ملاحظات أرى من مصلحة الفلسفة أن أتحدث إليه عنها ، فإن شأن الفلسفة خطير لا يجوز لمن يتولون الرقابة على ثقافة الأمة أن يغفلوه ، وقد علموا أن الذى يوجه الأمم فى هذا العصر إلى الغايات هى فلسفاتها ، أى الأصول والمبادىء التى تسيطر على عقليتها ، وتتسلط على نفسيتها ، وإن لم يتعين اسمها لدى آحادها ، ولكن يعرفها من يتأمل فى دوافعها الأدبية من أبنائها وغير أبنائها . لذلك لا آلو كل ما يكتب فيها هنا تعقيباً ، إذا رأيت ما يوجب ذلك ، تفادياً من أن قارئاً أو عدداً من القراء لا يوفقون لقراءة ردود قد لا تأتى إلا بعد شهور عديدة .

لاحظ علىّ فضيلة الأستاذ أموراً :

١ – أنى تسرعت بالرد على مقدمات لم تصل إلى موضع بيان الرأى فى موضوعها .

٢ – أنى قلت ليس من المعقول أن يعادى الأئمة الفلسفة اليونانية ، ويحضون ذويهم على الأخذ بما نضج من ثمرات العلم ، والواقع أن غير المعقول هذا هو الذى كان .

٣ – أنى قلت بأن القرآن آتى المسلمين بحكمة تبز أرقى الفلسفات ، والواقع أن الحكمة المذكورة فى القرآن تعنى السنة النبوية أو الأحكام والشرائع ، كما ذكر ذلك أبو السعود ، أو القضاء بالوحى ، كما قال القرطبى .

---

(١) المصدر السابق م ١٢ سنة ١٣٦٠ هـ

ملاحظاتنا على الملاحظة الأولى :

إن الذى رددنا عليه من مقالة فضيلة الأستاذ ليس قولاً له ورد فى صيغة تشكيك ، وجُعل تحت البحث ، ولكنا رددنا على حكم له مقرر ، أتى به نتيجة لبحث مدعم ، فليس لنا بعد أن كتب فضيلته : « إن جانباً كبيراً منا لا يزال يخلط فى هذه الخصومة (أى بين الدين والفلسفة) التى أذكى نارها رجال الدين ضد الفلاسفة والمفكرين » .

وبعد أن كتب : « هذه الخصومة بل هذا العداء ، لم يكن بين رجال الدين والفلسفة وحدها ، بل كان بين الأولين ورجال علم الكلام أيضا ، كما كان كذلك بين أهل السنة والمعتزلة » .

بعد أن كتب فضيلة الأستاذ هذا وأمثاله ، لم أر أن من التسرع الدفاع عن أهل السنة ، وبيان عذرهم فى معاداة الفلسفة والاعتزال والكلام ، لا جهلاً منهم ولا تعصباً ، ولكن لقيامهم على حكمة آتاهم القرآن إياها تبز فى سمو أصولها ، وفى بعد مجال نظرها ، كل فلسفة فى الأرض ، ولا أستثنى منها الفلسفة العلمية المصرية ، كما بينت ذلك فى مقالات سابقة بالدلائل القاطعة .

وما دمت أرى هذا الرأى ، وأملك عليه من الأدلة ما لا يمكن دحضه ، فإنى أرى من الحكمة المسارعة إلى بيانه ، وخاصة لأنى أعتقد أن التشكيك فى صدق نظر أئمة الدين الأولين ، واتهامهم بعدم الانصاف والجهل ، يزعزع صرح هذا الدين فى نظر أهله ، ويعرض بناءه للخطر .

ومما يدل دلالة حسية على أنى لم أتسرع فى ملاحظاتى ، وأنى كنت من مقال الأستاذ حيال أحكام مقررة ، وآراء ثابتة ، أن فضيلته أيدها فى مقاله الثانى ، فزاد فى ملاحظاتى قوة جديدة غير منتظرة .

ملاحظاتنا على الملاحظة الثانية :

قال فضيلة الأستاذ : « ما قلت أنا إنه غير معقول هو الذى كان » ، مشيراً بذلك إلى قولى :

« فكيف يعقل أن الأئمة الذين لم يمنعوا ذويهم من الأخذ بما نضج من ثمرات العلم مهما كان مصدره ، والذين قرروا وجوب تأويل كل نص يخالف ظاهره حكم العلم ، يعمدون إلى معاداة الفلسفة ، مع شغفهم بأخذ كل جديد صادفوه لدى الأمم ؟ السبب فى ذلك هو ما ذكرناه فى عدد سابق ، ووعدنا ببسط القول فيه ، أن المسلمين لم يجافوا الفلسفة اليونانية سذاجة وبلاهة منهم ، ولكن لأنه كان لديهم فلسفة آتاهم إياها القرآن تسمو على كل فلسفة فى الأرض ، وتجليها على ما هى عليه أوهاماً لا يقام لها وزن » .

واستدل فضيلة الأستاذ على أن ما قلت فى هذه الفقرة إنه غير معقول هو الذى كان ، بما فعله عبد الله التيمى من إحراق مؤلفات عبد السلام بن عبد القادر المعروف بالدكن وحبسه .

واستدل الأستاذ على ذلك أيضا بما أفتى به ابن الصلاح والنواوى بتحريم دراسة المنطق ، وبما اتُّهم به الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بالإلحاد لسماحه بتدريس العلوم الحديثة بالأزهر .

ثم قال فضيلته : « فهل لا يعد هذا جهلاً وحسداً وبغياً ؟ »

نقول : نعم نعم ، أى جهل وأى حسد وأى بغى ، عملتْ مجتمعة فى الحوادث التى رواها الأستاذ فى هذا الموطن !

ولكنها من حوادث القرن السادس والسابع الهجرى ، أى عصر التدهور الاعتقادى والثقافى والسياسى للمسلمين ، العصر الذى كانت فيه الأقطار الإسلامية موزعة بين أصحاب المغامرات من التركمان والفرس والديلم وصنائعهم ، العصر الذى قال فيه الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل مدينة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

العصر الذى لو كان أُحْرِقَ فيه علماء بالنار ، أو أُلْقِىَ بهم من شواهق الجبال ، بسبب ماحيك فى حقهم من الوشايات ، لما كان ذلك بعجيب . ولو أراد عدو للمسلمين أن يحكم على الإسلام وأئمته بما يتصيده من الحوادث الشاذة المنكرة التى كانت تحدث هنا وهناك فى دور تدهورهم ، لكتب عنه وعنهم تاريخاً

مخزياً ، ولكنه يكون فى الوقت نفسه قد ارتكب خطأً تلزمه تبعته ما بقى لكتابه أثر فى الأذهان .

إنما يُكتب تاريخ الأديان بالاستناد إلى نصوص كتبها ، وإنما يُكتب تاريخ الآخذين بها بدراسة تأثيرها فيهم أيام ازدهار أصولها ، وسلطان مبادئها ، وتوافرهم على العمل بها .

هذه هى القاعدة العلمية فى الحكم على الأديان وعلى أئمتها .

تمَّ نزول الإسلام حوالى سنة ٦٣٠ للميلاد ، فما مضى عليه قرن حتى كان ملك المسلمين أوسع ملك عُرف فى تاريخ الأمم ، حتى الأمة الرومانية ، وما تلاه قرن آخر حتى وصل المسلمون إلى زعامة العالم كله فى العلم والأدب والسياسة ، وكان من آثار هذه الزعامة حدوث انتقالات أدبية وسياسية واجتماعية فى الأمم كافة ، حولتها من حال إلى حال آخر .

هذه حوادث لا يمكن نكرانها اعترف بها جميع مؤرخى الأرض ، فهل تمت اتفاقاً ومن طريق الخبط ، وبمعاداة الآراء الجديدة ، والتضييق على أهلها وإحراق كتبهم ؟

المؤرخون الأجانب ، بله المسلمين ، تكفلوا ببيان أسباب هذه الانتقالات الأدبية التى أوجدها الإسلام ، فذكروا أن المسلمين بعد وفاة نبيهم بست سنين ، شرعوا يطلبون العلم من جميع مظانه ، وكانوا كلما اتصلوا بأُمة تلقفوا أفضل ما لديها منه ومن حكمة وفن ؛ ثم علم المسلمون أن تلك الجماعات على ما كان عندها من المعارف كانت فى دور تدهور ، وأن أسلافها كانوا أغزر منها علما وأرفع مدنية ، وأن كتبهم موجودة فى خزانات موصدة ، فعملوا على الحصول على تلك الكتب ؛ ولكن كيف السبيل إلى فهمها ؟ عمدوا إلى استخدام المترجمين من السريان والإسرئيليين والمجوس والنصارى ، وأغدقوا عليهم المال ليتمكنوا من نقل تلك الكتب إلى العربية .

فكان أمراء المؤمنين ، والقادة ، والوزراء ، والحكام ، والسراة ، يتسابقون إلى استخدام هؤلاء المترجمين ، ويغمرونهم بالأعطيات ، وصنوف الرعايات ،

ليقوموا بإبراز مكنونات تلك الكتب .

فهل كل هذا كان يمكن حدوثه إذا كان الإسلام لا يشجع على العلم ، وكان أئمته يصدون عنه ، ويضعون فى سبيله العراقيل ؟

بدأت حركة الترجمة والنقل فى عهد الخليفة المنصور سنة ١٣٠ فشجع عليها ، وازدادت نشاطاً على عهد أولاده الهادى والمهدى وهارون الرشيد ؛ ولما ولى المأمون زادها قوة وازدهاراً ، حتى كان يشتغل هو نفسه بعلم الفلك ويناقش فيه أهله الراسخين .

فى هذا المدى الذى يبلغ نحو مائتين وخمسين سنة ، نبغ جميع أئمة المسلمين أصحاب المذاهب الفقهية ، وأعلام المفسرين والمحدثين ، فهل يحفظ عن واحد من هؤلاء صدٌّ عن العلوم الطبيعية النافعة ، أو تحقير للمشتغلين بها ، أو شكوى من انصراف جمهور كبير إلى تلقيها وإتقانها ، والذهاب بها إلى أبعد غاياتها ؟

وهل كان منهم من أفتى بحرمة تعلم المنطق ؟ كيف يكون ذلك وقد برعوا هم فيه وجعلوه من أسلحتهم فى تقرير الأصول الاعتقادية والفقهية ؟

إذا كان على عهد هذه النهضة العلمية الواسعة النطاق ، البعيدة المدى فى المائتين والخمسين سنة الأولى للإسلام ، أن الاشتغال بالعلوم الطبيعية وبالفنون يناقض المبادئ الإسلامية الحقة ، فما الذى كان يمنع الأئمة الأولين من مؤسسى فقه الدين وشريعته وأصوله وفروعه من أن يثوروا عليه ، أو ينبهوا فى كتبهم إليه ؛ وقد كانوا من الحساسية الدينية بحيث لم يدعوا الصغريات تقع عليها أعينهم إلا شهروا بها ، وحذروا منها ، فهل كانوا يرون هذا النهم الجامح من المسلمين لاقتباس العلوم والفنون الأجنبية ولا يحذرونهم منها إن كان فيها ما يكرهه الدين ؟

أما وقد سكتوا عنها ، وتركوا الناس أحراراً فى شفاء أوامهم منها ، فمعنى ذلك أنهم لم يروا بأساً فى تعلمها ، بل رأوا أنها مما لابد منه لرفع مستوى الإنسانية ، وصقل المواهب النفسية ، وزيادة المرافق العمرانية ، ولكى لا يؤتى المسلمون من قِبَلها بكارثة عدوانية . لذلك رأيناهم أحلوا تعلم كل شيء حتى السحر ، فقال قائلهم : تعلم السحر ولا تعمل به ، فحرموا العمل به ولم يحرموا تعلمه .

بهذه الروح الخالصة من جميع شوائب الجهل والتعصب ، أطلق أئمة المسلمين الأولين ، عملاً بسماحة الإسلام ، الحرية للناس فى أخذ كل ما كان يروقهم فى ديار مقهوريهم من العلم والصناعة ، حتى تفردوا فى العالم كله بزعامة عامة ، لم تتمتع أمة قبلهم ولا بعدهم بمثلها .

فلما توالت القرون بعد ذلك العصر الذهبى للإسلام ، وأخذ الملك الإسلامى يتفتت ، واعتصبت الحكومات الإقليمية عصابات من أجناس شتى ، انحط مستوى العلم الدينى ، وضعف أهله ، وتدهورت عقليتهم ، وراجت الأحاديث الموضوعة ، والخرافات المصنوعة بينهم ، وترك القائمون بالأمر حبلهم على غاربهم ما داموا لا يتعرضون لسلطانهم المطلق الجائر بكلمة ؛ فصدرت فى هذه العهود تعاليم تناقض صريح الكتاب والسنة ، وراجت بدع كان الغرض منها جر المغانم إلى القائمين بأمر الدين ، حتى صارت الفتاوى تباع وتشرى .

فإذا كان فضيلة الأستاذ الكاتب يتخذ من هؤلاء أمثلة على ما كان عليه أئمة الدين الإسلامى من قصر النظر ، وضيق الصدر ، والجهل والبغى والحسد ، فليس هذا بالأسلوب الذى يقوم عليه البحث التاريخى ، والنقد العلمى ، وليس مثله يقدم عليه .

عداء الأئمة الأولين للمعتزلة وعلماء الكلام :

الدين حاجة من أفعل حاجات النفس تأثيراً فى العقل ، وتحكماً فى العواطف ، ولايوجد شيء ضحى الإنسان فى سبيله نفسه وماله وولده غير الدين . وقد سد الخالق الحكيم هذه الحاجة فيه بأديان شرعها له فى خلال القرون ، فكانت كلما تقادم على واحد منها العهد انحرف عن صراطه ، وطَمست الآراء والتأويلات حقائقه ، حتى كان الزمان الأخير ، فشرع الخالق الإسلام يعدّل للناس فيه كل عوج تأدوا إليه بخروجهم عن الصراط السوى ، الذى نهجه لهم فى الأديان السابقة ، وأحاطه فى وحيه الأخير من الحوافظ بما يحميهم من كل تأويل له يدفعون فيه .

أمرهم فيه بأن يطلبوا العلم من مظانه ، وأن يتثبتوا مما يلقى إليهم منه فلا يأخذوه إلا معززاً بالدليل ، وحثهم على إقامة سلطان العقل ، فلا يقبلون كل

ما يقدم لهم حتى يزنوه بقسطاسه ، ويحاكموه إلى أولياته ؛ ونهاهم عن الأخذ بالظنون ، والتلهى بالأوهام ، والخضوع للأهواء ، والتقليد للكبراء ، والانخداع بالظواهر ، مكثراً لهم من سير الضالين والمضلين ، معدداً لهم فى ألوان باهرة من البيان سير الخادعين والمخدوعين ، ومصاير المقلِّدين والمقلَّدين ، غير معتد بعذر الجاهلين ، ولا بذلة المستضعفين ؛ ملقياً التبعة على كاهل الناكب عن السبيل ، ما دام قد جعل له عقلاً يدرك ، وقلباً يعى .

وقد شدد الإسلام على أهله فى وجوب تجنب الخلاف حتى فى سبيل فهم بعض الكلام الإلهى ، فبين لهم أن فى كلامه آيات محكمات لا يتردد العقل فى إدراكها ، وأخرى متشابهات تنشعب عليها الفهوم ، وتتشعب فيها المفاهيم ، فحذر من الاشتغال بها ، ونص على أن من يحاول تأويلها يعتبر زائغاً عن الصراط القويم .

كل ذلك لتتوحد وجهة الناس فيما يغذى عقولهم وقلوبهم ، وينفع أرواحهم ، ويبنى وجودهم ؛ أما قيل وقال ، وكثرة التسآل ، والتمادى فيما لا يمكن أن تتفق فيه المذاهب بحال ، فقد عده من عمل المتبطلين ، وشغل المبطلين ، وغرضاً من همزات الشياطين ، حتى قال النبى ﷺ : « ما أراد الله بقوم سوءًا إلّا آتاهم الجدل » . وقد ورد فى هذا المعنى عشرات من الأحاديث الصحيحة .

ليس مقصد الإسلام من كبح العقول عن تفهم المسائل الغامضة ، أن يبقوا فى الظلام البهيم ، وأن يؤمنوا بدون نظر ولا تمحيص ، بدليل أنه طالبهم بالدليل على ما كلفهم الإيمان به من الكليات الأساسية ؛ والتدليل لا يكون إلا بعد نظر وفهم وتحقيق ؛ ولكنه نهاهم عن الجدل فيما لم يكلفهم الإيمان به من الأمور التى لا تصل إلى فهمها وتمحيصها العقول .

فإذا كان دين فى الأرض تأبى طبيعته أن ينشأ فيه اعتزال وعلم للكلام فهو الإسلام . ولكن جمحات العقول ، واندفاعات الميول ، حفزت إلى نشوء هاتين العقبتين من لدن القرن الثانى للهجرة ، وجرت إلى خلافات ومنازعات يأباها الإسلام ويتشدد فى النهى عنها ، ونحن قبل أن نقول كلمتنا فى هذا الموضوع نعطى القارئ فذلكة من تاريخ هذا العلم كتبها بقلمه فى كتابه (رسالة التوحيد) العلامة الحجة زعيم النهضة الدينية فى هذا العصر الشيخ محمد عبده . قال رحمه الله :

« كانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب ، اختلف فيها واصل بن عطاء [١] وأستاذه الحسن البصرى واعتزله يعلم أصولاً لم يكن أخذها عنه .

« تفرقت السبل بأتباع واصل ، وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعاً إلى أوليات العقل ، وما كان سراباً فى نظر الوهم ؛ فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق على أصل من أصول النظر ، ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد (بالعشرات) ، أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة ، فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين ، وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين » .

إلى أن قال أجزل الله ثوابه :

« جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع ، وسلك مسلكه المعروف وسطاً بين موقف السلف ، وتطرُّف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون (يريد الواقفين مع مذهب السلف) ، وطعن كثير منهم فى عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من أكابر العلماء ، كأبى بكر الباقلانى وإمام الحرمين والأسفراينى وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة .

« غير أن الناصرية لمذهب الأشعرى بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها ، كما يجب عليه اليقين بما تؤدى إليه من عقائد الإيمان ؛ ذهاباً منهم إلى أن عدم الدليل يؤدى إلى عدم المدلول . ومضى الأمر على ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالى والإمام الرازى

---

(١) هو واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصرى . خالفه فى مسائل واعتزله فسمى أتباعه المعتزلة لهذا السبب ، توفى سنة ١٨١ للهجرة .

ومن أخذ مأخذهما فخالفوهم فى ذلك ، وقرروا أن دليلاً واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر فى الاستدلال [١] .

« أما مذاهب الفلاسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من هَمِّ أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم ، والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل ، من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ماشاءوا ، وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته ..

« لكن يظهر أن أمرين غلباً على غالبهم : (الأول) الإعجاب بما نُقل إليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصاً أرسطو وأفلاطون ، ووجدان اللذة فى تقليدهما لبادئ الأمر . و(الثانى) الشهوة الغالبة على الناس فى ذلك الوقت ، وهو أشأم الأمرين : زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم ، مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، فمال حماة العقائد عليهم . وجاء الغزالى ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجدوا فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات ، وما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والأعراض ، ومذاهبهم فى المادة ، وتركيب الأجسام ، وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئاً من مبانى الدين ، واشتدوا فى نقده [٢] ....

« ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر ، وفتكوا بما بقى من أثر العلم النظرى النابع من عيون الدين الإسلامى ، فانحرفت الطريق بسالكيها ، ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحاور فى الألفاظ أو تناظر فى الأساليب ، على أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف ، وفضلها القصور .

---

(١) وقد تحقق رأى حجة الإسلام الغزالى والإمام الرازى فظهر بطلان كثير من تلك المستندات ، وظهر اليوم غيرها أقوى منها بما لا يقاس عليه .

(٢) وقد ظهر اليوم لمن لهم إلمام بالفلسفة اليونانية أنها كانت تقوم من بناء الوجود على الأوهام ، وعلى ما يولده التصور من الخيالات .

« ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم ، فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم ، فوضعوا ما لم يعد للإسلام قبل باحتماله . غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعواناً ، فشردوا بالعقول عن مواطنها وتحكموا فى التضليل والتكفير ، وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم دعوى العداوة بين العلم والدين الخ » .

هذا كلام الإمام الحجة الشيخ محمد عبده ، ومنه يتضح للقارئ كيف نشأ علم الكلام فى الإسلام وعلى أى أساس قام ، وكيف تطور فى اتجاهات مخالفة لمذهب القرآن حتى آل إلى شر مآل .

يشكو فضيلة الأستاذ كاتب المقال اليوم مما لقيه علماء الكلام من أئمة المسلمين من العداء والاضطهاد ، وما وجده المعتزلة منهم من الكراهية والعناد ، فماذا كان يريد أن يكون عليه أولئك الأئمة حيال قوم ذهبوا فى الخلاف كل مذهب ، حتى أصبحت فرقهم كما يقول الإمام الشيخ محمد عبده تعد بالعشرات ؟ هل كان عليهم أن يغضوا الطرف عن هذه الفتنة الشاعبة لوحدة الإسلام ، والوحدة أساسه الأول الذى يقوم عليه ، ووصفه المميز له عن سائر الملل ، والله يقول : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » ؟ .

ولو كلف أحدنا نفسه ونظر فى موضوع خلافاتهم لعجب من قوم لهم عقول تدرك يختلفون على أشياء لو مُد فى آجالهم حتى عمروا إلى قيام الساعة ، لما وصلوا من العلم بها إلى شىء ، ولو رجعوا إلى الكتاب لوجدوه يعدها من المتشابهات وينهاهم عن الاشتغال بها باسم القرآن .

أنا لا أنكر أن للعقول شهوات جامحة ، وميولا عارمة ، تدفع الفكر فى تيارها ، وخاصة فى عهد طفولة الأمم ، إلى ما لا يصح التفكر فيه ؛ نعتذر عن المعتزلة بهذا ، ولكن كان يسعهم أن يفكروا فى مسائلهم العويصة لحسابهم الخاص تحت أى اسم شاءوا . إذا كانوا فعلوا ذلك ما كان تعرض لهم أحد ؛ ولكنهم اشتغلوا بها لحساب الدين ، وانتدبوا لنشرها بين المسلمين ، وجلسوا فى المساجد

للمجادلة فيها والدين ينهاهم عنها وعن أمثالها ، ولم يحملهم تبعة جهلها ؛ فلم يكفهم أن يخالفوا الكتاب بالبحث فيها ، ولكنهم اختلفوا فيها اختلافاً شنيعاً ، حتى كانت تعد مذاهبهم بالعشرات ، كما يقول الإمام الشيخ محمد عبده ، وكفر بعضهم بعضاً عليها ، فضربوا للناس بحالهم أسوأ الأمثال . فلو كان خف حلم المسلمين وجنحوا إليهم فيها ، لكان شاع بين جماعتهم خلاف لا يقف عند حد ، ولانشقت عصاهم ، وتصدعت جماعتهم ، وبادوا كما بادت قبلهم أمم اشتغلت بأمثال هذه المسائل ؛ ولكانت النتيجة أن الدين الذى شرع لتوحيد الأديان والمذاهب ، يقع هو نفسه فى شر مما جاء لمداواته من أدواء العقل البشرى !

ومما يدلك بدليل محسوس على أنهم كانوا يشتغلون بمسائل لا تهتم بها العقلية الإنسانية اهتماماً جدياً ، أن أحداً ممن يعتد بعقله لا يشتغل بها اليوم لا هنا ولا فى أية بقعة من بقاع الأرض . فأى عاقل يستسيغ أن يسأل هل القرآن قديم أم محدث ، وهل صفات الله متصلة به أم خارجه عنه ، وهل مرتكب الكبيرة يعتبر مؤمناً أم كافراً ، وهل أطفال الكفرة يخلدون فى النار الخ الخ ، مما توجبه على أهلها الثقافة الناقصة ، والعقلية الطفلة القاصرة ؟

فهل يلام أئمة إسلاميون على أنهم حاولوا أن يقاوموا تأثير هؤلاء المتحذلقين ، وأن لا يدعوهم يصدعوا بأمثال هذه الوساوس وحدة المسلمين ؟

نحن الآن فى زمان ثارت فى نفوسنا رغبة ملحة فى ترسم خطوات الأئمة المهديين فى أى عصر كانوا ، وبأى مظهر ظهروا ، أحراراً غير مقيدين ؛ فهل فينا واحد ، حتى من الذين يدافعون عن المعتزلة والمتكلمين ، يقبل أن ينصحنا بأن نشتغل بمثل ما كانوا به يشتغلون ؟ وهل فينا من يمكنه بعد إطالة البحث والتنقيب ، أن يدلنا على مسألة كانوا يفنون أيامهم فى المجادلة والملاحاة فيها ، يصح أن نحتذى مثالهم فى الاشتغال بها على أسلوبنا ، ونجعلها شغلاً شاغلاً لنا كما كانوا يفعلون ؟

يجوز أن يكون وقع من بعض الذين وقفوا فى وجه هذه الطوائف من أهل السنة فى القرون المتأخرة غلو فى العدوان ، أو صدر منهم ما يعتبر مثل سوء

فى الرجعية وسوء النية ؛ فهذه الجزئيات تحدث فى كل أمة ، وفى معمعان كل ملاحاة ، وهى لا تهم الفيلسوف المعاصر ، ولكن الذى يهمه هو أن يعرف هل كان فى مذاهب تلك الطوائف ، وقد تركت لها حرية القول والتأليف أجيالاً ، ما هو نافع جدير بأن يتولاه ناموس الانتخاب الطبيعى ، فأيده واستبقاه على الرغم من كل ما سُلط عليه من عوامل الإدحاض ، كما هو شأن كل حق من يوم أن خلق الله الخلق إلى اليوم ؟

والذى هو ظاهر للعيان أنه لم يكن فيها ما يستحق البقاء ، خصوصاً وكل ما قالوه موجود تحت أنظار الناس اليوم ، لا يرفع به أحد رأساً ، ولا يقيم له وزناً .

الحكمة الإسلامية فلسفة تبز أرفع فلسفة فى الأرض :

قلنا إن أئمة المسلمين لم ينابزوا الفلسفة اليونانية سذاجة وبلاهة ، ولكنهم كانوا فى منابزتهم إياها يصدرون عن حكمة آتاهم إياها القرآن ، لا تعد الفلسفة اليونانية إزاءها إلا كما يعد المصباح إزاء الشمس فى رابعة النهار ، فلم يقتنع فضيلة الأستاذ الكاتب بهذا القول ، وقال إنه بالرجوع إلى التفاسير يتضح أن كلمة الحكمة فى الآيات التى أوردناها لا تدل على الفلسفة حتى ما كان منها قائما على النظر الصحيح ، ولكن يراد بها (السنة النبوية) أو (الأحكام والشرائع) أو (القضاء بالوحى) .

أقول : إن حصر مدلولات الألفاظ القرآنية فيما فهمه منها أفراد من المتقدمين ، لم يقل به أحد من أئمة المسلمين ، فإذا قال أبو السعود : إنها الأحكام والشرائع ، وقال القرطبى : إنها القضاء بالوحى ، وقال غيرهما : إنها السنة النبوية ، فأنا أقول ، والدليل يؤيدنى : إن المراد بها الأصول والمبادئ التى أُطلق على أمثالها كلمة الفلسفة فى كل أمة ، والفرق بينهما أن تلك أصول ومبادئ نزل بها الوحى ، وهذه أصول ومبادئ جاء بها العقل . فإذا قرأتُ قول الدارونيين بأن فى الطبيعة عملاً انتخابياً يستبقى الأصلح للبقاء وينفى ما دونه مما لا يصلح له ، عددتُ هذا أصلاً فلسفياً ، فإذا قرأتُ قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » فإلى أى باب من أبواب الأغراض القرآنية

أنسبه ، أإلى باب العبادات ، أم المعاملات أم الأحكام ، أم الشرائع ، أم القضاء بالوحى ، أم إلى السنة النبوية ؟ لا أستطيع أن أنسبه إلا إلى الحكمة القرآنية ، التى جعلت لتوجيه الأمة الإسلامية علمياً وعملياً إلى الوجهة الموصلة للكمال الذى خلق الإنسان ليصل إليه ، وهذا غرض كل فلسفة فى الأرض .

وإذا قرأتُ فى علم الاجتماع قولهم : إن للأمم نواميس مقررة تحيا على موجبها وتتطور ، ثم تضمحل وتتلاشى ، عددتُ هذا أصلاً من أصول الفلسفة الاجتماعية ، وإذا قرأتُ قوله تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ فإلى أى باب من أبواب الأغراض القرآنية أعزوه ؟ أنا مضطر أن أعزوه إلى الحكمة القرآنية .

وإذا قرأت فى الفلسفة أصولاً كثيرة ، وقرأت فى القرآن قوله تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدَر ﴾ ، وقوله : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ﴾ ، وقوله : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ﴾ ، وقوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ، وقوله : ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ ، وقوله : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ ، وقوله : ﴿ إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ، وقوله : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق ﴾ ، وقوله : ﴿ فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ ، وقوله : ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ ، وقوله : ﴿ قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ ، وقوله : ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ﴾ ، وقوله : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾ ، وقوله : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ، وقوله : ﴿ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ﴾ ، وقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ ، وقوله : ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ الخ الخ .

هذه آيات قرآنية من عشرات أمثالها مبثوثة فى الكتاب الكريم ، أنزلها موحى القرآن لإقامة العقلية الإنسانية على السَنن الطبيعى ، خالصةً من حجب الأهواء والأوهام والظنون ؛ نقيةً من آثار العقائد الموروثة والتقاليد العتيقة ، حاصلةً على جميع ما تقتضيه الحيطة التامة من سماع كل ما يقال ، واتباع أحسنه ، ولكن بعد التثبت منه ، وتحرى الدليل عليه ؛ متجرداً لطلب العلم الصحيح باعتبار أنه أساس كل رقى صورى ومعنوى ، ومِساك كل وجود شخصى واجتماعى ؛ أليس هذا غرض كل فلسفة فى العالم ؟ أهى شىء غير جمهرة من أصول ومبادئ تؤدى الآخذ بها لأحسن موقف عقلى وأدبى يمكن أن يقفه الإنسان فى الحياة وحيال الوجود ، متعرضاً على موجبه لنفحات العلم ، وتطورات الرقى ؟

إن هذه الحكمة القرآنية أخذت بها أمة بدوية لا عهد لها بكتاب ولا حكمة ، فنالت زعامة العالم فى العلم والسلطان والسياسة والصناعة فى نحو قرنين من الزمان ، فإن كان يُضَن عليها بلقب فلسفة ، فربما كان للضانين بذلك الحق باعتبار أنها أرقى من الفلسفة بما لايقدر !

الفلسفة اليونانية وغيرها لم تخلق أمما ، ولكن الأمم هى التى خلقتها ، وهذه الحكمة القرآنية أوجدت من العدم أمة كان لها أثر فى الأرض لا يشتبه بغيره ، ولا تزال الحكمة التى أوجدتها حية ، وسيتنهى الأمر بسيادتها على كل فلسفة فى الأرض ؛ ألم نثبت للقارئين فى مقالة لنا نُشرت بالعدد الرابع أن الفلسفة العلمية فى أوروبا آبت إليها بعد تطورات دخلت فيها فى قرون طويلة ؟

مما يدلك بدليل محسوس على أن المراد من كلمة الحكمة فى القرآن هى الأصول والمبادئ التى ذكرها قوله ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولو من مشرك » ، فهل يعقل أن النبى يدعو المؤمن ليأخذ عن المشرك علم الشرائع والأحكام ، أو القضاء بالوحى أو علم السنة النبوية ؟!

القرآن :

الأمة الإسلامية أمة ذات صبغة عالمية ، قامت ، خلافاً لسائر الجماعات البشرية ، على أصول أدبية ، ومبادئ خلقية ، لا على الحاجات الحيوية ،

ولا الضرورات المادية ، فهى أمة مثالية لم تُقم للفروق الجنسية واللغوية وزناً . وقد نالت من بسطة السلطان ، وعزة الملك ، وقوة المناعة ، وسمو الثقافة ، ما لم تنله أمة قبلها ؛ غالبت عقبات النشوء فاجتازتها ، وصارعت تقلبات الأحداث وتفادتها .

فهذا البناء الاجتماعى الفخم ، لا يعقل أن يكون قد قام على الوهم ، ولابد له من أصول مكينة ، ووطائد متينة قام عليها ، ولابد كذلك من أن يكون فى بنيته من الحوافظ ما يحميه من أعاصير الانقلابات ، ومن العوامل ما يدفعه لضروب التطورات .

فإذا كان قوام هذا كله القرآن ، كما هو معلوم بالضرورة ، وجب أن نلتمس سر هذا البناء الفخم على ما اقتضاه من أصول اجتماعية ، وقوى أدبية ، وعوامل عمرانية ، فى هذا القرآن .

فهل يستكثر على كتاب هذا أثره الخالد ، أن تكون فيه حكمة تقيم أهله على أقوم السبل الحيوية ، وتوجه عقولها ونفوسها إلى أسمى الوجهات الأدبية ، بحيث تفوق فى ذلك أشهر فلسفة فى الأرض ؟

وقد ثبت أن أهل هذا الكتاب أبوا أن يقعوا تحت سلطان الفلسفة اليونانية وطغوا عليها ، وصدوا عنها ، فهل منعهم ذلك أن تكون لهم الزعامة العلمية والسياسية فى الأرض ؟

□ □ □

المذاهب الغنوصية (١)

فى العالم الإسلامى

— ١ —

المعنى العادى لكلمة « غنوص Gnose » هو المعرفة . غير أن الكلمة بعد ذلك أخذت معنى اصطلاحياً خاصاً هو « الاتجاه نحو التوصل إلى المعارف العليا بنوع من الكشف » ، أو هو « محاولة تذوق المعارف الإلهية تذوقاً مباشراً بأن تلقى فى النفس إلقاء » . ثم أخذ مدلول الكلمة يتسع شيئا فشيئا حتى شمل تلك المذاهب الشرقية التى يتجسد فيها بجانب منهجها فى المعرفة مجموعة الطلاسم والأسرار والسحر .

والمذهب الغنوصى من أقدم المذاهب الفلسفية قدم تلك البيوت الغامضة التى كان يسيطر عليها من المدنيات القديمة الكهان والسحرة . غير أن المذهب الغنوصى الحقيقى أى الفلسفى إنما نشأ على يد بزليدس وفلنتينوس ومرقيون . وقد قاموا بمزج المذاهب المختلفة من فارسية وسريانية وأفلاطونية وفيثاغورية ورواقية بالمسيحية واليهودية . ثم كانت جنديسابور بعد ذلك موطناً من مواطن التلقيح بين غنوص الأفلاطونية الحديثة وغنوص الزرادشتية والمانوية . ويكاد يكون العصر الهلينى المجال الحيوى الأعظم لسيادة الغنوص .

وقد قاومت المسيحية هجوم الغنوص مقاومة عنيفة ، ولكن استطاع الغنوص أن يغزوها غزواً فظيعاً فسيطر على طائفة من أعظم المفكرين ، منهم القديس كليمانس والقديس أوريجانس . وللغنوصية تأثير شديد على فيلسوف المسيحية أو بمعنى أدق لاهوتيها القديس أوغسطينوس .

وقد قابل الإسلام الغنوص فى فتوحاته فأغلق بيوتها . ولكن الغنوص بقى كامنًا ، فإذا ما هدأت الفتوح قام الغنوص بل قامت غنوصات متعددة لتقويض

---

(١) نقلاً عن المجلّد الخامس عشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٦٣ هـ — ص ٤٩ وما بعدها .

عقائد الإسلام ، وكان أشدها مجاهدة ، الزرادشتية والمانوية والثنوية .

وقد ظهرت هذه العقائد أحياناً فى شكل طوائف خاصة دعيت باسم الباطنية أو غلاة الشيعة أو القرامطة ، وأثرت أحياناً فى بعض الطوائف الفلسفية كإخوان الصفا .

ويكاد يكون السبب الحقيقى لقيام المتكلمين بوضع مذاهبهم هو الغنوصية . ويذكر أن المهدى هو الذى أمر هؤلاء المتكلمين بوضع الكتب فى الرد على الملاحدة من الثنوية . وذلك حين نقلت كتبهم وكتب الدهرية إلى العالم الإسلامى . وينسب المسلمون هذا العمل إلى جماعة من الملاحدة والزنادقة ويعدون من بينهم ابن المقفع وعبد الكريم بن أبى العوجاء . وقد قام المعتزلة بهذا العمل خير قيام . ويرى أغلب المستشرقين أمثال جولدتسيهر وأوليرى وأر برى وبكر أن المعتزلة وهم أول مدرسة إسلامية كلامية ، توصلت إلى كثير من أصولهم ومذاهبهم من جدالهم لعقائد المانوية والزرادشتية .

بل يحاول « بكر » المستشرق الألمانى أن يثبت أنه لم يكن على الإسلام خطر أعظم من خطر الغنوصية ؛ فقد كان يحارب الإسلام دينياً وسياسياً ، ويحاول أن يثبت استعانة الإسلام بالفلسفة اليونانية لإيجاد عالم قوى يقف فى وجه تيار الغنوصية ، ويفسر بهذا حماسة المأمون لترجمة علوم اليونان ، ومحاربة الإسلام للصوفية فى عصوره المختلفة . وفى الحقيقة أن المسلمين استعانوا فى القضاء على الغنوص بعلم الكلام ، وقد نجح الكلام إلى حد كبير فى عمله هذا .

وقد استطاع الغنوص أن يسيطر على الصوفية ، ونستطيع أن نجد فكرة الثنائية الغنوصية بين الله والمادة فى عقائدهم ، إذ كانت أهم مشكلة عالجتها الصوفية امتداد الوجود من الموجود الأول إلى بقية الموجودات وخاصة المادية منها ، ولم تكن فكرة الخلق تجد مكاناً فى هذه النظرية الطلسمية ، وعلى هذا تصدر الموجودات عن الموجود الأول ؛ فعن الذات الأولى يصدر العقل ، وعن العقل تخرج الكلمة ، وعن الكلمة يخرج الإنسان الكامل ، تلك هى الموجودات العليا فى سلم الكائنات . ثم يتوسط بينها وبين المادة عدد من الموجودات الروحية تدعى « بالأيونات » تنتهى فى تدرج تنازلى بالمادة ، أصل الشر فى العالم ، ولكن الإنسان يستطيع أن يصل ثانية إلى العقل بنوع من التدرج التصاعدى .

هذه النظرية نجدها عند أغلب صوفية الإسلام الذين أخذوا بمبدأ الفيض ، فيض الموجودات عن الواحد أو عن الذات الأولى ، وأصبح محمد صلوات الله عليه العقل الأول أو النور ، تصدر عنه كل الوجودات ، وتفيض الكائنات العليا الروحية .

وفى اختصار ، قام المعتزلة بنقض عقائد الغنوصية وحملوا لواء هذا العمل ، وفى مقدمة هؤلاء واصل بن عطاء . يذكر ابن المرتضى فى كتاب « المنية والأمل » عن واصل بن عطاء : « ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم منه » . ويذكر فى موضع آخر أن لواصل كتاب « الألف مسألة فى الرد على المانوية » . وينقل إلينا عن أبى الهذيل العلاف أن « مناظراته مع المجوس والثنوية وغيرهم طويلة ممدودة . وكان يقطع الخصم بأقل كلام . يقال إنه أسلم على يده زيادة على ثلاثة آلاف رجل » . وقام بجدال الغنوصية أيضا النظام والخياط والجاحظ والقاضى عبد الجبار الهمذانى فى كتابه « تثبيت دلائل النبوة » .

ثم تولى شيوخ الأشاعرة مهاجمة الغنوصية ، فهاجمهم أبو الحسن الأشعرى ، ثم الباقلانى فى التمهيد . ثم رد عليهم الغزالى فى « فضائح الباطنية » و« القسطاس » بدون أن يعرض مذاهبهم ، ومحمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى فى « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » . ويقول ابن النديم : إن من أقدم من رد عليهم أبو عبد الله محمد بن على بن رزارم الكوفى من أصحاب أبى بكر بن الأخشيد . وابن الجوزى فى تلبيس إبليس ، ثم قام تقى الدين بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية أيضا بجدال المذاهب الغنوصية جدالاً عنيفاً .

وقد تعددت ضحايا الغنوص ، ونخص بالذكر منهم الحلاج والسهروردى المقتول . وقد اتخذهم أتباع الغنوصية مثلاً علياً للحياة الإنسانية التى تستند على التأمل الباطنى الذاتى وتحاول التوصل إلى كنه الوجود من نظرة عامة شاملة ، أو تحاول أن تجد فى المخلوق صورة الخالق بإلغاء ما بين الطبيعتين من تمايز .

وفى اختصار ، كان للغنوص آثار جمة فى العالم الإسلامى سواء فى الفلسفة أو فى الكلام ، بل وصل أثره إلى صميم العلوم الإسلامية . فقد قامت الفرق الغنوصية فى الإسلام بوضع كثير من الأحاديث لتروّج للغنوص فى قلب العقائد الإسلامية .

وقد استطاع علماء الحديث بمناهج دقيقة تمت إلى النقد الداخلى والنقد الخارجى للنص تبيين كل ما دخل إلى العالم الإسلامى من غنوصيات .

بقى علينا بعد أن نحدد بشكل عام فهم المسلمين للأصول الغنوصية عند الفارسيين ، وهى التى كان لها بجانب غنوص الأفلاطونية المحدثة السيادة المطلقة فى المذاهب الغنوصية الإسلامية .

نلاحظ أن أهم ما يميز الغنوصية الفارسية هى الثنائية ، أى القول بوجود أصلين للأشياء على خلاف فى طبيعة هذين الأصلين . وتقوم هذه الثنائية – كما يقول Arbury فى Siternry history of Persia على فكرة أخلاقية بحتة . فقد أدى البحث بحكماء الفرس فى مشكلة الخير والشر إلى تلمس الأصول التى يقوم عليها كل واحد من هذين العنصرين . ولم يكن يستطيع واحد من حكماء الفرس القدامى تفهم صدور الفكرتين عن موجود واحد يخلقهما معاً وإنما ارتفعوا بخيرية الصانع إلى أعلى مكان . فكان لابد إذن من وضع مبدأ آخر ينتج الباطل والأثم والشر . والعالم نزاع بين هاتين القوتين .

أما هاتان القوتان أو الأصلان ، فهما النور والظلمة . وبالفارسية يزدان وأهرمن . واختلفت فرق الغنوصية الفارسية فى تفهم كل واحد من هذين المبدأين : هل هما قديمان أم النور قديم والظلمة محدثة ؟ ثم كيف حدث امتزاج النور بالظلمة ، والثانية سبب خلاص النور من الظلمة ؟ ويمضى أصحاب الغنوص يصفون بشكل أسطورى الوجود وكيف تكون الوجود . وقد انقسموا فرقاً : الكيومرثية ، والزروانية والمسخية والزرادشتية والمانوية والمزدكية والديصانية وغيرها من فرق متعددة .

وقد استطاع الإسلام أن يقضى على تلك المذاهب الغنوصية ، وأن يحطم الفرق التى قامت بحذو مذاهبها ، وأن يسمو بتوحيده الصافى فوقها .

على سامى النشار

مدرس بكلية الآداب

الغنوصية والعلم (١)

– ٢ –

نشرنا المقال المتقدم لحضرة الأستاذ الألمعى على سامى أفندى النشار ، فرأينا أننا بعد الذى كتبناه فى العقل الباطن واشتغال العلم به اليوم ، أصبحنا مطالبين لدى قرائنا بإبداء رأينا فيها .

إن مسألة التوصل إلى المعارف العليا من طريق الكشف ، أو بأن تلقى فى النفس إلقاء ، هى مسألة الوحى والإلهام نفسها ، وهما أساسا الأديان فى جميع العصور ، وقد نصت كتبها جميعاً على أن الله تعالى يوحى إلى الأنبياء والمرسلين ، ويلهم الأتقياء والصالحين ، ولم يعترض على هذا الأصل معترض من القائلين بصحة الأديان ، رغماً عن انقساماتهم المذهبية ، وخاصة المسلمين ، فليس فى متكلميهم من ينكر العلم اللدنى الذى ذكره الله فى كتابه بقوله : « وعلمناه من لدنا علماً » .

فإذا شاركت المللُ الباطلة الأديانَ السماوية فى القول بالعلم اللدنى وبالإلهام ، فلا يضر ذلك الأديان السماوية . وقد تولى حماة الأديان الرد عليهم فيما هم عليه من مبدأ التعديد والتثنية ، والتشبيه وغيرها من ضلالات وخيالات لا حقيقة لها ، ولم يردوا عليهم فى القول بوجود علم علوى يلقى إلى النفوس المستعدة له إلقاء ، بدليل أن ممن رد عليهم ، الأئمة : ابن تيمية ، وابن القيم ، والباقلانى ، والأشعرى ، والغزالى ، وليس فيهم واحد ينفى وجود علم لدنى يلقى إلى النفس إلقاء .

ولا ينكر هذا الأصل العام لجميع الأديان إلا المذهب المادى ، وهو ينكر قبل ذلك وجود خالق للكون يمد رسله بالعلم من طريق الوحى ، وأولياءه بالمعارف العالية من طريق الإلهام .

---

(١) المصدر السابق م ١٥ سنة ١٣٦٣ هـ

على أن ما نحن بسبيله من وجود شخصية باطنية للإنسان غير شخصيته العادية ، تمد الإنسان أحياناً بما لا يدور بخلده من بعض المعارف، وتحل له فى حالتى النوم الطبيعى أو المغناطيسى مسائل عجز عن حلها وهو صاح ، فهى مسألة علمية كشفها التنويم الصناعى ، وسميت بالعقل الباطن ، وأصبحت حقيقة واقعة ابتنت عليها محاولات علاجية نجحت نجاحاً عظيماً فى كثير من الحالات المرضية المستعصية ؛ وقد أفضنا فى الكلام عنها فى هذه المجلة ، ونقلنا عنها فى هذا العدد مقالاً للفيلسوف الفرنسى (جان فينو) .

هذه مسألة أصبحت هامة للدرجة القصوى ، فإنها تهد المذهب المادى من أساسه ، وتثبت وجود عالم روحانى تستمد منه الروح وجودها ، وتنتهى إليه بعد وفاتها ؛ وهى ليست مؤيدة بواسطة التنويم المغناطيسى فحسب ، ولكن بوجود العبقرية فى بعض أفراد النوع البشرى فعلاً . والعبقرية معرفة مفاجئة بشىء من الأشياء يجدها إنسان فى نفسه لم يكن قد فكر فيها أصلا ، يؤتاها على غير مثال سابق ، فيقابلها الناس بإعجاب كبير ، ويرفعون من أتى بها إلى درجة الخالدين .

وقد عنى علماء كثيرون بدراسة العقل الباطن ، وجمعوا فى وجوده أدلة علمية لا يمكن التمارى فيها ، وصدرت فيه مؤلفات لا حصر لها ، من أعلاها قيمة كتاب الشخصية الإنسانية The human personality للأستاذ الكبير (ميرس) F.W.H. Myers مدرس البسيكولوجيا فى جامعة كمبردج ، فقد توسع فيه إلى حد بعيد ، وأتى فيه بما يثبته إثباتاً لا تردد معه .

ومما أورده فيه من شهادات كبار العلماء تجارب العلامة الفلكى الإنجليزى المشهور (هرشل) والرياضى الكبير (أراغو) ، والفيلسوف (كوندياك) ، والوزير الخطير (لامارتين) ، والشاعر المبدع (موسيه) وكلهم من الفرنسيين ، ولا سبيل إلى تعداد غيرهم ، ولا تفصيل تجاربهم فى هذه العجالة .

فالشخصية الباطنية قد أصبحت بفضل هذه الجهود العظيمة حقيقة لا مرية فيها ، وإمدادها للإنسان من الباطن بالمعرفة من غير طريق الحواس الخمس قد انتقلت إلى رتبة البدائه العلمية .

فإذا كانت الفرق والمذاهب التى انتحلت هذه الخاصة الإنسانية ، فبنت حولها أضاليل ، ففى كل زمان تبنى الفرق والمذاهب أضاليل اعتماداً على الحقائق المقررة ، فتزول تلك الأضاليل ، وتبقى الحقائق ثابتة لا تتغير .

فكان مما اعترف به العلامة الفلكى الإنجليزى « السيرجون هرشل Sir G. Herschel » بعد أن ذكر ما ألقى إليه من بعض الأمور الرياضية إلقاء بدون تفكير قوله : « فنحن هنا إزاء فكر أو عقل يعمل فينا ولكن مستقلاً عن شخصيتنا العادية ».

وقال الفيلسوف الفرنسى الكبير (ريبو) صاحب البحوث البسيكولوجية العظيمة المتوفى سنة ١٩١٦ : « إن ما يسمونه عادة بالإلهام هو ثمرة فعل العقل الباطن . هذه الحالة من الحوادث الواقعية وتكشف عن الخصائص الطبيعية والأدبية للعقل المذكور . وهو غير شخصى ولا يخضع للإرادة ، ويعمل على شاكلة الغرائز الطبيعية متى وكيف أراد » .

وقال الشاعر النابغة ألفريد موسيه المتوفى سنة ١٨٨٠ : « لست أنا الذى أعمل هذا الشعر ، وإنما أنا أسمعه من كائن مجهول يلقيه فى أذنى فأكتبه » .

وقال القصصى المشهور (سان ساينس Saint Saëns) المتوفى سنة ١٩٢١ : « أنا عندما أريد كتابة قصة يخيل إلىّ أنى أحضر تمثيلها كأحد النظارة ، فأنظر إلى ما هو حادث فوق المسرح منتظراً بصبر نافد ما سيتجدد من حوادثها وأنا دهش مما أرى وأسمع ، ولكنى أحس فى الوقت نفسه بأن كل ذلك آت من أعماق ذاتى » .

كل هذا وأشباهه مما غصت به كتب الفيزيولوجيا الحديثة أثبتت نظرية الأستاذ (ميرس) مدرس البسيكولوجيا فى جامعة كمبردج وأيدتها التجارب فى التنويم المغناطيسى العميق ، وهى أن للإنسان شخصية باطنة أرق من شخصيته الظاهرة وفيها قوى ذاتية ليست فى هذه ولا فى الحواس مجتمعة ، وهى التى توجد الإلهامات العالية ، وتولد العبقريات الضرورية لتطوير النوع الإنسانى ، مما سنطرف القراء بأنبائه فى كل فرصة .

□ □ □

– ٣ –

مناقشات عامة

لماذا هو ملحد ؟ (١)

إن انتشار العلوم الطبيعية ، وما تواضعت عليه الأمم المتمدنة من إطلاق حرية الكتابة والخطابة للمفكرين فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى – استدعت أن يتناول بعضهم البحث فى العقائد ، فنشأت معارك قلمية بين المثبتين والنافين تمحصت بسببها حقائق ، وتبينت طرائق ، وآمن من آمن عن بينة ، وألحد من ألحد على عهدته .

ونحن الآن فى مصر ، وفى بحبوحة الحكم الدستورى ، نسلك من عالم الكتابة والتفكير هذا المنهاج نفسه ، فلا نضيقن به ذرعا ما دمنا نعتقد أننا على الحق المبين ، وأن الدليل معنا فى كل مجال نجول فيه . وإن هذا التسامح الذى يُدَّعى أنه من ثمرات العصر الحاضر ، هو فى الحقيقة من نفحات الإسلام نفسه ، ظهر به آباؤنا الأولون أيام كان لهم السلطان على العالم كله . فقد كان يجتمع المتباحثون فى مجلس واحد بين سنى ومعتزلى ومشبه ودهرى الخ فيتجاذبون أطراف المسائل المعضلة ، فلم يزدد الدين حيال هذه الحرية العقلية إلا هيبة فى النفوس ، وعظمة فى القلوب ، وكرامة فى التاريخ .

هذه مقدمة نسوقها بين يدى نقد نشرع فيه لرسالة ترامت إلينا بعنوان : (لماذا أنا ملحد ؟) ، نشرها حضرة الدكتور إسماعيل أحمد أدهم فى مجلة الإمام الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٣٧ م ثم أفردها فى كراسة تعميماً للدعوة .

بدأ الدكتور رسالته بقوله : إنه ابن ضابط تركى محافظ على دينه ، وأمه مسيحية هى بنت البروفسور وانتهوف المشهور . ولما كان أبوه – لاشتغاله بالحروب – لم يتفرغ لتربيته ، كلف زوج عمته أن يهيمن على تثقيفه ، فقام بذلك على أسلوبه ، حتى اضطره لحفظ القرآن .

قال الكاتب فى هذا الموطن : « غير أنى خرجت ساخطاً على القرآن ؛ لأنه كلفنى جهداً كبيراً كنت فى حاجة إلى صرفه إلى ما هو أحب إلى نفسى منه .

---

(١) نقلاً عن المجلّد الثامن من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٦ هـ – ص ٤٥٧ وما بعدها .

وكان كل ذلك من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه . ولكنى كنت أجد من المسيحية غير ذلك . فقد كانت شقيقتاى – وقد نالتا قسطا كبيرا من التعليم فى كلية الأمريكان بالآستانة – لا تثقلان على بالتعليم الدينى المسيحى ، وكانتا قد درجتا على اعتبار أن كل ما تحتويه التوراة والإنجيل ليس صحيحاً ، وكانتا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب ، وكان لهذا كله أثر فى نفسيتى » .

وبين سنة ١٩١٩ و١٩٢٣ م قرأ الدكتور كتاب دارون وخرج منه مؤمناً بالتطور ، ونزح والده إلى الإسكندرية ، وأخذ يتولى ابنه بالعناية ، ويفرض عليه الإسلام والصلاة . قال الدكتور : « إنى ثرت على هذه الحالة وامتنعت عن الصلاة ، وقلت له : إنى لست بمؤمن ، أنا داروني أومن بالنشوء والارتقاء ، فكان جوابه على ذلك أن أرسلنى إلى القاهرة ، وألحقنى فيها بمدرسة داخلية ليقطع على أسباب المطالعة » . كل هذا ولم تتجاوز سنه الرابعة عشرة .

وفى سنة ١٩٢٧ م غادر مصر وشخص إلى تركيا والتحق بجامعتها ، فدرس الرياضيات ، وأسس مع بعض إخوانه جماعة لنشر الإلحاد ، فكانوا يصدرون نشرات فى كل منها ٦٤ صفحة .

ثم التحق بجامعة موسكو ، وحصل منها على شهادة الدكتوراه فى الرياضيات ، ثم حصل على دكتوراه فى العلوم والفلسفة . قال : « وكانت نتيجة هذه الحياة أنى خرجت عن الأديان ، وتخليت عن كل المعتقدات ، وآمنت بالعلم وحده ، وبالمنطق العلمى ، وأشد ما كانت دهشتى وعجبى أنى وجدت نفسى أسعد حالاً ، وأكثر اطمئناناً ، من حالتى حينما كنت أغالب نفسى للاحتفاظ بمعتقد دينى » .

الدخول إلى موضوع البحث :

قال الدكتور فى رسالته :

« إن الأسباب التى دفعتنى للتخلى عن الإيمان بالله كثيرة ، منها ما هو علمى بحت ، ومنها ما هو فلسفى صرف ، ومنها ما هو بين بين ، ومنها ما يرجع لبيئتى وظروفى ، ومنها ما يرجع لأسباب سيكولوجية » .

وقبل أن أعرض للأسباب لابد لى من استطراد لموضوع إلحادى ، فأنا

ملحد ، ونفسى ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه . فأنا لا أفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف فى إيمانه . نعم لقد كان إلحادى بداءة ذى بدء مجرد فكرة تساورنى ، ومع الزمن خضعت لها مشاعرى فاستولت عليها ، وانتهت من كونها فكرة إلى كونها عقيدة . ولى أن أتساءل : ما معنى الإلحاد ؟

« يجيبك لودفيج بخنر ، زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر : (الإلحاد هو الجحود بالله وعدم الإيمان بالخلود والإرادة الحرة) . والواقع أن هذا التعريف سلبى محض ، ومن هنا لا أجد بداً من رفضه . والتعريف الذى أستصوبه وأراه يعبر عن عقيدتى كملحد هو : (الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته ، وأن ثمة لا شىء وراء هذا العالم) . ومن مزايا هذا التعريف أن شقه الأول إيجابى محض ، بينما لو أخذت وجهته السلبية لقام دليلاً على عدم وجود الله ، وشقه الثانى سلبى يتضمن كل ما فى تعريف بخنر من معان » . انتهى

نقول : إن قوله إن الأسباب التى دفعته للتخلى عن الإيمان منها ما هو علمى ومنها ما هو فلسفى ، قول لا نراه وجيها ، فقد اعترف العلماء أن العلم يعجز عن إقامة دليل على نفى الصانع . وليس من وظيفة العلم البحث فيما وراء المحسوسات ، والحكم بوجود شىء أو نفيه مما وراءها إلا إذا كان له فى تلك المحسوسات أثر يستهدى به .

والمعركة القائمة بين العلماء المثبتين للصانع والنافين له ، تنحصر فى أن الأولين يحتجون بوجود هذا الإبداع التكوينى والاستدلال به على وجود القدرة المبدعة ، وأن الآخرين يدعون بأن هذا الإبداع سببه وجود نواميس طبيعية منتظمة ملازمة للمادة تكفى لإيصال الكائنات فى آماد طويلة إلى هذه الدرجة العالية من الإبداع ، دون الحاجة إلى عقل مدبر سواها . وهذا – كما لا يخفى – موقف سلبى واهن يحتاج الآخذ به إلى الاعتماد على تحكمات افتراضية ليست من العلم فى شىء .

وأما الفلسفة وهى تناول الأمور بالنظر والتفكير ، فهى – كما تكون سبباً فى الإلحاد – تكون سبباً فى الإيمان ، ناهيك أن أعلام الفلاسفة أكثرهم مؤمنون .

أما ما هو بين بين فيظهر أنه يريد به الخلط بين العلم والفلسفة ، كما يفعل أصحاب الفلسفة الطبيعية ، وهى لا تصلح أن تكون مصدراً (لإيمان إلحادى) ؛ لأن العلم الذى يستندون إليه لا يزال فى دور التكمل ، فقد كانوا يقولون بوجود جواهر فردة مادية ، واليوم ثبت أن المادة تنتهى لقوة . وكانوا يدعون أن الحواس هى أصدق المصادر للعلم ، وقد ثبت أنها لا تكفى لبنائه على أساس متين . وقد كانوا يقولون بأن أساس الكائنات عناصر أربعة هى : الماء ، والتراب ، والهواء ، والنار ، ففوجئوا قبل نحو مائة وخمسين سنة بأن هذه الكائنات ليست بسيطة ولكنها مركبة ، وأن العناصر التى آلت إليها ربما كانت مركبة هى أيضا من عناصر أبسط منها .

وكانوا لا يتخيلون وجود أشعة غير ما تتأثر به العين ، فإذا بهم حيال أشعة تخترق الأجسام الصلبة ، وتعمل فى الأجسام عمل المواد الشديدة التأثير . حتى إن أشعة الراديوم قتلت مكتشفها الأستاذ (كورى) الفرنسى ، وقتلت غيره من الباحثين فيها ، وأحرقت وجوه وصدور عدد كبير منهم .

بقى ما عبر عنه الكاتب بأحوال البيئة والظروف ، وبأسباب بسيكولوجية . وهذه فى نظرنا هى الأسباب الحقيقية فى تكوين فكرة الإلحاد عنده ، فإنه ذكر فى تاريخ حياته أن أباه كان مسلما محافظاً ، وأن أختيه كانتا تلقنانه الدين المسيحى ، وفى الوقت نفسه كانتا تهزآن بخوارق الكتب المسيحية ، وبخلود الروح فى الحياة الآخرة . وأن زوج عمته كان يرغمه على الصلاة وحفظ القرآن . فهذه كلها عوامل تقذف بنفسية الطفل من الشذوذ إلى مكان بعيد . ولا عجب لنفس يحكم عليها أن تكون فى وسط هذا التناقض ولا تشعر بانقباض شديد يحملها على طلب المخرج منه . فلما أتته نظرية الإلحاد وجد فيها الراحة التامة لضميره ، والثلج الكلى لصدره ، فأخذ بها وتحمس لها .

لقد عاب الدكتور على « بوخنر » تعريفه للإلحاد ، وجاءه بتعريف له أكمل منه . فقال : إن الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته ، وأن ليس ثمة شىء وراء هذا العالم .

وهذا تعريف معلول لا يصح فى عرف العلم ولا فى عرف أية فلسفة فى الأرض ، وبخاصة لأهل هذا العصر ، وإليك البيان :

إن القول بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته ، لا يمكن أن يعدو كونه رأيا ، ولما كان الدكتور يكلمنا وهو فى مجال العلم ، فإنا نسأله كيف يمكن فى عرف العلم أن يولد الرأى إيماناً راسخاً لا يقبل المناقشة ؟

نعم إن المشاهد أن كل ظاهرة طبيعية ، تحدثها علة طبيعية . ومن هنا يتخيل من يبحث بحثا سطحياً فى علل الوجود أن علله ذاتية فيه ، ولكن العقول اجتازت هذه العقبة ، فرأت أن هذه العلل الجزئية لا يتأتى أن تكون معلولاتها منتظمة إلا إذا كانت متنزلة من علة رئيسية ، تصدر عن تدبير سابق للحوادث .

قال العلامة السير وليم كروكس ، وهو من أقطاب العلم العصرى ، وقد تولى رياسة المجمع العلمى البريطانى ، قال فى خطبة له [(١)] :

الكون كله على ما ندركه نتيجة الحركات الذرية ، وهذه الحركات تنطبق كل الانطباق على ناموس حفظ القوة ، ولكن ما نسميه ناموساً طبيعياً هو فى الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذى يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة . ونحن نستطيع أن نعلل الحركات الذرية كما نعلل حركات الأجرام الجسمية ، ونستطيع أن نكتشف جميع النواميس الطبيعية للحركة ، ولكنا مع ذلك لا نكون أقرب مما كنا عليه إلى حل أهم مسألة وهى : أى نوع من أنواع الإرادة والفكر يمكن أن يوجد خلف هذه الحركات الذرية ، مجبراً لهذه الحركات على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ (تأمل) . وما هى العلة العاملة التى تؤثر من خلف هذه الظواهر (وفى الأصل من وراء ستار المسرح) ، وأى ازدواج من الإرادة والفكر (تأمل) يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجاً عن نواميسنا الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادى الذى نعيش فيه ؟

---

(١) راجع مجموعة خطب السير وليم كروكس ص ٣٦

« فاسمحوا لى أن أستنتج من هذا الفهم أنه يستحيل علينا أن نتخيل مقدماً الأسرار التى يحتويها الكون ، والعوامل الدائبة على العمل فيما حولنا » انتهى .

هذا رأى العلامة الكيمياوى والرياضى الكبير وليم كروكس ، وهو من الرجال القلائل الذين تضطرهم تجاربهم أن يطلعوا على عمل النواميس كل يوم ، فهم أقرب إليها ممن عداهم ممن يكتبون ولا يعملون . وقد رأيت أنه يأبى أن يسلم بكفاية النواميس لإيجاد الكون وحفظه على ما هو عليه ، فأظهر الحيرة فى فهم كنه تلك (الإرادة) وذلك (الفكر) الذى يعمل من ورائها .

وهو ليس يقول هذا القول متابعة لوهم أو وراثة دينية عنده ، ولكن تجاربه اضطرته إليه ، فقد نص على ذلك نصاً فى خطبة له فى المجمع العلمى البريطانى ، جاء فى صفحة ٨ من مجموع خطبه :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بإدراك إلى أى حد هذه النتائج أو النواميس كما نسميها ، محصورة فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم ؟ أما أنا فإن تركى لرأس مالى العلمى الوهمى قد بلغ حداً بعيداً . فقد تقبض عندى هذا النسيج العنكبوتى للعلم ، كما عبر بذلك بعض المؤلفين ، إلى حد أنه لم يبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تدرك » .

إذا كان هذا حال أقطاب العلم من الحيرة إزاء علل حدوث الكائنات ؛ فمن أية الآفاق يتنزل (الإيمان بالالحاد) الذى يذكره الدكتور صاحب الرسالة على قلب باحث فيه ؟ لانشك فى أنه يتسرب إليه من ناحية السذاجة العلمية ، وقد نص على هذه الحقيقة الرياضى المشهور (هنرى بوانكاريه) الذى يعتقد فيه حضرة الكاتب الإمامة فى العلم ، قال فى كتاب « العلم والافتراض » صفحة ١ :

الحقيقة العلمية فى نظر المشاهد السطحى تعتبر خارجة عن متناول الشكوك ، وعنده أن المنطق العلمى غير قابل للنقض ، وأن العلماء وإن أخطئوا أحياناً — فلا يكون ذلك إلا لأنهم لم يراعوا قواعده . والحقائق الرياضية فى نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الأدلة المنزهة عن الخطأ ، وهى واجبة ، فى رأيه ، ليس علينا فقط ، ولكن على الطبيعة أيضاً (تأمل) ...

ثم قال : « هذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا ، وللتلاميذ الذين يتلقون مبادئ علم الطبيعة ، وها هو جهد فهمهم للدور الذى تؤديه التجربة والرياضيات ، وها هو أيضا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحلمون منذ مائة سنة أن يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة .

« ولكن لما تروى العلماء قليلاً لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وأن التجربة لا تستغنى عنها كذلك . حينذاك سأل بعضهم بعضاً : هل كانت هذه المبانى العلمية على شيء من المتانة ، وتحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها . فمن ألحد على هذا الوجه (تأمل) صار سطحياً أيضاً » انتهى .

فمن أية السبل يأتى الإيمان برأى من الآراء الإلحادية لباحث فى الطبيعة ؟ فتعريف الدكتور كاتب المقالة بأن الإيمان بوجود سبب الكون فى الكون ذاته ، وأن ليس ثمة شيء وراء هذا العالم ، تعريف معيب من الناحية العلمية المحضة ، وأدخل منه فى العيب قوله : « فأنا لا أفترق من هذه الناحية (يريد ناحية الإلحاد) عن المؤمن المتصوف فى إيمانه » . فهذا تعبير بعيد كل البعد عن التحوط العلمى . فإن العالم يجب ألا يكون واقفاً هذا الموقف حيال مدركات يقول عنها مثل (هنرى بوانكارى) إن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها ، وتاريخ العلم يبرر هذا التحفظ .

هل كان الفيلسوف (كنت) ملحدا ؟

نقل الدكتور كاتب الرسالة عن الفيلسوف الألمانى (كَنْت) قوله : « إنه لا دليل عقلى أو علمى على وجود الله ، وإنه ليس هنالك من دليل عقلى أو علمى على عدم وجود الله » . ثم قال الدكتور عقب ذلك :

« وهذا القول الصادر عن أعظم فلاسفة العصور الحديثة وواضع الفلسفة الانتقادية ، يتابعه فيه جمهرة الفلاسفة . وقول (عمانويل كانت) لا يخرج عن نفس ما قاله لوقريتوس الشاعر اللاتينى منذ ألفى سنة » .

وأنا أقول : لا أظن أن الدكتور صاحب الرسالة يجهل تاريخ الفيلسوف الذى يصفه بأنه أعظم فلاسفة العصور الحديثة ، إن هذا الفيلسوف كان من أكبر المؤمنين بالله وبالروح وخلودها من طريق التحليل العلمى والفلسفى . جاء عنه فى قاموس لاروس ما يأتى :

« شرع الفيلسوف كَنْت فى إصلاح مجموع المعارف الإنسانية ، فبدأ عمله على أسلوب التشكك ، وبنى عليه الوصول إلى الحق اليقين بواسطة العقل العملى ، والناموس الأدبى ، واستنتج من ذلك وجود الخالق وخلود الروح » .

وهذا ما تعرفه الفلسفة عنه ، فمن أين أتى حضرة الدكتور بأنه قال إنه لا دليل سواء أكان عقلياً أم علمياً على وجود الله ؟ لا أستطيع أن أقول إنه تقوَّل عليه ، ولكنى أقول إنه اقتضبه اقتضاباً من كلامه فأوهم غير ما يرمى إليه الفيلسوف من مراده .

ثم عقب الدكتور على ذلك بقوله :

« الواقع الذى ألمسه أن فكرة الله فكرة أولية ، وقد أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفى سنة ، ومن هنا يمكننا بكل اطمئنان أن نقول إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها فى عالم الفكر الإنسانى لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية ، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس التبرير Racionation ، ومن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التى تقام لأجل إثبات وجود السبب الأول قيمة علمية أو عقلية . ونحن نعلم مع علماء الأديان والعقائد أن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية ، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية ، ومعرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التى نخلعها عليها » انتهى .

ونحن نقول : إن هذا الكلام ليس عليه أقل عبقة من اللهجة العلمية ، كأن كاتبه لم يقرأ تاريخ العالم ولا تاريخ العلم . فإن قوله : إن العقيدة بالله أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفى سنة ، خطأ عظيم ، فإن هذه العقيدة صحبت الإنسان منذ نشوئه ، حتى قال المنقبون فى الحفريات إنهم لم يشاهدوا آثاراً تحت

الأرض لجماعة من الجماعات المتغلغلة فى القدم تدل على أنها كانت لا تدين لدين ما . ولكن الأمر على العكس ، فإن كل الآثار التى عثروا عليها تدل على وجود العقيدة لدى تلك الجماعات .

فما معنى قول الكاتب بعد هذا التقرير العلمى : إن العقيدة بالله لم تصبح من مسلتزمات الجماعات إلا منذ ألفى سنة ؟ إن الأحجار المنقوشة فى الهند والصين ومصر وغيرها تدل على أن تلك الأمم قبل ستة آلاف سنة كانت متدينة على أشد ما يمكن أن يكون ، وكان للدين السلطان المطلق عليها حتى كان الحكم فيها قبل نشوء الملكية للكهنة والرهابين .

وأما قوله : إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها من عالم الفكر لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الإقناعية ، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس التبرير .

فنرد عليه بأنه إذا كانت العقيدة الإلهية تسلطت على عقول الناس من أقدم العصور ، حتى عقول العلماء وكبار المفكرين ، يمكن أن توصف بأنها مجردة من عناصر القوة الإقناعية ، فأى عقيدة بعد ذلك يتصور أن تكون حاصلة على تلك القوة ؟

إن العقيدة بالله تقوم على أقوى البداهات العقلية ، وأعظمها سلطاناً على النفس البشرية ، ويزيدها الشعور الوجدانى الذى لا سبيل إلى عدم الاعتداد به . ذلك أن كل إنسان سأل نفسه بالفطرة : ماذا أنا ؟ وأى شىء أوجدنى وأوجد هذا العالم ؟ وكل إنسان وجد الجواب العقلى والوجدانى عقب هذا السؤال كما يأتى : لابد أن يكون قد أوجدنى موجد قادر وهو نفسه الذى أوجد هذا العالم أيضا .

هذه كانت البداهة العقلية والوجدانية التى لا تعارض ، ولكن الفلسفة منذ نحو ألفين وخمسمائة سنة هى التى حاولت أن تتشكك فى هذه البداهة ، فحاولت تعليل وجود الخليقة بذاتها بغير حاجة لموجد أزلى حكيم . ورغماً عما بذلته تلك الفلسفة المادية منذ تلك القرون من الجهود الشاقة فإنها لم تتوصل أن تفتن إلا عقولاً قليلة ، وبقيت جماهير الخليقة تحت سلطان تلك العقيدة ،

بل بقيت عقول تعتبر من أرقاها طرازاً تحت ذلك السلطان نفسه .

فهل يعقل أن وَضَعَةَ الفلسفة : فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكل من جاء بعدهم إلى العصور الحديثة من صاغة الأصول الأولية ، أمثال بيكون واضع الدستور العلمى ، وديكارت مصلح الفلسفة ، وعمانويل كنت منقح العلوم الإنسانية ، وروسو وفولتير إمامى النقد الفلسفى ، وبرغسون زعيم الفلسفة الوجدانية فى العصر الحاضر ، هل يعقل أن هذه العقول الجبارة كلها لم تدرك أن فكرة الله وهمية باحتة ، وأنها مجردة من عناصر القوة ؟

اللهم إن أحداً لم يجرؤ على اتهام هؤلاء وأمثالهم بالغباوة إلى الحد الذى يدفعهم إليه صاحب رسالة (لماذا أنا ملحد ؟) .

قال حضرة الدكتور فى تلك الفقرة : إن كل الأدلة التى تقام لأجل إثبات السبب الأول ليس لها قيمة علمية أو عقلية .

نقول : كيف يمكن أن يروج مثل هذا القول فى العقول ، والبحث عن السبب الأول أمر لابد منه ، وإثبات وجوده لا معدى عنه فى عصر من العصور ، وإن كان بعضهم يعتقد بأن هذا السبب قادر حكيم ، وبعضهم يراه وجوداً مادياً محضاً . فإن كان مراده أن يقول إن إثبات أن ذلك السبب قادر حكيم ليس له قيمة علمية أو عقلية ، فذلك حكمه الشخصى ، ولكن جميع من ذكرناهم من وضعة الفلسفة ومصلحيها قد رأوا أن لها أعظم قيمة علمية وعقلية ، وأثبتوها فى مؤلفاتهم الخالدة . والعقول بطبيعة الحال تنساق وراء كبار الأعلام فى هذا الشأن ، وهو نفسه لا يستطيع أن يصفهم بغير هذا الوصف ، فقد ذكر واحداً منهم وهو (عمانويل كنت) فوصفه بأنه أعظم فلاسفة العصور الحديثة ، وواضع الفلسفة الانتقادية ، وقد أثبتنا لك بنص تاريخى أنه توصل على أسلوبه النقدى إلى إثبات الله وخلود النفس ، وله فى ذلك كلام ممتع . وقس عليه سواه ممن ذكرناهم هنا .

وقال الدكتور فى تلك الفقرة أيضا : إن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية ، وإن الذى ولدها للإنسان الخوف والجهل بأسباب الأشياء الطبيعية ،

وإن معرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التى كنا نخلعها عليها .

نقول : أما أن هذه الفكرة قد تطورت فهذا لا يستدعى العجب ، فإن الجاهل يخلع على تصوراته خلعة من أوهامه وأهوائه ، وكلما ازداد علماً أزال طائفة من تلك الأوهام والأهواء حتى ينتهى إلى إزالتها كلها وتبقى العقيدة خالصة من كل شائبة .

فأى بأس فى هذا على قدسية هذه العقيدة ؟ أليس هذا كان حال الإنسان من جهة العلم والحكمة والحق والعدل والشرف والكرامة الخ ، مما يضحى الإنسان حياته فى سبيله ؟ فهل يسقط من قدسية العلم والحكمة أنهما تطورا فى عقل الإنسانية من حالات بدائية ؟ وهل لهذا السبب يجب علينا أن ننكر وجود العلم والحكمة وكل هذه الحالات الكريمة ؟

وهل أعلام العلم والفلسفة ممن ذكرناهم ، ويطول ذكر غيرهم ، لم يدركوا أن تطور فكرة الله تذهب بقدسيتها كما أدركها الدكتور كاتب الرسالة ، فلم لم يحتقروا هذه الفكرة لهذا السبب ، وكلهم أفاض فى ذكر الأطوار التى دخلت فيها على مدى العصور والأجيال ؟

هل السبب الأول للكائنات هو الخبط والاتفاق ؟

قال الدكتور كاتب الرسالة : « إن العالم الخارجى – عالم الحادثات – يخضع لقوانين الاحتمال Probability ، فالسنة الطبيعية لا تخرج عن كونها إجمال القيمة التقديرية التى يخلص بها الباحث من حادثة على ما يماثلها من الحوادث . والسببية العلمية لا تخرج فى صميمها عن أنها وصف لمجرى سلوك الحوادث » .

ثم ذكر أنه عمل مذكرة بهذا الموضوع لمعهد الطبيعيات الألمانى عن المادة وبنائها الكهربائى وقال : « وفى هذه المذكرة أثبتُّ أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمى للذرة ، فإذا كان كل ما فى العالم يخضع لقانون الاحتمال فإنى أمضى بهذا الرأى إلى نهايته ، وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة » .

ثم قال : « ولكن ما معنى الصدفة والتصادف ؟

« يقول هنرى بوانكاريه فى أول الباب الرابع من كتابه Science et mèthode فى صدد كلامه عن الصدفة والتصادف : « إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب ، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب » .

« والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده . ثم قال : « غير أنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا ، معنى دقيقاً بث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى فى كتابى (Mathematic und physik) جـ ٢ فصل ٧ » .

ثم مثل لنظريته بمثال فقال :

« لنفرض أن أمامنا زهر النرد ونحن جلوس حول مائدة ، ومعلوم أن لكل زهر ستة أوجه .

ثم قال : « وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل مجيئه إذا رمينا زهر النرد ، فإن مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه يحدد معنى الصدفة التى نبحثها .

ثم قال : « فمثلاً لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة ، أعنى بنسبة ١ : ٣٦ مرة ففى الواقع نحن نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجىء الدش ، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية فى شىء .

« إذاً يمكننا أن نقول : إن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددها الأعظم ، تعطى حالات إمكان . ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض فى وحدات ، وتتداخل وتتناسق ، ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم ... وهكذا خاضعة فى حركتها هذه لحالات الإمكان التى يحددها قانون العدد الأعظم الصدفى ، ومثل العالم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف ، وقد أخذت هذه فى الحركة والاصطدام ، فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا فى دورة لا نهائية ، فلاشك أنه فى دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب (أصل الأنواع) ، وكذا (القرآن) مجموعاً منضداً مصصحاً من نفسه ، ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهاية ،

فإذا اعتبرنا (ح) رمزا لحالة احتمال و (ص) رمزاً للانهاية ، كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات :

ح : ص

« وعالمنا لا يخرج عن كونه كتاباً من هذه الكتب ، له وحدته ونظامه وتنضيده ، إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة » انتهى .

ونحن نقول : إذا كان القارئ – سواء أكان باحثاً طبيعياً أم عالماً رياضياً – قد آنس فى كلام الدكتور كاتب الرسالة غرابة وخروجاً عن المألوف ، ومنافاة لكل ما نقل عن أقطاب العلوم ، وأركان الرياضيات – فإن الدكتور نفسه يعترف بذلك ، فهو يقول : إن نظريته هذه مبتكرة ظهرت فى عالم التفكير العلمى لأول مرة ، فقد قال : « إنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا ، معنى دقيقاً بث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى فى كتابى (Mthematik und plysik,) جـ ٢ فصل ٧ » .

قال ذلك عقب إيراده قول العلامة الكبير (هنرى بوانكاريه) الفرنسى وهو قوله : « إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب ، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب » .

وعقَّب على كلمة الأستاذ بوانكاريه بقوله : « والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده » .

وهذا اعتراف من الدكتور بأن كل العلماء متفقون على أن لا خبط ولا اتفاق فى حوادث الكون ، ولكن الدكتور وحده قد أدرك أنهم كلهم واهمون ، وأن الخبط أو كما يسميه (الصدفة) هى الناموس الأعظم الذى أوجد الكون ، وهى التى تسود جميع انقلاباته إلى اليوم .

ولما كان الدكتور يعتبر نفسه صاحب مذهب جديد فى العلم ، فهو لا يخشى أن يعرض للقراء آراء كبار الرياضيين المناقضين له . فنقل عن العلامة العبقرى « أينشتين » أكبر أعلام الرياضيات فى هذا العصر قوله :

« مثلنا إزاء العالم مثل رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئا ، فلما أخذ فى مطالعته وتدرج من ذلك لدرسه ، وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكرى ، شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئا غامضاً لا يصل لكنهه ، هذا الشىء الغامض الذى عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه ، فإذا ما ترقى به التفكير ، عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقرى أبدعه . كذلك نحن إزاء العالم ، فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئا غامضاً لا تصل إلى إدراكه عقولنا ، هذا الشىء هو الله » .

ونقل أيضا عن العلامة الجليل السير (جيمس جينز) الفلكى الإنجليزى قوله :

« إن صيغة المعادلة التى توحد الكون هى الحد الذى تشترك فيه كل الموجودات ، ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة الكون كانت لبابه . ولما كانت الرياضيات تفسر تصرفات الحوادث التى تقع فى الكون ، وتربطها فى وحدة عقلية ، فهذا التفسير والربط لا يحمل إلا على أن طبيعة الأشياء رياضية ؛ ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبحث عن عقل رياضى يتقن لغة الرياضة يرجع له هذا الكون . هذا العقل الرياضى الذى نلمس آثاره فى الكون هو الله » .

نقل الدكتور هذين القولين وعقب عليهما بقوله : « وأنت ترى أن كليهما (والأول من أساطين الرياضيات فى العالم ، والثانى فلكى ورياضى من القدر الأول) عجز عن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشاملة ، والتى يتبع دستورها العالم ، لا لشىء إلا لتغلب فكرة السبب والنتيجة عليهما » .

وقد سبق له أن نقل رأى الرياضى الفرنسى الكبير (هنرى بوانكارى) فى نكران الخبط والاتفاق (أى الصدفة) .

وعقب عليه بقوله : « الواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده ، غير أنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا ، معنى دقيقاً للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى » .

فإذا كان الأمر كما ذكر فيكون من العبث المحض أن ننقل إليه آراء رياضيي العالم كله فى إنكار وجود الخبط فى الطبيعة ، وفى أنها قائمة على نظام حكيم ؛ فلابد لنا من أسلوب آخر فى دحض أقواله .

إن كاتب الرسالة لم يكتف بتخطئة أقطاب الرياضيين الذين ذكرهم فى فهم نظام التكوين العالمى ، ولكنه يتبرع فيشرح وجه خطئهم ، فقد قال :

« الواقع أن أينشتين فى مثاله انتهى إلى وجود شيء غامض وراء نظام الكتاب عبر عنه بعقل صاحبه – مؤلفه – والواقع أن هذا احتمال محض ؛ لأنه يصح أن يكون خاضعاً لحالة أخرى ، ونتيجة لغير العقل (كذا) ، ومثلنا عن المطبعة وحروفها ، وإمكان خروج الكتب خضوعاً لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة (كذا) . أما ما يقوله السير جيمس جينز ، فرغم أنه أخطأ فى اعتباره الرياضة طبيعة الأشياء ، لأن نجاح الوجهة الرياضية فى ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية ، بل يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين طبيعة الأشياء ، فالأشياء هى الكائن الواقع ، والرياضيات ربط ما هو واقع فى نظام ذهنى على قاعدة العلاقة والوحدة . وبعبارة أخرى إن الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع ، والواقع يتضمنه الممكن ؛ ولذلك فالواقع حالة خصوصية منه . ومن هنا يتضح أنه لا غرابة فى انطباق الرياضيات على الكون الذى نألفه ، بل كل الغرابة فى عدم انطباقها ؛ لأن لكل كون رياضياته المخصوصة . فكون من الأكوان مربوطاً بالرياضيات شرط ضرورى لكونه كوناً . من هنا يتضح أن السير جينز انساق تحت فكرة السبب والنتيجة كما انساق أينشتين إلى التماس الناحية الرياضية فى العالم . وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضى وراء هذا العالم ، وهذا خطأ ؛ لأن العالم إن كان نظام ما هو واقع خاضعاً لنظام ما هو ممكن ، فهو حالة احتمال من عدة حالات ، والذى يحدد احتماله قانون الصدفة الشامل لا السبب الأول الشامل » انتهى .

يريد كاتب الرسالة مما مر أن يقول إن المثال الذى ضربه بالمطبعة ذات المليون حرف ، وإمكان خروج الكتب منها خضوعاً لقانون الصدفة الشامل بدون الحاجة لعقل ، يكفى لبيان ما يشكل على العلماء فى هذا المجال .

فقولهم إن الكون قائم على نظام رياضى شامل لانسجامه مع العلم الرياضى الإنسانى ، خطأ محض . فإن ترابط حوادث الكون ، وتصرفها على قانون رياضى لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية كما يقول : لأنه بعد أن يتوصل قانون (الصدفة) الشامل ، فى رأيه ، إلى إنشاء كون من الأكوان يكون ضبطه بالقوانين الرياضية شرطًا ضروريًّا لكونه كوناً ومن هنا أخطأ ، كما يدعى ، أقطاب الرياضيين فى اعتبار أن الطبيعة تجرى على نظام رياضى دقيق . والحقيقة أنها تجرى على نظام الخبط ، ومن هذا الخبط تتولد الأكوان ذات النظم الرياضية الدقيقة .

هذا مذهب غاية فى الغرابة ، فلا عجب أن ينفرد بالقول به واحد فى الخلق ! ولكن هذا لا يكفينا مؤنة مناقشته الحساب ، حتى لا يخيل إليه أن العقول تعجز عن بيان خطئه فيه .

مناقشة هذه النظرية الإلحادية الحساب :

ليس من الحكمة أن نعتمد فى مناقشة صاحب هذه الرسالة على إيراد آراء علماء الكون ، سواء أكانوا رياضيين أم طبيعيين أم فلكيين ؛ لأنه يعترف بأن إجماعهم انعقد على أن للكون نظاماً أزلياً ، وأنه جاء على وتيرة رياضية فى جميع أدواره ، وأنه منزه عن الخبط والاضطراب فى جميع مكوناته . ولكن الذى يجدى فى هذه القضية هو مناقشته الحساب فى مفهوم نظريته ، وفى الأصول التى أقامها عليها إن كان لها أصول ، فنقول :

(أولاً) أن ما يقرره الدكتور من عالم الخيال المحض لا من عالم العلم ، حمله عليه شدة تهيامه بإبطال العقيدة بالخالق ، ولكن تهيام الإنسان بنفى أصل من الأصول ، لا يجوز أن يدفع به إلى متاهات يتجرد فيها من كل قوانين المنطق ، جرياً وراء هوى من الأهواء النفسانية .

نعم إن العالِم مع اشتغاله بالواقع المحسوس يُسمح له أن يخترق بخياله ما وراءه ليصل إلى السبب الأول الذى لاتناله المشاهدة ولا تبلغه التجربة ، ولكنه لا يسمح لنفسه أن يفعل ذلك إلا مستهدياً بما بين يديه من الأصول ، ومحوطاً بما يمكنه أن يحصل عليه من المرجحات .

فإذا كان العالم يرمى ببصره إلى أبعد ما تصل إليه قوى التلسكوب فلا يصادف غير نظام قائم على أدق أصول العلم الرياضى ، فلا حق له أن يستنتج منه أن العوامل التى صدر عنها الكون لا يسودها غير الخبط المحض ؛ لأن سيادة النظام الرياضى الآلى فى كل مكان لا يسمح لنفسه أن يفعل بذلك ، ولكن يوجب عليه ضده ، وهو أن الكون يجرى على نظام محكم تسوده عوامل محكمة النظام إلى أقصى ما يتخيله التصور .

وجميع ملاحدة العالم قديماً وحديثاً بنوا إلحادهم لا على أن العامل الرئيسى هو الخبط ؛ لأنهم لم يروه ، ولكن على أنه وليد نظام آلى محض لا يصدر عنه إلا ما هو آلى منتظم كل الانتظام . فقد قال بوخنر إمام الملحدين : « ما دمنا لا نرى فى كل مكان غير نواميس منتظمة تصدر عنها كائنات منتظمة ، فلا داعى يدعونا إلى افتراض وجود سبب عاقل أوجده » ، وغفل عن أن هذه النواميس مظاهر لسبب عاقل أوجدها . ولكن بوخنر لا يستطيع أن يقول كما يقول الدكتور صاحب الرسالة : إنه ما دمنا لا نرى إلا نواميس منتظمة فلا مانع يمنع أن تكون هذه النواميس حالة لكون منتظم أوجده سبب أول هو ناموس الخبط المحض .

وما الذى يحمله على التجرؤ على هذا الافتراض ، ولم ير فى الوجود كله ركنا منعزلاً يعمل فيه ناموس الخبط ، وتنتج منه كائنات منتظمة ، تخرج بحكم نظامها من سيادته عليها وتصبح مستقلة عنه ، توهم أنها صادرة من أصول رياضية دقيقة ، ونظام آلى محكم ؟

إن كل ما وصل إليه خيال المتخيلين فى أمر الخبط من الملاحدة ، أنهم قالوا إن الكون محكوم من أزل الآزال بقوانين محكمة الوضع ، وهى دائبة على العمل بغير قصد ، فتارة ينتج عنها كائنات منتظمة وأخرى شاذة ، ولكنها لقيامها على النظام لا تزال بهذه الشواذ حتى تبيدها أو تحيلها إلى النظام المحكم ؛ ولذلك ترى كل كائنات الوجود محكمة الصنع .

إذا تقرر هذا فعلى أى أساس استند الدكتور فى تخيل أن السبب الأول للوجود هو الخبط المحض ، وليس فى الوجود ما يُمَكن من الاستدلال به عليه ؟

وكيف يأمل أن يبث دعوة خيالية محضة لا تستند على أى أصل من أصول العلم ، بل على أى خيال من خيالات أصحاب الفلسفات الإلحادية ؟

أليس انفراده بالقول الذى أورده ، وهو يعترف بذلك ، يصح أن يكون من أقوى أسباب الارتياب فيه ، بل القذف به إلى عالم المهملات ؟

يقول إنه أرسل مذكرة علمية برأيه هذا لمعهد الطبيعيات الألمانى فى سنة ١٩٣٤ م ، ولا عبرة بإرسالها فقد مضى عليها ثلاث سنين و لم يتلق عنها تأييداً إلى اليوم ، ومعنى ذلك أنهم أهملوا أمرها وعدوها من الخيالات ، وإلا فقد كانوا يملئون الصحف بإشاعتها والمناقشة فيها ككل الآراء الجديدة التى يتخيل من ورائها زيادة لمادة العلوم .

(ثانياً) هل تصح تسمية الخبط بالقانون ؟

يعبر الدكتور عن رأيه فى الخبط بقوله : (قانون الصدفة الشامل) فهل تسلم له هذه التسمية ؟

المعروف أن الخبط ، وهو يسميه الصدفة ، هو اللانظام المحض ، والفوضى المجردة من كل قانون وضبط ، فهو يتخيل أن القوى العالمية كانت على حالة تخبط هائل ، فصدر عنها على مقتضى قوانين الاحتمال ، كون منتظم بديع الصنع هو ما نحن فيه ، وما عليه العالم إلى أبعد ما يصل إليه التلسكوب . فهل يحق له – وقد اعتبر القوى العالمية فى حالة فوضى وتخبط – أن يتخيل وجود قانون يسيطر عليها ؟ وهل هذا القانون من الكون أم خارج عنه ؟

إن الكاتب قد أكثر من ذكر قوانين الاحتمال ، ولكنها عندنا لم تسم بالقوانين إلا لأنها تطبق على موجودات منتظمة ، وقد اكتشفها الفلكى لا بلاس للترجيح لا للجزم ، ورتبها على حوادث جارية على النظم الطبيعية المقررة ، لا على حوادث خيالية لا وجود لها . فكيف يطبق حساب الاحتمال العلمى على عالم الخبط المحض الذى لا أثر للنظام فيه ، ولا قيام لكائن منتظم معه ؟ وإذا كان الوصف المميز للخبط هو خلوه من كل قانون ، فكيف يلحق به نظام رياضى محض كحساب الاحتمال القائم على قوانين ثابتة ، ونظم مستقرة من العالم

المحسوس الذى يعترف الكاتب بأنه قائم على الأصول رياضية ؟

يضرب الكاتب لمراده مثلاً بوجوه زهر الطاولة ؛ ويقرر أن الدش لابد من مجيئه مرة فى كل ستة وثلاثين رمية للزهر . ويغفل عن أن وجوه الزهر قائمة على شكل هندسى وأعدادها معينة مكتوبة ، وهى بجملتها موجودة فى عالم آلى يسوده النظام فى كل ذرة من ذراته ، فلا بدع أن تسرى عليه قوانين الاحتمال ؛ ولكن عالم الخبط الذى لا أثر للعدد فيه ، ولا صورة متعينة لشىء من أشيائه ، ولا وجود للقوانين فيه ، كيف يطبق عليه عمل رياضى قائم على أصول مقررة فى عالم تسوده القوانين وتحفظه من أى نوع من أنواع الخبط ؟

(ثالثا) هل يعقل صدور النظام فى الخبط العام بدون سبب خارجى ؟

إن ما يذكره كاتب الرسالة الإلحادية من تعليل وجود الكون من طريق الخبط والاتفاق يجب أن يسبقه تصور لذلك العالم .

فإذا أخذ آخذ بنظريته وجب عليه أن يعتقد أن العالم محدث غير قديم ، خلافاً لرأى جميع الملحدين ، وأن العالم لم يكن فيه غير قوى لا ضابط لها ولا منظم من أى نوع كان ، حتى ولا من نوع النواميس الأزلية الأبدية التى يتخيلها الملحدون .

فإن قال بوجود نواميس فى ذلك العهد لم يصدق على العالم أنه كان عالم خبط واتفاق .

فمثل هذا المحيط اللانهائى من القوى الثائرة المتخبطة المنحلة النظام ، لا يعقل أن يتولد فيه نظام على وجه الإطلاق . وقد لاحظ أقطاب الملحدين هذا الأمر ، فقرروا أن القوى العالمية مقودة بنواميس أزلية غاية فى الإحكام ملازمة لها ، وليست فوضى ولا متخبطة . افترضوا هذا خشية أن يعترض عليهم بمثل ما نعترض به على كاتب الرسالة اليوم ، من أن الخبط لا يُعقل أن يولد نظاماً ، فتبطل حجتهم ، ويزدرى الناس مذهبهم .

ولكن كاتب تلك الرسالة يقول : بلى إن قوانين الاحتمال تسمح أن نتصور صدور الكون المنتظم ، المقود بنواميس حكيمة ، من صميم هذه القوى العالمية المتخبطة .

يقول هذا ويغفل أن فى قوله قوانين الاحتمال تناقضا لا يسيغه عقل عاقل فى الأرض ، فإن افتراضه سيادة الخبط والاتفاق فى العالم تنفى وجود أى ضرب من ضروب القوانين فيه .

إنه قال كما نقلناه عنه : « إن العالم الخارجى – عالم الحادثات – يخضع لقوانين الاحتمال » . فهل غاب عنه أن ما يصدق على عالم الحوادث الطبيعية المقودة فى كل ذرة من ذراتها بنواميس محكمة ، لا يعقل أن يصدق على عالم خبط واتفاق ليس فيه حوادث مترابطة ولا قوانين تسود عليها ؟

وإذا استساغ أن يعتقد أن ذلك العالم المتخبط توجد فيه قوانين الاحتمال ، فما الذى يمنعه أن يعتقد بوجود كل ضروب النواميس فيه ؟

فلو سلمنا له جدلاً أن قوانين الاحتمال حاولت مرة أن توجد كائنا منتظماً ، فهل نستطيع أن نعقل أن القوى العالمية الثائرة من حوله تدعه يتكون فى هدوء وسكون ، ولا تعدو عليه فتفسده قبل أن يتم تكونه ؟ ما الذى يمنعها من العدوان عليه ، بل ما الذى يمنع قوانين الاحتمال من توليد كائن آخر منتظم بجواره يناقضه ويحرمه أن يتطور إلى أن يبلغ حد الكمال ؟

إذا لم يستطع أحد أن يسيغ تصور هذا ، فهل يسيغ أن تترك القوى الثائرة المتخبطة ، حرية العمل لقوانين الاحتمال ، حتى تولد ملايين من مجموعات شمسية تملأ فضاء لا حد له تسودها قوانين عامة واحدة ، لا يختل لها نظام فى عدد لا يحصى من ملايين السنين ، ولاتعدو عليها فتجعلها حطاماً متناثراً فى الهواء ؟

هنا يحتاج الآخذ بنظرية الخبط العام أن يتخيل أن القوى العالمية كانت فى حالة سكون تام لا فى حالة ثوران ، فإذا تفضلت قوانين الاحتمال أن توجد كوناً أو أكواناً كثيرة ، تركتها تلك القوى أن تفعل ما تشاء .

ولكن هذا الخيال يؤدى صاحبه أن يعتقد بأن القوى فى عالم الخبط العام مجردة من الحركة والتأثير فيما حولها . وإذا كانت كذلك فكيف يتصور أن تسود عليها قوانين الاحتمال ؟

لقد شبه الكاتب عمل قوانين الاحتمال بحركة زهر النرد ، ولكن غاب عنه أن زهر النرد إذا لم يتحرك فلا يعقل أن يأتى الدش منه فى كل ٣٦ رمية مرة واحدة ، بل يبقى على ما هو عليه إلى الأبد .

وعليه فلا يعقل أن تكون القوى كانت ساكنة ، فلابد أنها كانت فى حالة حركة لا ضابط لها ، ثم يصبح لها ضوابط متى آلت إلى كائنات بواسطة قوانين الاحتمال . وإذا كانت كذلك فكيف لا تعدو القوى المتخبطة العامة على أى جزء منها ، فترفع عنه تأثير قوانين الاحتمال ؟ أى مانع يمنعها من ذلك وهى محيطة بها من كل مكان ؟

وكيف يعقل حدوث نواميس رياضية محكمة ، لكون تولد من قوى مجردة من كل ناموس ، ومن أى ضابط كان ؟

يقول كاتب الرسالة : لا غرابة فى ذلك فما دام قد وجد كون فإن ضبطه بالرياضيات شرط ضرورى لقيامه على حالة كون قائم بنفسه .

نقول فى هذا القول تحكم يتنزه عن مثله أهل العلم ، فإذا سلمنا جدلاً بأن قوانين الاحتمال أوجدت مجموعة شمسية ، فما الذى يوجب عليها أن تجعلها على نظام رياضى دقيق ، وأن تحليها بجميع النواميس المحكمة التى لا تكفى فقط لتماسك أجزائها ولكن لتحليتها بنواميس أخرى تصلح لتكوين كائنات نباتية وحيوانية عليها ، ولدفع هذه الكائنات للتطور والترقى حتى يبلغ بعض آحادها إلى درجة عالية من إدراك الذات والتعقل ؟

وإذا اتفق ذلك لمجموعة شمسية ، فهل يتفق مثله لملايين المجموعات الشمسية السابحة فى الفضاء ، وعلى أبعاد لا يصل إليها الوهم ، وتكون كل هذه القوانين واحدة فيها ومتكافلة فيما بينها إلى هذا الحد المحير للعقل ؟

لم هذا التحكم كله ؟ ألأجل القول بأن أصل الوجود قوى متخبطة لا ضابط لها ؟ وأى فائدة للإلحاد من هذا الافتراض ، وقد أساغ الملحدون وجود نواميس محكمة ملازمة للقوى العالمية من أزل الآزال ؟

إن هذه الثمرة الضئيلة لا تساوى أن يتعسف الإنسان هذا التعسف كله ليثبت أمراً لا يسيغه عقل فى هذا العالم .

نعم إن بناء النظريات الجديدة أمر محبب إلى النفوس ، تنساق إليه الفطر ذات المطامح البعيدة ، ولكن لو كانت هذه الشهوة النفسية تدفع إلى مثل هذه المواطن من الخيالات فيجب وقفها عند حد ، فإنها تصبح مذمومة ، ولا يجنى صاحبها من ورائها غير الخيبة وسوء القالة .

ولكن يلوح لنا أن الذى حفز كاتب الرسالة لأن يدفع بنفسه إلى هذا المَهْمَهِ من الخيال المحض ، هو أن يتفادى ما يلزم القائلين بوجود النواميس الأزلية المحكمة من الإيرادات ، فقد قيل لهم إن ما تقررونه من وجود تلك النواميس الرياضية المحكمة ملازمة للهيولى الأولية ، هو مظهر الحكمة الإلهية ، وإلا فكيف يعقل وجود قوى منتظمة ، تؤدى إلى كائنات غاية فى الإبداع ، دون أن يكون وراءها عقل أوجدها ؟

أراد صاحبنا أن يتقى هذه الإيرادات ، فقفز قفزة خيالية باحتة يرِد عليها من الاعتراضات أكثر مما يرد على تلك ، ويكون موقف المنابذ لها أشد حصانة ومناعة من موقفه حيال جميع النظريات الإلحادية مجتمعة .

قصة المطبعة ذات المليون حرف :

قال كاتب الرسالة :

« إن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطى حالات إمكان . ولما كان العالم لا يخرج عن مجموع من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض فى وحدات تتداخل وتتناسق ، ثم تنحل وتتباعد ، لتعود من جديد وتنتظم ، وهكذا خاضعة فى حركتها هذه لحالات الإمكان التى يحددها قانون العدد الأعظم الصدفى . مثل العالم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف . وقد أخذت هذه فى الحركة والاصطدام فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل ، هكذا فى دورة لا نهائية . فلاشك أنه فى دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذى تلوته الآن ، كما أنه فى دورة أخرى من دورات

اللانهاية لابد أن يخرج كتاب (أصل الأنواع) وكذا (القرآن) مجموعاً منضداً مصححاً من نفسه (كذا) ، ويمكننا أن نتصور أن المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهاية » ا هـ .

ونحن نقول ردًّا على هذا الكلام :

إن من الابتلاء المر أن يضطر الإنسان فى يوم من الأيام للدفاع عن رأيه بمثل هذه الأقوال التى تشذ عن كل قاعدة عقلية وعلمية . وقد فندنا كل ما ذكره الكاتب مما سماه قانون الصدفة الشامل ، وبينا تنافيها مع قوانين الاحتمال بما لا مزيد عليه .

والآن نتصدى لتشبيه فعل قانون (الصدفة) وما تخضع له من قوانين الاحتمال بمطبعة ذات مليون حرف ، لكل من وحدات الأبجدية ، وقد درج الناس إذا ابتلوا بأقيسة على أن يقولوا : هذا قياس مع الفارق . ولكنا مضطرون حيال ما نحن بصدده أن نقول هذا قياس مع كل ما يتخيل من الفوارق .

فكيف يسوغ لباحث أن يشبه حالة القوى الوجودية العارية من كل قانون ، المجردة من كل ضابط ، كما يفترضها الكاتب ، بآلة ميكانيكية كالمطبعة قائمة على أدق قوانين الميكانيكا والرياضة ، ولها قطع منقوش على رءوسها حروف تتألف منها كلمات ، وهى مفصلة تفصيلاً هندسياً ، بحيث يقوم بعضها إلى جانب بعض فتؤلف منها صحف ، وللمطبعة أسطوانات مكسوة بالغراء تستمد من محبرة بجوارها حبراً تنقله إلى الحروف ، بحركات مدبرة تدبيراً محكماً . وهذه المطبعة الميتة لا تغنى شيئا إذا لم يكن لها عمال يحركونها ، ويدبرون دوراتها ، ويراقبون كل خلل يطرأ عليها أثناء العمل ؟

إن هذا التشبيه معيب للدرجة القصوى ، بل هو غير جائز أصلاً ، ومجيئه من باحث ينتمى للرياضيين يزيد فى غرابته ، ويجعله أطروفة الأعاجيب فى عصر المباحث المدققة ، والمقررات المحررة .

وأدخل من كل ما مر فى عالم الأوهام والخيالات ، زعم الكاتب أن المطبعة ذات المليون حرف تستطيع تحت تأثير قانون الخبط الشامل ، أن توجد جميع المؤلفات التى قام بوضعها العقل البشرى الناقص ، أو تنزلت من العلم الإلهى الكامل ، فهذا القول لو صدر من جاهل ساذج لاحظ له من أبسط ضروب الثقافة العقلية ، لما اغتفر له بحال من الأحوال ، وعيب عليه التلفظ به ، فما ظنك وهو صادر من رجل يحمل شهادات علمية راقية ؟

ومن عجب أن كاتب هذه الرسالة اعتماداً على ما قرره فى أمر هذه المطبعة الوهمية يناقش عباقرة الرياضيين ، ويتخيل أنه يلزمهم الحجة ، فيعيب على العلامة الكبير أينشتين تشبيه الوجود بكتاب ، وقوله كما أن وراء الكتاب عقلاً ألفه ، فكذلك الكون يجب أن يكون وراءه حكيم أوجده ، يعيب عليه هذا القول ويرد عليه بقوله : « الواقع أن هذا احتمال محض ؛ لأنه يصح أن يكون (أى الكتاب) خاضعاً لحالة أخرى ، ونتيجة لغير العقل ، ومثلنا عن المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعاً لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة » .

المدهش المحير للعقل فى هذا الرد أنه يعيب على أينشتين قوله : إن الكتاب يدل دلالة قاطعة على وجود عقل وضعه ، ويدعى أن هذه الدلالة خاطئة ، إذ يصح أن يكون نتيجة لغير العقل ، أى لقانون الخبط المحض !!

أقسم لولا أنى أنقل عبارات الكاتب لخشيت أن يظن ظان أنى أتقول عليه . فهل يحتاج مثل هذا الخبط إلى رد ؟

إننا كنا نستطيع ألا نرد عليه بحرف ؛ لأن رسالته تحمل فى ثناياها معاول هدمها ، معاول لا يستطيع أبلغ قلم أن يأتى بأشد فعلاً منها ، ولكنا خشينا أن يتوهم من لا علم له أن هذا الكلام فيه أثارة من علم ، لاسيما وهو يقول : « إنها تعطى العالم مفهوماً جديداً وتجعلنا ننظر له نظرة جديدة غير التى ألفناها . ومن هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها ؛ لأن التغير الحادث (أى الذى تحدثه) أساسى يتناول أسس التصور نفسه » .

فكاتب الرسالة لا يخفى أن كلامه يتعذر فهمه ، ولكن لا لأنه وهمى محض ، بل لأنه يغير أصول الفهم ، ويتناول أسس التصور نفسه ، فهو والحالة هذه يتطاول إلى إحداث حدث عقلى بوضع أسس جديدة للتصور ، بحيث يجعلك لو قرأت كتاباً لا تحكم بأن عقلاً وضعه ، لأنه قد يكون (كما يقول هو نفسه) نتيجة لغير العقل ، أى لقانون (الصدفة) الشامل ، ومعتمده فى ذلك ما مثل به من المطبعة ذات المليون حرف !!

وهذه طامة لابد من مناقشته الحساب فيها ، وإنا لسائلوه : هل يستطاع تغيير أسس التصور ، وهى ضمن النظام الكونى ، وقامت على ما قام عليه الكون كله من الأصول الرياضية الثابتة ، والقواعد الطبيعية الركينة ، وقد أفنى العلماء أعمارهم فى تأسيسها على ما خلقت له من المنطق العلمى ، القائم على اليقينيات العلمية ؟ وإذا أمكن ذلك فهل يرجى خير من قلبها وجعلها صالحة للأخذ بكل خيال يقدم إليها ، والاعتداد بالافتراضات والاحتمالات التى لا تمت إلى العلم بأوهى صلة ، لتجد كل الخزعبلات والأوهام طريقاً لإفساد عقول الناس بالأوهام التى لا تصدر عن أصل ثابت ، ولا تقوم على أساس صحيح ؟

إن تغيير أسس التصور على هذا النحو يعود بالإنسانية إلى العهود المظلمة التى كانت فيها ، ويقضى على جميع الثمرات التى حصل عليها مصلحو العلم والفلسفة ، ويدفع بالناس إلى تيهور من الخيالات لا يجدون فيه حداً يقفون عنده .

إن اليوم الذى يقرأ فيه الرجل كتاباً فيتبادر إلى ذهنه احتمال أن يكون قد صدر عن غير عقل ، ولكن بتأثير قانون الخبط الشامل تحت قيادة نواميس الاحتمال ، وأن يكون خرج مرتباً مجموعاً مصححاً من المطبعة ذات المليون حرف ، إن ذلك اليوم يكون فيه التصور الإنسانى قد انحل انحلالاً لا يرجى معه التئام ، ووصل من عالم الخبط إلى مكان سحيق .

□ □ □

المسيحية فى الإسلام [1]

هذا عنوان كتاب أرسله إلينا أحد فضلاء المسلمين تأليف حضرة الايغومانس إبراهيم لوقا راعى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر الجديدة . وقد بين المؤلف غرضه من وضعه فقال فى مقدمته :

« إن القرآن لم يهاجم المسيحية التى أسسها المسيح ونشرها رسله القديسون ، ولكنه هاجم بدعاً خاصة ، كانت قد ظهرت عند ظهوره ، ونادت بتعاليم لا تقرها المسيحية ، فحاربها كما حاربتها المسيحية من قبل ومن بعد .

إلى أن قال : « وغايتنا التى نتوخاها التوفيق ، لا الجدل والتفريق . وإنا لنرجو أن يتقبل إخوتنا المسلمون رسالتنا هذه كرسالة محبة وإخلاص ، وفقنا الله جميعاً إلى سواء السبيل » .

وقد طلب إلينا مرسل الكتاب أن نبدى رأينا فيما ذكره حضرة القس مؤلف الكتاب من إقرار القرآن على العقائد المسيحية الحقة ، وهى فى نظره ما عليه النصارى اليوم من تثليث وبنوة الخ ، وقد وجه حضرة القس الخطاب للمسلمين ، فحق علينا أن نبدى له رأينا فيما ذكره .

قال حضرته تحت عنوان : « المسيح الإله » :

« تعتقد المسيحية أن المسيح هو الله ، باعتباره الأقنوم الثانى من الثالوث الأقدس للذات الإلهية الواحدة الجوهر والعدد . والإسلام لا ينكر هذه العقيدة ، ولا يرفض القول بلاهوت المسيح ، بل إنه ليؤيده ، ويؤيده بأدلة عديدة ، وآيات كثيرة وشهادات متنوعة ، منها :

(١) أسماؤه الحسنى وألقابه التى ذكرها له القرآن .
(٢) الحقائق الخاصة بحياته فى ذاتها .
(٣) شهادة القرآن له بالكمال الأدبى فى حياته .

---

(١) نقلاً عن المجلّد التاسع من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٧ هـ – ص ٦٤٠ وما بعدها .

(٤) شهادة القرآن له عن قدرته الفائقة الطبيعة .
(٥) ما أثبته له من الاختصاصات والوظائف .
(٦) ما شهد له به عن مركزه الممتاز » .

نقول : إن هذه دعوى جريئة لم يقل بها أحد من الذين كتبوا عن الإسلام من المسيحيين إلا أن يكونوا من أهل المماحكات اللفظية الذين يترفع عنهم مثل الايغومانس إبراهيم لوقا . فإذا كان قد مضى على نزول القرآن أكثر من ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ، وقد قرأه عدد لا يحصى من الناس ، وفهموا منه أن الإسلام ينفى ألوهية المسيح ، وعلم ذلك فى كل هذه القرون عدد لا يحصى من أهل الملل الأخرى ، وألفت فى الجدل حول هذه المسألة كتب لا تدخل تحت حصر ، كل هذا لو كان فى حقيقته سوء فهم تسلط على عقول الناس ، وساقهم إلى الملاحاة والتمارى كل هذه القرون الطويلة – فإن الذى يهتك سر هذا القصور يخلد لنفسه فى تاريخ الخلافات الدينية أثراً لا يشتبه بغيره ، ولكنه يسجل فى الوقت نفسه على العقلية الإنسانية اختلالاً تصبح معه غير جديرة بالثقة فى نظرها وأحكامها ، ويدب الشك إلى كل آثارها الأدبية والعلمية والفلسفية التى تم بناء صروحها فى قرون طويلة ، توقعاً لظهور أفذاذ يكشفون عن حقيقة الغباوات التى قادت العقول للخلافات أحقاباً متعاقبة حول مسائل لا خلاف فيها على الإطلاق !

اللهم إن هذا محال ، وإن كان يوجد ما هو أبعد عن التصديق من المحال فهو منه .

اعتمد حضرة القس فيما أورده من القرآن الكريم ، تدليلاً على ألوهية عيسى عليه السلام ، على ما جاء فيه من إطلاق لفظتى (كلمة وروح) عليه ، ورأى أن ذلك من أدل الأدلة على مشايعته للمسيحيين فى القول ببنوة عيسى لله وبألوهيته ، فقال : « رأينا فيما سبق كيف أن القرآن أقر بصحة عقيدة المسيحيين فى فاديهم بما لقبه به من ألقاب لا يجوز أن ينعت بها أحد سوى الله تعالى ، فدعاه أولا كلمة الله ، وثانيا روحاً منه » .

ونحن نعجب كيف يسيغ حضرة القس أن يعتقد أن لفظتى (روح) و(كلمة) لا يجوز أن تطلقا إلا على الله تعالى ، على حين أن المقرر عند أهل العلم والفلسفة أنهما لا يجوز أن يطلقا عليه ؛ لأن كل تعبير لفظى عنه تعالى يفيد التقييد والتحديد . وهو ما يتنزه عنه سبحانه كل التنزه ، هذا ما انتهت إليه الفلسفة وهذا ما قرره الإسلام قبلها بأكثر من ألف سنة ، فقال تعالى : « ليس كمثله شىء » وقال : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » . وقال : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » . فلفظ روح قليلة على خالق الأرواح ومبدعها ، ولفظ كلمة أقل من تلك أيضا . وقد أطلق القرآن الكريم لفظة روح على بعض مخلوقاته فسمى جبريل روحاً ، وسمى القرآن روحاً فقال تعالى : « نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين » « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » . ولا يجيز المسلمون إطلاقهما على الله تعالى ؛ لأن قاعدة التنزيه المطلق عندهم « أن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » . وأنى لمخلوق عاجز محدود القوة العقلية ، أن يصل إلى معرفة حقيقة الخالق أو أن يطلق عليه ألفاظاً وضعت لتعيين الكائنات الجزئية ؟

أما لفظة كلمة فلها فى القرآن الكريم معنى غير ما يفهمه المسيحيون منها ، فهى عندنا لا تحتمل غير معناها اللغوى . وقد أطلقها الله تعالى على عيسى لأنه كما قال الرازى : قد وجد على خلاف السنة المعروفة ، فأضيف حدوثه إلى كلمة الله مباشرة وهى كن ، وعلى هذا جرى جميع المفسرين .

وقد وردت لفظة كلمة فى الكتاب الشريف فى مواطن كثيرة جداً ، من ذلك قوله تعالى : « وتمت كلمة ربك » و« ولولا كلمة سبقت » و« كلمة طيبة » و« كلمة خبيثة » .

وقد صرح القرآن الكريم بأن لله كلمات لا تحصى لا كلمة واحدة ، فقال تعالى : « ولو أن ما فى الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

من الجرأة التى لا يمكن وصفها بوصف أن يدعى مدع أن القرآن يقول بألوهية المسيح ، وقد نفاها عنه بعبارات صريحة فى عشرات من الآيات بما لا يحتمل

أى تأويل . وقد وجه الخطاب إلى النصارى خاصة ونهاهم عن القول بالتثليث والبنوة والتأليه فقال تعالى : ﴿ يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثةٌ ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ .

وقال تعالى مبيناً للناس الهول الهائل من ادعاء الولد له : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا ﴾ .

لا أتخيل أنه بعد هذه النصوص المحكمة الحاسمة يمكن أن يقول أحدٌ كما قال حضرة القس إبراهيم لوقا : « الإسلام لا ينكر هذه العقيدة ، ولا ينكر القول بلاهوت المسيح ، بل إنه ليؤيده ، ويؤيده بأدلة عديدة ، وآيات كثيرة ، وشهادات متنوعة . اللهم هذا محال .

أقول : محال وأنا مطمئن ؛ لأنه لا يتأتى لكائن من كان ، مهما بلغ من أساليب المغالطة والسفسطة ، أن يتقى وقع هذه الآيات الصريحة فى نفوس قارئيها ، وأن يستخرج منها ما تأباه معانى ألفاظها ، ومبانى تراكيبها . فلو كان يعلم الكاتب المتحمس ما يجنيه عليه تحمسه لموضوعه من إضعافه وتوهينه ، لربأ بنفسه أن يرتكب مثل هذا الشطط فى تبيينه .

كل ما استند إليه حضرة القس فى تدعيم كلامه ، وهوّن عليه إهمال عشرات الآيات التى وردت فى نفى الألوهية والبنوة عن عيسى ، ما أطلقه القرآن الكريم على هذا الرسول من أنه روح الله وأنه كلمته ألقاها إلى مريم . وقد قلنا إن الله تعالى قد أطلق لفظة روح على جبريل .

أما الكلمة فقد أريناك مواطن استعمالها فى الكتاب الكريم بما لا يدع شبهة فى أن المقصود بها كلمة (كن) ، أى كلمة الخلق المباشر عند عدم وجود

الأسباب العادية ، وكيف يعقل أن ترد فى القرآن لفظة (الكلمة) بمعنى الأقنوم الثانى من الأقانيم الثلاثة المؤلفة لذات الخالق ، وهو ينهى النصارى فى آيات كثيرة عن القول بالتثليث ويعده أمراً إدًّا ، وقد ورد فى ذلك قوله : « ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم » ؟ وفى آية أخرى قوله : « وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » ، أى يقولون ما يشاكلون به قول الكافرين السابقين من الوثنيين ، فقد كان للمصريين القدماء ثالوث مؤلف من حوروس وإيزيس وأوزيريس ، وكان للهنود ثالوث مؤلف من براهما وسيفا وفيشنو ، ولغيرهم ثالوثات أخرى ، وقد أجمعوا على أن أحد أركانها قد نزل إلى الأرض وتجسد فيها ، وعاش بين الناس ليعلمهم ويصلح شأنهم . ومن هنا قرر الفيلسوف فولتير أن المسيحية قد أخذت فى هذه العقيدة إخذ البوذية سواء فى تثليثها أو فى آدابها وأخلاقها . وما كنا لنتنزل إلى إيراد مثل هذه الأقوال لولا أن حضرة القس إبراهيم لوقا قد اضطرنا إليه دفاعا عن كتابنا ، وذياداً عن كرامتنا .

وبعد : فإن البحث فى ذات الخالق لا يجيزه لنفسه من يعرف ضعف مصادر معرفتنا ، ومدى سلطان عقولنا على فهم الحقائق . فالإدراك الذى قصَّر عن فهم ماهية المادة ، وحقيقة الفضاء والزمان ، ولم يحط بأكثر أسرار النظام الآلى الذى بين يديه — لا يستطيع ببداهة العقل أن يصل من معرفة ذات الله إلى شىء على الإطلاق . وإن افترض أنه تلقى معرفته بذات الله من طريق الوراثة ، وجب عليه أن يرفضها ليخلص من تبعاتها ، مكتفياً من الاعتقاد بوجود الله منزهاً عن صفات المخلوقين ، وبأنه يتعالى أن تحيط به عقول الآدميين ، وإلا عرَّض عقيدته لشبهات المجادلين ، واضطر لوقف حصة كبيرة من وقته لصد هجمات المهاجمين ، والإجابة عن استشكالات المستشكلين . وإن عقيدة تحيط بها كل هذه الصعوبات ، وتقوم فى وجهها جميع هذه الشبهات ، لا يمكن أن تصبح عقيدة عامة لأمة فى خاصتها ، فضلاً عن الإنسانية برمتها

يلوح لى أنه يغيب عن الآباء المسيحيين أن الناس اليوم قد افتتنوا بالفلسفة المادية إلى حد أن رفضوا العقيدة بالخالق على ما تعرِّفه به أرقى فلسفة فى الأرض

من التوحيد والتنزيه ، فهل من مسايره الحقائق أن يزيد على تلك العقيدة ما يجعلها غير معقولة ؟

إن دعاة المسيحيين قد عجزوا عن نشر المسيحية حتى فى البلاد الوثنية ، على ما يبذلونه من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويفوز عليهم دعاة الإسلام فى كل بقعة من بقاع الأرض ، فتسارع الملايين إلى الدخول فى الإسلام غير مسوقين بأى دافع مادى ، زاهدين فى الهَيْل والهَيْلمان الذى يبذله الجانب الآخر .

هذه المقارنات تريك الصعوبة المطلقة فى إمكان قبول العقيدة المسيحية على ما هى عليه من القول بالتثليث والتأليه والبنوة . وقد ظهر فى إنجلتره وألمانيا وهولاندا وفى كل بقعة من أوربا مذهب الموحدين تحت اسم (Unitarisme) ، رفض أهله التثليث وما يتبعه واتخذوا لهم كنائس خاصة . وهم يعدون فى كل أمة بالملايين ، وأكثر ما يوجدون فى إنجلتره وأمريكا . ولسنا نشك فى أن هؤلاء هم طليعة الإسلام فى أوروبا ، ولله عاقبة الأمور .



رد شبهات على القرآن الكريم (١)

لم تعن أمة فى العالم بكتاب سماوى أو أرضى عناية الأمة الإسلامية بالقرآن الكريم . ولم يُحطْ كلامٌ إلهىّ أو بشرىّ بمثل ما أحيطت به آياته من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس . فقد كانت تنزل الآية منها أو الآيات فتنتقش فى صدر النبى ﷺ ، فيتلوها ساعة نزولها على الآلاف من المحيطين به ، فيسارعون إلى استظهارها ليتلوها تعبداً ويصلوا بها ، ولا يكتفى النبى ﷺ بذلك فيأمر كتاباً له بكتابتها ، ويحتفظ بها فى داره مع أمثالها .

وقد تم نزول القرآن ، فكان يحفظه كله رسول الله وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ومئات كثيرة غيرهم ، لا يسقطون منه حرفاً . فلما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، وخلفه أبو بكر بادر عمر فطلب إليه أن يأمر بتدوين القرآن فى كتاب ، حفظاً له من النسيان والتحريف ، فكان أبو بكر يأبى ذلك قائلا : إن شيئاً لم يفعله النبى ﷺ لا أفعله أنا . فلما حدثت وقعة اليمامة وقتل فيها من حفاظ القرآن عدد عديد أدرك أبو بكر أصالة رأى عمر ، فأوعز بجمع القرآن ، فحشر حفاظه وأخرج إليهم المخطوطات التى عملت على عهد الرسول ، وأمرهم بتدوينه ونشره بين الناس ، فقاموا بذلك على أتم وجه . ولم يرتفع صوت إذ ذاك بأن آية سقطت منه أو كلاماً زيد فيه ، والدين فى عنفوان قوته ، وحفاظ الفرقان كثيرون ، ومنهم الخليفة نفسه ، ولم تمض على وفاة النبى ﷺ بضعة أشهر .

ثم مات أبو بكر بعد أن مكث فى الخلافة نحو سنتين ، وقام بالأمر بعده عمر ، ولبث يدبر شئون الدولة نحو إحدى عشرة سنة ، فتح فى خلالها سورية والعراق وبلاد الفرس ومصر وجزءاً من شمال إفريقيا . وانتشرت المصاحف المكتوبة على عهده ، وأكثر الناس من حفظ القرآن ، فلم ينبس أحد ببنت شفة اعتراضاً على زيادة شىء أو نقصه فى القرآن ، ولا يخفى على أحد شدة الفاروق فى الدين ، وغيرته عليه .

---

(١) نقلاً عن المجلّد الثامن من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٦ هـ – ص ٤٠٤ وما بعدها .

فلما توفى رضى الله عنه أسندت الخلافة إلى عثمان بن عفان ، وكان للمسلمين إذ ذاك أمبراطورية مترامية الأطراف ، ودخل فى الإسلام ملايين من الناس ، واحتاج المسلمون إلى المصاحف فكانوا يكتبونها بأيديهم لعدم وجود مطابع إذ ذاك . ولا تخفى على أحد أخطاء النسخ ، فإن الناسخ مهما كان حريصاً على تحرى الأصل تبدر منه أخطاء لا يفطن إليها ، ولاسيما فى عهد لم تضبط فيه قواعد الكتابة ، ولم يوجد فى أحرفها نقط ، ولا لألفاظها علامات لضبط النطق بها ، وهو ما يعرف الآن بالشكل ، فحدث فى قراءات الناس خبط ، ورفع الأمر إلى أمير المؤمنين ، فأمر القراء تحت رياسة زيد بن ثابت — وهو الذى كان عهد إليه أبو بكر بجمع المصحف — بكتابة أربعة مصاحف ونشرها فى الآفاق ، وأمر باتخاذها مرجعاً للضبط وإحراق ما عداها .

فعل عثمان هذا وهو بين ظهرانى كبار الصحابة ، وفيهم على بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الله بن عباس وغيرهم من الذين قالوا لعمر بن الخطاب : « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » ، فما ظنك باعوجاج يرتكب ضد القرآن ؟

يهول بعض الناس أن عثمان أمر بإحراق ما يخالف مصحفه من المصاحف المنسوخة ، وأى شىء فى هذا ؟ أليس الإحراق وسيلة لملاشاة النسخ المحرفة تلجأ إليها الحكومات إلى اليوم ؟ ألم تأمر الحكومة المصرية بإحراق عشرات الألوف من نسخ القرآن لم يحسن مصححو مطبعتها تصحيحها ، فجاءت مشوبة بأخطاء كثيرة ، فعمدت إلى هذه الوسيلة فى الزمن الذى نحن فيه ؟

هل كان لعثمان من السلطان ما يستطيع معه أن يغتصب مصاحف كبار الصحابة المعاصرين له فيحرقها ، ويبدلهم منها نسخاً أخرى فيها ما يعتقدون أنه تحريف ؟

أرأيت كيف تثور البراكين فتغمر فى حممها المدن ، وتحرق بموادها الملتهبة الحرث والنسل ، وكيف تعصف الأعاصير الهوجاء فتدك كل بناء ، وكيف تهيج الزلازل فتجعل عالى الأرض سافلها ، وتدك شم الجبال ؟ كل هذا كان أهون

منظراً إذا حدث جبار نفسه بتحريف القرآن فى أمة تعتبره روحها المدبر ، ودستورها المهيمن ، ووسيلتها التى تصل بها إلى الله ، وهم رجال وغى ومغاوير كفاح ، يعتبرون الموت فى سبيل الدين حياة دونها كل حياة ؟

وإذا سلمنا جدلاً بأن مصحف عثمان كان يخالف النسخ الصحيحة فى بعض المواطن ، فلم يلبث عثمان فى الخلافة إلا نحو اثنتى عشرة سنة ، وجاء بعده خليفة من أعلى الخلفاء كعباً فى الدين والورع والمحافظة على سيرة النبى ﷺ ، فلم لم يبطل مصحف عثمان وينسخ صورة صحيحة للقرآن وقد كان يحفظه كله ولديه مصحف يتلوه فيه ؟

إن مسألة الزيادة فى كتاب أو النقص منه لا يعقل أن تحصل فى كتاب كالقرآن تتعبد أمة برمتها بتلاوته ، وتصلى بآياته ، وتفصل فى جميع شئونها بأحكامه ومقرراته . وليس لديها كتاب غيره ، ولم يوكل أمره إلى جماعة أو طبقة من الناس تتحكم فيه برأيها ، ولكنه كان حقاً مشاعاً للناس كافة ، يتولونه بالحفظ والرعاية . فمثل هذا الكتاب إن اعتراه تبديل أو تحريف كانت تتعدد نسخه ، أو تتخالف آياته ، ولا تستطيع أية حكومة مستبدة أن تبيد جميع ما يخالف هواها من صوره . والحكومة الإسلامية لم تكن استبدادية ، وقد تداول الخلافة فى صدر الإسلام أربعة رجال أقروا كلهم صورة واحدة من القرآن ، ولم يرد عنهم أن بعضهم أبطل نسخ بعض ، ولا ورد عن آلاف الصحابة أن واحداً منهم أبرز صورة زعم أنها أصح من غيرها . فهل تآمرت الأمة الإسلامية كلها على التسامح فى تحريف كتابها إلى هذا الحد ومكانه منها كما عرفت ؟

حدثنا التاريخ أن الأناجيل قد تعددت حتى بلغت أكثر من سبعين ، فأوعز الأمبراطور قنسطنطين إلى الكهنة أن يرتضوا صورة واحدة له ، فاجتمعوا فى مؤتمر وقرروا أن يعتمدوا أربع صور منه هى الموجودة إلى اليوم . فهل حدثنا تاريخ المسلمين عن مثل هذا التعدد لصور القرآن ؟

يقولون نعم ، وهى التى أمر بإحراقها عثمان . نقول إن التى أمر بإحراقها عثمان هى النسخ التى أصابتها آفة الاستنساخ ، وهذه الآفة لا تزال موجودة

إلى يومنا هذا ، فما من كتاب يعرض للاستنساخ إلا وقعت فيه أخطاء جمة ، لا دواء لها إلا تحرير نسخة صحيحة للنقل منها وإحراق ما عداها ، كما حدث على عهد عثمان ، وكما يحدث فى كل زمان ومكان .

وقد رأيت استحالة استبداد عثمان بالقرآن على عهد كان أكثر أصحاب رسول الله ﷺ أحياء ، وكانوا أشد ما يكونون اشتغالاً بتلاوة القرآن وعملاً به . وله حفاظ منتشرون فى جميع أرجاء المملكة الإسلامية ، فكيف يعقل أن يكون عثمان قد تعمد تحريف الكتاب فى هذه البيئة الغاصة بحفظته وقارئيه ، وكلهم يفدونه بأرواحهم ، وينافحون عن حماه بأشد مما ينافحون عن أنفسهم وأعراضهم ؟

الدواعى التى تدفع لتحريف الكتب السماوية :

إذا وقع التحريف فى كتاب سماوى فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بواحد من أربعة أسباب أو بأكثر من سبب منها ، وهى :

(١) ضياع أصل الكتاب .

(٢) غلو فى الدين يحمل على تأليه صاحب الدعوة ، أو رفع درجة أسرته ، وأصحابه وحفظة دينه إلى ما فوق مستوى الناس ، ومنحهم حقوقاً وامتيازات ليتمكنوا بها من تسخير النفوس لإراداتهم .

(٣) النص على حصر السلطان الروحى فى طائفة معينة ، أو تحديد شكل الحكومة وجعلها تيوقراطية تحت تصرف رجال الدين .

(٤) تعمد إفساد الدين بالنقص من كتابه والزيادة عليه ، بحيث يفضى ذلك إلى زهد النفوس فيه ، وكراهتهم له .

هذه هى الدواعى التى تحمل على تحريف الكتب السماوية ، وكلها ممتنعة بالنسبة للقرآن .

امتناع السبب الأول من أسباب التحريف :

أما امتناع السبب الأول ، فإن أصل القرآن كان مكتوباً ومحفوظاً فى دار النبى ﷺ ، وكان مئات من الناس يحفظونه ، فلما أريد جمعه أتوا بهذه المخطوطات وقابلها الكتاب بما حفظوه فى صدورهم وجعلوا ما كتبوه مصحفاً ، فاستنسخه

ألوف من الناس وحفظوه ونقلوه إلى جميع عواصم الملك الإسلامى . فهل توجد فى العالم وسيلة تفوق هذه الوسيلة للتحقق من مطابقة صورة كتاب لأصله ؟ اللهم لا .

أين هذا مما حدث لما سبقه من الكتب ؟ فقد ضاعت أصولها ، وشتت أهلها فى الأرض ، ومزقوا كل ممزق . فالتوراة ضاع أصلها الأول ثم جمعت أسفارها من هنا وهناك ، واشتد اختلاف الناس فيها حتى إن توراة النصارى تخالف توراة اليهود مخالفة جوهرية .

وكذلك كان حال الأناجيل ، فقد ضاعت أصولها ثم نقلت عن ترجمة يونانية وجدت لها بعد آماد طويلة .

فهذه الكتب يعترف أهلها أنفسهم بأنه قد لحقها تحريف ، ولكنهم يعتذرون عنه بأنه لم يعد على الروح التى أودعها مجموعها . فقد جاء فى كتاب (محاورة فى الوحى) قول مؤلفه : « وليس من ضرورة للاعتقاد بأن جميع ما دار من مخاطبة الله للإنسان ، قد دون فى الأسفار : (أولا) لأن البرهان على ذلك متعذر . و(ثانيا) لأنه يكفى الاعتقاد بأنه دون ما فيه كفاية . وهذا الرأى المعروف برأى « الاقتصاد فى الوحى » يجلو لنا الحقيقة » .

وقال فى موضع آخر من ذلك الكتاب :

« إن من تعاليم التوراة ما لا يجوز مسه لئلا يفسد جوهرها ، ومنها ما يسبب مسه ضرراً باختلاف أهمية ذلك الجزء . ومنها ما لا يؤثر فيه المس أبداً حتى إنه وإن حذفت كلماته أو جمله يبقى سليماً صحيحاً . ومن هذا القبيل الكلمات والعبارات التى سقطت فى أثناء نسخ التوراة » .

ولكنا معشر المسلمين لا نقول بنظرية « الاقتصاد فى الوحى » ونرى أن كل ما أوحى إلى الرسول مما أمر بتلاوته يجب أن يكون ماثلاً فى المصحف . ولدينا الدليل القاطع على أن كل ما أوحاه الله إليه قد دون وحفظ سليماً من كل تحريف إلى يومنا هذا ، على أسلوب من التدقيق والضبط لا يعقل أن يكون أبلغ منه فى عالم النقل الصحيح .

امتناع السبب الثانى للتحريف :

وأما امتناع السبب الثانى لتحريف القرآن ، وهو الغلو فى الدين ، فلا يحتاج إلى دليل ، فإن نصوص الكتاب تنطق صراحة بالنهى عن الغلو فى الدين . قال الله تعالى : « يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » .

ولم يكتف الكتاب بهذا بل قطع الذرائع دون كل محاولة للغلو ، فذكر أن المرسلين رجال لا يمتازون عن سواهم إلا بالوحى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم » وقال تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » وقال تعالى : « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » الخ الخ .

فالكتاب كما ترى لم يدع متسرباً للغلو فى ذات الرسول من أية ناحية من النواحى فظل أكرم نعت له فى صلاة المسلمين أنه عبد الله ورسوله .

وأما عن أسرة النبى ﷺ فلا توجد آية واحدة فى الكتاب تميزهم عن الناس . وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « اعملى يا فاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » وقال : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

وقد أقاد النبى ﷺ من نفسه ، فإنه لما شعر بدنو أجله جمع الناس وقال لهم : من كنت قد أسأت إليه فليأت وليقتص منى .

ولما شكا يهودى علياً كرم الله وجهه ، دعاه عمر أمير المؤمنين ليقاضيه أمام خصمه ، فلما أقبل قال له : اجلس يا أبا الحسن . فغضب على ، فسأله عمر : أغضبت لمساواتك بخصمك ؟ قال لا ، ولكن لتمييزك إياى عنه بتكنيتى والتكنية تعظيم !

أظن أنه لا يوجد فى تاريخ العالم ما هو أبلغ من هذا فى احترام مبدأ المساواة فى الحكم ، وفى نكران الذات أمام هذا المبدأ .

فإذا كانت هذه المساواة واجبة فى حق بنت رسول الله وابن عمه ، فمن تظن أن ينال هذه الحظوة بعدهما ؟

وقس على هذا معاملة العلماء ، فلم يرفع أحدهم على عامة الناس فى حكم ، ولم يستثن من تكليف بدني أو مالى . بل قد رفعت الدعاوى على أمراء المؤمنين

من صغار رعاياهم أمام القضاة فلم يحابوهم وحكموا عليهم .

امتناع السبب الثالث للتحريف :

السبب الثالث لتحريف الكتب السماوية هو النص على حصر السلطان الروحى فى طائفة معينة من الأمة ، أو فى جعل الحكومة أوتوقراطية تحت تصرف رجال الدين .

هذا السبب لا ظل له فى الإسلام ؛ لأن الكتاب نص على خلافه فى غير موطن منه ، فجاءت حكومة المسلمين ديموقراطية حرة ، قال عليه الصلاة والسلام : « اسمع وأطع ولو لعبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

وقد ولى النبى بلالاً على المدينة وكان مملوكاً حبشياً ، وفيها أجلاء الصحابة وكبار رجالات الأمة .

والإسلام لا يعترف بوجود طائفة فى الأمة يجب أن تودع السلطان الروحى دون سائر الطوائف ، بل ليس فى الإسلام سلطان روحى إلا للكتاب والسنة .

لذلك كان الأئمة الأولون الذين يرجع إليهم فى فهم الدين ، أكثرهم من الموالى ، أى الذين كانوا أرقاء أولاد آباء كانوا أرقاء . قال العلامة السخاوى فى شرح ألفية الحديث للعراقى : إن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك قال للإمام المحدث الزهرى يوما : « من يسود أهل مكة ؟ قال : عطاء . قال : بم سادهم ؟ قال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام : نعم ، من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن ، فقال الزهرى : إمامها طاوس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلاً كان هشام يسأله : هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى ، إلى أن أتى على ذكر النخعى ، فقال : إنه عربى ، فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العربَ ويخطبُ لهم على المنابر » !

من هنا ترى أن الإسلام لم يهب السلطان الروحى لطائفة من الطوائف ، ولكنه دعا إلى العلم وتركه حقاً شائعًا بين المسلمين كافة أحرارهم وأرقائهم ،

بيضهم وسودهم ، فسبق إليه من سبق ، فلم يسأل الناس عن أصلهم ، وهذا ما ليس له مثيل فى أمة غير الأمة الإسلامية .

وقد طبع الله هذا المبدأ السامى بطابع قرآنى عالى القدر ، فقال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، فجعل التفاضل بالتقوى لا بالجنس ولا باللون ولا بالانتساب لطائفة من الطوائف . وبذلك سقط السبب الثالث من أسباب التحريف التى عددناها .

السبب الرابع لتحريف الكتب السماوية :

أما السبب الرابع وهو تعمد إفساد الدين بالنقص من كتابه والزيادة فيه ، فهذا أكثر امتناعاً بالنسبة للقرآن الكريم من كل الأسباب السابقة ، فإن الذين جمعوه من المخطوطات ، وقابلوه على محفوظاتهم منه ، كلهم من المشهود لهم بالتقوى والصلابة فى الدين . ناهيك بقوم آثروا حفظ الكتاب كله فى صدورهم . فهذا الجهد الجاهد لا يكون إلا من نفوس استوعب حب الدين كل شعورهم ، واستولى بجلاله على قلوبهم . فلا يعقل أن يصدر من هؤلاء تحريف للكتاب بقصد إفساده وتزهيد الناس فيه .

ثم إن ما كتبوه عرضوه على أبى بكر وعمر وجميع كبار الصحابة ، فلم يروا فيه ما ينكرونه منه ، وكلهم كان يحفظه أو يتلوه بدون انقطاع .

فلما استكتب عثمان منه أربع نسخ صحيحة ليوزعها فى الآفاق ، تحرى القراء أن يكون مطابقاً لمصحف أبى بكر ، وكان ذلك تحت رقابة أصحاب رسول الله ﷺ .

ولم يظهر فى ذلك العهد ما يخالف مصحف عثمان ، وتولى الخلافة بعده على بن أبى طالب ، فلم يحدث أقل تغيير فيه ، ولو كان ينقص أو يزيد حرفاً لما أغضى عنه الإمام ولا أغضى عنه أحد من الذين أحدثوا الثورة على عثمان .

نسخ الأحكام ونسخ تلاوة بعض الآيات :

نزل القرآن نجوماً على حسب الحوادث الطارئة ، ولم ينزل دفعة واحدة . ونظرا لأنه يتولى تأليف أمة جديدة على نظم وأصول نهائية ، كانت الحاجة ماسة

إلى مسايرة الأطوار التى تدخل فيها ، والتدرج معها فى جميع الأدوار التى تبلغها فى حياتها الاجتماعية .

من هنا كانت الضرورة قاضية بنسخ بعض الأحكام بقصد تخفيفها أو تشديدها على مقتضى الأحوال . واقتضت حكمة الشارع أيضا أن تبقى تلاوة بعض الآيات الدالة على تلك الأحكام المنسوخة ، وأن ينسخ تلاوة بعضها الآخر . وفى القرآن نسخ لتلاوة بعض الآيات مع بقاء أحكامها معمولاً بها .

وهذه الأمور أرشد إليها النبى ﷺ نفسه ، ودون المصحف فى عهد أبى بكر مع مراعاتها بالدقة .

فمن أمثلة نسخ الحكم دون نسخ تلاوة الآية الدالة عليه قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول ﴾ فقضت هذه الآية بأن مدة تربص المرأة بنفسها بعد موت زوجها يجب أن تكون حولاً كاملاً على نفقة الزوج . فنسخ هذا الحكم وجعلت مدة التربص أربعة أشهر وعشرا كما فى قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ .

ومن أمثلة نسخ الحكم ونسخ تلاوة الآية الدالة عليه ، ما روى عن عائشة أن القرآن جاء فى الرضاع بعشر معلومات ، ثم نسخن بخمس معلومات . فالعشر مرفوعة التلاوة والحكم جميعاً ، والخمس مرفوعة التلاوة باقية الحكم .

ومنها ما روى أن سورة الأحزاب كانت بمنزلة السبع الطوال أو أزيد ، ثم نسخت تلاوة آيات كثيرة منها .

أما أمثلة الآيات التى نسخت تلاوتها وبقيت أحكامها ، فكآية الرجم وهى : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم » وما روى من قوله تعالى : ﴿ لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ﴾ .

فهذه الأمور كلها كانت معلومة عند الصحابة ، ومضبوطة إلى حد أنه لم يحدث فيها خلاف . ولو كانت تحتمل أقل خلاف لحدث وملئت الأسفار بأخباره .

لم يكن كتاب الإسلام محتكراً فى يد طائفة من الطوائف ، فيسهل عليها التلاعب به ، ولكنه كان حقا مشاعاً للناس كافة . وقد اختلف المسلمون فى كل شيء إلا فى هذه المسألة ، فلم كان ذلك ؟ ألأنهم كانوا أكثر عناية بالأشياء الثانوية منهم بالقرآن ، وأنت تعلم أنه كان متعبدهم ودستورهم ، بل روحهم التى بها يتحركون ؟

أما رأيت إلى أى حد اختلف المسلمون فى أحاديث رسولهم ، حتى رفضوا منها مئات الألوف باعتبار أنها موضوعة أو ضعيفة ، فهل كان المسلمون أشد اعتدادا بأحاديث رسولهم منهم بكلام ربهم ؟

شبهات خصوم الإسلام على القرآن :

جاء فى كتاب (الوحى الجديد) لأحد دعاة بعض الملل قوله فى صفحة ٤٤ .

(أولا) إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالى حاوياً لجميع ما أنزل ، بل إنه من المؤكد تاريخياً أنه قد ذهب منه جانب ليس بقليل .

(ثانياً) من المستحيل إقامة البرهان على أنه طبق ما نطقت به شفتا محمد تماماً بل إنه فى آيات عديدة منه اختلافات مدهشة ، ولا يعرف إلا الله ما هو النص الصحيح . انتهى .

نقول : أما عن الأمر الأول فإننا معشر المسلمين نعترف بأن المصحف لا يحوى جميع ما أنزله الله على محمد ، ولكن جميع ماسمح بأن ينقل فى المصاحف ويتلى تعبداً . فقد علمت فى فصل متقدم أن النبى ﷺ نبه على أن آيات كثيرة منه قد نسخت تلاوتها فلم تدون . فماذا يكسبه الخصم من وراء إعلانه شيئا هو عند المسلمين من المعلومات الأولية ؟ لعله يريد بذلك أن يؤثر فى عقول العامة ، ولكن العامة يلجئون عادة إلى علمائهم فيفهمونهم الأمر على وجهه ، فتبطل الشبهة ، ويبقى عارها لاصقاً بمن أوردها .

وأما عن الأمر الثانى فهو يريد به اختلاف القراءات . وهذه القراءات وجدت على عهد النبى ﷺ فأقرها ، وليس فيها ما يوجب اختلافاً فى العقائد ولا فى الأحكام ، وسترى تفصيل ذلك عند كلامنا على ما أورده منها . وإن شيئا وجد على عهد صاحب الرسالة فأقره ، وعنى المسلمون بتدوينه وضبطه ، لا يجوز أن يتخذ اليوم شبهة للتشكيك فى عبارات القرآن .

هل اختلاف هذه القراءات تمس جوهر العقائد ، أو أصول العبادات ، أو دستور المعاملات ؟

لم يقل أحد ذلك فى الإسلام إلى اليوم ، ولم يُثِرْ بينهم شقاقاً ولا جدالاً ، ولا كان سبباً لتشكك أحد ولا لارتداده . فكيف يثار هذا الأمر اليوم على هذا الوجه ، ويفهم ذلك الكاتب منه ما لم تفهمه أمة برمتها فى مدى أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، على شدة عنايتها بالقرآن ، وبحث كل صغيرة وكبيرة فيه ؟

ويقول كاتب رسالة (الوحى الجديد) فى صفحة ٤٥ :

« إننا نعلم تماماً بشهادة زيد بن ثابت التى لا ريب فيها ، أنه لم تدون جميع السور والآيات التى سمعت من فم محمد ، بل إن كثيراً منها حفظ فى صدور الناس ، ومرت سنون عديدة قبل أن أمر زيد بتدوينها ، نقلاً عن ذاكرة أولئك القراء فكيف تأمن على الحقيقة من ذاكرتهم ؟ » .

ونحن نقول : إن القرآن كان قد كتب كله على عهد رسول الله ﷺ كما سمع من فمه ، وإن ما كتب حفظ فى داره ، وكان مئات من الناس قد حفظوه كله ، ومنهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، فلما لحق رسول الله بالرفيق الأعلى لم تمض إلا بضعة أشهر حتى دعا أبو بكر القراء وعلى رأسهم زيد بن ثابت وأمرهم أن يدونوا القرآن فى مصحف ، وسلمهم تلك المخطوطات ليرجعوا إليها إن اختلفو فى شىء .

هذا ما شهدت به أمة برمتها ، فكيف يقول كاتب الرسالة : إن القرآن لم يكتب كله على عهد النبى ﷺ ؟ وما معنى قوله مرت سنون كثيرة قبل أن أمر زيد بن ثابت بكتابته ، ولم تمض عليه غير بضعة أشهر ، ولم يحكم أبو بكر

الذى كتب القرآن على عهده أكثر من سنتين وأشهرا . فأين هى هذه السنين ويرسل به كشبهة على سلامة القرآن وليس منها فى شيء ؟

إن التى مرت عليها سنون كثيرة قبل أن تدون ، هى أحاديث النبى ﷺ ، وهى تلى القرآن فى الدرجة ، ومع ذلك فقد حدث فيها بين العلماء من الاختلاف ما لا يسع المقام ذكره ، حرصاً على ألفاظ النبى ﷺ أن تبدل أو يزاد عليها أو ينقص منها ، فهل كان حرصهم على الأحاديث النبوية أشد من حرصهم على كلام الله ، فيتركوه يحرف أمام أعينهم ولا يحدثوا حول هذا التحريف شغباً ولا اضطراباً ، ويقروه على ما كتب لا يختلفون فيه ، ولا يصطخبون حياله ؟

هذا أمر لا يسيغه أقل الناس فهما ، فكيف يسيغه كاتب تلك الرسالة ويرسل به كشبهة على سلامة القرآن وليس منها فى شيء ؟

وقال فى صفحة ٤٧ :

« إن ابن مسعود هذا ، (وقد نعته بأنه أعلم الناس بالقرآن) ، لم يكن ليعتبر نسخة عثمان صحيحة ، وإنه رفض أن يسلمه نسخته ليحرقها ، وإنه أشار على أهل العراق ليكتموا نسخهم قائلاً : « يأهل العراق اكتموا المصاحف التى عندكم وغلقوها » . وإنه حذف السورة الأولى (أى الفاتحة) والسورتين الأخيرتين من نسخته ، بحجة أن تلك السور ليست من كتاب الله » .

نقول هنا : يمكن أن يتساءل متفهم : أى مصلحة للذين جمعوا القرآن أن يضعوا فيه ثلاث صور قصار ليست منه فى شيء ؟ أرموا بذلك لغرض من الأغراض التى تحمل النفوس السافلة على التحريف وليس فيها ما يشوه جمال القرآن ، ولا ما يتناقض والحكمة التى أتى بها ؟

وهل يعقل أن يضع المجرمون فاتحة لكتاب ، وأن يذيلوه بسورتين صغيرتين ، فى أمة تتعبد بتلاوة ذلك الكتاب ، وفيها ألوف من الرجال الذين حضروا وحيه وكتبوه ، وصحبوا رسولهم فى جميع أدواره ؟

لو كان المدسوس فيه آية من سورة طويلة ، أو كلمة تقلب المعنى وتوجهه إلى ناحية أخرى ، لهان الخطب على العقل ، ولكانت الشبهة تحتاج إلى شيء من العلاج ،

ولكن والمدسوس ثلاث سور صغيرة ، فى أظهر مكان منه فأمر لا يحتمل النظر ، فضلاً عن الدحض .

وهل يعقل أن يحدث مثل هذا الأمر فلا يثير صخباً ، ولايهيج غضباً ، ولا يستدعى شغباً ، ويمر كأنه لم يكن فى أمة دستورها هذا الكتاب وحده ، ومتعبدها سوره وآياته ؟

وكيف سكت عنه ابن مسعود نفسه ، فلم يسمع له فيه زئير يدوى فى العالم الإسلامى دوى الرعود القاصفة ؟ لعلك تقول خشى بأس عثمان . فقد قتل عثمان ، وابن مسعود حى يرزق ، فلم لم ينبه المسلمين إلى هذه الجناية ويلجأ إلى خليفته ليمحو من المصاحف هذه الزيادة التى ليست منه ؟

ما الذى حمل المسلمين ، والدين لا يزال فى نضرته ، وكتابه مرجعهم فى جميع شئونهم ، ومتعبدهم فى صلواتهم ، على أن يهملوا قول ابن مسعود ولا يرفعوا به رأساً ؟ ألأنهم ما كانوا يبالون بسلامة القرآن من الزيادة ، أم لأنهم كانوا يخافون بطش الذين حرفوه ، وقد دالت دولتهم ، وتلتها دولة أخرى على رأسها علىّ أقل ما يقال فيها إنها كانت خلافة أجمع المسلمون على أنها كانت راشدة ؟

ما هذا الإجماع كله على عدم الاكتراث لقول ابن مسعود ، وهو ينبه إلى أمر جلل كان يكفى خيال منه أن يثير فتنة تدع الحليم حيراناً ؟

يقول خصومنا : إن ابن مسعود كتب لأهل العراق أن يحتفظوا بنسخهم ، ولا يسلموها لعمال عثمان بحجة أنها أصح من نسخته ، وهذا معناه أن ابن مسعود كان بمحل يستطيع فيه أن يعارض أمر أمير المؤمنين ، وأن أهل العراق كانوا يصدرون عن رأيه ، فهل صدعوا بأمره ، واحتفظوا بنسخهم ؟ إن قيل : نعم ، فأين هى ؟ ولم لم يرو لنا التاريخ كلمة عن مخالفتها لنسخة عثمان ؟ وإن قيل : لا ، فكيف يعقل أن يفرط أهل قطر عظيم كالعراق فى كتابهم إلى هذا الحد ، ولم تبد منهم أية حركة من مقاومة ؟ أكان أهل العراق من خور العزيمة فى هذه الدركة ، وهم الذين انتدبوا لخلع عثمان فحاصروه فى بيته ، ثم لما خشوا فتنة تهب من أهل الشام من أجله قتلوه وولوا علياً مكانهُ ؟

وقد أحصى أهل العراق على عثمان عيوباً جمة ليس منها أنه عمد إلى تحريف القرآن ، وكانت هذه الحجة تكفى وحدها فى صرف القلوب عنه ، ودفعها لارتكاب أشد ضروب القسوة ضده .

وإذا صح أن ابن مسعود كتب لأهل العراق أن احتفظوا بمصاحفكم ، فلم لم يفاتح أهل المدينة فى هذا الأمر ، وهو بين ظهرانيهم ، وينبههم إليه ، وفيهم مئات من كبار أصحاب رسول الله ؟

وإذا كان فاتحهم فيه فهل يتفق أن يجمعوا كلهم على رفض قوله ، وهل يعقل ألا يكون فيهم واحد يعرف ما يعرف هو من أن الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن فيشاركه فى رأيه ؟

لو كان ابن مسعود هذا بعد عهد النبى ﷺ بجيل أو جيلين ، واكتشف مصحفاً أو مصاحف ليس فيها الفاتحة ولا المعوذتان ، ونبه أصحابها على أن الذين جمعوا القرآن على عهد عثمان زادوها فى القرآن وليست منه ، لكان قول ابن عباس يسترعى النظر بعض الاسترعاء . أما وهو من أهل الصدر الأول ، وحوله ألوف من أهل ذلك العهد ، فلا يعقل أن يذهب قوله هباء منثوراً كأنه لم يكن ، ويقبل الناس كافة نسخة عثمان حتى أعداؤه ، والكارهون لولايته .

إن هذه القولة المنسوبة لابن مسعود ، ويعدها خصومنا شبهة على القرآن ، لا يمكن التسليم بنسبتها إليه ، جرياً على أسلوب النقد الإسلامى . فإن المسلمين لا يقبلون قولاً منسوباً لنبيهم إلا بعد التحقق من حالة رواته العقلية والنفسية والدينية ، وقد رفضوا مئات الألوف من الأحاديث المنسوبة إليه وعدوها موضوعة ، وقد كذب الناس عليه فى حياته ، حتى قال : من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . فهل يقبل المسلمون أو المنصفون من غيرهم ، قولة من هذا الطراز تقوم ضدها كل ما ذكرناه من المضعفات والمشككات ؟

إننا نحمد الله على أن ادعاء الزيادة فى القول المعزو إلى ابن مسعود جاء خاصاً بفاتحة الكتاب والمعوذتين ، وهى السور التى لم يوجد فى المسلمين منذ نشئوا إلى اليوم من لا يحفظها ويصلى بها ، وهى لا تعدو الدعاء بالهداية والتوفيق ،

والاستعاذة من الشرور وعواملها المختلفة ، فأى مصلحة جناها محرف القرآن بزيادة هذه الأدعية والاستعاذات به ؟

يقول العامة : إذا سرقت فاسرق جملاً ، يريدون إذا سمحت لك نفسك أن تحطها إلى دركة السرقة فاعمد إلى أثمن الأشياء وأجلها ، لا إلى أصغرها وأحقرها . وهذا الذى سول له كفره أن يحرف كلام الله لم لم يعمد إلى أمر جلل فيدسه على الكتاب الإلهى ، واكتفى بوضع فاتحة صغيرة له وخاتمتين ؟

وهل يعقل أن من يريد تحريف الكتاب الإلهى لأمة ، بالزيادة عليه ، يضع تلك الزيادة فى أوله وآخره بحيث يراهما أقل الناس عناية به ، أم يضعها بحيث تخفى على السواد الأعظم من الناس ؟

وهل يعقل أن المسلمين الأولين الذين كان شغلهم الشاغل القرآن ، يبلغون من الغفلة أن يزاد فى أوله وآخره ما ليس منه فلا يدركوه ؟ أو أن يكونوا من قلة الاكتراث بسلامة القرآن بحيث يتركون هذه الزيادة لتشيع فى الناس ، حتى يأتى بعض خصوم الإسلام بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً فينبه أخلافهم إليه ؟

اللهم إن كان قول يصح أن يضحك الثكالى وينسيهن مصابهن فهو هذا ، وإن كانت شبهة يكفى فى دحضها أن تورد بدون تعليق عليها فهى هذه !

وقال فى صفحة ٤٧ :

« إن ملايين المسلمين فى بلاد العجم يعزون كلا الزيادة والنقص إلى عثمان ، ويقولون إنه حذف كثيراً من الآيات فى مدح على ، فضلاً عن سورة كاملة تركها تدعى سورة النورين . وقد طبعناها تذييلاً لهذا الكتاب . ونحن لا نثبت صحة هذه السورة ، فقط نقول إن أمراً كهذا يبعث على الريبة ويبين ضعف الحجة المشهورة : ﴿ فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . ولا يخفى أن علياً كابن مسعود أبى أن يسلم نسخته إلى عثمان لينقحها بحجة أنها كانت كاملة » .

نقول : يدعى الكاتب أن (ملايين) من المسلمين فى بلاد العجم يعزون إلى عثمان أنه حرف القرآن . وهذا ادعاء لا دليل عليه . فإن الإيرانيين سنية

وشيعة يعتبرون القرآن الكريم منزهاً عن كل تحريف . ولكن هنالك بقية من الرافضة ، لا يتجاوز عددهم بضعة ألوف ، كان آباؤهم قد غلوا فى حق على حتى ادعوا أن الله حل فيه ، وسجدوا له ، فنهاهم فلم ينتهوا فأمر بقتلهم . فإذا كان هنالك أخلاف لهؤلاء الغلاة فإنهم لا يقولون : بتحريف القرآن ، ولكنهم يؤولون بعض آياته لمصلحة مذهبهم .

فإن كابر كاتب هذه الشبهة فى ذلك فليذكر لنا ما قالوه فى هذا الشأن من بعض كتبهم المطبوعة ، أما إرسال القول جزافاً بغير دليل فلا يقبل منه .

أما السورة التى ادعى أنها كانت موجودة فى القرآن ، وحذفها عثمان ، وقال إنه طبعها فى ذيل رسالته ، فيكفينا أنه قد شك هو نفسه فى أنها من القرآن ، وهو لم يشك إلا لأنه يعلم أن رجلاً من شيعته قد وضعها ليشكك فى الفرقان . وليت ذلك الداعى لم يقدم على ما فعل ؛ فإنه أثبت بدليل محسوس أن القرآن نسيج وحده ، وأن مدعى الإتيان بمثله يضطر للأخذ منه ، وإلا عجز عن محاكاته ولو ظاهراً . وذلك أن تلك السورة ليست بشىء سوى عبارات قرآنية أخذت من سور متفرقة ، وصيغت صياغة مزورة ، فجاءت دليلاً محسوساً على أن من أقدم على هذا التزوير قد أقام حجة قاطعة على أن القرآن لا يقلد بحال من الأحوال .

وإليك عبارات من تلك السورة ، وهى تقع فى نحو صفحة ونصف صفحة من هذه المجلة :

﴿ يأيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلهما يتلوان عليكم آياتى ويحذرانكم عذاب يوم عظيم . نوران بعضهما من بعض وأنا لسميع عليم . إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله فى آيات لهم جنات نعيم . والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدوا الرسول عليه يقذفون فى الجحيم . ظلموا أنفسهم وعصوا لولى الرسول (يريد علياً) أولئك يسقون من حميم . إن الله الذى نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل وجعل من المؤمنين أولئك من خلقه يفعل الله ما يشاء لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذتهم بمكرهم إن أخذى شديد أليم ﴾ .

يرى القارئ مما مر أن الذى زور هذه السورة قد أتى بعبارات قرآنية وحشر بينها من كلامه ، فكانت من السخف والتقلقل بحيث ينبو عنها الطبع ، ويدرك الفرق البعيد بين الكلام الإلهى المعجز وكلام البشر الركيك .

وإلى القارئ نموذجات أخرى من ركاكات هذه السورة الملفقة :

« يأيها الرسول بلغ إنذارى فسوف يعلمون »

« مثل الذين يوفون بعهدك أنى جزيتهم جنات النعيم »

« وإن عدوهم إمام المجرمين » .

« وإن علياً لمن المتقين »

« يأيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من يتوفه مؤمناً ومن يتوله من بعدك يظهرون »

« ولقد أرسلنا موسى وهرون بما استخلف ، فبغوا هرون ، فصبر جميل »

« فاصبر فسوف يبلون . ولقد آتينا لك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين . وجعلنا لك منهم وصياً لعلهم يرجعون »

« إن علياً قانتا بالليل ساجداً يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه ، قل هل يستوى الذين ظلموا وهم بعذابى يعلمون »

« إنا بشرناك بذرية الصالحين . وإنهم لأمرنا لا يخلفون »

« وعلى الذين سلكوا مسلكهم منى رحمة وهم فى الغرفات آمنون »

هذه نموذجات من تلك التلفيقات المضحكة ، فمن يبلغ مرتكبها أن تحدى القرآن لو كان من هذا الضرب لاستطاع تلاميذ المدارس الأولية أن يأتوا بسورة بل بسور من مثله ؟ ولكن من كانت فى رأسه مسكة من عقل يحجم عن مثل هذا الهذر ، ويعرف أن هذا السلاح المفلول لا يقتل إلا صاحبه المسكين !

ولو كانت معايير البيان عند أصحابنا هو ما رأينا ، فإننا نترفع عن حوارهم ، لولا أنهم لا يتصدون إلا للغفل والجاهلين ، فإن سكتنا خيل لهم أننا عجزنا عن رد كيدهم عليهم ، وما يكيدون إلا أنفسهم وما يشعرون .

وقد قال كاتب الرسالة فى شبهته هذه : « ولا يخفى أن علياً – كابن مسعود – أبى أن يسلم نسخته إلى عثمان لينقحها بحجة أنها كانت كاملة » .

نقول : إذا ثبت أن علياً لم يسلم نسخته إلى عثمان بحجة أنها كانت كاملة ، فمعنى كاملة أنها كانت مطابقة لنسخة عثمان من كل وجه ، وإلا فما الذى كان يمنعه أن يحاج عثمان فى أمر نسخته التى يدعى الخصم أنها كانت محرفة ؟

لعله يدعى أنه لم يفعل ذلك اتقاء بطش عثمان ، فنسلم له ذلك جدلاً ، وإن كان عثمان فى حاجة إلى حماية على ، ونقول : فما الذى كان يمنع علياً وقد أفضت إليه إمارة المؤمنين أن يأمر بنسخ نسخ جديدة من مصحفه ، إن كان مخالفاً لنسخة عثمان ، وينشرها فى الآفاق تخليصاً للقرآن الكريم من آفة التحريف ؟

هل كان على وهو أمير المؤمنين قليل الاكتراث لهذا الأمر فأهمله ، ورضى أن يستقر التحريف فى القرآن وهو قادر على إزالته ؟

وهل اتفق أن كان جميع خصوم عثمان قليلى المبالاة بالقرآن إلى حد أنهم ، حتى بعد زوال ملكه ، يقرون التحريف الذى أوجده فى الكتاب الذى يعبدون الله بتلاوته ؟

اللهم إن هذه محالات عقلية لا توجد معدة فى الأرض تستطيع هضمها ، ولا ندرى كيف استطاع أن يهضمها كاتب هذه الرسالة ؟!

وقال فى صفحة ٤٨ :

« جاء أن عمر كان يقبل كل آية بشهادة شاهدين فكان من الممكن أن ترفض آية صحيحة إذا شهد بها شاهد واحد ، وأن تقبل آية محرفة إذا شهد بصحتها شاهدان » .

نقول كيف يقبل العقل مثل هذا القول ؟ قد ثبت بالتواتر التاريخى أن القرآن كان يحفظه الخلفاء الأربعة ومئات من الناس ، وكان مكتوباً كله ، ومحفوظاً فى دار النبى ﷺ ، وأن أبا بكر لما أمر بكتابته ندب لذلك جمهرة من حفظته ، على رأسهم زيد بن ثابت فكتبوه ، فما شأن عمر بعد ذلك فى هذا الأمر ؟

هل كان القرآن آيات منثورة مفرقة بين الناس ، يحفظ منها هذا آية ، وذلك أخرى ، فلما أريد جمعه كان الذى يحفظ منه شيئا يأتى فيفضى بالذى عنده ، فيكتب عنه بشهادة شاهدين ويرد منه ما لا يشهد به إلا شاهد واحد ؟

إذن ماذا كان يحفظ منه حفاظه ؟ ولم ندبوا لكتابته دون غيرهم ؟ أما كان الأجدى أن يعلن الناس بذلك ، وينادى فيهم : من كان يحفظ شيئا من القرآن فليفض به ، وليستشهد على صدقه شاهدين ؟

شيء من ذلك لم يكن ، وإنما الذى كان هو أن أمير المؤمنين أمر أن يكتب المصحف من المخطوطات المحفوظة ، ومن صدور حفاظه الغيورين عليه ، وهذا جهد كل من يريد أن يستوعبه كله دون أن يسقط منه حرف واحد . فهل بعد هذا الأسلوب أسلوب أدق منه فى جمع كتاب بدون تحريف ؟

فإذا كان الكاتب نقل هذا من كتاب إسلامى فهو مردود على قائله ؛ لأنه غير معقول . وهل يهدم قول مقطوع السند كهذا عملاً دل التواتر عليه ؟

وقال فى صفحة ٤٨ أيضا :

« جاء عن مسلم أن أبا موسى الأشعرى قال مرة لخمسمائة من القراء فى البصرة : إننا كنا نقرأ سورة بطول السهم وحده ، أما الآن فقد نسيتها ما عدا بعض الآيات » .

نقول : يسوق الكاتب هذه الشبهة على اعتبار أن أبا موسى يأسف على أن ذهب من القرآن مقدار كبير ، حتى إنه كان يحفظ سورة طويلة فنسيها إلا بعض آيات منها . وأنا أرجو القارئ أن يلاحظ أنه يذكر ذلك لخمسمائة من القراء ، أى من حفاظ القرآن .

والحقيقة أن أبا موسى المذكور لو كان قال هذا للقراء فهو يذكر لهم ما نسخت تلاوته من آيات القرآن . وقد رأيت أن ذلك النسخ نبه عليه النبى ﷺ وحدده تحديداً تاماً ، بحيث لم يختلف اثنان من المسلمين فى شيء منه . ولو كان أبو موسى يقول ذلك أسفاً منه ، فلم لم يهتم بها هو حتى نسيها ؟ أليس المفهوم بداهة أنه نسيها لأن تلاوتها قد نسخت فأهملها ؟

ومما تجب ملاحظته أيضا أن أبا موسى قال ذلك لخمسمائة من القراء ، أى لخمسمائة ممن جردوا أنفسهم للقرآن . فماذا يكون وقع هذا الكلام منهم لو كان أبو موسى يقوله متأسفاً من ضياع بعض الكتاب ؟

لقد علمت أن أصحاب الحديث كانوا يجولون الأقطار الشاسعة وراء سماع الأحاديث ممن يحفظون شيئا منها طلباً لجمعها ، وكانوا يبذلون وراء ذلك أنفسهم ونفائسهم ، حتى تروى عنهم فيها الأعاجيب التى لم تتفق لمجتهدى أمة من الأمم ، فهلا كان يدفع كلام أبى موسى هؤلاء الحفاظ للبحث عن تلك الآيات المفقودة ، وأصحاب رسول الله ﷺ لا يزالون أحياء ، فكانوا يرحلون إلى المدينة وغيرها ينقبون عن حفاظ تلك السورة حتى يجمعوا مبشتت آياتها ، أو أكثر تلك الآيات ؟

وكيف يعقل أن أبا موسى لم يلقن الخمسمائة من القراء الذين قابلهم الآيات التى مازالت عالقة بذاكرته منها ؟ وكيف لم يطلبها منه أولئك القراء ؟

قس على هذا كل ما أورده كاتب هذه الرسالة مما يشبه هذا كما قال فى صفحة ٤٩ :

« وروى أبو موسى نفس الحديث عن سورة أخرى كالصيحات قد ضاعت » .

« وروى عن عائشة أن الآية عن الرضاعة كانت تقرأ فى زمن النبى ولكنها مفقودة الآن من القرآن (نرجو القارئ أن يلاحظ أن كلمات (قد ضاعت) و(مفقودة الآن من القرآن) من تعبير كاتب الرسالة عمد إليها للتهويل » .

وقال فى صفحة ٤٩ :

« وقال أيضا جلال الدين السيوطى : « حدثنا ابن أبى مريم عن أبى لهيعة ابن الأسود عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبى ﷺ مائتى آية فلما كتب عثمان المصحف لم يقرر منها إلا ما هو الآن (وهى الآن سبع وسبعون آية) .

« وقال ابن جيش قال أبى بن كعب كم تعد سورة الأحزاب ، قال اثنتين وسبعين آية أو ثلاثاً وسبعين آية . قال كانت تعدو سورة البقرة » .

« وأخرج البخارى فى تاريخه عن حذيفة ، قال قرأنا سورة الأحزاب على النبى فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها » .

« وروى جلال الدين أن عبيداً كان يقول حدثنا إبراهيم عن أيوب عن نافع قال : « لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله ، وما يدرى ما كله ، فقد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر » .

« وعن مالك أن أول سورة براءة سقط مع البسملة ، فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة لطولها » .

« وقال أيضا مسلم : إن الآية بخصوص الرجم كان قبلاً فى القرآن وكان عمر مقتنعا بصحتها حتى أقسم بالله إنه إنما منع عن تدوينها خشية الاتهام .

« فترى مما تقدم (القائل كاتب الرسالة) أنه طرأ على القرآن كثير من الحذف ، وبعبارة أخرى أن كلمة الله قد اعتراها النقص » انتهى كلامه .

نقول : إن كل ما جمعه كاتب الرسالة من هذه الأقوال ، يفسرها ما ذكرناه مراراً ، من أن القرآن نسخت منه تلاوة آيات كثيرة على عهد النبى ﷺ ، وقد علم المسلمون الأولون ذلك ولم يختلفوا فيه .

وإذا كانت عائشة قالت ما نقله عنها كاتب الرسالة وهو : « كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبى ﷺ مائتى آية ، فلما كتب عثمان المصحف لم يقرر منها إلا ما هو الآن » ، إذا كانت هى قائلة هذا القول ، وتعنى به أن عثمان جنى على القرآن فحذف منه ما كان يجب أن يبقى فيه ، فلم كانت تدافع عن عثمان ، حتى إنه لما قتل خرجت فى مقدمة الخارجين على علي ، متهمة إياه بالإغراء بقتله ، وحضرت وقعة الجمل تحريضاً للناس على الثبات فى وجه أمير المؤمنين ؟ فهل كانت تريد أن تفهم الناس أن عثمان الذى نقص من آيات القرآن ، يستحق أن تسفك فى سبيل الثأر له كل هذه الدماء ؟

ومما رواه كاتب الرسالة عن البخارى أن حذيفة قال : « قرأنا سورة الأحزاب على النبى ﷺ فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها » .

هذا كلام يريد أن يفهم منه صاحب ذلك الكتيب أن حذيفة يأسف لنسيان سبعين آية من سورة الأحزاب . ولكن الجملة لا تشعر بأسف وبخاصة

من أجل ضياع بعض القرآن ، الأمر الذى لو كان لاستتبع من الأحداث ما لا يعلم هوله إلا الله . فحذيفة يذكر أنه نسى سبعين آية من القرآن ، كما يذكر أنه نسى قصيدة كان يحفظها لبعض الشعراء .

هب أن حذيفة قال ذلك لبعض الناس ، أفما سأله ذلك البعض قائلاً : « هل تلك الآيات لم توجد فيما أمر النبى ﷺ بكتابته وحفظه من القرآن ؟ وهل نسيها جميع حفاظه ؟ وهل اتفق أن نسيها المسلمون أجمعون ؟ وهل سعى حذيفة للحصول عليها فخاب ؟ إننا سمعنا أن بعض جامعى الأحاديث كانوا يسافرون ليالى وأياماً لسماع أحاديث معدودة من رواتها ، فهلا حفزت الحمية بعض المسلمين للتنقل فى الأقطار سائلين عن تلك الآيات ؟

أليست تدل هذه السكينة التى يظهر بها قائلو هذه الأقوال ، والذين يسمعونهم ، على أن أمرها لا يعدو أحد احتمالين : فإما أنها مدسوسة على قائليها ، أو أنهم يريدون بها الآيات التى نسخت تلاوتها من القرآن ؟

فإن قال معترض : لو كان هذا الأمر من قبيل الدس لما عجز الدساسون أن يحيطوه بشىء مما يدل على الأسف والاهتمام .

قلنا : لو فعلوا ذلك خشوا أن يكذبوا فيه ؛ لأن هذا الاهتمام كان يظهر له أثر كبير فيما نقل إلينا من أحوال الصحابة . وقد نقل تاريخهم إلينا أنهم تضاربوا وتسابوا وقاتل بعضهم بعضاً . أما وقد سكتت جميع المصادر التاريخية عنها ، فمعنى ذلك أنه لم يكن له أثر على الإطلاق . وهذا غير معقول إذا كان قد ضاع شىء من القرآن كما فصلنا ذلك تفصيلاً فيما مر من الكلام .

ومن أدل الدلائل على أن هذا الأمر لم يكن له أثر فى تاريخ هذا الدين ، سكوت علماء الكلام عنه . فإن هذا العلم الذى عنى بكل صغيرة وكبيرة من الشبهات التى أثيرت ضد الإسلام ، صمت حيال هذه المسألة كل الصمت ولم يشر إليها بكلمة واحدة . وقد أورد شبهات الكفار على وجود الله ، فهل يضن أن يورد الشبهات على نقص كتابه أو الزيادة فيه ؟

فلو قيل إنهم صمتوا عنها تفادياً مما تثيره من النتائج الخطيرة ، قلنا فكيف تسكت عنه الفرق الإسلامية والخوارج وعددها أكثر من سبعين ، وفى بعضها من الغلو والتقصير ما أخرجها عن دائرة الإسلام ؟ فهل هى أيضا خشيت من نتائجه الخطيرة وقد قامت تؤيد مذاهبها بالسيف والنار ؟

وإن سلمنا جدلاً بأن قول الخصم معقول ، فهل هو معقول من بعض علماء اليهود الذين كانوا فى جدال مستمر مع علماء المسلمين ؟ فلم لم يتخذوا التحريف الذى يزعم الزاعمون أنه وقع فى القرآن من الزلات التى يحصونها على كتاب المسلمين فى تلك الأزمان ، لاسيما وقد كان المسلمون يرمونهم بتحريف التوراة ؟

اللهم إن هذه حجج قاطعة على أن ما يروى من حذف بعض آيات القرآن إنما حصل فيما كان منها منسوخ التلاوة ؛ ولذلك لم ينتطح حوله عنزان .

وقال صاحب تلك الرسالة فى صفحة ٥٤ :

« وفضلاً عن ذلك إن آيات القرآن الحالية تختلف لفظاً حتى انشق علماء الإسلام فى تفسيرها إلى أحزاب » .

« مثلاً قوله فى سورة محمد « قتلوا » وفى رواية أخرى قاتلوا ، وكذلك قد اختلفوا فى أمر الجهاد ، وكذلك اختلفت القراءة فى سورة الحج بين يقاتلون ويقاتلون (بكسر التاء وفتحها) الخ » .

نقول : يريد الكاتب مما ذكره مسألة اختلاف القراءات . أما وقد انتهى به الأمر إليها ، فإننا نخبره بأن هذا الاختلاف قد حدث على عهد النبى ﷺ ، ورفع أمره إليه ، فأقره بوحى من الله ، ولو كان حدث بعده لكان للخصم مجال للخوض فيه ، أما وهو على ما رأيت فلا مجال فيه لقائل كائناً من كان .

على أن هذه الاختلافات فى القراءة لم تحلل حراماً ، ولم تحرم حلالاً ولا هى تتعلق بالعقائد ولا العبادات ولا المعاملات ، ولم تثر بين المسلمين حرباً ، ولا اعتبرها أحد شبهة على الكتاب الإلهى . فكل كلام فى هذا الموضوع عبث

محض لا يقام له وزن لا عند المسلمين ولا عند سواهم .

وإذا علم القارئ أن هذه الاختلافات في القراءة حدثت على عهد رسول الله فأقرها بوحي من الله ، سقطت حيرة صاحب الرسالة في معرفة أي القراءات هي التي نطق بها محمد ﷺ .

ومن أدل الأدلة على أن المسلمين يعتبرون اختلاف القراءات أمراً مشروعاً أن قراء القرآن يرتلون آياته مع مراعاة هذه الاختلافات ، فيكررون بعض الآيات على ضروب شتى إدلالاً على تمكنهم من فنهم ، والمسلمون يقابلون ذلك بالتقدير والإعجاب .

وبعد فقد اتضح للقارئ بأقوى الأدلة وأنهض الحجج أن القرآن الكريم لا يعقل أن يكون قد اعتراه تحريف من أي ضرب كان ، وأنه بقي محفوظاً في الصدور والسطور ، وسيبقى كذلك أبد الآبدين ، ودهر الدهرين ، مصداقاً لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .



مساواة النساء للرجال [1]

فى الانتخابات وعضوية البرلمان

شرفتنى مجلة نور الإسلام بنقد مقالة نشرتها فى جريدة (أخبار اليوم) أيدت فيها طلب بعض حضرات أعضاء مجلس الشيوخ فى ضرورة تخويل النساء حق الانتخاب للبرلمان وحق العضوية فيه . وإنى مدل برأيى هنا فى هذا الموضوع الخطير ، متجنبا الجدل ، وتاركا لحضرات القراء الحكم ، فأقول :

نحن فى عهد ينازع سلطان الدين فيه على النفوس عاملان قويان : المدنية بسحرها وفواتنها ، والفلسفة المادية بتشكيكاتها وشبهاتها ، فإذا أسيء تقديرهما ، ومبلغ تأثيرها فى العقول – وخاصة فى هذا الدور من الانتقال – أفلت الزمام من أيدى حماة الدين ، وأضاعوا مكاناتهم من القلوب . وفى هذه الإضاعة إضاعة لوجودهم إلى زمان بعيد . وقد سبقتنا أمم كان للدين من نفوسها المنزلة العليا ، فما زالت بها فتنة المدنية ، وشقشقة الفلسفة المادية ، حتى جذبتها إلى دائرة نفوذها فأصبحت حرباً على الدين ، وحائلاً لا يرام دونه .

وقد كابدت المدنية الأوربية منذ عهد البعث الذى وقع فى القرن الخامس عشر ، وكان من نتائجه إفلات العلم من رقابة المهيمنين على العقائد ، انقلابات شتى – وخاصة بين الدين والعلم – كان من آثارها تحميل الدين تبعة ما أصاب أوربا من الجمود والجهالة أكثر من عشرة قرون متوالية ، وإبعاد رجاله من التدخل فى الشئون الحكومية ، ومن الإشراف على التطورات الاجتماعية ، ومن التعليم أيضاً ، وكتبت فى ذلك الانقلاب الخطير كتب وبحوث كان لها تأثير بعيد المدى فى اعتبار الدين أداة قوية لتعطيل المواهب النفسية ، وتعقيم الخصائص العقلية ، وصد التطورات الاجتماعية ، ومضى المجددون فى هذا المجال إلى حد اعتبار الدين خطراً على الإنسانية .

---

(١) نقلاً عن مجلة نور الإسلام (رمضان سنة ١٣٦٦ هـ)

ومنذ نحو مائة وخمسين سنة حدثت الثورة الفرنسية وتلتها ثورات فى أكثر الممالك الأوروبية لتقرير حقوق الشعوب ، رافعة علم الحرية ، وأطلقتها بعد ذلك التقييد الشديد إلى أبعد حدودها وكان للنساء نصيب موفور منها ، فمضين فى تيار أهوائهن لا يلوين على شىء ، حتى بلغن إلى غاية لم تكن تخطر على بال أعنف المتطرفين فى الدفاع عن حقوقهن . وتقلبت علينا نحن الأحداث فاضطرتنا لاقتباس المدنية الغربية ، فأصابنا من تطرفها ما نحن فيه اليوم من مجانبة أصولنا القيمة ، ومدابرة تقاليدنا الحكيمة . وكانت حصة نسائنا من التطرف وافية ، فجارين الغربيات مدفوعات بتشجيع رجال من الذين فتنتهم المدنية الغربية ، فمهدوا لهن سبل التحلل من كل عقيدة ، والتفلت من كل رابطة .

هذه الحال أول ما يجب على حراس الدين تقديرها قدرها ، وإعطاؤها من العناية حقها ، وهى مهمة من أشق المهمات . إن لم تكن أشقها على الإطلاق ؛ لأنها تتعلق بنظام الاجتماع ، وعليها تتوقف صحته واعتلاله ، وصلاحه وفساده .

والذى يلقى نظرة على حالة المرأة المسلمة اليوم يجدها قد تجردت من جميع تقاليدها القديمة ، واتجهت صوب تقليد المرأة الغربية بل بزتها . والذى يعنى بتعليل هذا التطور السريع يجده آتياً من قبل الرجال ، وهؤلاء ما انحطوا إلى هذه الدركة من فقد الغيرة إلا من تسرب روح الفلسفة المادية إليهم ، فالتصدى لمعارضة هذا الاندفاع الشديد نحو التحلل من جميع التكاليف الأدبية ، دون مقاومة تيار التعاليم الإلحادية ، لا يؤدى إلى أية نتيجة عملية .

المهمة شاقة جداً ، والاضطلاع بها يستدعى تضافر عقول جبارة على توجيهها توجيها منظماً تنظيماً محكماً . فليست الفلسفة المادية من الوهن والتفكك بحيث يكفى فى دحضها مقالة شديدة اللهجة ، بل لو كتبت بشواظ من نار لما أدت إلى تأثير يعتد به . وقد بليت بها أوروبا قبلنا ، وتأثرت بها نحو أربعة قرون متوالية ، ثم اتضح أخيراً لكثير من العقول الراجحة أنها ضلالة خطرة على النوع الإنسانى ، وظهرت مكتشفات تدحضها دحضاً حاسماً ، ولكن هذه المكتشفات لا تصل إلى الدهماء طفرة ، ولابد من وقت طويل يمر فى سبيل تعديتها إليها .

ونحن فى مصر اليوم نجد أنفسنا حيال تيار عرم من تعاليم هذه الفلسفة يتسرب إلى عقول الرجال والنساء ، فيقذف بهم إلى مكان سحيق من الإباحية الحيوانية ، وقدر على بعضنا أن تكون مهمته العمل على صد السيل المثعنجر الزاعب من هذه التعاليم ، فهل يخلينا من تبعاتنا أن نتجاهل خطورتها فيوغل الناس إيغالاً شديداً فيما هم بسبيله ؟

هذه حقيقة موقفنا اليوم من الناحيتين الأدبية والاجتماعية ، فلننتقل إلى مقدمة أخرى ضرورية لتجلية ما نحن بصدده من هذا البحث فنقول :

شرع الإسلام فى صدر القرن السابع الميلادى حيث كانت حالة المرأة فى جميع الأمم على أفظع ما تكون هضماً لحقوقها ، فكان يباح للآباء فى بلاد العرب وأد بناتهم تخلصاً من عارهن ، وكان المرأة مجردة من كل حق أدبى ومادى ، فكانت لا ترث ، بل كانت تورث هى بعد موت زوجها كما تورث الأمتعة والدواب .

ولم تكن المرأة فى العالم كله أحسن حالاً مما هى لدى العرب ، فكانت الأوروبية فى ذلك العهد مقصورة على البيت ، ومحرماً عليها الضحك وأكل اللحم ، بل كان كثير من الناس يحرم عليها الكلام أيضا فيضع على فمها قفلاً ، وغلا آخرون فزعموا أنها لا ترث الحياة الآخرة .

أرسل محمد ﷺ للعالم كافة ، والنساء على هذه الحال ، فلو كان الإسلام ليس بوحى من الحق جل وعز لوسع النبى فيما يتعلق بالنساء ما وسع الجاهلية العربية والجاهلية العالمية ، أو كان اكتفى بإيصاء الرجال بحسن معاملتهن على وجه الإجمال ، ثم مضى فى إصابة أغراض أخرى . ولكن الإسلام تنزل من قيم الوجود ؛ ليخرج العالم الإنسانى من الظلمات إلى النور ، فخول المرأة من الحقوق طفرة ، ما لم تحققه لدى غير المسلمين إلا فى أكثر من عشرة قرون . وما تزال المرأة الأوربية لم تبلغ الغاية التى أرادها الإسلام لها . فكانت هذه آية باقية على مر الاجيال علماً من أعلام النبوة ، ودليلاً ساطعاً على صحة الوحى الإلهى . وإلا فأى مصلح يستطيع أن يسبق زمانه بأكثر من ألف سنة فيضع لحقوق النساء دستوراً يسع كل ما يجد من النظم الاجتماعية فى جميع أدوار الإنسانية المتتالية .

فماذا قرر الإسلام للمرأة من الحقوق ؟

قرر لها أن يحسن أبواها تربيتها ، وأن تعلم ، ولم يضع لتعليمها حدًّا ، بل صرح أنها فى حالة نبوغها يباح لها أن تدرس للرجال ، وأن تفتيهم ، وأن تتولى القضاء والمحاماة . وهذه مزايا لم تنلها المرأة الأوروبية إلا فى القرن العشرين . فقد كانت لا تقبل فى الجامعات لتلقى العلوم العالية إلى القرن التاسع عشر ، وكانت لا تقبل فى القضاء ولا المحاماة إلى سنين معدودة شهدها المعاصرون .

وقرر لها فى حالة التزوج ألا ترغم على قبول شخص معين ، وألا تجبر على الخدمة فى بيتها ، ولا على إرضاع أطفالها وحضانتهم ، وأوجب على الزوج أن يأتيها بمن يقوم بذلك إن سمحت له حالته المالية .

ولما كانت عقدة الزواج فيها حد من حريتها ، أباح لها أن تشترط أن يكون حل هذه العقدة بإرادتها .

وقرر الإسلام لها حرية التصرف فى مالها ، فلا حق لزوجها ولا لوالدها أن يحد من هذه الحرية . وهذا حق لم تنله المرأة الأوربية إلى اليوم .

وقرر لها أن تحضر اجتماعات الخير ودعوة المسلمين ، وجرى العمل على ذلك فى فجر الإسلام ، فأخذ منه العاملون على إنهاض المسلمين ضرورة اشتراكها فى الأمور الاجتماعية العامة ، كما أخذوا من قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » كل النظم الدستورية التى لم تحدث إلا فى القرون الأخيرة .

وقد جاء فى صحيح البخارى عن حفصة بنت سيرين قولها : كنا نداوى الكلمى ونقوم على الجرحى (أى فى الحرب) فسألت أختى النبى ﷺ : « أعلى إحدانا بأس إذا لم يكن لها جلباب ألا تخرج ؟ قال (النبى) لتلبسها صاحبتها من جلبابها ، ولتشهد الخير ودعوة المسلمين » .

وعقبه الإمام النووى شارحه بقوله : فيه استحباب حضور مجامع الخير ودعاء المسلمين ، وحلق الذكر والعلم ، ونحو ذلك (وأنا أقول كان الذكر عندهم الاجتماع لتذاكر الحكمة ، وفضائل الأعمال ، لا ما يعمله العامة فى الموالد اليوم ويسمونه بحلقات الذكر) .

وروى البخارى ومسلم ومالك وأبو داود عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا استأذنت أحدكم أمراته إلى المسجد فلا يمنعها (أقول : وكان المسجد عندهم محل الاجتماع للصلاة والعلم والسياسة) . قال بلال بن عبد الله : والله لنمنعهن . فأقبل عليه عبد الله رضى الله عنه فسبه سباً ما سمعت مثله قط ، وقال : أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول والله لنمنعهن » .

قال النووى : هذا وشبهه من أحاديث الباب ظاهر فى أنها لا تمنع المسجد بشروط ذكرها العلماء مأخوذه من الأحاديث وهى ألا تكون متطيبة ولا متزينة ، ولا ذات خلاخل يسمع صوتها ، ولا ثياب فاخرة ، ولا مختلطة بالرجال ، ولا شابة ونحوها ممن يفتتن بها » .

ونحن نقول : كل هذه شروط معقولة وممكنة ، فإن للحكومة الدستورية أن تشترط لمن يتولين النيابة من النساء كل هذه الشروط ، وإذا كان قد ساغ للنساء أن يلبسن الجلباب فى الجامعات والمرافعات ويفتخرون بها ، فيسوغ لهن كذلك أن يلبسن مثل ذلك للمجالس النيابية .

وكما أن الحكومة حرة فى تحديد أسنان من يصلحون للنيابة من الرجال ، فهى حرة كذلك فى أن تحدد لمن يصلحن للنيابة من النساء سناً متقدمة ، تنقطع معها الفتنة ، ويضمن فيها نضوج العقل وتوافر الحكمة .

أما المحظورات التى نقلتموها عن جريدة (أخبار اليوم) بقلم حضرة الأستاذ توفيق الحكيم ، فهى لا تصدر إلا من حثالة الناس وزعانفهم رجالاً ونساءً ، فلا يصح أن تقوم حائلاً بين أمة ومقوماتها العليا ، فما دام فى البلاد رجال يغارون على أعراضهم وحكومة خولوها سلطة حماية أوضاعهم الاجتماعية ، فعليها أن تتولى المحافظة على كرامة الانتخابات . فإن فرض مجادل أن الحكومة تعجز عن القيام بواجبها ، ورجال الأمة لا يغارون على أعراضهم ، فمثل هذا القول يرد على قائله ولا يجوز أن يقام له وزن . ومن المهلكات للأمم أن تصد بمثل هذه الألاعيب الجدلية عن استكمال مقوماتها الاجتماعية ، والاضطلاع بمهامها التشريعية .

كلمة ختامية

لقد انتهينا إلى عهد أصبحت فيه المرأة المصرية تضارع أختها الأوروبية ، بل تبزها تبذلاً وتكشفاً ، فقد سمح الرجال لها عندنا بأن تخرج عارية الرأس سافرة الوجه ، آخذة زينتها إلى أبعد حد ، وعارية الساقين إلى الركبتين ، تذرع الأسواق ، وتغشى المتاجر ، ومنهن من يدخن فى الطرقات وفى الحوانيت ، وأباحوا لهن غشيان الصالونات والسهرات والمراقص والملاعب والمآدب ودور السينما .

وسمحوا أيضا لبناتهم أن يدخلن جامعات الذكور ، يتلقين معهم العلم جنباً إلى جنب ، ويتذاكرن الدروس ، وأن يمثلن الحركات الرياضية فى بعض الاحتفالات الرسمية عاريات السوق والأفخاذ .

قلت سمح لهن الرجال بكل ذلك ، وكان أولى بى أن أقول دفعوهن إليه دفعاً ، واعتبروا ذوات الخفر والتصون ، وإن كن سافرات ، من بقايا أهل الزمان القديم ، فلم يقبل على الزواج بهن إلا إذا كن من ذوات الهيل والهيلمان .

يرى المتأمل فى هذا الأمر أنه قد عم جميع البلاد الإسلامية إلا من لا تزال فى عزلة عن العالم المتمدن .

فهل – والحالة على ما وصفت – يصح أن تعامل المرأة بأحكام الشرع الإسلامى ، وأن توهب لها جميع الحقوق التى يخولها إياها أم أن تجرد منها حتى تأخذ بآدابه وتقف عند حدوده ؟

الأمر الأول هو المعقول ، وهو الذى يجرى عليه العمل فيما يتعلق بالأحوال الشخصية وغيرها ؛ فكيف يسوغ أن نحرمها من حق خولها إياه الشرع ، وهو شهود اجتماعات المسلمين للنظر فى المصالح العامة ، وقد جرى عليه العمل فى صدر الإسلام ، ولم يعترض عليه أحد ، فهل من المصلحة لهذه الأمة أن تحرم المرأة هذا الحق بحجة أن نفراً من أهل الفجور يتبعوهن إلى لجان الانتخاب ، ويبادلوهن النظرات المريبة ، والعبارات المعيبة ؟

ألا يحدث مثل هذا المنكر نفسه لدينا فى كل مجال يوجد فيه رجال ونساء ، كالمحاكم الشرعية والأهلية والمجالس الحسبية والمستشفيات وغيرها ؟ فلماذا يخص بهذا

التشدد لجان الانتخاب دون سواها ؟

المسلمون اليوم بين أمرين : فإما أن يقرروا حرمان المرأة من جميع حقوقها الشرعية بسبب وجود المحظورات التى ذكرها الأستاذ توفيق الحكيم فى المواطن التى تنال بواسطتها تلك الحقوق ، وأما أن يتغاضوا عن تلك المحظورات ويسمحوا لها بالتردد إليها ؛ وقد سمحوا لها به . فلماذا تثور كل هذه الحمية فى موضوع إنالة المرأة حقوقها الدستورية ، وهو إجراء يتوقع منه خير عظيم للجنس النسوى ؛ لأنه يفتح أمام النساء أبواب العمل الجدى ، ويشعرهن بتبعات ما كن يشعرن بها وهن معزولات عن الشئون الاجتماعية ، والوظيفة كما يقول (اللاماركيون) تكون العضو ، فتكره المرأة أن تعتبر مجرد أداة ترف ولهو ، وتتيقظ فى نفسها ما أماته الرجال فيها من الاشتغال بالشئون العامة ، ويتبعها ما يتولد عن هذا الشعور من العمل على كل ما فيه نفع للمجتمع الذى تعيش ويعيش فيه ذووها ومواطنوها .

وقد فطنت إلى هذا السر الدولة الإسلامية الفتية الضخمة (إندونيسيا) فقد منحت النساء حقوقهن الدستورية ، فانتخبت منهن أعضاء فى مجلسها النيابى ، وعينت واحدة منهن وزيرة للشئون الاجتماعية ، كما ورد فى جريدة الأهرام الصادرة فى ١٨ يونيو ١٩٤٧ م .

إن إشراك المرأة فى المجالس النيابية أمر محكوم به ، وقد لا يمضى عقدان من السنين حتى يعم أكثر البلاد الإسلامية ، فليربأ رجال الدين بأنفسهم أن يتهموا بأنهم يضعون أمامه العراقيل ، فتتولد فى نفوس النساء والرجال شبهة على الدين قد يصعب اقتلاعها منها ، وهم يعلمون أن التربية والثقافة قد أنشأت جيلاً من النساء لا يقل عن الرجال ثقافة ، والتسليم بما مانعوا فيه بقوة بعد حصوله بالفعل لا يقع موقعاً حسناً لدى أحد من المعاصرين .

فحذار من توريط الدين فيما هو منه براء ، وخاصة فى هذا الزمن الذى اكتظت فيه الشبهات فى العقول ، وحاكت فى الصدور . فلا يصدن رجال الدين ما يرونه من تهتك بعض النساء والرجال ، عن أن يظهروا سماحة الإسلام على أكمل وأجمل ما يكون ، وأن يتخذوا لعلاج ما يشكون منه من تبرج بعضهن الوسائل المناسبة له .

مشكلة الشبان المعلمين فى مصر [1]

قرأت فى « الأهرام » يوم الجمعة الماضى ، تحت هذا العنوان ، تلغرافاً مطولاً من مراسله بلندن ، لخص فيه مقالاً للمستر روم لاندوفال ، نشره فى جريدة « سبكتاتور » ، ألم فيه بمشكلة الشبان المتعلمين فى مصر من ناحية العطل ، والعاطفة الوطنية ، والسياسة الحكومية ، والروح الدينية . ولست بمعنى من كل ما كتبه إلا بالمسألة الأخيرة ، فهى التى تحتاج فى نظرى إلى مناقشة جدية ، مبنية على الحقائق . وقد اعترف هو نفسه بأن هذه المسألة أولى بالعناية من سواها فقال : « ولكن الأهم من هذا كله الوجه الروحى للمسألة » .

ثم مضى فى معالجة هذا الموضوع فقال :

« إذا كان كثيرون من الطلبة متمسكين بالمظاهر الخارجية ، فإن الدين لم يعد عاملاً مهماً فى حياتهم ، أو يجدوا فيه (فلسفة) يمكن تطبيقها على الأحوال التى تبدلت وتغيرت . بل إن كثيرين يعدونه الملجأ الأخير للمحافظة على التقاليد الدينية العتيقة ، والخزعبلات فى الشرق » .

قال : « ولقد أعرب لى الدكتور طه حسين بك – وهو على الارجح يعرف مصر الحديثة أكثر من أى رجل آخر – عن ارتيابه الشديد فى هل للإسلام نفوذ إنشائى ما فى شباب اليوم . مما يدل على أنهم يجدون أنفسهم فى الهواء تماما ، حتى إنه يمكن القول بأن عجزهم الظاهرى عن تكوين معتقداتهم الروحية ، أو مطامعهم ، كان نتيجة مباشرة لذلك » .

« ولكن فى البلدان الإسلامية ، من السهل أن يصبح الدين والوطنية شيئا واحداً . وإذا كان ليس من الصواب القول إن الشبان المصريين ماديون ملحدون ، فكذلك ليس من الصواب القول إنهم شديدو العناية بالأمور الروحية » .

---

(١) نقلاً عن المجلّد الثامن من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٦ هـ – ص ٧٣ وما بعدها .

ثم قال المستر روم لاندوفال :

« وهناك آخرون يشعرون بقلق ، من جراء الميل بين معلمى الإسلام المصريين ، إلى التوفيق بين تعاليم القرآن الكريم والعلوم المادية والعقلية ، وهم يتساءلون : ألا يفقد الإسلام بذلك نفوذه بين كثيرين من أنصاره والمتمسكين به من القدماء ، دون أن يستميل إليه أنصاراً جداً ؟ وليست هذه أول مرة يتبين فيها أن مسايرة العلم المادى تعود بالنوائب على الدين » .

ثم ختم المستر روم مقالته بهذه العبارة :

« لا يعتقد منصف بأن مشكلة الشبان فى مصر يمكن حلها من دون إصلاح روحى بعيد الأثر ، يتناول الشبان وزعماءهم السياسيين على السواء » انتهى .

نقول : بصرف النظر عما فى هذه العبارات من الغموض والمتناقضات ، يتضح للقارئ منها أن المستر روم لاندوفال حريص أشد الحرص على أن يصبح الشبان المسلمون وزعماؤهم متمسكين بالإسلام على أكمل ما يكون ، ولكن بعد إحداث إصلاح روحى عظيم يتناولهم هم وزعماءهم السياسيين .

لم هذا الاستدراك ؟ لأن الإسلام فى حالته الراهنة ليس له (فلسفة) يمكن تطبيقها اليوم على شئون الحياة التى تبدلت عما كانت عليه من قبل ، حتى إن كثيراً من المتعلمين أصبحوا فى الهواء لا يرون فى دينهم إلا أنه قرارة لتقاليد بالية وخزعبلات شرقية !

وقد استأنس المستر روم فى حكمه هذا بما أفضى به إليه الدكتور طه حسين بك ، من أنه لم يعد للإسلام نفوذ إنشائى فى شباب اليوم ، وكان من آثار ذلك عليهم أنهم عجزوا عن تكوين معتقدات روحية لأنفسهم .

ثم ذكر ما أفضى به إليه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى من أنه أدخل المواد العلمية إلى الأزهر ، ولكن المستر روم يشك فى فائدة ذلك ؛ لأن التوفيق فى نظره بين تعاليم القرآن والعلوم المادية والعقلية ،

يفقد الإسلام سلطانه على المتمسكين بالقديم ، دون أن يستميل إليه أنصاراً جدداً ؛ لأن مسايرة الدين للعلم المادى كثيراً ما عادت عليه بالنوائب . ولم يذكر سبب طرء هذه النوائب . ولكن المتبادر للذهن أن سببها من استحالة التوفيق بين مقررات الإسلام ومقررات العلم ، فيستتبع ذلك إلحاد جمهرة المتعلمين كما حدث لدى الأوروبيين حين هموا بمثل هذا التوفيق بين دينهم والعلم .

وبعد :

إننا نشكر للمستر روم لاندوفال اهتمامه بالشئون الإسلامية ، وغيرته على الشبيبة المصرية وزعمائها إلى هذا الحد . ولكنا نستأذنه فى أن نقول : إن بحثه هذا كان يستدعى منه أن يعرف ماهية الإسلام ، وكنه الأصول التى يقوم عليها ، وحقيقة الغرض الذى يرمى إليه من قيادة النفوس فى معمعان التطورات العقلية والاجتماعية .

الإسلام لا يفرض على الناس (فلسفة) كلامية غير قابلة للتطور ، تتحجر وتنحل بمرور الزمان وتغير الأحوال ؛ ولم يعين لوضع هذه (الفلسفة) طائفة تستأثر بالسلطان الروحى على النفوس ، وتجمع بينه وبين السلطان المادى ، أو تتنازل عنه لبعض المتغلبين ، وتقوم حيالهم على قدم التصارع والنزاع . ولكن الإسلام فرض على الناس كافة أصولاً خلقية ، وآداباً نفسية ، ومبادئ حيوية ، هى أقصى ما يمكن أن يتخيله العقل من الإطلاق والسمو ، مثلاً علياً لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، تؤدى الآخذين بها إلى السمو المادى والأدبى معاً ، تاركاً لهم حريةُ تكييف أحوالهم على موجبها ، مخليا الطريق فى وجوههم لجميع التطورات والانتقالات المعنوية والصورية .

هذه قضية يتسع فيها مجال القول ، ولا يقبلها العقل إلا بسلطان ، فإليك هذا السلطان فى مثال محسوس :

انظر إلى جماعة المسلمين الأولين فى أول نشوئها ، وإلى الحال التى قامت عليها ، وإلى العوامل التى دفعتها للحركة ، وإلى ما تطورت إليه بالانقياد لها . فإن هذا النظر يكشف من معنى الإسلام ، ومن اتجاه الأصول التى أقام جماعته

عليها ، والأغراض التى تؤدى إليها تأدية طبيعية لا تكلف فيها ، ما لا تكشفه البحوث المستفيضة ، والمناقشات المطولة .

ترك النبى ﷺ الجماعة التى ألفها وليس فيها شريعة مدونة ، ولا شكل حكومى مقرر ، ولا طائفة مختارة ، ولا هيئات مسطرة ، بل لم يعين من يقوم بالأمر من بعده . ولكنه وكلها إلى تأثير الأصول الأولية ، والمبادئ الحيوية التى بثها فيها وعاهدها على أن تعمل بها ، فانظر ماذا كان أثر ذلك :

كان أول ما فكرت فيه هذه الجماعة أن تؤلف لنفسها حكومة ، وكان أول ما شعرت به أن تستكمل وجودها كأمة . فدفعها هذا الشعور لاسترداد أطراف بلادها شمالاً وشرقاً وجنوباً من المتحكمين فيها . فوقعت فى حرب مع الرومانيين والفرس فى آن واحد . وكانت نتيجة هذه الحرب استرداد شمال بلاد العرب ، والاستيلاء على الشام ومصر وشمال إفريقيا ، واسترجاع اليمن والعراق ، وجل دولة الفرس ، كل هذا ولم يمض عليها بعد انتقال رسولها ، عشر سنين .

كانت هذه الفتوح سبباً فى احتكاك أفراد تلك الجماعة بأمم لديها علوم وصنائع وفنون ، فالتهموها التهاماً وقربوا أئمتها وأكرموهم . وما زالت هذه الجماعة سائرة على هذا النحو حتى أتى عليها قرنان ، فإذا بها زعيمة العالم كله ، فى كل ناحية من نواحى النشاط العلمى والعملى والسياسى .

هذا التطور المحير للعقل من جماعة ساذجة لم يكن لديها سطور مكتوبة ، غير آيات كتابها المقدس ، ولم يكن قد جمع حين توفى رسول الله بين دفتين ، إلى دولة لم تبلغ شأوها فى سعة الملك أمة إلى اليوم ، كانت غاصة بالعلماء والفلاسفة والمشترعين والسياسيين الخ فى مدى أقل من قرنين — يرينا من ماهية الإسلام ، وتأثير مبادئه مالا ترينا أية دراسة علمية فى الأرض .

وهل وصلت جماعة المسلمين إلى ما وصلت إليه من العلم وسعة السلطان ، إلا بنقل كتب المعارف الأجنبية إلى لغتها ، ونشر ما فيها بين خاصتها وعامتها ، وفيها ما كان فيها من الآراء العلمية ، والمذاهب الفلسفية ، والشبهات الدينية ؟ أما تناولت كل ذلك وهضمته وتمثلته واحتملت بنيتها كل ما أثمرته من حركات

فكرية ، وانقلابات أدبية ، وتطورات عقلية واجتماعية ؟ فإن كان قد أدركها الفتور بعد أكثر من ألف سنة أمضتها فى التفوق على الأمم ، فقد كان ذلك ، باعترافها ، بسبب انحرافها عن أصولها الأولية .

تلك الأصول والمبادئ الأولية التى أحدثت هذا التطور المعجز ، لا تزال حية سليمة من التحريف ، مستعدة لأن تثمر ثمراتها الطبيعية فى كل عصر بما يناسبه ، متى التفت إليها وعنى بالأخذ بها .

فلو كان للإسلام فلسفة معينة غير قابلة للتطور على مثال ما هو موجود منها فى كل الأديان المعروفة ، لبقيت جماعته الأولية على ما كانت عليه على عهد مؤسسها الأول ، ولبادت تلك الجماعة تحت تأثير الظروف المختلفة وهى فى حالة تحجر لا مخلص لها منه .

يروى المستر روم لاندروفال عن الأستاذ طه بك حسين : أنه يرتاب أشد الارتياب فى تأثير الإسلام فى نفوس الشباب تأثيراً عملياً . ولسنا نرى محلاً لهذا الارتياب بعد ما تبين للخاص والعام أن الإسلام مجموعة أصول ومبادئ خالدة ، هى المثل العليا للإيصال إلى الحسنيين مادة ومعنى . لا أنه فلسفة معينة ، أو مذهب مقرر ، يفرض على الناس فرضاً ولا يجوز لأحد أن يتخطاه إلى غيره . فإذا كانت هذه الشبيبة لا تستطيع تكوين عقائد لها فى رعاية المثل العليا ، وتحت ظلال هذه الحرية ، ففى رعاية أية فلسفة قابلة للتحجر تستطيع ذلك ؟ وإذا كانت تعجز عن تكوين معتقدات لها تحت ضوء المثل العليا ، فتحت أى ضوء تنتظر ألا تعجز إذن ؟

لم يقل أحد فى الإسلام منذ وجد إلى اليوم ، وقد مضى عليه نحو أربعة عشر قرناً : إن مذهباً بعينه يجب الأخذ به دون غيره ، أو إن ما عمله الأوائل لا يمكن أن يعمل أكمل منه . فتركت للعقول حريتها تصل إلى أرقى ما يمكن أن تصل إليه فى حدود الأصول الخالدة ، وفى كل زمان بما يناسبه ، فهل نحد بأنفسنا هذه الحرية فنتخذ لنا فلسفة ونفرضها على الناس فرضاً ؟ هل مثل هذا القول يسهل وقعه على الأسماع فى البيئات العلمية فى العصر الراهن ؟

إن الأزهر الذى يوصف ظلماً بأنه ملجأ التقاليد العتيقة والخزعبلات الشرقية ، ليس فيه رجل واحد يخالفنى فيما أذهب إليه من هذا الرأى ، الذى قد يعتبره المستر روم لاندوفال مكفراً فى رأى أقطاب القديم فى الأزهر .

كل ما فى الأزهر أنه لم يرزق مصلحاً يرقى أسلوب التعليم فيه ، فبقى خاملاً فى القرنين الأخيرين . أما وقد رزق اليوم هذا المصلح العظيم فى شخص الإمام المراغى فسيكون له شأن جلل بعد سنين قليلة . فهل بلغ المستر روم ، وهذا الإمام المجدد يسرى عليه أصول الجامعات الكبرى ، ويدخل إليه اللغات الأجنبية ، ويرسل منه طلاباً إلى أوربا – أن واحداً من أقدم رجال الأزهر يرى أن هذه الإصلاحات بدعة ؟ أليس الأزهر نفسه هو الذى طلب أن يسلم مقاليده لهذا الإمام المجدد ؟

نعم : إن شيوخنا فى الأزهر عارضوا قبل ثلاثين سنة فى إدخال أوليات العلوم الطبيعية إليه ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك باعتبار أن هذه العلوم تنافى نصوص القرآن أو تضره ، ولكن باعتبار أنها قد تصرف طلبته عن التفرغ للعلوم الدينية .

ألم يعلم المستر روم أن (محمد على) موجد مصر الحديثة ، وهو بسبيل بناء صرح العلم الطبيعى ، وإقامة مدنيته ، استنجد بالأزهر ، فأنجده بنفر من أنجب طلابه ، أرسلهم إلى أوروبا ليعبوا من مواردها ، فلما آبوا بنى على أكتافهم هذا الصرح العلمى الذى تفخر به اليوم ؟

وإنى منذ أكثر من ثلاثين سنة ، أعلنت موافقة الأصول الإسلامية لأرقى أصول الفلسفة الأوروبية ، فما وجدت من شيوخ الأزهر ، حتى القدامى منهم ، إلا تشجيعاً وإطراء ، بل كانوا هم أشد طوائف الأمة إعجاباً بما كتبت .

وقبل أن أختم هذه العجالة أسأل المستر روم : على أى أساس يؤكد أن الشبيبة المصرية تعجز عن تكوين معتقداتها ؟

أيظن أن ذلك يكون لأن مئات من الآيات القرآنية تدعوها للنظر فى الكون والكونيات ، وللتأمل فى القوى العاملة فيها ، والنواميس السائدة عليها ، دون أن تحد لها حداً تقف عنده ، أو تعين لها مجالاً لا تتعداه إلى غيره ، ناهية إياها

من التقليد الأعمى ، والجمود على الموروثات ، مؤكدة لها أنها تؤجر على ثمرة جهادها وإن أخطأت فيه ؟

إن كان لا مناص من أن يتهم المستر روم الشبيبة الإسلامية بعجز ما ، فهى تعجز ، وقد وصلت إلى هذا المستوى من العلم العصرى ، أن تتخيل أن الإسلام يصدها عن أى ترق علمى أو فلسفى ، أو لا ينير طريقها للوصول إلى أسمى عقيدة كتبت للبشر .

بقيت لنا كلمة :

يرى المستر روم لاندروفال أن الإسلام لا يصلح مقوماً للنفوس إلا بعد إحداث إصلاح عظيم فيه ، وهو لم يذكر كلمة (إصلاح) إلا لأنه يتخيل أن الإسلام كسائر الأديان يقوم على (فلسفة) مؤلفة من آراء القدماء ومذاهبهم ، وشروحهم وتأويلاتهم ، فرضت على عقول أهله فرضاً ، وحرم عليهم النظر فى أدلتها ، وفى مبلغ مناسبتها لأحوال الزمان والمكان ، وفى تعديلها كلما احتاجت إلى تعديل فى حدود الأصول الإسلامية .

ولو كان المستر روم يعلم أن الإسلام يقوم على أصول ومبادئ هى نواميس الحياة الإنسانية الكاملة التى لا تتبدل ، وأن المسلمين الأولين بنوا آراءهم ومذاهبهم فى حدودها ، وأنهم لا أقول لم يحرموا نقدها وتعديلها فحسب ، بل حرموا على الناس أن يأخذوا بها تقليداً بغير نظر ، وأن يعتبروها نهايات ليس بعدها مذهب ، قلت : لو كان المستر روم يعلم هذا ، لما ذكر كلمة (إصلاح) لأنه لا موجب له مع وجوده عنصراً رئيسياً فى تركيب هذا الدين ومعترفاً به من جميع المسلمين ، ويعدل عن كلمة إصلاح إلى كلمة (عمل) ، فنصح للمسلمين أن يعملوا بدينهم ، مذكراً إياهم بأصوله الأولية الخالدة التى تسع فى حدودها كل ما يمكن أن يتصوره العقل من تكمل مادى وأدبى دون أن يصادف السالك إليه أى حرج .

★ ★ ★

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إيضاح	٥
بين يدى الكتاب	٧
مناقشات وردود	١٣
(١) شبهات استشراقية	٣٣
لُوبُونْ وَالسيرةَ المَحمَّدِية (١)	٣٥
لُوبُونْ وَالسيرةَ المَحمَّدِية (٢)	٤١
لُوبُونْ وَالسيرةَ المَحمَّدِية (٣)	٤٧
لُوبُونْ وَالسيرةَ المَحمَّدِية (٤)	٥٣
لُوبُونْ وَالسيرةَ المَحمَّدِية (٥)	٥٩
تاريخ حياة محمد (١)	٦٧
تاريخ حياة محمد (٢)	٧٥
تاريخ حياة محمد (٣)	٨٣
ويلز ونبى الإسلام فى كتاب (مختصر تاريخ العالم)	٨٩
دحض مفتريات المستشرقين فى سيرة أبى بكر الصديق	٩٧
محمد وشرلمان	١٠٤
هرفيه وشبهات عن الإسلام (١)	١١١
هرفيه وشبهات عن الإسلام (٢)	١٢١
هرفيه وشبهات عن الإسلام (٣)	١٢٧
هرفيه وشبهات عن الإسلام (٤)	١٣٣
هرفيه وشبهات عن الإسلام (٥)	١٤١
أسياه بومان وشبهات عن الإسلام	١٤٧
شبهات عن القرآن	١٥٥

الموضوع	الصفحة

إبراهيم والقرآن الكريم ١٦٥
عن الإسلام والمسلمين (١) ١٧٣
شارل سيباسيتان ١٧٦
عن الإسلام والمسلمين (٢) ١٨٣
حالة المرأة العربية فى الحريم ١٨٧
منصب الخلافة والديموقراطية ١٩٣
(٢) **مساجلات عربية** ١٩٩
فى عالم الأدب العربى الشعوبية وأثرها فى الأدب العربى ٢٠١
ملاحظاتنا على هذه المقالة ٢٠٥
الحياة الأدبية عند العرب ٢١٣
تعليق من مدير المجلة على المقالة السابقة ٢١٩
تعقيب على السيرة النبوية ٢٢٧
ملاحظاتنا على هذا التعقيب فيما يتعلق بدعوة هرقل لقومه
إلى الإسلام وجواب النجاشى ٢٣٢
حول كتاب مناهل العرفان ومبحث ترجمة القرآن ... ٢٣٩
تعقيب على المقال السابق ٢٤٣
الفلسفة بين الوجود والفكر (١) ٢٥١
هل من فلسفة إسلامية (٢) ٢٥٧
هل من فلسفة إسلامية (٣) ٢٦٧
الفلسفة بين الوجود والفكر (٤) ٢٧٣
بين رجال الدين والفلسفة (١) ٢٨٣
الحكمة القرآنية والفلسفة اليونانية (٢) ٢٨٩
بين رجال الدين والفلسفة (٣) ٢٩٩
الحكمة القرآنية والفلسفة اليونانية (٤) ٣٠٤

الموضـوع الصفحة

المذاهب الغنوصية فى العالم الإسلامى (١) ٣١٩
الغنوصية والعلم (٢) ٣٢٣
(٣) **مناقشات عامة** ٣٢٧
لماذا هو ملحد ٣٢٩
المسيحية فى الإسلام ٣٥٥
رد شبهات على القرآن الكريم ٣٦١
مساواة النساء للرجال فى الانتخابات وعضوية البرلمان ٣٨٥
مشكلة الشبان المعلمين فى مصر ٣٩٣

★ ★ ★